محمد حاج صادق

مليانة

ووليّها سيّدي أحمد بن يوسف



ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر

الثمن 97,65 دج

مليــانــة
و وليّهـــا
سيدي أحمد بن يوسف
(دراسة خاصّة بمدينة متوسطة في الجزائر)

محمد حاج صـادق

مليـــانــة

و وليّهـــا

سيدي أحمد بن يوسف

(دراسة خاصّة بمدينة متوسطة في الجزائر)



ديوان المطبوعات الجامعية

الساحة المركزية . بن عكنون . الجزائر

© ديوان المطبوعات الجامعية : 10 - 89
Codification 4.07.1964

محتويات الكتاب

القسم الأول

القسم الثاني

القسم الثالث

الملاحق

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أقبلت ذات يوم من سنة 1524/981 بغلة آتية من قرية الخربة غرب زكّار وعلى ظهرها جثّة شيخ هامدة. فوقفت ببطحاء القُمامة العمومية على هامش المدينة وبركت. فهرع إليها الملليانيّون وأقبروا الجثّة عملا بوصية صاحبها وأقبروا بجوارها جثة البغلة التي ماتت هي الأخرى. هذا الحادث الغريب سيكون له عواقب في تطوّر مليانة من حيث الدين والثقافة والاقتصاد وبه بدأت أحدوثة سيدي أحمد بن يوسف الذي ارتبط اسمه بالتربة التي اختارها مثوى لرفاته.

لكلّ حادث تاريخي أهميّته إذا ما كانت له عواقب وهذا من جملة الأسباب الداعية إلى دراسته وهنا الى إحياء تاريخ مليانة وناحيتها قبل سنة 1524/931 وبعدها تمجيدا لماضيها وتصويراً واسِعا لحياةٍ كلّها إيمان وجهاد تستحق به الشرح والتأويل.

هذا هو الهدف الذي رمى إليه السيد الحاج الصادق بتحليل الوثائق الأثريّة والجغرافيّة والتاريخيّة والأدبيّة التي تُمكّن من إدراك ما جرى بمليانة من حوادث عبر القرون وما لذلك من اتّصال بالحالة العامة في الوطن الجزائري.

ابتداء بالتاريخ التقليدي الذي خصّه بأحسن عناية ذكر مشاهير الأعلام وأدوارهم في المجال التاريخي من بينهم يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن وعَرّوج وخير الدين بربروس وعبد القادر وبيجو ومن ورائهم الممالك

وماحدث من منافسة بين المرابطين والموحّدين أثناء القرن الحادي عشر والثالث عشر ثم الدول المغربية والتلمسانية والتونسية أثناء القرن الرابع عشر والخامس عشر ثم هجومات الاصبان على الشواطئ الجزائرية ثم نزول الأتراك ثم الاحتلال الفرنسي فالاستقلال.

إنما هذا ـ كما يرى القارئ ـ تاريخ الجزائر من خلال تاريخ مليانة لكنه ليس التاريخ وحده الذي يجب استحضاره. فمن فضل السيد الحاج الصادق أنّه أدرج فيه جميع الأشكال التي يتسم بها التاريخ الجديد أي جميع ما يتبادر لأذهاننا من تطلّع وتساؤل عن الصلة بين الاقتصاد والاجتماع وبين الدين والسياسة والأخلاق وتصوّرات الفكر الذي مازال كما كان في العهد الوسيط وكذا ظروف الحياة اليومية وفنونها إذ ذاك وبالجملة كل الفضاء وكل المحيط. وهذا كثير لكنه لا إفراط فيه لأن التحقيقات الواردة في سياق الحديث وجيزة محكمة يوردها الكاتب مهتما بايحاء الكلمة الأخيرة إلى ذهن القارئ في شأن البحث.

نلاحظ مثل هذه الصفات في القسم الثاني من الكتاب الخاصّ بوليّ مليانة وبنسله الروحي. فهنا أوّل ترجمة ضافية شافية لسيدي أحمد بن يوسف قائمة على أسانيد غنيّة جوهرها الأساسي تأليف الصبّاغ الذي زبره بعد عشرين سنة فقط من وفاة الوليّ. يجد القارئ في الترجمة أهمّ مراحل حياته العامرة طيلة سبعين سنة في خدمة الاسلام من يوم ولادته في الثلث الثاني من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي بقلعة بني راشد قرب معسكر الى يوم وفاته في نواحي مليانة. فيها أصله ودراساته ببجاية وأسفاره خلال المغرب ومواقفه ضدّ بني عبد الواد بتلمسان وعلاقته بخير الدين بربروس. فهو رجل مؤمن ارتمى بغتة إلى صدر المشهد مع أنه قبل كلّ شيء، صوفي مرابط صاحب كرامات مساهم في تجديد الروحيات في النصف الثاني من القرن التاسع وأوائل القرن العاشر بأن قدم لمعاصريه المثل بمواقفه في حقل الديانة وبأجوبته المفحمة وأقواله الموزونة في شأن القبائل والحواضر التي زارها. أقوال تناقلتها الأفواه الشعبية إلى يومنا هذا.

لقد أدرك السيد الحاج الصادق الجانب الروحي من نفسية سيدي أحمد بن يوسف وأدركه جيدا والدراسة العميقة التي قام بها تسدّ فراغا ـ لا في ماضي الأسلام الجزائري في أوائل الأزمنة الحديثة فحسب ـ بل في

ماضي مدينة لها تاريخها وحياتها الروحية. فانه أودع باتقان في النبر محاصيل تفيد طبعا وقبل كل شيء المؤرّخين وذلك بفضل ما في مصادر بحثه من وفرة ووضوح وتنوّع تمكّن من إعادة النظر من زاوية جديدة في ماضي مدينة جزائرية، ماضيها البعيد وماضيها القريب وتمكّن من إدراك ما بين الاشياء والناس من روابط وما بين الدنياويات والروحانيات من صلات. والكتاب ـ زيادة على هذا ـ يتفجر بالصور المختلفة الملوّنة بومضات الأنوار، يقدّم من حيثيات عديدة مادّة صالحة لفصل جيد في التلفزة فيكفي قلب الصفحات لتحريك الشريط في الحين. فهٰذا باختصار عمل موفق نادر يستوجب التعريف به بابتهاج وسرور.

الرشيد بن أبي شنب

المراجع باللغة العربية

ـ أ ـ

1 ـ ابن أبي زرع (أبو العباس أحمد الفاسي) : **كتاب الانيس المطرب بروض القرطاس** ط. أوبسالة 1843-1846 ـ ط. حجرية فاس 1885/1303.

2 ـ ابن بطّوطة (أبو محمد عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي :) **رحلة أي تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** ـ ط. الخيرية ـ مصر 1904/1322.

3 ـ ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي النصيبي من القرن 4 هـ ـ 10 م) : **كتاب المسالك والممالك** أو **كتاب صورة الأرض** ط. الحياة ـ بيروت 1962.

4 ـ ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمان بن محمد) : **كتاب العبر** ج 6 و 7 ـ ط. بيروت 1967-1968.

5 ـ ابن محشرة (أبو الفضل جعفر بن محمد) : **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار** ط. فون كريمر ـ فينّا 1852 و ط. عبد الحميد زغلول ـ مصر 1958.

6 ـ ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد المليتي المديوني) : **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان** ـ ط. الجزائر 1908/1326.

7 ـ أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي : **الثغر الجماني في**

ابتسام الثغر الوهراني ـ تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي ط. البعث ـ قسنطينة ـ الجزائر 1973.

8 ـ الادريسي (أبو عبد الله محمد بن محمد... الشريف) : **أوبوس جيوغرافيكم** ط. Opus Géographicum ط. ـ نيابولي ـ رومة، 1971-1978.

- ب -

9 ـ البكري (أبو عبيد) : **كتاب المُغرب في ذكر بلاد افريقية والمَغرب** ط. باريس 1965.

10 ـ بلحميسي مولاي : مدينة مليانه عبر العصور. في مجلة الاصالة ـ الجزائر ماي ويونيو 1972.

- ث -

11 ـ **الثقافة** (مجلة) عدد خاصّ بالأمير عبد القادر. الجزائر 1403/1983.

- ح -

12 ـ الحفناوي (أبو القاسم محمد) : **تعريف الخلف برجال السلف** ط. الجزائر 1324/1906. باختصار : **التعريف**.

13 ـ حمدان بن عثمان خوجة : **المرآة** ط. الجزائر 1982.

- د -

14 ـ دبّوز (محمد علي) : **تاريخ المغرب الكبير** ج 3، القاهرة 1383/1963.

- ذ -

15 ـ **الذخيرة السنية في الدولة المرينية** ط. محمد بن ابي شنب ـ الجزائر 1921.

- ر -

16 ـ الراشدي (انظر أحمد بن محمد بن سحنون أعلاه).

- س -

17 ـ سعد الله (أبو القاسم) : **تاريخ الجزائر الثقافي**، ج 1 و 2 ـ الجزائر 1981 باختصار : **تاريخ**.

- ع -

18 ـ العبدري (أبو عبد الله محمد بن محمد الحيحي) : **الرحلة المغربية** ط. محمد الفاسي ـ الرباط 1968.

- غ -

19 ـ الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد) : **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية** ط. محمد بن أبي شنب ـ الجزائر 1328/1910 و ط. بيروت 1389/1969.

- م -

20 ـ محمد بن الأمير عبد القادر الجزائري : **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر** ط. ممدوح حقي بيروت 1384/1964 باختصار : **تحفة**.

21 ـ محمد بن يوسف الزياني : **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران** ط. المهدي البوعبدلي ـ الجزائر 1399/1979 باختصار : **دليل**.

22 ـ المدني (أحمد توفيق) : **محمد عثمان باشا داي الجزائر** 1776-1791 ـ

ط . الجزائر 1937/1356 .

- ن -

23 ـ نور الدين (عبد القادر) : **صفحات في تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها الى انتهاء العهد التركي** ـ قسنطينة ـ البعث 1965 ـ باختصار : **صفحات**.

- و -

24 ـ الورثيلاني (الحسين بن محمد) : **نُزهة الانظار في فضل علم التاريخ والأخبار** ط. محمد بن أبي شنب ـ الجزائر 1908 .

- ي -

25 ـ اليعقوبي (أحمد بن يعقوب بن جعفر) : **كتاب البلدان** ـ ليدن 1892 .

26 ـ ياقوت (شهاب الدين أبو عبد الله الحَمَوي) : مُعجَم البلدان ج 7 ـ مصر 1907-1906 .

المراجع باللغة الفرنسية
OUVRAGES CONSULTES EN LANGUE FRANÇAISE

Autzan (J.), *Milianah,* épisode des guerres d'Afrique, Paris, 1858.

Azan (Colonel Paul), *L'émir Abd-el-Kader, 1808-1883, du fanatisme musulman au patriotisme français, Paris,* 1925.

Békri (Chikh), *Le Kharédjisme berbère,* in Annales de l'Istitut d'Etudes Orientales, Alger, 1957.

Bérard (Victor), *Poèmes algériens et récits légendaires traduits ou imités en vers...,* Paris, Alger, Constantine, 1858.

Berque (Jacques), *L'intérieur du Maghreb, XVème siècles,* Paris, 1978.

Bodin (Marcel), *Notes et questions sur Sidi Ahmed-ben-Yousef,* in Revue Africaine, N° 66, 1925, pp. 123-189.

Carcopino (Jérôme), *L'insurrection africaine de 253 d'après une inscription récemment découverte,* in Revue Africaine, 1919, p. 364.

Castellane (Victor, Comte de), *Campagnes d'Afrique (1835-1848),* Paris, 1898, 2 vol.

Certeux et Carnoy, *L'Algérie traditionnelle,* I, Paris, Alger, 1884.

Clauzel (Comte Bertrand), *Correspondance du Maréchal Clauzel (1835-1837)* publiée par G. Esquer, Paris, Larose, 1949-50, 2 vol.

Cockenpot (Ch.), *Le traité Desmichels,* Paris, 1924.

Cours, *L'occupation marocaine de Tlemcen* in Revue Africaine, 1er trim. 1908, p. 39 et suiv.

Courtois (Christian), *Les Vandales et l'Afrique,* Paris, 1955, pp. 114 et 120.

Daudet (Alphonse), *Lettres de mon moulin,* éd. Rencontre, Lausanne, s.d. *Tartarin de Tarascon,* Paris, Flammarion, 1966.

Daumas, *Correspondance du Capitaine Daumas,* Consul à Mascara, éd. par G.

Yver, Alger, 1912 (Collection des documents inédits sur l'histoire de l'Algérie après 1830).

Damrémont, *Correspondance du Général Damrémont,* Gouverneur Général des possessions françaises dans le nord de l'Afrique, éditée par G. Yver, Paris, Champion, 1972.

Demmernghem (Emile), *Sidi Ahmed ben Youssef, patron de Miliana,* dans Documents Algériens, Alger, 1954, pp. 141-146.

Drouet d'Erlon, *Correspondance du Général Drouet d'Erlon* - 1834-1845) publiée par G. Esquer, Paris, Champion, 1926.

Emerit (Marcel), *Mémoires d'Ahmed bey,* in Revue Africaine, XCII, 1er et 2ème trimestre 1949, pp. 65-125.

L'Algérie à l'époque d'Abd-el-Kader, Paris, Larose, 1951.

Encyclopédie de l'Islâm, 1ère édition, art. Miliana, auteur non cité, III, 565, Leyde-Paris, 1936, en abrégé E.I.

Fagnan, *L'Afrique septentrionale au XIIème s. de J.C.,* Constantine, 1900.

Gonzalès (Joachim), *Essai chronologique sur les musulmans célèbres de la ville d'Alger,* Alger, 1887, p. 8 et suiv.

Haedo, *Epitomae de Los Reyes de Arjel,* trad. fr. de Grammont, in R.A., 1880, p. 230 et suiv.

Julien (Ch. A.) *Histoire de l'Algérie comtemporaine,* I, Paris, 1979.

Kateb Yacine, *Abdelkader et l'indépendance algérienne,* Alger S.N.E.D., 1983.

Lacheraf (Mostefa), *L'Algérie nation et société,* 2ème éd. S.N.E.D., Alger 1978.

Lahaie (Henri), *Miliana, la Reine du Zaccar, Montpellier 1985.*

Lebrun (Dr Aquilan), Miliana, in Moniteur Algérien, 1841 et 1842.

Léon l'Africain (al-Ḥasan b. Muḥ. al-wazzân az-zayyâtî), *Description de l'Afrique,* trad. Epaulard, Paris, 1952.

Leschi (Louis), *Etude épigraphique d'archéologie et d'histoire africaine, Paris, 1957.*

Levi-Provençal, *Les historiens des Chorfas,* Paris, 1922.

Marçais (Georges), *La Berbérie au XIème s. d'après al-Ya*qûbî, in Revue Africaine, 1941, pp. 40-61.

Modot (Jean) *Algérie, les guides bleus,* Paris, Hachette, 1977, pp. 246-247,

Moniteur Algérien (journal officiel de la colonie), 1836, 1841-42.

Rinn (Louis), *Le royaume d'Alger sous le dernier dey,* Alger 1900.

Rousset (Camille), *L'Algérie de 1830 à 1840,* Paris, Plon, 1887.

Rovigo, *Correspondance du Duc de Rovigo,* publiée par G. Esquer, Paris, Champion, Alger, Jourdan, 1914-1924, 4 vol. (Collection des documents inédits sur l'histoire de l'Algérie après 1830).

Salama (Pierre), *Les voies romaines de l'Afrique du Nord,* Alger, 1951, pp. 129 et 140.

Trumelet (Colonel), *Blida,* Alger, 1887.

Zakariyya (Mufdî), *L'hymne des hymnes ou l'Iliade algérienne,* in Actes du 6e Séminaire pour la connaissance de la pensée islamique (24 Juillet - 10 Août 1972), Constantine, I, 58 et suiv.

القسم الأول

توضيح لكلمة وليّ في العنوان

1 ـ العوامّ في الجزائر كانـوا يستعملون في دارجتهم لفظتي «وليّ ج. أولياء» ينطقون بهما «والي ج. وَلْية» ويفهمون منهما «مرابط ج مرابطين» لا غير.

مع أن مادّة «و ل ي» في العربية غنيّة بالمشتقّات والمعاني المختلفة. فقد خصّها ابن منظور في لسان **العرب** (ط. بيروت) بخمس عشرة صفحة لعرض ما فيها من معاني قديمة. وقد ذكر ان «الوالي والمولى واحد في كلام العرب بمعنى المتولّي لأمور الناس. . .»

أما لفظتا «وال ٍج. ولاة» في الاصطلاح الاداري فكانتا مجهولتَيْن تماما عند العوامّ الذين كانوا يعرفون «عامل ج. عمال» وقـد تغلّب على لسانهم «بريفي» Préfet الفرنسية واذا بالحكومة الجزائرية غداة الاستقلال تستحدث «وال ٍ ج. ولاة» ومعهما «ولاية» عملا بسياسة «التعريب». وكأنّ العوامّ قـد استغربوا هذا التجديد في أوّل الأمر ثم ألفوه شيئا فشيئـا كما ألفـوا «رئيس الدائرة» عوض «سو بريفي» Sous-préfet و«الدرك الوطني» عِوَض «جادارمية» gendarmerie وغيرها. . .

هذا وفي عهد الخلافة الاسلامية كان الوالي موظّفا ساميا مكلّفا بادارة سائر المغرب من أدناه إلى أقصاه وله تحت أمره أعوان يتصرّفون في «عمالات»

بلقب «عامل».

شتّان إذن بين «والٍ» في الماضي و«والٍ» في الحاضر الجزائري. فوالي أمّ البواقي ليس كوالي المغرب الكبير.

هذا تحقيق معنى العنوان **«مليانة ووليّها سيدي أحمد بن يوسف»** فليست مليانة «ولاية» ولا يرجى لها في القريب الارتقاء الى هذه الدرجة الادارية ولاحاجة الى القول بأن سيّدي أحمد بن يوسف لم يكن واليا بمعنى «بريفي» وإنما هو في نظر المليانيين وغيرهم وليّ مليانة ومولاها أي حاميها ببركته وبما منحه الله من الوسائل الروحية.

مليانة قبل الفتح العربي

2 ـ تقع مليانة على بعد 130 كم. غرب عاصمة الجزائر وعلى 9 كم. شمال الجادة الوطنية رقم 4 والسكة الحديدية الرابطة بين الجزائر ووهران. وهي على بسيط عظيم من الرخام المثقب جوانبه أوعار يكتنفها شرقا وادي بزّيط وغربا وادي الريحان وهي تشرف من علٍ على سهول شَلَف بمنظر واسع في الجنوب على الأطلس التلّي وبمنظر أوسع في الجنوب الغربي على سلسلة وانشريس[1].

3 ـ عن أصلها القديم تذكر الآداب الرومانية مؤيدة بالحفريات التي أجريت أثناء القرن 19/13 مدينتَيْن هما «منليانة Manliana وزوقبار Zucchabar.

في دليل المسافر لأنتونا Itinéraire d'Autonnin ورد اسم مِلّيانة Malliana وفي جغرافية بطلميوس Géographie de Ptolémée ورد اسم منليانة Manliana. وفي سجل المحاضرة الاسقفية Conférence épiscopale بقرطاج عام 484 ورد اسم أسقف ملليانة هو فكتور Victor (أي منصور). وقد درس بربروجر Berbrugger كتابة منقوشة على قبر اكتشفت قرب خميس مليانة سنة 1849 تعني فتاة اسمها منليا Manliae بنت لوكسيوس Luccius من أثرياء وقته صاحب ملك واسع[2].

هذه الأسماء المتشابهة توحي بأصل لاتيني لاسم مليانة لكن هذا الاسم يطلق الآن أيضا على فرع من قبيلة بربرية في ناحية بني هندل جنوب الأصنام

وعلى قصر بربري من قصور توات (على قول روني باسي René Basset في دراسته لزناتيّة وانشريس والمغرب الأوسط ـ باريس 1895 ص 1 و 2). وعلى هذا اسم مليانة من البربرية دون أن نعرف له معنى.

4 ـ وأما زوكبار (أوسوقبار) فقد ورد اسمها في عدّة صيغ. ففي صخرة كانت علامة للأميال تحدّ بين زوكبار وغيرها من حواضر مستعمرة اسمها مستعمرة يوليو الأكبر Col[oniae] Jul[ia] Aug[ustae] وذلك عند الشروع في الأعمال لمدّ القنطرة بين عريب وعين الدفلى على الشط الأيمن من نهر شلف. وقيل ان هذه المستعمرة كانت حوالي سنة 27 وسنة 25 قبل الميلاد في الوقت الذي استولى فيه يوبا الثاني Juba II على موريتانيا القيصرية وذكر من جهته بلين القديم Pline l'Ancien (المولود سنة 23 والمتوفى سنة 79 م.) في تأليفه **«كتاب الطبيعيات»** اسم سوقبار Succabar بينما ذكر بطلميوس المذكور أعلاه زوكبار Zucchabar. وكانَ باب من أبواب شرشال يسمّى باب زوكبار Zucchabar.

وذكر أميا مرسلان Ammien Marcellin سوقَبَريتم Succabaritum. وفي سجل محاضرة قرطاج في سنة 411 وسنة 484 ورد ذكر أساقفة زوكباريتانوس Zuccabaritanus.

5 ـ الظاهر أن ماليانة أو منليانة اسم مستعمرة أي ضيعة كبيرة في حوز زوكبار التي هي حاضرة. غير أن زوكبار أو سوقبار عَلَم لم يسمع به الجغرافيون والرحالة لا من عرب ولا من أوربيين وهم الذين سجلوا اسم مليانة ابتداء من القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي في التآليف التي وصلتنا كما سنراه بعد هذا.

وقيل إن زوكبار أُبيدت أثناء القرن السادس الميلادي بسبب الفتن والثورات. فضاع اسمها معها.

واختلف في موقعها بين خمسة أماكن على الأقل:

1) مزار سيدي عبد القادر المشرف على خميس مليانة.
2) قرية سيدي الاخضر الحاليّة (لافارنْد) Lavarande.
3) خميس مليانة.
4) خربة عمورة.

5) وأخيراً مليانة.
والنصوص القديمة ومعطيات الحفريات ترجّح موقعها في مليانة.

من المحتمل أنها، بفضل هذا الموقع الأخير بما فيه من أوعار، قامت بدور الحماية للناحية. والمعروف ان ثيودوز Théodose عندما اضطر على مغادرة القيصرية (شرشال) لجأ الى سوقبار بحجر جبل فرَنْسيلنس Francilans (زكّار) لمقاومة الثائر البربري فيرموس Firmus. وبما أن زوكبار أوسوقبار لا علاقة له باللغة اللاتينية فالغالب أنه أطلِق على حاضرة قبل الاحتلال الروماني وقد حاول بعضهم البحث عن اشتقاق هذا الاسم من الليبيّة البربـريّة ومن الفينيقية وقيل إن زوك وسوق هو سوق في السامية واب اختزال أبدّير من أب وأدّر وهو اسم إله من آلهة البربر المشركين قبل الاسلام.

مليانة حسب الجغرافيين والرحّالة العرب والاوربيين

6 ـ الجغرافيون العرب الأوّلون كابن خُرَّداذبه وابن الفقيه وابن رسْتِه وثلاثتهم من القرن الثالث الهجري ـ لا يقولون شيئا عن مليانة.

واليعقوبي أوّل من ذكر في سنة 891/278 بمكانها محلاّ اسمه مَدْكرة وُلِد به محمد بن سليمان بن عبد الله وهو ابن أخي ادريس الأول الأكبر. وقد تفرّد اليعقوبي بذكر هذا العَلَم وأضاف الى هذا الخبر أن الناحية كلّها الى سوق ابراهيم[3] آهلة بسلالة هذا الشريف وما أكثرهم. فالظاهر أن مَدْكرة اسم قديم بربري لمليانة قبل إقبال العرب الى المغرب الأوسط. فهل هناك علاقة بين مَدْكرة ومطغرة اسم القبيلة البربرية ؟[4].

7 ـ وابن حوقل أول من سجل اسم مليانـة سنة 977/367 دون أن يحقّق حركة الميم وقال إن مليانة على مرحلة من الخضراء (عين الدفلى الحاليّة) وأنّها أزليّة وعلى هذا إنّها ابنة زُكّبار، «لها أرحية على نهرها وسقي كثير من واديها». (ابن حوقل ص 89).

8 ـ أمّا البكري المتوفّى سنة 1094/487 فيقول إنها «روميّة فيها آثار وأشجار وأنهار تطحن عليها الأرحاء جدّدها زيري بن مناد وأسكنها ابنه بلجّين (كذا)

وهي عامرة... مشرفة على جميع ذلك الفحص الـذي فيه بنـو واريفن[5] وغيرهم من القبائل... لها نهر وآبار سائغة وسوق نافق...

ـ والادريسي ـ بعد البكري بقرن ـ يؤيد هذه المعلومات دون أن يزيد عليها شيئا ذا بال[6]

9 ـ يضيف ابن محشرة في موضع من **الاستبصار** حوالي 1191/587 ما يلي: «مليانة قريبة من أشير وهي عظيمة قديمة روميّة جدّدها زيري بن مناد وبها آثار... حصينة في سفح جبل يسمى زكّار شعاره كلّه ريحان[7] وينبعث منه عين خرّارة عظيمة تطحن عليها الأرحية لقوتها ولهذه المدينة مياه سائحة وأنهار وبساتين فيها جميع الفواكه وهي من أخصب بلاد إفريقية وأرخصها أسعاراً وهي مشرفة على فحوص واسعة وقرى كثيرة عامرة ومزارع واسعة وحولها قبائل كثيرة من البربر ويشقّ تلك الفحوص نهر شَلَف...

10 ـ جاء الرحّالة العبدري في ربيع الأول سنة 1289/688 من تلمسان إلى مليانة في طريقه الى مكّة فقيّد عنها: «البلدة الحصينة مليانة وهي مدينة مجموعة متحضرة، أشرفت من كثب على وادي شلف واستشرفت نسيم طرفها من شرف، في روضة جمّة الأزهار والطرف، فرعت من جبل حمى حماها أن يرام، وشرعت في أصل نهر يشفي المقيم من الهيام، شافٍ منظرا وراقٍ مخبرا وشفي الظمأ موردا ومصدرا. يشتهي الناظر إليه وهو ريّان الشروع، ويقول: «لو رُش به لأفاق المصروع، كأنّ حصباءه جمان والماء من رقّته دموع. وبها جامع مليح عجيب، يدعو الشوق من رآه فيجيب، ولكن الزمان قد عوّضه من حلى عطلا، وأداله خطلا، وأبدل هالته السهى من تلك الأقمار. وكساه بعد الحِبرَ الأطمار وأحل جلاله بعد الأنس بأنسها وحشة العمار، فلو صرحت في الجوى بالجواب، وأفصحت عن وقوع النوى بالنـوائب النواب، لأنشدت باستعجال وقالت بارتجال [من الطويل]:

«زمان لدى عهد الشبيبة قد عسى ... أعلّل فيـه النفس علّي أو عسـا
لعلّ ربوعا من حلاها عواريا ... تعود لها تلك المفاخر ملبسا
لعلّ نجوما كنت هالة بدرها ... ستجلو ظلاما حل أفقي فألبسا
لعلّ انتظام الشمل يرجع ثانيا ... ويعطف بالاحسان دهر بنا أسا
زماني رماني بالنوى من أحبة ... لبعدهم عاد الأنيس معبسا

نأى عمر الحبر الهمام بحاضري ... فكيف ألاقي من زماني تأنسا
وقد حظيت أغمات منه بماجد ... تدرع من غر الفضائل ملبسا
لقد هنت حتى شط عني مزاره ... ونالت به أغمات مجدا مؤسسا
وكنت مقيلا للهداة تؤمه ... فصرت لأخلاط الغواة معرسا
وكنت لباغي الجود والعلم ملتقى ... فان شئت مقراة وان شئت مدرسا
وكم كنت للضرغام والظبي مألفا ... أنيسك إن أبصرت خيسا ومكنسا
أراغم ريب الدهر منه بماجد ... إذا ضاق خطب أو تفاقم نفسها
فجللت عن تلك الجلالة جلة ... وعوضت من تلك الأهلة خندسا
فها أنا أشدو إن نطقت تمثلا ... وليل همومي قد دجاني وعسعسا
وبدلت قرحا داميا بعد صحة ... لعل منايانا تحولن أبؤسا

(العبدري ص 24-25)

11 ـ في سنة 1324/725، مرّ بها رحّالة عربي ثان هو ابن بطّوطة الشهير في بداية رحلته الطويلة خلال إفريقية وآسيا وكان في عمره اثنان وعشرون سنة. فوصل إليها في أيام القيظ ومعه رفيقان اصلهما من تونس لحقهما بها. فأقام بها عشراً بسبب مرضٍ أصاب التونسيَّيْن ثم استأنف السير وكان قد اشتدّ المرض بواحد من رَفيقَيْه. فنزل ببعض المياه[8] على مسافة منهما حيث قضى ثلاثا فتوفي المريض ضحى اليوم الرابع وأقبر بمليانة وواصل هو سيره مع رفقة من تجار تونس الى مدينة الجزائر. غير أنه لم يخلّف لنا وصفا للمدينة ولا لضاحيتها (ابن بطّوطة ص 6).

12 ـ بنصف قرن تقريبا بعد ابن بطّوطة أي في سنة 1372/774 بالضبط حلّ بمليانة ابن خلدون نفسه عائدا بأهله رويدا رويدا من بسكرة الى فاس وكان قد بعثه الى بسكرة السلطان أبو فارس عبد العزيز بن أبي الحسن المريني (1365/767-1372/774) في مهمّة. وكان يومئذ على مليانة علي بن حسّون بن أبي علي النياطي من قوّاد السلطان وموالي بيته. فلقي ابنَ خلدون هناك خبرُ وفاة أبي فارس فبادر الى مواصلة السير صحبة علي بن حسّون ونزلا بأحياء العطّاف على أولاد يعقوب بن موسى ثم آرتحلا الى المغرب على طريق الصحراء فتعرّض لهما الأعراب بإغراء أبي حمّو سلطان تِلمسان. فنجا من نجا على الخيل وآنتُهب كلّ ما كان معهما. . . وبقي ابن خلدون ضاحيا عاريا يومين في القفر الى أنْ خلص الى العمران. . . وسار الى فاس. فاقتصر في شأن مليانة

على أن كتب بأنها «حاضِرة من أعمال مغراوة بنيِ ورسيفن القاطنين بسهول شَلَف وأنّ آسمها بكسر الميم وسكون اللام وأن بُلُكيّن (كذا) خطّط الجزائر ومليانة ولَمْدية»، مخالفا في هذه الجزئية أبا عبيد البكري وموافقًا في الحركات لما ورد في معجم البلدان لياقوت (ابن خلدون : **التعريف** ص 29 تعليق 6 و ص 216-218 ـ **العبر** 7 ص 1027).

13 ـ بعد ابن خلدون مرّ بمليانة الحسن الوزّان الشهير بلقب **الأسد الافريقي** (Léon l'Africain) (1495/901-1552/959) وقيّد بعض التفاصيل عن صنّاعها ونسّاجيها وعيونها الخرّارة وبساتينها التي يغلب فيها الجوز وأسوارها وموقعها في سفح جبل فيُشبِّهه بموقع نارفي Narvi المدينة الايطالية في مقاطعة بيرون Péronne، انظر ترجمة إيبولاّر الفرنسية Epaulard ص 345 تعليق 118. وفي نصّه بالحروف اللاتينية اسمها مانيانة Magnana بينما يرسمه مرمول Marmol مِليانة Miliana وشاو Shaw مَليانة Maliana (انظر مرمول : **وصف افريقيا** ج 2 ص 97-396)[9].

مليانة حسب الأخباريّين العرب

14 ـ هذه تحقيقات من ناحية الجغرافية الطبيعيّة والبشريّة قدّمها لنا الجغرافيون والرحّالة خِلال القرون عن مليانة وهي جديرة بالمقارنة بينها وبين الأخبار التي سجّلها المؤرّخون وبمقابلتها بما نشاهده اليوم ولكن بعد بعض الملاحظات التي تلقي شيئا من الضوء على الحقائق وهي :

أ) إن جبل زكّار من سلسلة الظهرة الممتدّة من متّيجة الى مستغانم وإن الظهرة مازالت الى الآن آهلة بالبربر المستقرّين الذين نسمّيهم «القبائل» وهم ريغة وبني مناصر وبني فرْح وسُماتة وزتيمة وبني حوّاء وبني راشد وغيرهم والغالب أنهم من صنهاجة ومازالوا الى الآن يتكلّمون بالبربرية أكثر من العربية.

ب) سهل شلف الممتدّ في جنوب الظهرة آهل هو الآخر بالبربر وهم مطماطة وبني زُقزُق والوزاغرة وبني بودُوّان ومغراوة وسنجاس[10] وغيرهم كلامهم بالعربية الدارجة وكانوا الى عهد قريب نصف رُحل «يربّعون» بأنعامهم وأصلهم بدون شكّ من زناتة وتعرّبوا بمجاورة العرب : بني أحمد والحَشم

وأهل الوادي وعريب وبني فاطم والعطّاف الذين يتسلّلون غالبا من أعراب زُغْبة (وهم فرع هامّ من بني هلال) كلامهم كلّهم بالعربية الدارجة طبعا وكانوا كذلك الى عهد قريب نصف رُحّل.

ج) ليس الآن لا في مليانة ولا في نواحيها من يدّعون الشرف والانتساب إلى محمد بن سليمان الذي ذكره اليعقوبي.

د) مليانة في منتصف المسافة بين مرّاكُش وتونس على خطّ طول باريس.

هذه الملاحظات الأربع تساعد على فهم ماضي مليانة وحاضرها.

15 ـ من سنة 647/27 الى سنة 741/124 كانت كسائر مدن المغرب من ملك بني أمية بدمشق وفي عملٍ سرعان ما انشقّ وخرج سكّانه الأصليّون على الدولة بعد أن اعتنقوا مذهبَ الخوارج.

ولما سقطت دولة بني أمية وخلفتها دولة بني العبّاس انقسم المغرب لأكثر من قرن الى ثلاث إيالات مستقلّة أوشبه مستقلّة :

1) في شرقه إمارة الأغالبة الذين كانوا يمارسون السلطة بموافقة بني العباس وكانت عاصمتهم القيروان وإمارتهم على إفريقية أي على تونس الحاليّة وجزء من شرق الجزائر الحالية.

2) في وسطه من سنة 776/160 إلى سنة 894/281 كان لبني رُستم نفوذ ديني ـ إن لم يكن سياسيّا ـ على معتنقي مذهب الاباضية في جبل أوراس وجنوب إفريقيا وجبل نفوسة وكانت لهم السيطرة التامّة على سكّان الجزائر من متّيجة إلى تلمسان وكانت عاصمتهم تاهرت.

3) من سنة 789/172 إلى سنة 985/375 كان الأدارسة في غربه يتحكّمون من فاس في سكّان المغرب الحالي وفي سكّان جزء غربي من الجزائر الحاليّة.

ولم يكن بين تلك الايالات الثلاث حدود بالمعنى العصري لهذه اللفظة وإنما كان بينها تخوم لا محلّ بها للشرطة ولا للديوانة. فكان المسلم في دار الاسلام غربا وشرقا يشعر دائما بنفسه في وطنه سواء كان سنّيّا أو غير سنّيّ.

فالأفكار العصريّة في معنى الجنسيّة كانت معدومة تماما في ذهنه والحقيقة الوحيدة كانت وقتئذ دار الاسلام لاغير.
من كان إذن يتصرّف في مليانة إذ ذاك ؟

16 ـ ابتداء من سنة 776/160 الى سنة 892/281 كانت مليانة داخلة في «الجمهورية الاسلامية» الرستميّة[11] إذ كان الاباضيّة متسامحين مع من لا يشاركهم في العقيدة من يهود ونصارى ومسلمين سنّيين وشيعيّين غير أنهم ابتداء من إمامة أبي اليقظان (871/258-855/241) صار أتباعهم يقلّون شيئا فشيئا ويتمسكون بخصومهم في السياسة والدين[12].

فاليعقوبي صريح إذ قال في جغرافيته التي كتبها في سنة 891/278 أي بقليل بعد إمامة أبي اليقظان إن مليانة من إيالة الأدارسة وليس هناك ما يدعو إلى رفض شهادته[13] ولكن بعد انهيار دولة الادارسة أصبحت مليانة تحت نفوذ آخر.

وكانت ناحيتها كغيرها من نواحي المغرب الأوسط آهلة بالبربر من زناتة الرُّحَّل وشبه الرُّحَّل في السهول والنجود العليا ومن صنهاجة المستقرّين في الجبال وعلى شاطئ البحر.

17 ـ والمعروف أن سيّد صنهاجة في أواخر القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي كان مناد بن منقوش بن صنهاج[14] التابع للأغالبة ولمّا انتهى ملكهم اتّصل ابنه وخليفته زيري ببني عُبَيد أصحاب المهديّة وآل به الأمر إلى محاربة مغراوة وقهرهم لأن أكثرهم كانوا من زناتة وكان سيدهم محمد بن الخير بن محمد بن خزر التابع لبني أُمَيّة. فانتصر زيري في عدّة معارك وحصّل من القائم (946/334-934/322) على الإذن بتشييد أشير واتخاذها عاصمة. ثمّ إنه شرع في تجديد الجزائر ولَمْدية ومليانة وكان آبنه الذي خلفه بُلُكّين يسكن بمليانة فأصبح بعد جلاء بني عُبَيد إلى مصر سيّداً لا ينافسه منافس في إفريقية والمغرب الأوسط وشرع في السعي لأجل الاستقلال الذي تحقق عام 1049/441 في عهد خلفه. وهكذا كان من حظ مليانة أن كانت عاصمة سياسية لأكبر جزء من المغرب عندما كان بُلُكّين مقيما بها.

18 ـ لكن ملك بني زيري لم يبق تامّا على حاله. فقد اقتُطِعت منه إمارة مستقلة لبني عمّهم الحمّاديّين أصحاب قلعة بني حمّاد في أوّل أمرهم ثم

أصحاب بجاية الناصريّة فآشتملت إمارتهم على مليانة ونواحيها فأسندوا إدارتها في وقت ما إلى كبّاب أخي الناصر بن علاء الناس (علنّاس) (1089/481-1062/454).

19 ـ لمّا زحف بنو هِلال من الشرق وصنهاجة المرابطون الرّحّل من الغرب على المغرب الأوسط آنهارت دولة بني حمّاد سنة 1163/558 وآنهارت دولة بني زيري سنة 1171/566.

20 ـ فآستولى يوسف بن تاشفين (1107/500-1161/453) سيّد المرابطين آبتداء من سنة 1081/473 على كلّ ما في غرب جزائر بني مزغنّة بما فيه لَمْدية ومليانة غير أن المصادر صامتة عن مصير مليانة أثناء ثلثي قرن من حكم المرابطين.

21 ـ ولمّا انتهى حكمهم أصبحت في حوزة المصامدة من سنة 1152/547 الى نهاية قرن في عهد عبد المؤمن (1163/558-1128/522) وأبنائه فهاجمها بنو غانية[15] مرّتين الأولى في سنة 1185/581 بقيادة علي الذي استولى عليها وأسند إدارتها لشخص اسمه بدر أو يدّر بن عائشة. فطرده المليانيّون ثم ألقوا القبض عليه وقتلوه في عهد يعقوب المنصور (1199/595-1184/580) وبإيعازه ـ والثانية في سنة 1220/628 بقيادة يحيى الذي هزم منديل بن عبد الرحمان شيخ مغراوة هزيمة شنيعة بواجَر[16].

وكانت السيادة وقتئذ لمغراوة في الناحية. فشنّوا الحرب من جديد على بني غانية وقتلوا يحيى في معركة ثانية سنة 1237/633 على شاطئ شَلَف قرب مليانة[17].

22 ـ بنو توجين وهم فرع آخر من زناتة كانت مواطنهم الى ذلك الوقت في جنوب وانشريس على شاطئ نهر واصل (شَلَف الأعلى). فزحفوا على مواطن بني منديل وهم فرع من مغراوة كان لهم مُلْك يشتمل على جبل وانشريس وعلى لَمْدية والظهرة بما فيها تَنَس وبَرشك وشرشال وعلى متّيجة ومليانة. فانتزعوا منهم هذا الملك و«أقاموا به ملَكا بدويا لم يفارقوا فيه الظعن والخيام وأقاموا الدعوة الحفصية ضدّ بني مرين (انظر **العبر** ج 7 ص 134).

23 ـ عند ذلك شجّع أبو يوسف يعقوب المنصور المريني

(1286/685-1259/657) رجلا من مليانة كان «كبيرَ وقته علما ودينا ورواية، عالي
سند في الحديث، رحل إليه الأعلام وأخذ عنه الأيمّة وأوفت به الشهرة على
ايا السيادة فانتهت اليه رياسة بلده، اسمه أبو العباس أحمد المليانيّ» حرّضه
منصور على مقاومة شيوخ بني توجين ومن ورائهم بني حَفْص. فآستمسك
ـ بالتؤدة والحذر وآتّقى غضب بني توجين وبني حَفص».

ولكن كان له آبن اسمه أبو علي «نشأ في جو هذه العناية وكان جموحا
رياسة طموحا للاستبداد. . . فلمّا هلك أبوه جرى في شأو رياسته طلقا. ثم
ى ما بين مغراوة وبني عبد الواد من الفتنة فحدّثته نفسه بالاستبداد ببلده. . .
نطع الدعاء للخليفة المستَنْصِر سنة 1261/659 وبلغ الخبر الى تونس». فكان
ن ردّ فعل بني حفص حِصار مليانة يوم عيد الفِطْر وفرار أبي علي[18] وعودة
حمّد بن منديل إليها.

24 ـ وهكذا استعادت مغراوة نفوذها على الناحية تارة بتأييد بني حفص
أخرى بتأييد بني مرين وثالثة بتأييد بني عبد الواد حسب سياسة ملتوية ترجّح
فّة الميزان نحو هذا أو ذاك إلى أن تمكّن بنو عبد الواد ابتداء من سنة 1308/707
ن فرض سيطرتهم على جملة المغرب الأوسط أثناء النصف الأول من القرن
ثامن الهجري الرابع عشر الميلادي. وكان من سياستهم غالبا إسناد إدارة
لحواضر الهامّة الى أمير من أبناء الملوك وهكذا كان وليّ العهد المنتصر بن
بي حمّو الثاني واليا على مليانة[19].

لكن الناحية تورّطت كغيرها من باقي المغرب أثناء النصف الثاني من
لك القرن في آضطراب وفوضى عارمة أبطالها أمراء تلمسان أبو حمّو الثاني
آبنه أبو تاشفين وابن عمّه أبو زيان من جهة وسلطان المغرب عبد العزيز الذي
سبق ذكره من جهة أخرى[20].

فتأذّى السكّان من ذلك لاسيما من الضرائب الباهظة وثاروا هنا وهناك
لائلين تارة الى هذا وتارة الى ذاك من الأمراء المتحاربين وكانت الساحة العامة
في مليانة مسرحا غير ما مرّة لاعدام كثير من الأشخاص.



أحمد باي قسنطينة Aḥmad bey de Constantine

مليانة في عهد الباشاوات والدايات

25 ـ طالت هذه الفوضى الى أوائل القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي إلى أن جاء الأتراك الى المغرب الأوسط. ففي سنة 1516/923 آستولى بابا عروج أكبر الاخوة بربروس على سهول متّيجة وشَلَف وعلى سلسلة الظهرة بما فيها شرشال وتنس ومليانة وقبل ذلك كان قد آحتلّ جزائر بني مزغنة التي أصبحت من بعد عاصمة المغرب الأوسط.

أدخلت مليانة وناحيتها في دار السلطان[21] المشتملة شرقا وجنوبا وغربا على مساحة شاسعة من سهول متّيجة وشَلَف يباشر إدارتها صاحب حاضرة الجزائر بواسطة خوجة الخيل موظّف سام له مؤهّلات وزير الماليّة وسيادة الرتعة وإدارة أملاك الدولة بحيث أن نفوذه كان يفوق نفوذ باي التيطري.

ثم دخلت مليانة وناحيتها في بايلك الغرب تحت سلطة باي وهران وذلك في أوائل القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي. هل تحسنت إدارتها ؟ وهل عاشت في السّلم ؟

26 ـ لم يتعرّض لفتوحات عروج لا رجال الدين ذوو النفوذ الروحي ولا الرعية الراغبة في الاصلاح والخلاص من أولي الأمر المفسدين ولا سكان الجبل من البربر وإنما تعرّض له شيوخ الأعراب الذين كانوا يعضون بالنواجذ على سيطرتهم الدنياوية فوقفوا في صدره ومانعوه وكان من بينهم شيوخ الثعالبة وخصوصا سليم بن التومي صاحب مدينة الجزائر الذي تعنت حتى آضطرّعروج على قتله بيده.

فكان لهذا الحادث في نواحي مليانة وسهل شلف صدى قويٌّ ثار له حميد العبد شيخ سُوَيد الذي كان قاطنا بتنس وقاومه زمانا ومازال آسمه معروفا عند الطبقات الشعبية وإن كانت أخباره التاريخية قليلة التحقيق والتدقيق. فآسمه مثلا يروَى ويكتب أحيانا أحْميدة ويقال إن تلقيبه بالعبد سببه أمّه التي كانت سوداء. وقيل إنه كان له عشرة آلاف من الفرسان شرّدهم ألف جندي من الأتراك مسلحين بالبندقية التي تطلق بفتيلة ملتهبة ومعهم خمسمائة راجل من المورسْك الأندلس على شاطئ شَلَف عام 1517/924.

وقيل أيضا إنه هرب الى الصحراء ثم آستعاد بالمفاوضة سيادتَه على سويد وعاد الى سكناه بتَنَس وأن خير الدين شقيق عروج الأصغر هو الذي آتفق معه لذلك. غير أن خير الدين آرتكب من بعد خطأ لمّا عوّضه بتركيّ بعد وفاته الشيء الذي أثار سويد من جديد ودامت ثورتهم أكثر من مائتي سنة[22] بقيادة شيوخ آشتهروا كلّهم بآسم حميد العبد.

وهذا الاسم ليس هو الآن إلا كلمة يُقصد بها المدح لشخص ما وخصوصا لصبيّ ذي فضل فائق. فقد يقال عند العوامّ لأمّ فخور بآبنها : «هل وَلدتِ حميد العبد ؟».

وكان لمآثر سويد الحربيّة شاعر شهير هو ابن السُّوَيْكات (في الدارجة بَسّويكات) الذي أنشد بالملحون عدة آغانٍ مازال سكّان شلَف يتغنون بها، منها أغنية مطلعها : «يا ناري وين سويد. . .»

هذا وعرفت مليانة بعد ذلك ثورات متوالية متكررة كثورة ريغة وثورة أبي طريق (بو طريق) شيخ سُماتة الذي هجم على التركي حسن قائد مليانة واغتاله قرب حمّام ريغة سنة 1544/951 والذي هزمه من بعد الحاج البشير باشا الجزائر الرابع وآضطرّه على الفرار إلى فاس[23].

والآن لا يعرف الشعب من سكّان الناحية عن أبي طريقٍ الا إطلاق آسمه على المياه الحارّة المسمّاة بحمّام بو طريق بين العطّاف ووادي الفِضّة.

وكانت ناحية مليانة في أوائل القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي أي بأقل من عشرين سنة من نزول الفرنسيين بسيدي فرج مجالا لثورة بني مناد عام 1813/1228 في أيام قارا باغلي ثم للصوصية قبائل العطّاف وشيخهم البغدادي الذي صار من بعد صهرا لأسرة الأمير عبد القادر والذي له إلى الآن حَفَدة بوادي الروينة ولثورة براز وشيخهم جلّول بن عبد السلام ومازال نسله إلى الآن بالعامرة ولثورة بني زُقزُق وشيخهم ملّوك إلخ[24].

ولم تسلم ناحية من المغربِ الأوسط من داء تلك الفوضى المزمنة التي جعلت الوطن ناضجا سائغا لشَرَه الاستعمار.

مليانة ابتداء من سنة 1830/1246

27 ـ احتلّ الفرنسيون العاصمة وغادرها الداي حُسَيْن وبذلك آنهار الجهاز السياسي الاداري التركي «كقصر من ورق». فبعد أن شاهد هزيمة سطاوالي سار الحاج أحمد باي الى عاصمته قسنطينة[25].

وأمّا بو مزراق باي التيطري فقد أذ عن للغزاة في الثامن يوليو فسمّوه بايا فرنسيًا في الخامس عشر من نفس الشهر بعد أن وعدهم بتموينهم بثمانمائة ثور إلا أنّه لمّا بلغه خبر ثورة يوليو في باريس أعلن الحرب على فرنسا يوم الواحد والعشرين أوت وتلقّب باشا الايالة وأخبر بذلك زميليه بقسنطينة ووهران فأجابه الحاج أحمد باعتزار إنه على الأقل سويّه وأمّا حَسَن باي وهران فانه رضي بالنزول تحت أمره.

لكن كلوزال Clauzel قابل هذا الوضع بهجوم خاطف على لَمْدية كانت نتيجته آستسلام بومزراق ثانية والاستئذان للهجرة ومضى الى الاسكندرية حيث قضى نحبه نكرة[26].

وأما حسن باي وهران وكان قد بلغ من العمر عتيا فحاول الاذعان فورا والبيعة للغزاة فمنعه منها أعراب الناحية بحصار عاصمته. ولمّا آتّصل به كلوزال قال إنه مستعدّ لأداء الجزية لفرنسا بالقدر الذي كان يؤدّيه للداي على شرط البقاء بايا على مقاطعته. فرفض كلوزال الصفقة فاستأذن هو أيضا للهجرة الى دار الاسلام ورحل على سفينة فرنسيّة في يناير 1831/1247 بأسرته وأملاكه من وهران إلى الجزائر ثم الى الاسكندرية فمكّة[27].

28 ـ بذلك خلا الجو لكلوزال أو كاد وأصبح وسطُ الايالة وغربها تحت رحمته. ولكن في نفس الوقت طمع في الاستيلاء على هذا الملك الشاغر طامعان هما أحمد باي تونس ومولاي عبد الرحمان سلطان المغرب وبما أن أحمد باي كان تابعا لخليفة آسطنبول فانه تروى وتحذّر وقد لاحظ جمود وسكوت الخليفة وقت آستسلام الداي حسين فتريّث وتحفّظ وفضّل مفاوضة كلوزال الذي كان يبدو مستعدّا للاتفاق وراغبا في التعاون الفرنسي التونسي[28].



نواحي مليانة كما رآها الفرنسيون غداة احتلالها. حسب أسكار (قبريال) Iconographie historique de l'Algérie ج 3 لوحة 699 باريس 1929
تصوير م. عريب

Abords de Milyâna vus par les Français au lendemain de son occupation. Selon Esquer (Gabriel), *Iconographie historique de l'Algérie*, t. III. planche 699, Paris, Plon, 1929 (Collection du Centenaire de l'Algérie, 1830-1930).
Photo M. Arib

29 ـ أمّا المولى عبد الرحمان فكان جسورا مقداما لأنه كان من جهة لا يكره الحيازة لمخلّفات الخصم اللدود لبيت الشرفاء وهو التركي الجزائري ومن جهة ثانية لم يكن في وسعه الغضّ عن الانفعال الذي آعترى رعاياه غداة نزول الفرنسيين بسيدي فرج وقد رأوا فيه خطرا يهدّد استقرار المغرب من أدناه الى أقصاه. فقد كان عبد الرحمان لا يسمع حوله الا الحديث بوجوب الجهاد.

كان في أواخر يوليو بمَرّاكش فأسرع العودة الى مكناس لاستماع ما كان جاريا خلف الحدود الشرقية من مملكته.

وكان بقرب تلك الحدود في تلمسان جالية مغربيّة أفرادها تجار أثرياء، ذوو نفوذ منهم شخص ناشط أصله من فاس اسمه محمد بن نونة معروف بالدهاء تمكّن في العشرة أيام الأولى من يوليو من أن يحصل على تعيينه من جانب الحَضَر كقائد لتلمسان عوض البُرْصُلي القائد القرغلي واستطاع بهذه الصفة أن يحمل وفدا من الحَضَر على السفر الى السلطان لمبايعته. فقابل عبد الرحمان ذلك الوفد مقابلة لائقة غير أنه أجّل الاجابة ريثما يستشير مجمع علماء فاس. فأصدروا فتوى فحواها إن الأرض الخاضعة وقتئذ لسلطان اسطنبول لا يسوغ الاستيلاء عليها إلاّ برضى جميع سكّانها من حَضَر وأتراك وقراغلة.

اتّفقت بعدئذ الجماعات الثلاث على إرسال وفد ثان ممثّل لها الى مكناس فآستقبله عبد الرحمان بحفاوة خاصّة وعرض عليه نص بيعة[29] قوبلت فورا بأداء اليمين.

وفي الحين أحدث عبد الرحمان منصِب خليفة مغربي بتلمسان سمّى له أميرا شابّا في عمره خمس عشرة سنة اسمه أبو الحسن علي بن المولى سليمان (1822/1238-1792/1202) عمّ عبد الرحمان وسابقه في السلطنة وجعله تحت وصاية قائد محنّك كان عاملا على وجدة هو أبو العُلى إدريس الجراري.

فلمّا وصل الأمير علي إلى تلمسان في اكتوبر 1830/1246 آصطدم بمشكل أوّل وذلك أن القراغلة كانوا متحصّنين بالمشْوَر ورفضوا أن يفتحوا له الباب[30]. فعاملهم بالشدة والعنف وآرتكب أخطاء أخرى مع غيرهم دالّة على غباوته من ذلك معاقبته من دون مبرّر لقبائل المخزن.

وكان كلوزال على علم بكل ذلك فرغب من حكومته إرسال الكولونال (العقيد) أوفري Auvray للاحتجاج لدى السلطان لكن أوفري لم يجاوز طنجة لأنّ حكومته أمرته بالرجوع فاقتصر كلوزال على آحتلال قاعدة المرسى الكبير على يد الجنرال دمريمون Damrémont يوم 12 ديسمبر 1830 .

أمر المولى عبد الرحمان الأمير علي بالرجوع إلى مكناس وخلفه بمحيي الدين والد الأمير عبد القادر بصفة خليفة على تلمسان لازالة الخلاف بين الحَضَر والقراغلة وقد أوشكوا أن يتقاتلوا ومحيي الدين أول خليفة جزائري عيّنه سُلطان المغرب. كان ذلك يوم 8 مارس 1831 .

وأمر عبد الرحمان في 16 أوت من نفس السنة بتنصيب الشريف محمد بن الحمري بصفة والٍ على مُعسكَر. ومحمد بن الحمري هذا أصله من قبيلة بني حسن من ناحية القنيطرة وكان من قبل واليا على تِطوان. فأصبح في مُعسكَر وعمدته مصطفى بن إسماعيل شيخ الدوائر تلك القبيلة المخزنية العتيدة.

وكلّفه السلطان بإرسال الحاجِ المُعْطي الى لَمْدية ومحمّد الشرقي إلى مليانة لادارة هاتين المدينتين ووضعهما تحت السلطة المغربية وبهذه التصرّفات صار النصف الغربي من الايالة تحت أمر سلطان المغرب وقد اعترفت بسيادته أغلبية القبائل ومن ورائها حتى أعيان حاضرة الجزائر بالرغم من معارضة كلوزال وخَلَفِه دمريمون معارضة كلامية ودام هذا الوضع إلى ديسمبر 1831 .

وخلاصة القول أن سلطان المغرب تحكّم في جزء من الجزائر عامًا وشهريْن ومن هذا الجزء مليانة.

30 ـ عيّنت حكومة فرنسا يوم 6 ديسمبر 1831 كمتصرّف لجيش الاحتلال المدعوّ روني سافاري دوق دي روفيقو René Savary duc de Rovigo وكان من قبل قائدَ جيش في عهد نابليون ثم رئيسا لشرطته وكان متحمسا متعصّبا لاحتلال الايالة بتمامها وقبل الالتحاق بمنصبه حصل من الحكومة على أن تبعث القُمْس شرل دي مرني Charles de Mornay إلى المغرب ليرغم السلطان على سحب جميع عمّاله من الجزائر. فلما وصل مُرْني إلى مكناس عرض

على السلطان آتفاقيّة لعقد علائق طيّبة بين الدولتين بما فيها من مبادلات تجاريّة مفيدة لِكِلا الطرفين هذا من جهة ومن جهة أخرى هدّده بقَنْبلة ثغور المغرب إذ كانت ثلاثة مراكب فرنسية تجول في البحر قرب طنجة.

بعد عدة أشهر من التردّد والمماطلة أذعن عبد الرحمان وأمر عمّاله بالعودة إلى المغرب وكان عامله بلَمْدية قد طرده منها أحمد باي قسنطينة. وبهذا خلا الجو لروفيقو للشروع في فتح البلاد آنطلاقا من الجزائر ووهران وبونة وبجاية وهي المدن الأربعة التي كانت محتلّة دون الباقي. فكان يتشدّق بانجاز هذا الفتح في أقرب وقت معتداً بنفسه لايخامره الشكّ في قوّته ولا يخطر بباله أنه بعد انهيار السلطة الشرعية سيسطدم بالوطنيّة الحقيقيّة ذات اللوالب الصلبة القادرة على معارضته ومقاومته. فالجماهير العربية البربرية المتمسّكة بعروة الاسلام الوثقى وبمرشديها من رجال الطرق الدينيّة كانت مستعدّة لأن تقدّم للجهاد الجموعَ الغفيرة من إخوان (الآن في الدارجة خاوة) لا يخشون الدفاع عن التراب الوطني بصراع مديد مهما كان ثمنه.

الامير عبد القادر يريد مليانة ولَمْدية

31 ـ انعقدت آجتماعات تلقائية حضرها أعيان رجال الدين في جندل بين مليانة ولَمْدية يوم 11 أوت 1831 ثم في القيطنة ببضعة كيلومترات غرب مُعسكر حيث أجمع الحاضرون على تعيين رئيس للمجاهدين هو محيي الدين بن المصطفى الذي كان عضوا مرموقا ذا نفوذ وصيت في الطريقة القادرية فترأس وقاد المجاهدين وآنتصر يومي 3 و 8 ماي 1832 على عسكر الجنرال بواييي Boyer في خنق النِطاح Karguenta ورأس العين بأبواب وهران وحاصر المدينة أياما

في تلك المناسبة أبلى آبنه عبد القادر وأظهر من الشجاعة وربط الجأش ما أعجب رفاقَه كما أبدى بعدئذ اقتداره على فرض النظام وآستحقاق السيادة فآنعقد آجتماع يوم 24 نوفمبر 1832 حضره مشايخ الحَشَم وبني عامر والغرابة في سهل غريس وهلّلوا به سلطانا. فلخّص هو برنامجه السياسي في جملة واحدة : «إنِي سأحكم والشريعة في يدي». فبايعه الاخوان في نفس المكان ثم بايعه سُكّان باقي الوطن غَرْبا وشرقا.

32 ـ باشر الحكم في أول أمره باستخدام الدبلوماسيّة لتوطيد سلطته وكان في ذلك واقعيا فعقد مع الجنرال دي ميشال Desmichels بعد المفاوضة الطويلة اتفاقيّة 26 فيفري 1834 لربح الوقت وراحة البال اللازمين لتنظيم جيشه وتجهيزه وأمضى هذه الاتفاقيّة بصفة «أمير المؤمنين» أي صاحب السلطة الشرعية دينا وسياسة على سائر سكّان الايالة المؤمنين بالله ورسوله ريثما يصير عاهلا لسائر ترابها.

ثم شرع في ضمان ما وراءه بقهر المنافسين الذين رفضوا الاعتراف بسيادته وهم شيوخ القبائل المخزنية وقد أبوا الاذعان لسيّد من عنصر ديني منهم الغماري شيخ انقاد ومصطفى بن إسماعيل شيخ الدوائر والزمالة الذي سبق ذكره والعريبي شيخ البرجية وغيرهم...

لكن سرعان ما تعكّر الجو بينه وبين قوّاد الجيش الفرنسي وقد رأوا في اتفاقية 26 فيفري 1834 شروطا صالحة له بالرغم من أن المفاوضة عليها كانت بمبادرة دي ميشال الذي رأى فيها فوائد لبلده وحصل بدون صعوبة على موافقة المَلِك لوي فيليب Louis Philippe. فقد تعرّض لتنفيذها فورا تيوفيل فوارول Théophile Voirol «المتصرف بالنيابة في جيش الاحتلال بافريقية» (1833-1834) وتعرّض لها خلَفه جان باتيست دروي درلون Jean Baptiste Drouet d'Erlon «الوالي العام للممتلكات الفرنسية بشمال إفريقية» (1834-1835) وكان كلاهما مهتمّا بالاحتفاظ على مستقبل قريب يمكّنهما من كسب قوّة كافية لتحقيق نواياهما التوسعيّة وقد صرّحا غير ما مرّة فيما بينهما بوجوب «خفض رئيس العرب إلى درجة تابع» وإرغامه على الاعتراف بالسيادة الفرنسية.

فطلب دروي درلون من حكومته بإلحاح سحب دي ميشال وتعيين تريزال Trézel مكانه فحصل على ذلك في 21 يناير 1835 وأخذ تريزال في تأويل الاتفاقيّة بانتقاصها وتحديد سيادة عبد القادر حتى لا تتجاوز إقليم وهران وآعتبر وادي الفضّة حدًّا موقّتا بينها وبين إقليم الجزائر الذي اعتبره فرنسيًّا قبل أوان احتلاله.

33 ـ واجه عبد القادر هذه المواقف والتصرفات بالتؤدة والملاطفة وبذل كثيرا من الصبر والمهارة لتنفيذ الاتفاقيّة بحذافيرها وقد كانت تأتيه من كلّ مكان، من بونة ومن الجزائر ومن التيطري وغيرها وفود متوالية من أعيان البلاد

تدعوه للسير نحو الشرق لتحقيق النظام والأمن والسلام كما فعل من قبل وفود مازونة ومليانة والقُليعة وقد قصدوه في فبراير 1833 وهنّؤوه بانتصاره على منافسيه الذين سبق ذكرهم وكان على رأس هذه الوفود والده الحاج محيي الدين. وفي نفس الوقت كانت الرسائل تتهاطل على فوارول ثم على دُروي دَرْلون من شيوخ بني مناد وبني مناصر ومن علي بن سعيد الخلّادي الملياني فيها تصريح الاعتراف بسيادة أمير المؤمنين.

فكان له في ذلك تشجيع وأيّما تشجيع على احتمال مسؤوليّته كمحرّر للبلاد والعباد وعلى التفكير في الوسائل ومنها قبل كلّ شيء احتلال مواقع استراتيجية هامّة مثل لَمْدية ومليانة في أقرب وقت.

فكاتب فوارول في 5 يونيو 1834 بوجه اللياقة وأخبره بأنه ينوي زيارة هاتين المدينتين لفرض النظام والسلام عليهما. فردّ عليه دروي بأن «الاتّفاقية لا تسمح له بزيارة لمْدية كسلطان وإنما يسوغ له ـ إذا كان لا بدّ من ذلك ـ أن يزور مليانة لأنها كانت في سنة 1830 من إقليم وهران».

34 ـ وما مليانة ولمْدية في ضميره إلّا نقطتا آرتكاز وقاعدتا آنطلاق نحو الشرق وما خفي عليه أن النصاري في الحواضر الأربع على شط البحر (وهران والجزائر وبجاية وبونة) كانوا يشعرون بأنهم في عقر دارهم ويفكّرون في التوسّع داخِل الايالة وقد قاموا بحملات خاطفة وبعضها متكرّرة على تلمسان ومعسكر ولَمْدية.

وكان يشعر بواجبه كرئيس شرعي لبني ملّته أن لا بدّ من معارضة مقاصدهم وأن لا بدّ من بذل جهده ليصون المسلم من سيادة الكافر عملا بنصّ الكتاب في قوله تعالى: «يا أيّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم (س 4 آية 59)».

أما أن يفرض الكافر سيادته بالسلاح على جزء من تراب الوطن فهذا من تقلّبات الدهر المحتملة موقّتا وأمّا أن يفرضها على نفوس المؤمنين فهذا لا يقبله مسلم حقيق بهذه الصفة. فقد صرّح مرارا بهذا المبدإ الأساسي للقوّاد الفرنسيين ما وسعته محاورتهم وحرّض كثيرا من مسلمي الجزائر العاصمة ومتّيجة على الهجرة والنزول بمليانة ولَمْدية ليستطيعوا الحياة في ظلّ الاسلام.

35 ـ ثم تجاوز كل اعتراض في مارس 1835 وسار على جيش صغير نحو الشرق فهزم على شاطئ وادي مينة أخاه الأكبر الحاج مصطفى وعمّه عليا أبا طالب إذ كانا يؤاخذانه على توقيع آتفاقيّة دي ميشال ويعارضان سياسته بتحريض درقاوة على الثورة ضدّه[32].

وهزم شيخَيْ المخزَن أبا عبد الله والعريبي في نفس الناحية وهزم قبيلة صبيح وأخذ لها نحو المائة حِصان ونحو الألف بندقية يوم 15 افريل 1835.

وأخيرا لاقاه أولاد قُصَيِّر وأولاد السايح على الخيل مهلّلين وألحقوا فرسانهم بجيشه مبتهجين ولاقاه بمثل ذلك البغدادي شيخ العطّاف الذي سبق ذكره وقدّم له هدايا ثمينة وكان هناك الحاج محيي الدين الصغير على عدد من فرسان حجّوط وموزاية وسُماتة وبني مناد وبني مناصر.

فواصل الأمير السير مشرّقا ونزل في بوخُرْشُفة يوم 15 ماي[33] ثم على شاطئ وادي بوطان تحت مليانة يوم 20 منه. فلاقاه المليانيّون بالحفاوة والتهليل يقودهم رجل من سلالة سيدي أحمد بن يوسف بما فيهم الحضر والبدو أجمعين معترفين له بالسيادة.

36 ـ مع هذا لم يدخل مليانة لأنّه سمع بشخص آسمه ابن موسى كان من قبل تلميذا معه أقبل للقائه على شرذمة من درقاوة بقصد إجباره على قطع العلاقة بينه وبين النصارى. وكان ابن موسى هذا المدعوّ أبو حمار لا خبرة له لا بشؤون الحرب ولا بالسياسة ومع ذلك كان يدعو إلى الجهاد ويدّعي القدرة على إنقاذ الوطن من الكفرة مع أنه إلى ذلك الحين اقتصر على ازعاج سُكّان لَمْدية ونواحيها لا غير.

فمضى عبد القادر إليه فألفاه بحَوْش عمورة قرب جَندَل وهزمه لأوّل صدمة وأخذ له من جملة ما أخذ زوجته وابنته وحماره الأسطوري فضلا عن الغنيمة الوافرة[34].

وبهذا النصر افتتح أبواب لَمْدية فاستقبله سُكّانها باحتفال رائع وما وَسِع دروي درلون إلّا المصادقة على ذلك النصر والانتصار على عدوّ مشترك. فآختصرهو بمهارة فائقة إقامته بلَمْدية ريثما نصب يوم 25 ماي محمد بن عيسى البركاني كخليفة له بها[35].

رجع أدراجه يوم 4 يونيو فمرّ على بو حلوان فسُماتة ونزل يوم 9 يونيو بأربعة آلاف جندي وكتيبة من النظاميين تحت مليانة ورسّم من هناك محيي الدين الصغير في منصب خليفة على مليانة وناحيتها من وادي شفّة إلى وادي الفضّة.

استأنف السير يوم 15 يونيو نحو مُعسكر فوصلها يوم 30 منه صحبة ممثّله النصوح يودا بن دراهم (المدعوّ دورا Duran عند النصارى) والقبطان سنت هيبوليت Saint Hyppolite الذي عيّنه دروي درلون لهذه المهمّة.

هذا الاياب العاجل إلى الغرب سببه معاكسة تريزال بناحية وهران لسياسة دي ميشال ومحاولته لالغاء الشروط المسطّرة في الاتّفاقية في صالح الأمير. فكاتبه هذا الأخير وعبّر له عن رغبته في استمرار السلم فأجابه تريزال بقوله : «نسالمك بشرط اعترافك بسيادة فرنسا وأداء الجزية لها والتنازل عن سيادتك على بعض القبائل !» فتحتّم على الأمير مواجهة هذا التحدّي بما يليق به ومعاقبة الطاغية يوم 28 يونيو 1835 بالهزيمة القاسية الشهيرة هزيمة المقطع[36].

37 ـ يستخلص مما سبق أن مليانة كانت للأمير ابتداء من ماي 1835 إلى ان احتلّها الفرنسيون فإنه أسند إدارتها إلى شخصيتين بارزتين اختارهما لها من أجل خصالهما الخاصّة ولكونهما ورثة لصيت جدّهما وهو سيدي علي المبارك دفين القُلَيْعة المحترم كلّ الاحترام من جانب قبائل متّيجة والجبال المجاورة لها وهو زيادة على ذلك من حشم غريس وهاتان الشخصيتان هما الحاج محيي الدين الصغير وابن أخيه محمّد بن علّال (انظر عن ثلاثتهم الملاحق الثلاثة في آخر الكتاب)[37].

38 ـ كان محيي الدين قد ساهم في تحقيق الانتصار السياسي الحربي الذي أحرزه الأمير وقدّم شتّى الدلائل على إخلاصه له : فشغل منصب الخليفة في مليانة بلقب باي من ماي 1835 إلى يوليو 1837 وقام بنشاط ملحوظ في أثناء تلك المدّة وتفاصيل ذلك النشاط مسجّلة بالتدقيق في رسائل كلوزال وراباتال Rapatel ودمريمون.

من ذلك إنه أمر بقتل علي الخزناجي قائد بني موسى لكونه في خدمة

الفرنسيين وذلك يوم 21 أوت 1835 بأن عرض على قاتله خمسين دورو على قولهم (انظر كلوزال ج 1 ص 35).

وألقى القبض في سبتمبر بمليانة علي ابن الغضبان الحضَري الذي أقرّ بأنّه عزم على سمّ الأمير والخليفة وما أقرّ إلاّ بعد أن أُشبع من الفَلاقة وبعد أن سجن من أجل محاولة اغتيال (نفس المصدر 82).

في نفس الآونة عين سي البشير قائداً لقبيلة المرجة قرب بوفاريك جزاء اغتياله لقائد تلك القبيلة الذي كان «متعاونا» وجزاء اغتياله لقائد بني موسى المذكور أعلاه (نفس المصدر 309).

بعث إلى البُلَيْدة سي البشير المذكور كحاكم لها وذلك في نوفمبر مع أن البُلَيْدة ليست إذ ذاك نظريا من تراب الأمير. فاعتبر النصارى تصرّفه هذا وقاحة (نفس المصدر 106).

39 ـ كان كلوزال عيّن ونصب محمّد بن الحسين بايا فرنسيّا بلَمْدية. فتمكّن محيِي الدين أوّلا من فتح لَمْدية وثانيا من إلقاء القبض على الباي المزيّف الضحكة فسيّره مقيّد اليدَيْن والرِّجلَيْن من لَمْدية إلى مليانة ومنها إلى منزل الأمير على وادي تافنة ثم إلى فاس فمكناس فمَرّاكش أشعث محلوق اللحية والشارب على ظهر حمار ورأسه إلى جهة الذنب ولقب هذا الباي الحقير «بومطمورة» لأنه مكث أربعة أشهر مختفيا في مطمورة. فكتب الملازم العقيد دي لامورسيار Colonel De Lamorcière في ديسمبر 1836 مايلي : «هل تتصوّرون إهانة لفرنسا أشنع من أسر باينا بلمدية ؟ (نفس المصدر 136 ثم روسي Rousset ص 8).

مضى محيي الدين بنفسه إلى لَمْدية في ماي 1836 لعقاب القراغلة وقد كانوا تحزّبوا لفرنسا. فأخذ خمسة من أعيانهم رهائن وانتزع من بقيتهم كلّ ما كانت فرنسا قد سلّمت لهم من السلاح ولوازم الحرب (نفس المصدر 672).

هجم يوم 27 ماي بجماعة من المجاهدين أتوه من قبائل شلف على منزل العدوّ ببني مراد فأثار هجومه هذا اضطرابا شديدا وهلعا رائعا في عاصمة الجزائر (نفس المصدر 730 و 739).

حتّم على راباتيل في ديسمبر تحرير أربعة وعشرين أسيرا من المسلمين في مقابلة ثمانية من النصارى كانوا أسرى عنده (نفس المصدرج 2 ص 367).

كان في أوائل يونيو 1837 قُبَيْل وفاته يجوب بجيشه سهول متّيجة من عفرون إلى هضاب شنوة ويهدّد القُليعة المحتلّة وسائر الساحل (انظر دمريمون 194).

كانت الحرب يومئذ متوقّفة بموجب اتفاقية تافنة الموقّعة يوم 30 ماي 1837 بين الأمير وبيجو Bugeaud ومع ذلك كاتب محيي الدين شيوخ القبائل ونهاهم عن بيع الخيل للفرنسيين وأنذرهم بأن السلم لن يدوم ثلاثة أشهر (نفس المصدر 225).

40 ـ كان مطلّعا على نوايا العدو عالما بأن دمريمون كان يتلقّى من وزيره في أيام المفاوضة بين الأمير وبيجو «أن فاوِضْ رئيسا آخر من رؤساء العرب لأجل معادلة نفود الأمير واتّصلْ بمحيِي الدين واحمله على الاتفاق معنا. . . فأنت أدرى بأنّه مستعدّ للاتفاق إذ هو متضجّر من سيطرة عبد القادر. . . (نفس المصدر 166).

وفعلا راسله دمريمون لذلك من مرسيلية يوم 17 ماي 1837 بواسطة صديقه الحميم أحمد بوضربة الجزائري فلم يردّ على الرسالة. وكان نفس الوزير قد كتب إلى بيجو يوم 26 أفريل 1837 مايلي : «يجب تنصيب سلطة منافسة تعادل سلطة الأمير وتحدّها. . . وان السيد مبارك الحاج الصغير يبدو لهذا أليق من غيره. . .»

تلك الظنون وتلك المناورات الدالّة على ما لشخصية محيي الدين من الوزن والقيمة في نظر العدوّ لم تُفِد شيئا. فقد بقي محيي الدين على الوفاء لمولاه الأمير ولقضية وطنه ولازم منصبه ووظيفه إلى يوم وفاته في الثامنة والأربعين من عمره يوم 14 يوليو 1837[38].

41 ـ خلفه فوراً محمّد بن علاّل الذي بقي في أوّل أمره وقبل كل شيء حتى يونيو 1840 مديرا مدنيا ماهرا ممتازا حارسا بصرامة على الأمن العمومي في الناحية وعلى قبض الضرائب متجوّلا في غالب الأحيان يبرم الأحكام الشرعيّة ويسهر على تنفيذها سواء في الحياة العموميّة أو الخصوصيّة. فإنه كان من

أنصار الشريعة الاسلامية بحذافيرها يعاقب على أدنى تهاون أو إهمال لأداء فرض أو سنّة فيما يتعلّق بالعبادات حتّى أن أفراد الشعب كانوا إذا حان وقت الصلاة يقولون : «هيا بنا نؤدّي ركعات ابن علال . . . » فأطاعه في مليانة الفاتر والعاصي خشية العصا التي كانت نصيب كل مقترف لأدنى هفوة . (انظر فالي Valée ج 1 ص 378) .

42 ـ وكان في الشؤون الخارجية هو المخاطب الرسمي للوالي الفرنسي فالي Valée بتفويض شامل ليراسله مباشرة باسم الأمير الذي كان إذ ذاك مهتمّا بحصار عين ماضي ذلك الحصار الشهير الذي طال سبعة أشهر . لقد بعث ابن علال الى فالي على الأقل إحدى عشرة رسالة في مسائل متنوّعة في غالب الأحيان عادية كالشرطة وسرقات بقر وهدايا وحصار عين ماضي الخ . . .

لمّا ساءت العلاقة بينهما أخذ على نفسه منع البُلَيدة والقُلَيعة من التسليم لفرنسا وذلك خلافا لرأي الأمير ولشروط اتفاقية تافنة (انظر روسي 333) .

وبعد أن احتل الجيش الفرنسي القُلَيْعة عنوة رغب هو من فالي أن يأذن له بنقل رفات أجداده إلى مليانة فأجابه فالي بالرفض «خوفا من انتقال السكّان مع الرفات» .

43 ـ اندلعت الحرب نهائيا بسبب الخلاف في تأويل اتفاقية تافنة فصار ابن علّال قائدا للجنود ممتازا فحارب فالي مدّة أحد عشر شهرا وحارب بيجو ثلاث سنوات متوالية أوّلا في نواحي مليانة ثم في جنوب الوطن وفي غربه .

شارك يوم 3 يوليو 1839 بتازة في جنوب مليانة في اجتماع شرعي ترأسه الأمير وحضره جميع الخلفاء وأعيان الناحية وقرّروا بالاجماع استئناف القتال .

ـ هجم هو يوم 21 نوفمبر 1839 على وادي العُلَّيْق هجوما أسفر عن 108 قتلى من الفرنسيين وجُرِح هو في كتفه واستشهد من قواده 15 نفرا .

ـ تعرّض يوم 15 مارس 1840 بصرامة واستبسال لـ 58.000 عسكري تحت قيادة فالي أتوا لأخذ الثأر من هزيمة وادي العُلَّيْق فهاجموا شرشال فلم يجدوا فيها سوى شحّاذا ضريرا وشخصا بليدا معتوها وخسروا ما بين قتلى وجرحى سبعين رجلا (انظر روسي Rousset ص 415) .

ـ هاجم يوم 27 أفريل طابورا من عشرة آلاف فرنسي بألفي فارس في عفرون بمحضر دوك ارليان Duc d'Orléans ودوك أومال Duc d'Aumale فكانت خسائر فادحة في الجانبين (نفس المصدر ص 435) .

ـ يوم 12 ماي ملحمة بالسلاح الأبيض دامية جدّا بقيادة الأمير نفسه في ثنية موزاية وبمحضر دوك أرليان : أكثر من ثلاثمائة فرنسي قتيل و 145 جريح من بينهم الجنرال مربو Marbot والجنرال رومينيي Rumigny (نفس المصدر ص 438) .

ـ يوم 20 ماي ملحمة بغابة الزبّوج بين شفّة وموزاية : 50 فرنسيا قتيلا و 212 جريحا منهم الجنرال دمبيار Dampierre والكولونال بدو Bodeau (نفس المصدر ص) .

ـ يوم 4 يونيو ناوش 10.000 عسكري عليهم فالي وقد خرجوا من شفّة وقصدوا بني مناد على طريق «شعاب القطّاع» فوادي الدالية فشاطئ شلف وشاطئ وادي بوطان وانتهوا يوم 8 من الشهر إلى مليانة وكان سكّانها قبل الخروج منها قد أضرموا النار فيها وأحرقوا جزءا منها فاحتلّها الفرنسيون[39] .

ـ يوم 12 من نفس الشهر غادرها فالي عائدا إلى الجزائر العاصمة وخلّف بها 1.200 عسكري لحمايتها تحت قيادة الليوتناكولونال ديلِنس d'Illens ومعه عُمَر ولد الباشا كمستشار بصفة خليفة فرنسي .

ـ يوم 4 أكتوبر بعث فالي من الجزائر الجنرال شَنْقَرْنيي Changarnier لتموين الحامية فوجد 800 منهم ماتوا بالوباء والحرمان (انظر فالي Valée ج 5 ص 33 الى 38) .

ـ وكان محمّد بن علّال وخيّالته وكتيبة من النظاميّين نازلا بتلاوشقّوف (Levachér سابقا وابن علال الآن) ومن هناك كان يحرّض ويرشد سكّان الجبل من دوار بو معاد وزكّار لمناوشة المدينة باستمرار .

ـ يوم 27 سبتمبر كانت الخسائر الفرنسية : قبطان وليوتنا و 24 عسكريا وضابط صفّ ـ كلّهم قتلى و 40 من الجنود وضباط الصفّ جرحى وعاشت مليانة في جوّ من نار بلغت الحرارة في الشمس 56 درجة مائوية وهبّت ريح الجنوب في شهر أوت مدة 25 يوما باستمرار (نفس المصدر من

ص 144 إلى 145).

أمام ذلك الوضع بعث وزير الحرب الفرنسي يوم 30 أكتوبر 1841 إلى فالي رسالة يتساءل فيها بقوله : «هل البقاء بمليانة ضرورة حقيقية وهل فيه على الأقل منفعة مفيدة مع ما فيه من الأضرار بسبب بعدها ووخومة جوها وصعوبة تموينها ؟ أو هل الأحسن الجلاء منها بعد تخريبها وتدميرها (نفس المصدر 77).

وكتب صحفيّون هذه العبارة : «إن إفريقية هي البليّة والرزيّة !» ووصفوا فضائع مليانة (انظر روسي Rousset ص 457 و 481).

غير أن فالي كان معارضا لفكرة الجلاء فأصرّ وأخذ على نفسه تموين الحامية بجراية قدرها 150.000 فرنك. فتكبّد في الطريق عند مروره ببوركيكة وشعاب القُطّاع خسائر فادحة من هجومات محمّد بن علال. فقرّر في ايابه يوم 9 نوفمبر الانتقام من السكّان فمرّ بقبيلة ريغة واذن لعسكره أن ينهبوا كل ما يجدون وأن يضرموا النار في الديار فدمّروا القبيلة بأسرها بأن أحرقوا أنادر الكلإ ومطامير القمح والشعير والتقطوا عددا كبيرا من الدجاج والثيران والخيل والبغال والعُمْلة والملابس. . . وهربت ريغة الى أعلى قمم زكّار. . . » روى فالي هذا الحادث بهذا العرض وبعثه إلى وزيره (انظر فالي ج 5 ص 113).

44 ـ استنتج الأمير وخلفاؤه من ضياع لمدية ومليانة استحالة منع العدوّ من احتلال المدُن لأن القوى من هذا الوجه غير متساوية. فالمجاهدون كثيرون والشعور بالواجب المقدّس حيّ فيما يعود الى الدفاع عن دار الاسلام لاسيما عند سكّان البادية ولعلّه أشدّ لديهم منه لدى الحضر وإمكانيات التجنيد غير محدودة لاسيما تجنيد الخيالة لكن النقص كان فادحا في التسليح المماثِل لتسليح الخصْم في الجودة والكمية خاصّة في المدفعية.

كان هذا النقص يشكّل أكبر وأدوَم اهتمام الأمير فاشترى ما أمكنه من الفرنسيّين بمقتضى اتّفاقيّة دي ميشال واتّفاقيّة تافنة وحاول استيراده من الخارج من المغرب ومن تركيا ومن انجلترا إلاّ أن الكميات التي حصل عليها وأكثرها من المغرب كانت غير كافية لا كما ولا كيفا.

وحاول أخيرا اصطناع السلاح باستخدام الهاربين من جيش فرنسا

وإحداث ورشات في مليانة وتازة وتاقدمت وبوغار وتلمسان وسعيدة لكن «الدولة التي في عمرها ثماني سنين وليس لها ما يلزم من الوسائل الفنيّة لا يمكنها ارتجال صِناعة حربية مماثلة لصناعة دولة في عمرها ألف سنة». كتب هذه الجملة في رسالة إلى بيجو.

45 ـ نهاية عام 1840 منعرج هامّ فيما يعود إلى مقاومة الأمير لأنّ حكومة لوي فيليب قررت لأسباب خاصّة بالسياسة الداخلية احتلال الوطن بأسره وفي أسرع وقت مهما كان الثمن. فعيّنت لذلك الرجل المناسب وزوّدته بالوسائل البشرية والمادّية اللاّزمة. فالرجل هو بيجو الذي عاد الى الجزائر بصفة والٍ والوسائل تعزيز مباشر بعشرين ألف رجل بلغ بهم عدد فيْلق الغزو 78.000 محارب مدجّجين بأجود السلاح والعتاد وأصبحوا بعد قليل 106.000 محارِب.

ماذا يستطيع أمام هذه الجحافل 5.000 مجاهد سلاحهم رَديء ؟ هل هو الاستسلام ؟ كلاّ بل استخدام ذكيّ لساحة الوغى وانتفاع بالفضاء والطقس وإشفاق بالرجال ورفض المجابهة وهجوم في أنسب الظروف فقط وبالمفاجأة ودائما بالسرعة الخاطفة وإعياء العدو بالمناوشة وتحطيمه بالتفصيل. لهذا ما عرفه الفرنسيّون باستحالة الادراك التي ابتدعها عبد القادر وطبّقها ضدّ بيجو (انظر امريت Emerit ـ الجزائر، l'Algérie 293).

46 ـ لكنّ بيجو كان قد جرّب هذه الاستراتيجية سابقا في سنة 1836-1837 فعارضها أوّلا باستخدام الرشوة ثم باستخدام الأرتال المتحرّكة الشهيرة بالأرتال الجهنّمية أو «بجوّالي المنايا».

انه بدأ مهمّته في 28 أفريل 1841 بحملة على مليانة فاستقرّبها وحاول أن يفصل من الأمير بعض خلفائه وخاصّة محمد بن علاّل بارتشائه بشيء ومن الماليّة السرّيّة الهامّة التي كان يتصرف فيها. فكلّف لاموريسيار Lamoricière بأن يعرض منها مبلغا للخلفاء ظنّا منه أنّهم يغويهم حب المال كما أغواه هو أثناء مفاوضات اتفاقيّة تافنة[40].

اتّصل لاموريسيار في سبتمر بمحمّد بن علاّل الذي كان مع الأمير في ضاحية مليانة فتظاهر بقبول مبدإ المساومة وطلب لنفسه ولكل من زميليه محمد بن عيسى البركاني وأحمد بن سالم مبلغا قدره نصف مليون فرنك وإسناد الحكم لهم على المثلث بين سباو والأغواط وعين ماضي ومليانة أي على ثلثي

إيالة الجزائر. وكان الأمير عالما بكل ذلك فأذن له بمواصلة المفاوضة لربح الوقت قبل الهجوم الذي كان يتوقّعه من جهة بيجو. ولم ير هذا الأخير أي مبالغة في اقتراحات ابن علال غير أنه أراد أن يدرسها عن كثب وروية. ثم إنه بعد أيام عارضها باقتراحاته المشتملة على الاعتراف بسيادة فرنسا والادارة باسم لوي فيليب ومرتّب قدره 25.000 فرنك شهريا. فانقطعت المفاوضات (انظر جليان Julien، 187).

ثم انه غادر مليانة عائدا إلى العاصمة فانتهز الأمير ومحمد بن علال الفرصة لمهاجمته إلى حدّ الالتحام واستخدام السلاح الابيض فاضطرّ على الفرار وترك موتاه وجرحاه وعتاده[41]. وبعد هذه الهزيمة قرر استخدام حربه الشاملة بطوابيره المتحرّكة. فكان ذلك سببا في تقهقر الأمير وضياع الكثير من رقعة التراب التي كان يتصرّف فيها[42].

فيما يخص مليانة ومقاومتها لنا شهادة من جانب العدوّ «والصدق ما شهدت به الأعداء». قال الكُنْت ذى كَسْتلّان في كتابه «**ذكريات الحياة في الجندية**» مانصّه : «لعل مليانة ـ من بين البقاع التي فتحناها في قارّة إفريقية ـ هي المدينة التي تكبّدت بها جنودنا أشدّ المِحَن» (ذكره أُتْـرا (Autran) في كتابه : **مليانة** ص 182).

إقامة الأمير عبد القادر بمليانة

47 ـ تؤكد الأحاديث المحلّيّة بأن الأمير أقام بمليانة لمّا كانت في حوزته ويشير المليانيّون بالبنان حتّى الآن إلى الدار التي كانت سكناه وهي على قولهم تلك التي تحت ساحة الساعة والتي كانت الى سنة 1962 مقرّا لرئيس فرع الجيش الفرنسي رائد الجوق التاسع من القوّاسة المُشاة ويقال أيضا إن بناية خربة في الجانب الشرقي من الوادي الموازي لسور المدينة كانت هي المسبك الذي أسّسه الأمير لصناعة السلاح والعتاد.

48 ـ كيف احتلّ الأمير مليانة ؟ إنه رأى من حقّه احتلالها واحتلال لمْدية عملا بالشروط المسطّرة في اتفاقية دي ميشال وقد سبق القول بأن دي ميشال جادل في هذا الحقّ كما جادل فيه أكثر وأكثر دروي درلون من فبراير 1834 إلى مارس 1835. فإنه لمّا سمع به في طريقها منذ أربعة أيام أنذر سُكّان البلَيْدة

والقُلَيْعة ولمْدية ومليانة بمنشور مؤرّخ في 24 أكتوبر 1834 بأنه «يعتبر استقبالهم لعبد القادر فعلا معاديا» (انظر دروي Drouet ص 58).

غير أن وزيره الذي كان راغبا في السلم راسله يوم 12 نوفمبر قائلا : «بما أن مليانة كانت من إيالة وهران يوم الفتح . . . فإني لا أرى من حقّنا منعه من المضي إليها» (نفس المصدر ص 93-94) فأجاب دروي يوم 26 من نفس الشهر بقوله : «كان بايلك وهران سابقا يمتدّ إلى نهر مَزَفْران. . . وما المسافة من مليانة إلى هذا النهر سوى 25 أو 30 فرسخا. . .» (نفس المصدر ص 151) فردّ عليه الوزير يوم 13 ديسمبر : «مليانة من إيالة وهران. . .» (نفس المصدر ص 189) فقد كانا على خلاف تامّ أحدهما يلجأ إلى التهديد والتخويف. . . النظري والآخر يفضّل السلم.

49 ـ عندما صارت مليانة في جوزته لم يكن للأمير عبد القادر ما يدعوه إلى الاقامة بها بل كان لابدّ له من الرجوع إلى الغرب لمواجهة عدّة صعوبات كانت نتأت هنالك تتطلّب وجوده شخصيّا. من ذلك : واقعة المقطع التي سبقت الاشارة إليها واحتلال كلوزال لمعسْكر وإحراقه إياها عندما جاء إلى الجزائر بصفة وال عامّ ومن ذلك جنوح بعض القبائل في شلف ومينة لطاعة الجنرال باريقو Perrégaux ـ وواقعة ارشقول ضدّ الجنرال درلنج d'Arlanges وواقعة السِّكاك ومفاوضة بيجو من أجل اتفاقيّة تافنة وحصار عين ماضي الخ . . .

50 ـ لكنّ أسرته كانت في أثناء ذلك، من أبريل 1838 إلى يوليو 1839 مقيمة بمليانة أوبناحيتها. قيل إنه قرّر ذلك لابعادها من حشم غريس الذين أساؤوا إليه أيام احتلال كلوزال المعسْكر[40]. كانت أمّه وزوجته وبعض أفراد أسرته يوم 14 أبريل 1838 في زيارة للولي سيدي أحمد بن يوسف وبعد هذه الزيارة رجعوا ونزلوا في بوخرْشُفة ـ وكانوا يوم 19 أوت نازلين تحت سور مليانة لعلّهم هربوا من الحر الشديد في سهل شلف وكانوا هناك أوّل سبتمبر صحبة أسرة الحاج مصطفى بن أحمد التهامي خليفة معسْكر الذي قرّر هو الآخر إرسال ذويه هناك بسبب العداء الذي لاحظه من جانب الدواير والغرابة. (انظر دوما Daumas ص 424).

51 ـ عاد الأمير يوم 9 فبراير 1839 من الجنوب وأقام في بوخرشفة وترأّس به مجلس الخلفاء والعلماء للبتّ في السلم أو في الجهاد كما سبقت الاشارة إلى

ذلك (انظر دوما Daumas ص 424 تعليق 1) - وفي 17 فبراير التحق بأسرته في مليانة وكان معه المولود بن عراش واستقبل بها الكولونال (العقيد) دي سال De Salles صهر الماريشال فالي جاء يفاوضه في تحوير بعض الشروط من اتفاقية تافنة.

وفي 31 مارس استقبل بها وفدا من حَشَم غريس أقبلوا لمطالبته باعادة أسرته إلى معسكر أو إلى نواحيها فأجابهم بالرفض[44].

وفي 28 ماي غادر مليانة وخلّف بها أهله ومضى مفتّشا للشرق من أجل الأطلاع على عواقب احتلال قسنطينة.

وفي 30 يونيو رحلت أسرته إلى تازة[45].

فالتحق بها في 7 يوليو ومن هناك بعث بها إلى تاقدمت[46].

وفي 22 سبتمبر توفّى يود ابن دراهم بمليانة بسبب حمّى ثلاثة أيام أصابته بتازة[47].

52 - وخلاصة القول إن الأمير عبد القادر لم يستقرّ بمليانة إلاّ من 17 فبراير إلى 7 يوليو 1839 أي لمدّة أربعة أشهر وعشرين يوما لا غير. فهل كان له من الوقت ما يكفيه ويمكّنه من إصلاح سكنى من حجر والنزول به ؟ فالظاهر أن مواجهة الحرب التي كانت تتطلّب الحركة حتّمت عليه تفضيل خيام الوبر على ديار المدَر. ألم يبتدع عاصمة متحرّكة لأكثر من 000 .30 نفس ؟ تلك زمالته الشهيرة ولا يخفى أنه كان شاعرا مثل ما كان محاربا يرى أن «الحسن يبدو رونقه في بيتين. . . بيت من الشعر أو بيت من الشعر[48].

53 - لم يشيّد الأمير بالمدر إلاّ بعض الحصون لأجل الاحتياط من الحرب وذلك في تاقدمت وبوغار وتازة وضاحية مليانة كمستودعات للمسابك والمسالح ومشغل ضرب العملة. ولم يكن مطمئنّا لدوامها. فانه لمّا دخل تازة بعد أن شيدت في أقصر وقت حمد الله وأثنى عليه ثم أنشد ارتجالا :

«الله أعلم أن هذا لم يكن — منّي على الأمل الطويل دليلا
«كلاّ. . . وإن منيتي لقريبة — منّي وأصبح في التراب جديلا
«ورضي الا له هو المنى ليكون من — بعدي انتفاع الخلق ثمّ طويلا

وأمر بكتابة هذه الابيات على باب الحصن (انظر محمد بن عبد القادر، تحفة

ص 313) غير أن هذا الباب كان مصيره متحف الانفاليد Les Invalides بباريس. فالحرب الضروس لم تبق ولم تذر على مشيّدات الأمير وكلّ ما بلغنا عنها انما هو مما كتبه بعض الفرنسيّين الذين شاهدوها ووصفوها قبل تدميرها[49].

54 - وهذا بالضبط شأن مصهرة مليانة. فالأخبار متواترة بأنها شيّدت عام 1839 أي قبل احتلال مليانة بسنة فقط. «فالبناية الرئيسيّة كان لها 25 مترا طولا و8 أمتار عرضا وهي من حجر غير منحوت وكانت مغطاة بالقرميد لها واجهة عصرية تماما ذات ثلاثة أروقة على شكل واحد كاملة العقد، ولها خمسة مواقد من النوع الكَتَلاني يزوّدها خرطوم عُلُو قواعده ستة أمتار ويأتيها الماء من الجهة الشرقية والماء عند خروجه من الصهريج يحرّك مِطرقا عُثِر بقربه على بعض التصاميم الاولية للحِراب وقد اكتُشِفت بناية صغيرة في الزاوية الشمالية الجنوبيّة قليلة العلوّ مساحتها 30 مترا مربعا كانت مشغلا لعمال الخشب. وكانت هذه المصهرة تستخدم معدن الحديد المستخرج من زكّار. . . وكان يربطها بالمدينة طريق متقنة[50].

وكان مديرها المسمّى الكي كاز Alquier Case مُهندس فرنسي هارب اعتنق الاسلام. وكان بمليانة يومئذ أكثر من مائة هارب يزداد عددهم كلّ يوم بفضل أسلوب الأمير لاغوائهم بإلقاء الرسائل على منازل الجيش الفرنسي يذكر فيها الوعود بدفع النقود وإسناد الرتب لمن يأتي إليه وكان ألْكي كاز من دُعاته الناشطين[51].

مليانة في سنة 1841/1257

55 - كيف كانت مليانة يوم احتلّها جيش فرنسا ؟ لقد خصّها بالوصف الدكتور لُبْران أكيلاس Lebrun Aquilas في ثلاث مقالات نُشرت في جريدة «المونيتور ألجريان» "Le Moniteur Algérien" عدد 14 ديسمبر 1841 وما بعده. وكان هذا الدكتور طبيبا عسكريا في فيلق الاحتلال. فقال إنها في ارتفاع 900 متر ولها من جهتي الشمال والشرق سور من حجر وملاط أصمّ إلى حدّما سَمْكه متران ونصف وعلوّه سبعة أمتار وفي الزاوية الشرقية الشمالية حجرة منحوته أصلها من المدينة الأزلية وبقايا أبراج مربّعة ناتئة منها برجان مازالا صحيحين وأمّا باقي السور فمن تراب سمكه ستّون سنتمتر وعلوّه قليل وهو في

حاجة إلى الاصلاح وفي جنوب المدينة كهف من صخر يُشرف على واد عميق. . . وأمّا الديار ففي أدراب وأزقّة ضيّقة ملتوية. وللمدينة ساحتان عموميّتان ساحة باب وهران التي كانت سوقا وبها فندق وساحة ثانية بها النادي العسكري الفرنسي وبهذه الساحة روضة. وفي الساحة الأولى حَوَر هولنْدي دائرته أربعة أمتار ونصف وعلوه ثلاثة أمتار ونصف. وأهلها حضر ومعهم ثلاثون أسرة من القراغلة وستّون أسرة من اليهود التجار وبعض الأسر من بني زُقزُق وبني مناصر. وللديار طابق أرضي (سفلاني) وطابق أول (عُلُوّ) وقد أحرقت عام 1840. وكان السكّان فيما يبدو في الستر والرخاء ولكلّ دار باحتها الداخلية وأروقتها على أساطين من حجر أو من أجرّ وأمّا الرخام فنادر والحيطان من تراب والسقوف من خشبات مركبة ومن القصب على الاسلوب الايطالي وفي كلّ باحة داخلية عين وأشجار من تين أو برتقان أو عريش. قال: «لقد رأيت عريشا دائرة جذعه متر وثمانية وثلاثون سنتمتر وعلوه خمسة أمتار وفي كل مكان بئر لكن في غالب الأحيان جافّة. وللمدينة عدّة مساجد أعظمها المسجد الكبير الذي حوّله الجيش الفرنسي إلى مخزن للمؤنة ومسجد الأتراك الذي صار قاعة تمثيل ومسجد ثالث صار قشلة هذا فضلا عن مساجد أخرى عديدة وأضرحة أولياء كضريح محمد بن أبي القاسم وضريح القلعي وضريح ابن يوسف الذي له خلايا وقبور حطّمناها ومن بينها قبر والد علي المبارك أوجدّه باي مليانة (لعلّه قبر علاّل والدِ محمد بن علاّل). والسناجق التي كانت هناك نُقلت إلى قمّة زكّار ووضعت بالضريح (لعله يعني مزار سيدي عبد القادر). والقصبة على شفاف صخرة وعرة في جنوب المدينة يحيط بها سور سميك من تراب طوله 70 أو 80 مترا وبها بعض القاعات المقبّبة ولها مسجدها».

56 ـ هذه تفاصيل خلّفها لنا الدكتور أكيلاس. فيا حبّذا لو استطعنا أن نقابلها بما يماثلها من المصادر العربية ولكن مع الأسف لم يتأت لنا هذا وكلّ ما عثرنا عليه هو بعض الاسطر في مرآة حمدان بن عثمان خوجة قال: «يتّسم سكّان مليانة بنوع من العِناد. أرضهم خصبة للغاية وهم فلاّحون وثمرهم ممتاز. لا يمارسون أيّ نوع من أنواع الصناعة وليس لهم حرف غير تجفيف الفواكه وصناعة نوع من المعجون بعصير العنب واللوز يمكن الاحتفاظ به طوال السنة. مناخهم صحيّ (انظر حمدان بن عثمان خوجة ص 96).

ألْفنْس دودي Alphonse Daudet في مليانة

57 ـ وهناك شهادة ثالثة مفصّلة واقعية جدّا أدلى بها شاهد عيان عن مليانة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي وبالضبط عن مصيرها بثلاثين سنة بعد فَرْنستها. وهذا الشاهد كاتب فرنسي كبير شهير. هو ألفنس دودي مؤلف **«رسائل رحاي»** *Les lettres de mon moulin* **«وترتارا دي تارَسْكو»** *Tartarin de Tarascon*. أتى به إلى الجزائر فمليانة طلب الشفاء ممّا أصابه في حلقه. فأبحر يوم 19 ديسمبر 1861. فتجوّل في الساحل وفي غابات البرتقال حول البليدة وزار شفّة وساقية القرود وقصد مليانة ومنحدراتها الخضراء وبساتينها بما فيها من أزهار كدوّار الشمس ومن أشجار كالتين وكل ذلك شبيه بما في حقول بروفنس Provence وكان يرى من هناك سهول شلف الشاسعة. . . فاتّصل في مليانة بالآغا سي سليمان بن صيام وسي عُمر الباشا فمكّناه من الدخول في المجتمع الحضري. فأقام بمليانة شهرين تقريبا. فوصفها في رواية قصيرة عنوانها **«بغلة القاضي»** *La mule du Cadi* نشرها في 1862-1863 وأخرى عنوانها **«المدينة الصغيرة»** *La petite ville* نشرها عام 1864 ثم غيّر عنوانها وجعله **«مليانة»** *Milianah* وأدرجها في **«رسائل رحاي»**. وفي مطالعة رواية **«مليانة»** الكفاية لمعرفة ما للكاتب من حدّة البصر وشدّة الاحساس وسداد الحكم. فإنه رسم لوصف ما رأى سبع لوحات:

في اللوحة الأولى: الساحة الكبرى وموسيقى الفوج الثالث من جيش ثالث الصف La musique du 3e de ligne كانت تعزف دون التفات الى المطر المتهاطل عليها. وكان الجنرال وبناته يستمعون لها وينظرون إليها من نافذة داره بينما رئيس الدائرة يروح ويغتدي برفقة قاضي الصلح وبعض الصبيان من العرب شبه عراة يلعبون بالكرات في زاوية الساحة ويصرخون بأصوات وحشية ويهودي عجوز عليه أطمار جاء يبحث عن شعاع الشمس. هذا وعدد الحاضرين ضئيل لغيبة المسلمين.

في اللوحة الثانية: سي عمر أمير حقيقي أبوه كان دايا بالجزائر خنقه الانكشارمة. وكان سي عمر ثريا إلى غير حدّ وقد أفلسته الحرب وما جرى له مع عبد القادر حتى لم يبق له من ثروته إلا مزرعة في سهل شلف ودار في مليانة

يعيش فيها عيشة الحضر. . . ويتمتع باحترام الرؤساء العرب. إذا اشتدّ نزاع بينهم اتخذوه حَكَما لا يردّ. وفعلا اختصم قائد بني زُقزُق ويهودي عجوز من مليانة من أجل قطعة أرض وكان لليهودي لحية دكناء وصدرة بندقية وجوارب زرقاء وطاقية من قطيفة. وبعد أن رضي بحكم سي عمر تراجع وقال إنه يفضل حكم قاضي الصلح الفرنسي. فتشاجر مع أحد الحاضرين وهو إصباني فهرب خائفا من ضجيج الجموع من مالطيين وماهونيين وسودان وعرب وكلّهم متّحدون في بغض اليهودي. . .

في اللوحة الثالثة : حارة اليهود وقد أحدثت بها قضية صاحبهم اضطرابا فلم يبق منهم واحد في دكّانه لا الطّراز ولا الخيّاط ولا النّجاد. فكل إسرائيل في الشارع الرجال بطاقية القطيفة وجوارب الصوف الزرقاء يكثرون من الحركة والهذر. . . والنساء صفراء الملامح قاماتهن متصلّبة تصلّب الأوثان الخشبية وجلابيبهن مستوية بالصدريّة ووجوههن مشمولة بحواش سوداء وهن يتنقلن من جماعة إلى أخرى يموْن مُواء الهِرَرة وأخيرا قرّروا الذهاب بالشيخ العجوز لا إلى الطبيب بل إلى وكيل منهم يقوم مقام المحامي ووكيل الدعاوي والسمسار والخبير الباحث والترجمان وكاتب الرسائل للعامّة. فهو كل شيء في المستعمرة. ثم أضاف دودي قال : «هذا الصنف كثير في الجزائر كالجراد المنتشر ومنه بمليانة فقط عشرات» «وحتى لا تلزمهم مصاريف المكتب فإنهم يستقبلون زبائنهم بمقهى الساحة الكبرى ويسلّمون لهم فتاويهم - هل يسلّمونها ؟ - بين شراب الافسنتين وشراب الشمبورو !».

في اللوحة الرابعة : ترجمان فرنسي بَطِر ورديّ الملامح جعد الشعر فارس في الجيش يواجه في مكتبه العربي قضية بطلاها عاريان يصرخان بشدة كلاهما تحت غطاء واسع يشرحان بفكاهة وحماسة قضية موضوعها سبحة مسروقة. ثم هناك مشهد ثانٍ بالمخدع لا يقلّ اضطرابا بطله أهلي طويل القامة شاحب الوجه فخور له برنس أسود قد حارب من قبلُ عسبرا بزكّار وجرح ولهذا يأتي بكرة وأصيلا للعلاج. وفي كل مرّة يستوقفه الناس في الفناء لسماع قصّته من جديد. فيعيدها بصوت خافت جميل حلقي ويزيح من حين إلى حين بُرْنسَه ليظهر ذراعه الأيسر مربوطا على صدره ملفوفا بقماش مضرّج بالدم.

في اللوحة الخامسة : سيل شديد يفاجئ سائحا فيلتجئ تحت أقواس فناء عربي بجانب المسجد وهناك يجتمع صعاليك الاسلام حتى أن المكان

سمّي «فناء الفقراء». آمتد الصعاليك على الثرى أكواما وها هو السائح وحوله كلاب سلوقيّة ضامرة مغطاة بالقمل كأنها تتهدّده بشراسة وبجانبه آمرأة جميلة أو كادت وترائبها وسيقانها مكشوفة وبمعصميها أساوير وبكعبيها خلاخيل وهي تغني أغنية عربية ثلاثية الايقاع محزنة وفي نفس الوقت ترضع صبيّا عاريا كأنه من قلز ومن جهة أخرى تطحن الشعير بذراعها الحرّ في الرحى الحجرية.

في اللوحة السادسة : آغتنم السائح فهوة لمغادرة «فناء المعجزات» هذا ومضى إلى منزل صديقه سي عمر لتناول عشاء فاخرا بقاعة طعام بابها مفتوح على فناء حضري أنيق يفرفر فيه نبعان أو ثلاثة. فالوجبة تركية فاخرة لاحظ من بين ألوانها فرّوجا باللّوز وكسكسا بالفنيلا ومحشوا باللحم ثقيلا لكنه لذيذ المذاق وقُنَيْدلات بالعسل يقال لها «أذيْنات القاضي». وأمّا الشراب فالشمبان لا غير. يتناول سي عمر منه نصيبا بالرغم من حرمته في الشريعة الاسلامية وذلك عند صدود الخدم. . . ينتقل الضيوف بعد العشاء إلى غرفة رب البيت وهناك يقدَّم لهم المعجون والغلايين والقهوة. . . وأثاث الغرفة من أبسط ما يكون : ديوان وبعض الحصائر وسرير مرتفع جدا عليه وسادتان صغيرتان حمراوان مطرّزتان بالذهب. . . وعلى الحائط لوحة قديمة تركية تمثل بطولات شخص يقال له حمادي أمير البحر (لعله حمّيدو).

في اللوحة السابعة : المسرح الذي كان من قبل مخزنا للتبن والحشيش رتّبوه ترتيبا بسيطا، يأتيه بصيص من الضوء من نباريس ضخمة مملوءة بالزيت في وقت الوقوف من التمثيل. والممثّلون جنود من الفوج الثالث يلعبون بنشاط بخلاف الممثّلات فإنهنّ مقصرات لا سيما يهوديتان فتاتان مبتدئتان تبقيان خجلتين في زاوية الملعب وجهاهما مخضبان بالمسحوق وترائبهما عارية وهما متوتّرتان ينبسان من حين إلى حين بجملة لا تفهمان معناها.

وبعد التمثيل يمضي دودي إلى النزل محاذيا للسور متمتّعا بنظرة أخيرة للمدينة النائمة ويشتمّ رائحة زهر البرتقان والعرعار آتية من السهل. فالهواء طيب والسماء صاحية. . . وفي منتهى الطريق ينتصب شبح سور قديم بقي من معبد عتيق. وهذا السور مقدّس تزوره نساء العرب كل يوم وتعلّق عليه خرقا من حائك أو من فوطة أو سبائل من شعر أشقر مربوطة بخيوط من فضّة أو قطعا من برنس. . .

هكذا قضى دودي يومه بمليانة. . . يصف الأهالي السذّج ومنهم من

يستحقّ الوصف ومنهم المسكين السخري. . . ووصفه لهم يتجلّى أكثر في قصّة «**ترتارا دي تارسكو**» فقد جاء بطلها ترتارا إلى الجزائر لصيد الأسود. . . وقصد مليانة وسار في شوارعها العريضة المحفوفة بالأشجار العظيمة ورأى ما هناك من عيون خرارة حتى فوجئ بمشهد أسد مُسنّ داجن ضرير يقوده الشحّاذون. فغادر المدينة في اليوم الثاني ومعه قريقوري دي منتنيقرو Grégo-rie de Monténégro. فنزل إلى سهل شلف من كدية جميلة بما فيها من الياسمين والعرعار والخروب وما يحيط بها من بساتين الأهالي وآلاف العيون. . . ولمّا انتهى إلى السهل قصد سوقا على شاطئ شلف رأى فيها نحو الستة الآف من العرب في أطمارهم يزغدون في الشمس ويتساومون على جرار الزيتون الأسود وقلل العسل وأكياس التوابل وأكداس السقائر الغليظة. والنار مؤججة لشواء الكِباش كاملة بالسمن السائل عليها. ومجازر في الخلاء وبعض السودان عُراة وأرجلهم تتخبّط حافية في الدم وأذرعهم حمراء وهم يقطّعون بسكاكين صغيرة جديانا معلّقة على الحمّارة. . . طالت مغامرة ترتارا نحو الشهر في طلب الأسود بدون طائل من دوار إلى دوار خلال تلك الجزائر الفرنسية الفاخرة حيث امتزجت روائح الشرق البائد برائحة شديدة من الأبسنت وقشلة العسكر. فكان هناك مشهد وأي مشهد لمن يريد أن يرى. . . «شعب وحشي معفّن جئنا لتهذيبه وتمدينه ولنعطيه عيوبنا». . . فإن السلطة الضارية بدون مراقبة المسندة إلى الباشاغاوات الوهميين الذين ينسرون أنوفهم بوقار في حاشية جوق الشرف العريضة والذين يحكمون على الرعية بالفلقة من أجل نعم أو من أجل لا ـ وعدالة القضاة المسلمين الذين ليس لهم ضمير وإنما لهم نظارات غلاظ ينافقون القرآن والشريعة وبالهم في 15 أوت لارتقاء سلّم النياشين وهم يبيعون أحكامهم بيعا. . . بصحن من عدس أو من كسكس. والقوّاد الفجّار السّكّيرون الذين كانوا من قبل يمسحون أحذية جنرال كالجنرال يوسف أو من يشابهه ويسكرون بالشمبان مع الغسّالات الماهونيات ويتزوّدون بالمشوي بينما يكون الدوار بأسره تحت الخيام يموت جوعا والكلاب السلوقية تترامس على فضلات ضيافة السادات. . . وحول المكان سهول بائرة وأعشاب محروقة وأدغال خالية كلها صبّار وضرو. . . هذا هو نِبْر فرنسا ـ مطمورة خاوية من الحبّ وا أسفاه. . . وأعراش مروّعة راحلة إلى مالا علم لها به هاربة من الجوع زارعة في طريقها جثث الأموات. . . ومن بعد إلى بُعد قرية فرنسية بديار متخرّبة وحقول باقية بورا والجراد متكالب لأكل

كل شيء حتى ستائر النوافذ وجموع المعمّرين رابضون بالخمّارات يشربون الابسنت ويتجادلون في مشاريع الاصلاح والدستور.

هذه لوحة رسمها دودي متبصّرا فطنا موضوعيّا عن ناحية مليانة خاصّة وعن الوطن الجزائري عامة بعد ثلاثين سنة فقط من ابتداء الغزو الفرنسي. فمن وراء المغامرات المضحكة التي يقوم بها بطله ترتارا نراه ينفي أقصوصة الاستعمار ويندّد مزاياه المزعومة واذا كانت الأبواق الرسمية تعلن فضل الأحدوثة الاستعماريّة فهو لا يرى فيها إلا نتاجا للقوة الحربية. وما نما هذا النتاج دوما الاّ على ظهر الشعب العربي المسلوب المنهوب المطرود المسيّب لشره موظّفين محلّيين دأبهم الرشوة والدعارة يجرّدونه تجريدا. والمعمّرون الذين أقبلوا للاستيلاء على الأراضي المنزوعة المغتصبة لم يعمّروها كما يقال عادة وإنما هم شرّيبون مدمنون همّهم الأول الجدال السياسي داخل الخمّارات قبل خدمة الأرض التي سلّمتها لهم الحكومة بسخاء.

ها هي مليانة الفرنسية

58 ـ موقع مليانة بمرتفع مطلّ على ضاحية خضراء غنية بالمنتوجات الزراعية وعلوّها وما معه من مناخ لطيف ملائم وكونها بين سهل متّيجة شرقا وسهل شلف جنوبا وغربا بمثابة المفتاح كلّ هذا زاد من قيمتها في نظر الفاتحين الذين تناوبوا عليها وخلّفوا بها آثارا ظاهرة أو خفية في هندستها وفي دماء سكّانها.

59 ـ كانت مليانة ليلة استقلال الوطن مدينة صغيرة خطّطها الفرنسيون وفصّلوها حسب ذوقهم وجعلوا منها حاضرة خاصّة لهم على طراز مدنهم في جنوب فرنسا ولم يتردّدوا في أن طبّقوا عليها مسبّقا قواعد التخطيط التي سنّها من بعدُ هُصْمان Haussmann. فخطّوا أزقتها بالخيط خطّا مستقيما وجعلوها متقاطعة بزاوية مستقيمة وأحدثوا حولها الشوارع وغرسوا بها الساج فنما نموًّا عجيبا ومنحها محيطا من الظلّ والبرودة مرموقا وشيدوا بنايات عموميّة كدار البلدية ودار الدائرة ومدرسة تكوين المعلمات والمدرسة الابتدائية العليا للبنين ومدارس ابتدائية للبنين وللبنات وقشلة الجوق التاسع للقوّاسة والمستشفى والمسبح وعمارات للسكن الجماعي والحديقة العموميّة وسورا بأسلوب فوبان

Vauban عوض السور الذي خلّفه الاتراك.

هذه العملية الجراحية لم تبق إلاّ على قطعة صغيرة من الجزء الشرقي، فيها الآن بعض الأزقة الملتوية منها ما هو غير نافذ وبعض الديار القديمة من النوع «المورسْك» والدار التي صيّروها نزلا لشعبة الجيش بعد أن كانت على ما يقال سكنى الأمير الحاج عبد القادر والمنار المنتصب بساحة الساعة كشاهد على مسجد دمّروه وأخيرًا المسجد الوحيد مسجد سيدي أحمد بن يوسف.

60 ـ إلى الخامس يوليو 1962 كانت مليانة محلاّ رئيسيّا لدائرة من عمالة أورليانفيل Orléansville تمتدّ شمالاً جنوبًا من ساحل البحر بما فيه شرشال وقوراية إلى النجود العالية بما فيها ثنيّة الأحد وتيسمسيلت وشرقًا غربًا من واجر إلى وادي الروينة. وأكبر جزء منها كان لبلدية براز الممتزة التي كان لها من السكّان أكثر من مائة ألف نفس.

أما بلدية مليانة فكان لها عند نهاية الحرب العالمية الأولى من السكّان 8.824 نسمة من بينها 1.020 فرنسيا أصالة و744 إسرائيليا بالتجنّس (أي الحصول على حقوق المواطنة الفرنسية) و467 أجنبيا من أوربا تجنّسوا و981 أجنبيا و5.414 أهليا (أنديجان) و198 مغربيا.

وكانت حياة الحاضرة كلّها منظمة لصالح غير المسلمين. دوالب الحياة العمومية بيد النصاري في أوّل الأمر ثم بعد مرسوم كريميو Décret Crémieux بيد اليهود جزئيا بما في ذلك أزمّة الحلّ والعقد والوظائف الرفيعة والوضيعة والمقاولات الاقتصاديّة والمؤسسات الاجتماعيّة. كل هذا كان شأنهم الخاصّ.

وكان شيخ البلدية طبعا غير مسلم وكان مساعداه غداة نهاية الحرب العالميّة الأولى كارو Carru وجردان Jourdan وكاتب البلدية ن .N (غير مسلم) للأحوال المدينة الأوربية وبجانبه بوشناق سليمان للأحوال المدنية الأنديجانية ومهندس الطرق لوساج Lesage ومحافظ الشرطة سارازان Sarazin. والمسؤول عن الانارة الكهربائية مركال Merkel والبيطار بن دانو Ben Danou (يهودي) وبمصلحة الضرائب البلدية برنهاردت Bernhardt وقيتّون Guitton ودادون Dadoune ورجال المطافئ فرنك Franques وبرتولي Bartoli وقاضي محكمة الزجر الخاصة بالأنديجان سارازان Sarazin ومُعلّق المناشير العامّة مرسي

Mercier ووكلاء السمسرة بناديرة قابريال Benadira Gabriel وقرازياني Graziani وسنانج Senanedj والمزارعون ادريان Adrien وكازانوفة Casanova وشالوم Chaloum ودنجي Danger وهوقون Hugon (الورثة) ولافون Lafon وملبار (ف.) Malbert (F.) ومريني Marini (امرأة) ـ ورستيكلّي Restichelli وسرلات Sarlat وسبيارد Spiard ومركادال Mercadal وفولكان Vulcain. ووكلاء التأمين أندري André ودهان Dahan وفريمنتان Frémentin وقرازياني Graziani والمصرفيون بنيشو Benichou وشتريت Chetrit وسنانج Sénanedj والصياغون بنطوليلة Bentolila ودومونت Dumount وحطّاب الدفء اسكريفة Escriva وفرنكو Franco ومنقوال Mengual وخشب البناء بُونفوا Bonnefoy ودولاطور Delatorre وليورات جوزاف Llioret Joseph والخبّازون شيش Chiche وقويار Guiyard ولوز Lauze ونافارو Navarro والسرّاجون جيراردان Girardin وليناراس Linarès وصنّاع اللبنات أفايا Aveilla وطنبوريني Tambourini وأرباب الحانات قبّي Gobbi وكولون Coulon وبرتّلد Barthold ولاروس Larousse وزكري Zekri وسكوت Scott وميقلياريو Migliario ومُلا Molla وللنادي المدني تروش Trouche وباسة Bassa ودوكنوا Duquenoy ونجارو الخشب دولاتور Delatorre وليورات Lioret وماتو Matoux والحدّادون شيشة Chicha وبونفوا Bannefoy وليورات Lioret وبيراز Peres وبائعو الأحذية بجايي Bedjaï بناديرا Benadira ولسكار Lascar ودرعي Draï وفراندو Ferrando وبائعو الجير دياز Diaz ودوكنوا Duquesnoy وطنبوريني Tambourini والحلاّقون بنتوليلة Bentolila وغناسيا Ghenassia وفريسيني Fraissieret وباليي Pallier وبائعو الحلويات فابر Fabre ورامون Ramou والسكاكيني برداس Bordas وبائعو المياه المعدنية مادام كارو Carou سيشي أنري Siché Henri ـ القصادرة قيقي Guigui (يوسف) ولايك Laïck ومكلوف (مخلوف) Makhlouf وزناتي Zenati•وأوباديا Obadia وسعيد Saïd ومساحو الأراضي كور Court وفابراق Fabrègues والأطباء دنجي Danger وريدار Rédar وريشار كابانيس Richard-Cabanis والميكانيكي لوش Louche الخ. . . ومن الأنديجان فلاح واحد هو الشرشالي أحمد وبائع لُعَب قوجعلي وخباز الساعودي وتاجر في الحبوب الشرشالي محمد وطحّانان هما الشرشاليان وأربعة صناع التبغ هم عزيزي والحاج مولود بن نابي وإسماعيل دهلوك محمد ومصطفى بن نابي وكان في الضاحية سبعة وثلاثون مزارعا للكروم كلهم غير مسلمين ـ ولاحاجة إلى التعليق.

وكان للشوارع والأزقة أسماء فرنسية بحتة : سان بول ـ سان جان ـ كليبار ـ فالي ـ فلوروس ـ موقادور الخ . . . وهناك أيضا كافي ليوني ـ وكافي دي كومرّس وكافي دي بروقري ـ وأوتال دي لابي ـ الخ . . .

61 ـ المسلمون المدعوون «أنديجان» ـ وهم يمثّلون ستّين في المائة من المجموع كانوا على الهامش معزولين في الضاحية معاشهم من خدمة البساتين أو كأجراء صغار من عمّال زراعيّين ومنجميّين وكنّاسين للأزقّة ومسّاحين للأحذية وحمّالين ورجال شقاء وشحّاذين . . .

وما بقي منهم داخل الحاضرة إلّا بعض الصعاليك وبعض الأسر من طبقة الحضر الصغرى إذا ما حصل ربّ البيت منهم على منصب مساعد العدالة كترجمان أو قاضٍ أو شاوس أو مساعد الادارة كخوجة أو قائد أو مخازني أو ترصّع بها كعطّارٍ أو تاجر في الحبوب أو بائع تبغ أو خبّاز أو طبّاخ أو بزّاز .

وما أهملوا شيئا لابقاء الأنديجان في أسفل منزلة ليعادلوا بذلك أكثريّته . وكانت التفرقة هي القاعدة المطّردة بين الفئتين سواء في الحياة العمومية والخصوصيّة . هناك رسميًّا مدرسة ابتدائية فرنسية فيها الدراسة . واجبة على سائر أبنائهم ومدرسة ابتدائية للأنديجان لا تأوي أكثر من عشرة في المائة من الأولاد الذين هم في سنّ الدراسة والنتيجة فيها ضئيلة . فان الشعار الجمهوري الشهير : «الحرية والمساواة والأخوة» المسطّر في جبهة كلّ بناية عامّة وحتّى في نقود العُملة لا يعني الاّ غير المسلمين من فرنسيين أقحاح وأصبان وطاليان ومواطلة ويونان والى حدّ ما من يهود مندمجين .

فالطرحة La Tare إنما هي الاسلام كان يجب محوه من الأذهان بطرح روح الأنديجان من تأثيره وحمله على إهمال أوامره وانتهاك نواهيه لكي تصير الواجبات والمحرّمات في خبر كان وذلك بفتح الخمارات التي كان النصارى واليهود يستغلّونها فيجدها الانديجان مفتوحة له على مصارعها سواء كان يافعا أو صبيا يباع له فيها شراب الكحول «بالكأس أو بالطاس أو باثنيهما» لتبذير دخله الحقير وتعريض ذاته للأمراض وخُلُقه للفساد .

وهناك أدهى من كل هذا . كان داخل الحاضرة بجوار سكَن الأنديجان

وبجانب المدارس الخاصة بهم عشر معاهر (ديار المسامحة في لسانهم) لافساد النسل وإتلافه .

وبما أن قيم الاسلام الخلقية مضبوطة بلغة الضاد وجب السعي لحمل الأنديجان على نسيانها بجعلها أجنبية في عقر دارها لا يسوغ تدريسها إلّا بمقدار وبصفة استثنائية ولا محل لها في الطرق العمومية حيث كلّ شيء مزبور بالحروف اللاتينية في لغة المنتصر الغالب .

من وراء هذا كانوا يداعبون الأمل في تجريد الأنديجان من إسلامه وسلخه من عروبته دون تنصيره أو فرنسته إلّا نادرًا لأن في التنصير والفرنسة وسائل للمساواة ولأن الهدف تكوين شخص لا ماضي له ولا مستقبل وتسخير فدّاد يدفع لسيّده الاتاوة اللازمة ويؤدّي الكلفة التي يأمره بها . فهل كان الاستعمار الذي مارسته النصرانية .ابتداء من القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي شيئا آخر غير استغلال شعب ضعيف أو مستضعف لفائدة شعب أقوى منه ؟

الجزائريون الذين جاوزوا خمسة وأربعين سنة عام 1988 ما زالوا يذكرون حياتهم اليومية البئيسة في نظام الاستعمار ذلك النظام الذي آنهار في منتصف القرن الرابع عشر الهجري العشرين الميلادي في ظروف غالبها مأساة فخابت بانهياره أحلام محرّضيه وأنصاره القائلين إنه نظام أبدي . فقد تهاوى جهازه السياسي الديني في الجزائر يوم الخامس يوليو 1962 .

مليانة جزائرية من جديد

62 ـ بدأت يومئذ مليانة كغيرها من مدن الجزائر حياة جديدة فأصبحت محلًا رئيسيًا لدائرة من ولاية الأصنام (التي سمّيت من بعدُ ولاية شلف) ثم أصبحت في ربيع 1984 من ولاية عين الدفلى ـ فما في كلّ هذا إلّا تعريب للمفردات الادارية كما قيل من قبل . وتقلّصت مساحة دائرتها من أجل إنشاء دائرات أخرى مجاورة لها . هذا بسبب تكاثر الشعب الجزائري بصفة عامّة وقد فات عدد سكّان بلديّتها الثلاثين ألف نفس .

63 ـ لم يبق بها أثر لمعمّر قديم لا نصراني ولا يهودي ما عدا نصرانيا واحدا

مهنته طبيب[52]. فكلّهم فرّوا أثناء الجلاء عام 1962 وخلّفوا الأراضي والديار وبعض الأثاث واللغة الفرنسية في أفواه أقليّة من الأنديجان ذلك التعمير الوحيد الذي تساخوا به بالتقتير والذي بقي بعدهم كذكرى لاقامتهم أكثر من قرن. فقد ذهبوا في الزوبعة المؤتفكة مثل ما أقبلوا أو كما قال كُرْناي Corneille : «غدا بهم المدّ وراحوا مع الجزْر».

64 ـ ليس إذن بمليانة إلّا المسلمون ينتمي بعضهم إلى أصل عربي صرف وبعضهم إلى أصل بربري وبعضهم إلى أصل تركي ولكن لا يخطر ببال أحد الارتقاء بنسبه إلى القرطاجنيّين أو الرومان أو الوندال. فالاسلام ـ والاسلام دوما ـ هو الفرقان الفاصل بين طبقات الأمم بصفة نهائية. وهناك بعض الأسر تنتسب إلى أصل أندلسي ظنّا منها بأن ذلك يضفي على أفرادها فضلا خاصّا مرجعه إلى «الفردوس المفقود» الذي لم ينسه ولن ينساه أحد في العالم العربي[53].

65 ـ الفراغ الذي خلّفه فرار «الأقدام السوداء» لم يكن كارثة كما تنبّأ بذلك غير واحد بل سرعان ما سدّت الفجوة وبدون صعوبة عظمى. فالادارة العامّة يسيّرها مجلس شعبي بلدي منتخب بتصويت عمومي يباشره منتخبون ومنتخبات والعدالة تسيّرها محكمة للمرافعة الابتدائيّة لها رئيس ووكيل دولة وكاتب ضبط وهيأة محامين والأمن تسهر عليه محافظة شرطة وكوكبة من جنادرة.

وبمليانة الآن عدّة مدارس ابتدائية للبنين وللبنات يدخلها جميع الأولاد الذين هم في سنّ الدراسة. وبعدها عدّة مدارس تعليم متوسّط مماثلة لمدارس التعليم الثانوي الفرنسية. وبعدها ثانوية للبنين وثانوية للبنات كلّ هذا بنظام المدرسة الأساسيّة لفرض التعليم الاجباري طوال تسع سنوات. فبالرغم من تكاثر النسل المفرط فندّت الجزائر في هذا المضمار الضرورة المزعومة لتبرير الشحّ الاستعماري الذي كان يفرض على تسعة أعشار من أولاد الأنديجان تربية النهج العمومي والأمّيّة الأبديّة. فباب التعليم مفتوح على مصراعيه لصغار المليانيّين مهما كانت وضعية آبائهم الاجتماعية واللغة العربية التي هي أساسا روح هويّتهم ليست الآن أجنبية وتعليمها مضمون في سائر المستويات.

يجب التنبيه بأن المليانيّين أجمعين يتكلّمون بالعربيّة الدارجة ومنهم من

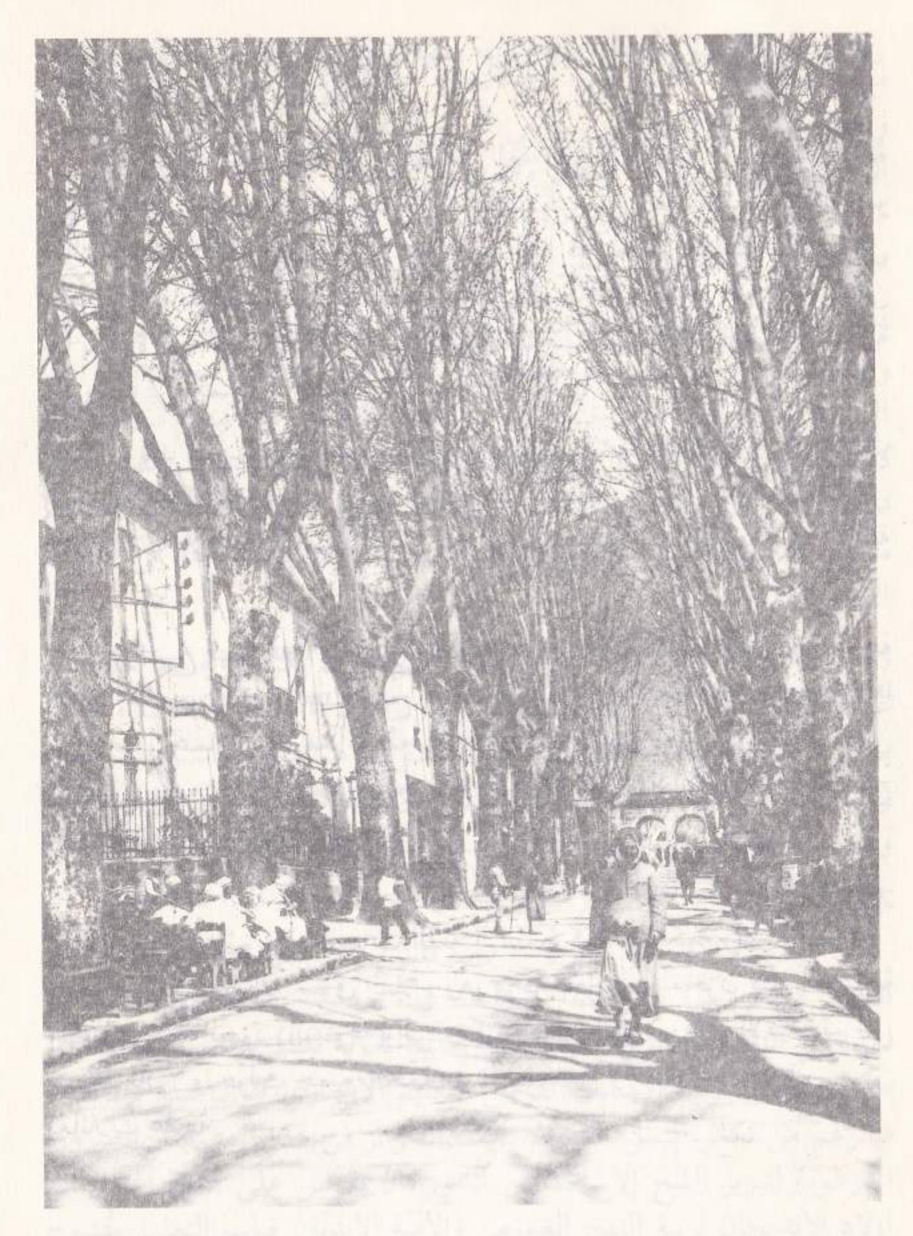
يحسن معها البربريّة ولكن ليس فيهم من يحسن التركيّة التي بقي منها في الدارجة أقلّ من مائتي كلمة[53].

والعربيّة المدروسة هي الفصحى لغة القرآن المدعوة رسميا «اللغة الوطنية» التي يجب نشرها بجميع الوسائل بالتعليم وبالصحافة وبالراديو وبالتلفزة وبالكتاب الخ... ولا مانع مع هذا من تعلّم اللغات الأجنبية بل بالعكس. فالفرنسيّة ما زالت مفضّلة بامتيازات خاصّة وقد زاد عدد المتكلّمين بها بعشرة أضعاف منذ 1962 وإلى جانبها مستحبٌّ تعليم الانجليزية والاسبانيّة والروسيّة في المستوى الثانوي.

66 ـ لقد تعرّب المحيط بالتدريج واصطبغ بصبغة إسلامية. فللمحلات التجاريّة لافتات بحروف عربية وبالعربية الفصحى لا غير (بقّالة عوض Epicerie ـ حلاق ـ قصّاب ـ لبّان ـ مجوهرات ـ مقهى ـ مخبزة ـ مواد غذائية الخ...).

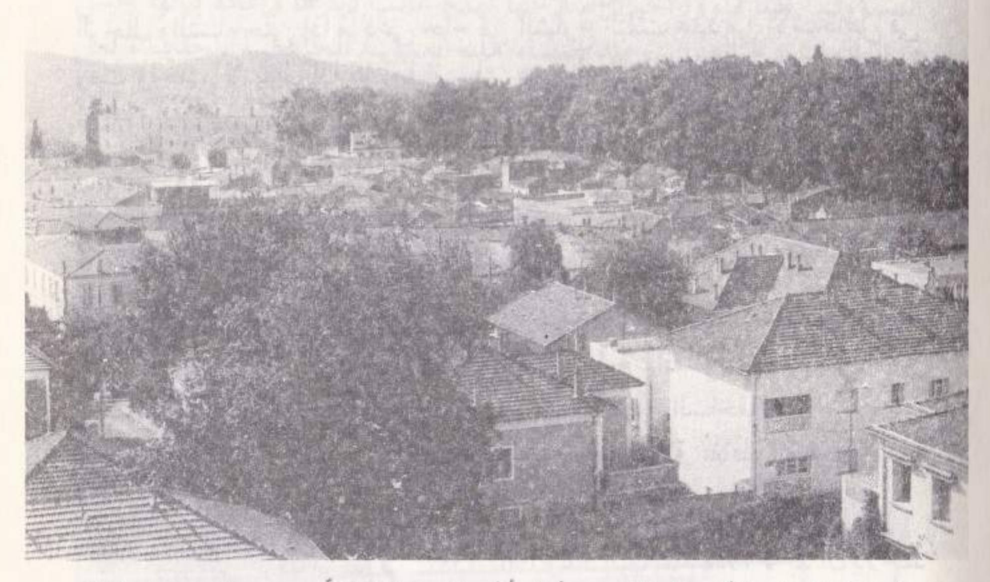
وأصبح نهج St. Paul شارع الأمير عبد القادر و La Place Carnot ساحة الأمير خالد و la rue St. Jean نهج قسط علي فوزي و la Pointe des Blagueurs ساحة علي عمّار (بطل معركة الجزائر العاصمة الشهير بعلي لَبْوانت الملياني الأصيل) ونهج فالي Valée أصبح نهج عبد الحفيظ شعبان ونهج Alger نهج أحمد الزواوي بن يوسف الخ...

محلات البلدية الممتزجة توزّعت موقّتا بين اتحاديّة جبهة التحرير الوطني ودار التوثيق (قد هجرت اللغة الرسميّة كلمة محكمة وكلمة قاض). وتحوّلت الكنيسية إلى سوق الفلاّح وهو مركز تجاري أو مخزن كبير المساحة وتحوّلت بيعة اليهود (الشنوغة) إلى «مكتب قراءة القرآن ومحو الامية» ثم الى مسجد ثان. وتحوّلت جميع الخمّارت الى مقاهي وجميع المعاهر إلى سكن لعائلات عفيفة.



نهج القديس بولس - حوالي 1920 في الشتاء وبه «مخازني» (أي فارس بالبلدية الممتزجة) في بدلته الرسمية (سروال وقنور) سائر الى ساحة الساعة.

La rue Saint Paul, vers 1920, en hiver. Un *mkâznî* (cavalier de commune mixte), en «uniforme» (*sarwal* bouffon et *guennûr*) descend vers la place de l'horloge.
Real - Photo, C.A.R. PARIS



شجر الساج بنهج الأمير عبد القادر ومن أجله سُمّي النهج «زنقة الظلّ».   تصوير علي خلية

Les platanes de la rue Amîr 'Abd el-Qâdir qui lui ont fait donner le nom de *zanqat aẓ-ẓall* (rue de l'ombre).   Photo A. Khélia

67 - أُحدِثت في الضاحية عدّة مصانع (للأدوات المنزلية وللمفرقعات وللسُّكّر) كثرت بها مناصب العمل لجميع من فيهم الكفاءة ولكلّ من يريد العمل ولا وجود لمسّاحي الأحذية ولا للحمّالين الشبّان (أولائك «اليَوْلاد» في لغة المستعمر) في ساحة الأمير خالد كما لا وجود في الأزقّة للشحّاذين إلاّ نادرا جدّا.

68 ـ مما يلفت النظر الآن بالنسبة للماضي غير البعيد هو أن الملياني صار مستهلكا مشغوفا بالخبز الأبيض واللحم والخضر والألبان والبيض والملابس العصريّة والأحذية وله في داره الغاز والماء والكهرباء والتلفزة وله السيارة والتلفون (الهاتف) والأثاث وله بيت الحمّام وغسّالة الأواني وهو يسافر كثيرا لا إلى فرنسا فحسب بل إلى كلّ مكان في العالم ويحج البقاع المقدّسة مرّة على الاقل ومرارا أحيانا في حياته بحيث أن لقب حاجّ وحاجّة عاد شائعا لكثير من الرجال والنساء حتى إذا ما دعي حاجّ في الشارع التفت عدد من الأشخاص في وقت واحد. لا يقال إن كل ملياني في هذه الحال لكن الكثير من المليانيّين صاروا إليها.

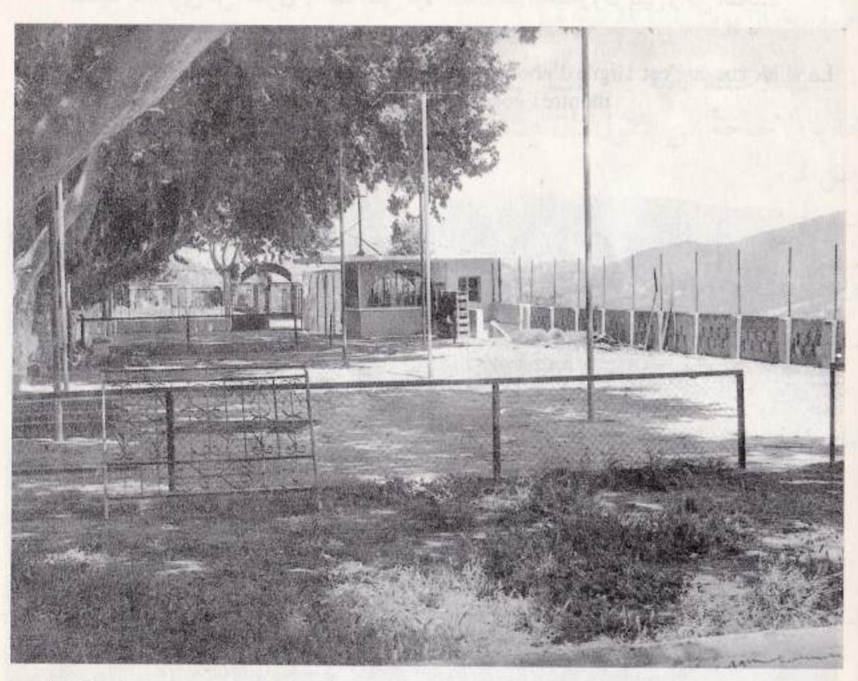
69 ـ هل «كلّ شيء جيّد في أجود عالَم» ؟ في التأكيد بهذا مبالغة. يا حبذا لو كان هذا. ألم تكن عواقب الاستعمار إلّا وخيمة ؟ فما الرسالة التهذيبيّة التي كان يتشدّق بها أعيانه إلّا خُدعة وكذب وبهتان. ولتكون الأحوال بعدهم جيّدة كان من اللاّزم أن يتلقّى الجزائري بصفة عامّة تكوينا مناسبا لما تتطلّبه الحياة في نهاية هذا القرن وأن ينال نصيبه من العلوم والفنون العصريّة. ومن التكنولوجية خاصّة. والحقيقة المرّة هي أن الأكثريّة الساحقة من الأنديجان كانت في يوليو 1962 أمّية جاهلة ليس في وسعها الالتحاق بقافلة العصر في مدة عشرين أو ثلاثين سنة.

وكلّ من عرف مليانة قبل 1382-1962 وعاد إليها عام 1988 لا بدّ أن يلاحظ ما فقدته من جمالها. فبعد أن كانت فرنسيّة عصريّة صارت أنديجانيّة تنتظر ارتقاء الأنديجان إلى مستوى الشعوب المتحضرة.

70 ـ انعزالها عن السكّة الحديديّة وعن الجادّة الوطنيّة وابتعادها من الأراضي الخصبة التي ترويها مياه سدّ غريب حرمها هذا من الاستفادة بالحركة الاقتصادية التي يحدثها القطار الحديدي والسيّارة وحرمها من منتوجات الزراعة في سهل شلف بينما استفاد تابعُها خميس مليانة من كل هذا وحلّ محلّها بالنشاط الاقتصادي المتزايد يوما بعد يوم. ومناخ مليانة اللطيف الملائم لا يكفي الآن للحفاظ على رتبتها العليا السابقة فهي محصورة في وظيفتها كرابطة عسكرية ومقرّ إداري لا غير.

71 ـ ومن جهة ثانية حدث تغيير عميق في تركيب سكّانها وفي مرأى

مساكنها وهذا ما اعترى جميع المدن الجزائرية مهما كانت أهميتها. لقد هاجر سكّانها الحضر بعضهم إلى البليدة والبعض إلى العاصمة وحلّ محلّهم ريفيون أقبلوا أفواجا من السهل ومن الجبل وصعب عليهم التحوّل إلى الحياة الحضرية ومتطلباتها. فظهر الخراب في الديار وفي الشوارع بسبب التقصير في الصيانة والحفاظ. وإضافة إلى هذا فان زلزال الأصنام عام 1980 قد أصاب كثيرا من ديارها القديمة وردّها غير لائقة للسّكن. ولم تخف هذه الوضعية على المسؤولين فقد قرروا أخيرا إصلاحها بهدم غالب ديارها وإعادة بنائها وليس هذا بالمشروع الهيّن. وعند انتهاء هذه العملية الجراحية الجديدة لعل المليانيين يتخلّصون من السباحة في الغبار الأحمر في أيام الشمس ومن التخبّط في الوحل في أيام المطر. ويا ليت هذا يتمّ في أمد غير بعيد.



«لا بوانت دي بلاقور» وقد أصبحت ساحة علي عمّار الملقب «علي لا بوانت» ومنها منظر شاسع الى الجنوب على سهل شلف وجبّال وانشريس (أي وارسنيس) وهذا المكان زاد في شهرة مليانة.
تصوير م. عريب

La Pointe des Blagueurs devenu Esplanade ʻAlî ʻAmmâr dit ʻAlî la Pointe d'où la vue s'étend, loin vers le sud, sur la plaine du Shalaf et les montagnes de Wânashrîs (Waresnîs). L'endroit a fait la réputation de Milyâna. Photo M. Arib



المدينة كما تُرى من الشرق : خط أفقي أولا للنجد ثم انحدار وعْر يبيّن رأس النجد.
تصوير علي خلية

La ville, vue de l'est : ligne d'abord horizontale du plateau, puis pente assez abrupte qui montre l'éperon. Photo A. Khelia



حي زُقّالة جنوب المدينة غارق في الخضورة ثم قرية حديثة مشمسة يسكنها الأجانب المساعدون (أسوج ـ بلغار الخ) في حجر هضبة سيدي سبع. تصوير م. عريب

Quartier de Zuggâla, au sud-est de la ville, dans la verdure, puis village récent, résidence au soleil de coopérants étrangers (Suédois, Bulgares etc...), au pied de la colline de Sîdî Sba'. Photo M. Arib

72 ـ هذا ولا بدّ للمليانيّين من بذل الجهود اللاّزمة لتنظيف المدينة عموما والمحلاّت العموميّة خصوصا كدار البلدية والمقاهي وسوق الخضر والفواكه وحتى الشوارع وغير ذلك.

73 ـ ويجب أن لا تبقى حاضرتهم طول النهار مفعمة بالشبان والكهول راضين بالبطالة والتكاسل بينما البساتين والمباقل مهجورة لا تثمر الفواكه والخضر التي آشتهرت بها مليانة حتى أن الكَرَز والعنب المسكي والرَّنْكلوط la Reine-Claude لا تظهر بسوقها إلا نادرا.

74 ـ **ملاحظة** : تطول الذيول بكرة أمام المخابز لانتهاب الخبز ولاحظّ لمن لا يبكّر أن يعثر على شيء منه وقت الضحى اللهم إلاّ إذا كانت له علاقة خاصّة بخبّاز يوصيه بليلة من قبل.

75 ـ **ملاحظة ثانية** : ربّات المنازل يعرفن اليوم انقطاع الماء ويهمّهن ادّخاره ولا حاجة الى القول بأن هذا لا يحلّ المشكل ومشكل الماء من مشاكل الوطن كلّه.

76 ـ **ملاحظة ثالثة وأخيرة** : ما عدا الموادّ المسمّاة ضرورية أولى التي تموّلها الدولة كالزيت والسكّر والحليب وكراء السكن فالأسعار عالية بالنسبة إلى الطاقة الشرائية عند الطبقات الوسطى.

هذه عدة حقائق تثير الشكوى وكثيرًا ما هي موضوع للمحاورة بين الناس وقد نسوا الحياة اليومية في الماضي وما كان فيها من شرّ وهوان.

77 ـ وإنهم يفسّرون هذه الحقائق كما يلي :

لم تتّسع المدينة لأنّ موقعها وعْر بجنب الجبل وهي نسبيا فقيرة من الأرض اللائقة للبناء حولها.

78 ـ هاجر سكّانها الحضر لأنّ الثورة أثارت في سائر الوطن حركة عامّة بالسكّان من الريف إلى القرية ومن القرية إلى المدينة المتوسّطة ومن المدينة المتوسّطة إلى الحاضرة الكبرى أو العاصمة.

79 ـ نال الخراب من الديار لأنها ملك للدولة (البايلك) والدولة لا تتقاضى

عليها إلاّ كراء طفيفا ولا تهتمّ بصيانتها وإصلاحها عند الحاجة. وأما المكتري فهو حضري حديث كان بالأمس في الأدغال وما زال يجهل كثيرا من نظام الحياة في المدينة وزيادة على هذا فالعائلة غالبا كثيرة النفوس. فانّه يكدّسها كما أمكن في فسحة ضيّقة ومع كل هذا ليس للسّكن الجماعي قانون معايشة ولا تكاليف كرائية ولا نقيب ولا حارس ولا ضريبة محليّة. والخلاصة هي ثروة عقارية طائلة معرّضة للضياع يوما بعد يوم.

80 ـ البرزوق والطريق في إهمال من سوء النظام في مصلحة الطرقات ومن قلة الأجرة للعمّال ومن عدم الكفاءة في مسيّري البلدية المنتخبين حسب مقاييس لا تهتمّ بالكفاءة.

81 ـ الشوارع والمقاهي عامرة دَوْما بالمليانيّين في قوّة السنّ يتذوّقون القعود وفنجان القهوة وكأس الشاهي ولعب الورق الاصباني والدومينو أو التثاوب أو يعانون ضيقة الروح. فما هي علّة هذه الظاهرة ؟ لا يسوغ القول بأنهم كلّهم مريدون للبطالة لكن ليس منهم من يعمل نهارا تامّا. فالظاهر أنهم يعملون لكن أقلّ ما يمكنهم ويتوقّفون لأتفه سبب ولغير سبب. فالمواضبة في بذل الجهود ليست شائعة كما ينبغي بل هم يحبّون الجولان في الشارع تجذبهم ساحة المقهى ومقاعد الحديقة العموميّة ويحبّون المحاورة والرواية وسماع النوادر ويتسابقون إلى نقد السلطة الحاكمة ونفش الادارة وهم مولعون بقتل الوقت بجميع الوسائل ويجهلون المثل «الوقت من ذهب» Time is money. فالحانوتي يخفض ستاره لأجل التسوّق أو لإعادة ابنه من المدرسة أو لأداء صلاته بالمسجد مرّتين أو ثلاثة في اليوم أو لاستنشاق الهواء أو لأجل قضية تافهة عند الادارة أو للتبلّه . . . وكلّ من الموظّف ومن العامل ومن الصانع يفعل هذا أو أكثر من هذا ما أمكنهم ذلك.

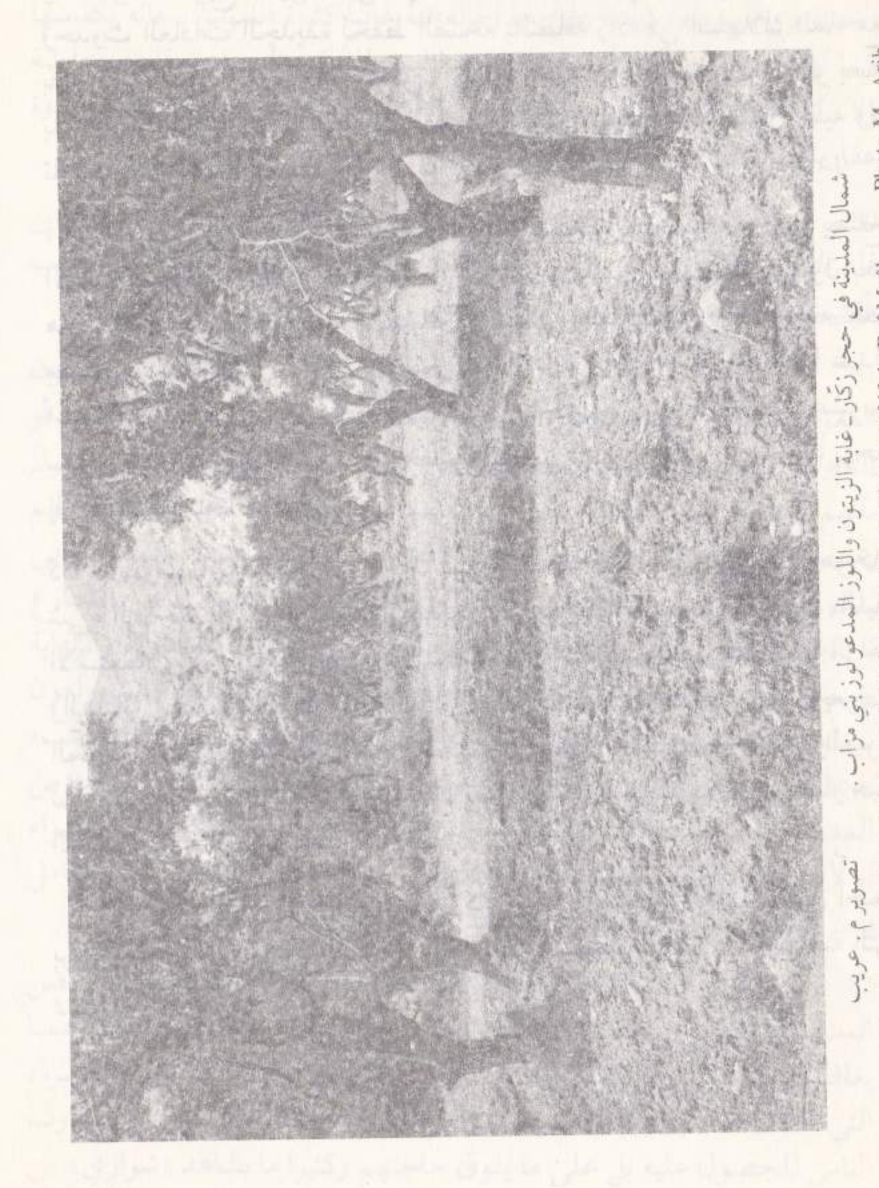
82 ـ تطول الذيول على الخبز لأن القضيب منه لا يساوي إلاّ بعض السنتيمات فأصبح رخيصا في نظر الحضري والريفي بعد أن كان كلاهما يعاف «خبز البولانجي» الذي كان يبدو لهما غاليا ورديئا بالنسبة إلى «الكسرة» التي كانت تعجنها ربّات البيوت. وأما الآن فقد اشتدّ طلبه وربّما يتضارب الناس للحصول عليه بل على ما يفوق حاجتهم وكثيرا ما يشاهَد «شواري» من القضبان على ظهر حمار خارج من المدينة وسائر الى الدوار ولا يشعر أحد بأن هذه السلعة المموّلة من خزينة الدولة معجونة بالبترول ومعطرة بالغاز.

83 ـ انقطاع الماء عن الديار كان إلى زمن قريب مجهولا عند المليانيّات وقد تعوّدن تسريح العين تسيل طول النهار وطول الليل. ولكن تكاثر السكان وحدوث العادات الجديدة لحفظ الصحة بالنظافة زادا في استهلاك الماء مع بقاء كميته بمقدارها إذا لم تنقص. وفكرة استعماله باقتصاد لم تخطر بعد بذهن ربّات المنازل والسلطات العمومية تكتفي بقبض عدد ضئيل عليه ولا تلتفت إلى الكمية المستهلكة في كلّ منزل وهي كمية غير موزونة بعدّاد.

84 ـ يقول المليانيّون إنه يصعب وربّما يستحيل العثور على من يصلح الآلات المنزليّة والأشياء الأخرى من أدوات الرفاهية العصريّة ويؤكّدون بعد هذا أنه منذ سنة 1962 لا يوجد بمليانة إلا سبّاك واحد كفء في عمله وأنه تعلّم مهنته بفرنسا الشيء الذي يوضّح الحالة التي أصبح الوطن فيها غداة استقلاله. ثم يقولون إن أولي الأمر كان من واجبهم وفي إمكانهم طيلة عشرين سنة وزيادة استدراك الحالة بأن يخصّوا التكوين المهني بأكثر أهميّة فيما يرجع إلى اليد العاملة البسيطة.

85 ـ ومهما يكن من شيء فقد يسوغ الرجاء لزوال هذا النقص وهو كَلاَ شيء الى جانب الشرّ والحرمان اللذين كانا من حظّ الانديجان في عهد «الليل الاستعماري». والوقت غير بعيد لتجدّد مليانة بشرتها وتستعيد مظهرها الزاهر والملياني يستفيد من وقته والبساتين والمباقل بضاحيتها تستثمر والسوق يعرض الخضر والفواكه والأزهار بكثرة والخبّازون يبيعون الخبز طول النهار والعيون تسيل دوما والفنّانون يكثرون والسكّان يصيرون حضرا حقيقيّين وبآختصار حياة الملياني تعود أفضل. آمين.

هذا هو بلا شكّ الدعاء الذي كان يدعوه لمليانة ولأهلها سيدي أحمد بن يوسف الذي أتت به المقادير بعد حياته المضطربة إلى هذه المدينة التي وجد بها مقرّه الأخير.



شمال المدينة في حجر زكّار، غابة الزيتون واللوز المدعو لوز بني مزاب. تصوير م. عريب

Au nord de la ville, au pied du Zakkâr, un bois d'oliviers et d'amandiers appelé Lûz Bnî Mzâb. Photo M. Arib

القسم الثاني

سيّدي أحمد بن يوسف

نسبه وأسرته

86 ـ هو صاحب الكرامات الشهير ورجل السياسة الخطير ووليّ مليانة الموقر الذي كان يُعدّ طيلة قرون من أوتاد المغرب.

ترجم له ثلاثة من المؤلّفين وهم :

1) الصبّاغ (أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي القلعي) وهو ابن تلميذ مخلص لسيدي أحمد بن يوسف وكان قاضيا بقلعة هوّارة التي تدعى اليوم قلعة بني راشد وقد عاصر سيّدي أحمد بن يوسف وعرفه شخصيّا وألّف له بعد وفاته **«بستان الأزهار في مناقب زمزم الأبرار ومعدن الأنوار سيدي أحمد بن يوسف الراشدي النسب والدار»** (وباختصار : **البستان**) كتبه بين سنة 1545/952 وسنة 1555/962 .

وقد طبع **البستان** بمطبعة جول كربونال Jules Carbounel في الجزائر سنة 1345/1926-27 مع ملحق عنوانه **«عقد الجمان في تكملة البستان»** أراد صاحبه أن يبقى مجهول الاسم. والحقيقة هي أنه أبو عبد الله مْحمد (بسكون الميم) بن محمد الهاشمي كان من رجال القضاء بالأصنام. وقد حقّق نصّ البستان بأربع مخطوطات أحسنها على قوله مخطوطة نسخت بفيجيج عام 1780/1195

ومخطوطة ثانية نسخت بمليانة عام 1830/1246 واثنتان لم يذكر المحقّق محلّهما ولا تأريخهما.

يوجد من **البستان** عدّة نسخ مخطوطة من بينها نسختان بالخزانة الوطنية بالجزائر رقم 1707 في 172 ورقة ورقم 1728 في 221 ورقة ونسخة عند وكيل ضريح سيدي أحمد بن يوسف بمليانة في 475 صفحة ونسخة عند الشريف السحنوني بإغيل أمقران ونسخة عند السعيد بن أبي داود بآقبو من ولاية بجاية. ذكر لي وجود هاتين النسختين السيد علي أمقران السحنوني مدير ثانوية الركايزي بحجوّط عام 1983.

البستان هو الأساس للتعريف بسيدي أحمد بن يوسف فمطالعه يلاحظ :

أ ـ انه مملوء بأعلام رجال بعضهم من العصور الماضية التي توالت على المغرب بما فيه الأندلس وعلى المشرق العربيّيْن وبعضهم معاصرون للمؤلّف ومن هؤلاء طبعا فقراء سيّدي أحمد بن يوسف رواة الحوادث والكرامات التي شاهدوها أو يزعمون أنهم شاهدوها.

ب ـ وأنّ كثيرا من أسماء أولائك الأشخاص ما زالت إلى الآن حيّة مستعملة بمليانة ونواحيها مثل : دقّيش ـ ابن غالية ـ ابن حماشة ـ ابن خدّة ـ ابن سونة ـ البوعمراني ـ قنّيش الخ . . .

ج ـ وأنّ التأليف مكتوب بلغة قريبة من الدارجة الجارية الآن بالغرب الجزائري كما يبدو من هذه القائمة : ببّوش ـ تلّيس ـ جنوي ـ خُبّيز ـ خُدْمي ـ خمّاس ـ دوّار ـ زبّوج ـ زوبية ـ شرّابة ـ شكارة ـ صبّاط ـ قُلّة ـ كَلْخة ـ مجشر ـ مصلاط ـ مصّاطة ـ مزوار ـ مشماشة ـ ياخلا الخ . . .

2) علي بن أحمد بن الحاج موسى ولد بالجزائر حوالي 1833/1248 وتوفّي سنة 1913/1332 تولّى القضاء في الخامسة والعشرين من عمره في مليانة ثم في تنس وتلمسان وألّف «**ربح التجارة ومغنم السعادة فيما يتعلّق بأحكام الزيارة إلى ضريح الولي الصالح سيدي أحمد بن يوسف دخيل مليانة**» في ثلاثة مقاصد وخاتمة منه نسخة خطية بالخزانة الوطنية بالجزائر رقم 928 مؤرخة في سنة 1880/1297 وهي من الأصل الذي كتبه المؤلّف (وباختصار : **الربح**).

3) مجهول المؤلّف : «**مناقب أبي العباس أحمد بن يوسف**» ملخص

البستان منه نسختان مخطوطتان رقم 1427 ورقم 1471 بالخزانة العامة بالرباط. (باختصار : **المناقب**).

هذه الكتب الثلاثة ـ ما عدا **عقد الجمان** ـ تهتمّ قبل كلّ شيء بالكرامات ثم بالتاريخ والحياة اليومية ولهذا يجب تكميلها بعدّة كتب أخرى وهي :

4) ابن عسكر (محمد بن علي، 936/1529-986/1578) قاضي المولى عبد الله الغالب، له «**دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**» ط. حجرية بفاس سنة 1884/1302 (باختصار : **الدوحة**).

5) المراكشي (عباس بن إبراهيم) صاحب **الاعلام بمن حلّ بمراكش وأغمات من الأعلام** ط. فاس 1937/1356 ج 1 ص 195 (باختصار : **الاعلام**).

6) أبو رأس (محمد بن عبد القادر الحافظ الناصر المعسكري) المتوفّى سنة 1823/1249 له **عجائب الأسفار** ترجمة فرنسية وتعليق في المجلة الافريقية ج 66 سنة 1925 عدد 322 (باختصار : **عجائب**).

7) الكتاني (محمد بن جعفر 1856/1275-1927/1346) صاحب **سلوة الأنفاس ومحاضرة الأكياس بمن أقبر من العلماء والصلحاء بفاس** ط. حجرية بفاس 1898/1316 ج 2 (باختصار : **السلوة**).

8) الزياني (محمد بن يوسف البرجي) كان قاضيا في عهد فرنسا سنة 1912/1320 له : **دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران** ط. الجزائر 1979/1399 (باختصار : **دليل**).

9) الحفناوي (أبو القاسم) صاحب **تعريف الخلَف برجال السلف** ط. الجزائر 1909/1337 (باختصار : **تعريف**).

10) سعد الله (أبو القاسم) صاحب **تاريخ الجزائر الثقافي** ط. الجزائر 1981/1401 ج 1 ص 502 ـ ج 2 هنا وهناك (باختصار : **تاريخ**).

باستثناء الدليل و التاريخ كلّ هذه المصادر درسها غير واحد من المستعربين الفرنسيّين واستغلّوها للتعريف بسيّدي أحمد بن يوسف ومن بينهم بودان Bodin ودَرْمَنْقم Dermenghem وأخيرا في سنة 1978 برك جاك Berques Jacques.

أمّا الكتّاب العرَب المُسْلمون فلم يطرقوا هذا الموضوع قبل الأستاذ سعد الله وهو الوحيد الذي أكبّ عليها وتكبّد مشقّة دراستها واستخرج منها جوهرها.

87 ـ من هو سيّدي أحمد بن يوسف ؟

نقل **العقد** من **المجموعة في أصول الطريقة الشاذلية** ص. 430 شجرة سيّدي أحمد بن يوسف كما يلي : هو أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله محمّد بن أحمد بن عبد الله بن يوسف بن عبد الجليل بن يمداس بن منصور بن علي بن مناصر بن عيسى بن عبد الرحمان المدعوّ تدغير بن يعلى بن إسحاق المدعو عبد الله العلي بن أحمد بن محمّد بن إدريس الأصغر بن إدريس الأكبر بن عبد الله الكامل بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب من فاطمة الزهراء بنت محمّد خاتم الأنبياء. وصاحب **المجموعة** هو محمد بن علي الطرابلسي.

ويورد **الربح** شجرة أخرى مغايرة لشجرة **المجموعة**، فيها بعد يمداس عبد الله الرضي بن موسى المرتضى بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن أحمد بن زين العابدين بن حمّود بن علي بن ادريس... وبعد عبد الله الكامل محمّد بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب.

وسواء كانت هذه الشجرة أو تلك صحيحة أم لا فإنّها تجعل من سيدي أحمد بن يوسف رجلا عربيّا بربريّا ينتمي ككثير من المغاربة إلى نبيّ الاسلام ﷺ. فان يَمْداس وتدْغير ويعلى أعلام بربريّة بدون شكّ. ويلاحظ **العقد** ص 431 أن مناصر جدّ شرفاء فيجيج وأصلهم من مرّاكش.

88 ـ إذن اسم أبيه محمّد. فلماذا لا يُدعى هو إلاّ أحمد بن يوسف ؟ وللجواب على هذا رُويت أقصوصتان.

ا) قيل إنه من يوم ولادته كفله رجل اسمه يوسف وربّاه بلبن بقرته وعامله كما لو كان من صلبه.

ب) وقيل إنه ابن رجل اسمه منصور الملقب بوكركور في بلاد قورارة وقبره في تابلكوزة يزوره الآن العطاونة أهل الساورة ويقال إن منصور هذا كان يوم ولادة الطفل طاعنا في السنّ بحيث كان موضوع المزاح ممن حوله. وللردّ على ذلك رمى بالصبي على أعين الملإ في كانون. فكانت الكرامة بأن

احترقت اللفائف ونجا الصبيّ. ثم ان الشيخ منصور رمى به ثانية في الهواء فكانت الكرامة الثانية بأن سقط الصبيّ بعيدا في الشمال بمنزل يوسف الراشدي المذكور الذي ربّاه كما سبق.

وقيل إنه أخو بوقَدَمّة لأمّه. وقبّة بوقَدَمّة هذا معروفة بمقبرة غرداية يزورها بكلّ احترام بعض المتمسّكين بالتقاليد في وادي مزاب.

غير أن هذه الأقاصيص وما فيها من خلاف وتلاعب لم تُذْكر في المصادر السابقة وإنّما راجت بالرواية الشفاهيّة.

الغالب أنه ما سمّي أحمد بن يوسف إلاّ باسم جده يوسف بن عبد الجليل الذي كانت شخصيته أقوى من شخصيّة الأفراد المذكورين في الشجرة.

اسم والدته معروف. هي آمنة بنت يحيى بن أحمد بن علي الغريسي صاحب الكرامات الشهير إلى الآن وضريحه قرب مُعَسْكَر مازال الناس يزورونه وله كثير من الحفدة (انظر **العقد** ص 433).

89 ـ وله خمس نسبات :

أ) ـ **الدامودي** أي من بني دامود وهم فرع من مغراوة مازالت منازلهم حول قرية دامود في توات (انظر **الدليل** ص 42 تعليق 22 و 56).

ب ـ **المريني** لأنه أقام مدة بين فيجيج وسجلماسة ببلاد زناتة بني مرين وكان أسلافه الأوائل كما قيل بمراكش وهاجروا منها بالقوّة في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي عند وصول بني عُبَيْد إلى مراكش. فهل كانوا معارضين لمذهب الاسماعيليّة ؟

ج) **الهوّاري** لأنه قضى الجزء الأكبر من حياته ببلاد هوّارة الشاملة لمدينَتي قلعة بني راشد ويَلّل بقرب مُعَسْكر من جهة وإيغيل ايزان من جهة أخرى.

هـ) ـ **الراشدي** لأنه قضى الجزء الأخير من حياته بين بني راشد وهم فرع من أصحاب القلعة وكانوا وما زالوا الى الآن شرق الاصنام. وكان من قبل في زاويته بقلعة بني راشد. عن قلعة بني راشد انظر **موسوعة الاسلام** ط. 2

ج 4 تحت Kal'at-Huwwâra والجيلالي صاري Les Villes précoloniales de l'Al-gérie Occidentale, S.N.E.D. Alger 1970 فيها مراجع غزيرة.

و) ـ **الملياني** لأنه دفن بمليانة.

وكان له كنيتان : **بخّوصة وبوراس** وهما اسمان ما زالا معروفين في غرب الجزائر ووسطها مثل الراشدي والملياني والهوّاري وابن يوسف. (يُلاحظ بهذا الصدد أن ذئب المغرب (ابن آوى) يطلق عليه اسم ابن يوسف واسم سي مْحمّد (بسكون الميم). ولاندري لماذا).

90 ـ قيل إنه ولد بتابلكوزة وقيل بتالوانت وقيل بقلعة بني راشد وصاحب **العقد** ص 433 يميل الى تالوانت.

وقيل إنه ولد في سنة 1442/836 وقيل في سنة 1436/840 وقيل في سنة 1440/844. ويوم ولادته وشهرها مجهولان. كان له إذن من العمر ما بين 13 و 21 سنة لما فتح الأتراك القسطنطينيّة وما بين 52 و 60 سنة لمّا اقتحم ملكا الكَثْلكة غرناطة واكتشف كريستوف كولومب أمريكا وما بين 62 و 70 سنة لما طُرِد المسلمون الذين أُجبِروا عى اعتناق الكَثْلكة وهاجروا كلّهم من شبه الجزيرة الايبيرية. وقد عاصر فتوحات الاصبان والبرتغال لثغور المغرب تطوان وسبتة وقصر مصمودة وأسفي وأزمور. وفي ذكر هذه الحوادث من جديد ما يساعد على فهم مواقفه وأسباب تصرّفاته.

ولا خلاف في مكان وفاته : بلدة براز التي سمّيت من بعد الخربة وأخيرا العامرة الواقعة على 16 كم. شمال وغرب عين الدفلى. توفّي يوم الأربعاء ودفن يوم الخميس لكن قيل في صفر 1524/931 وقيل في العاشر من رمضان 1527/934 وقيل إنه عاش 91 سنة أي طيلة الثلاثة أرباع من القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي والربع الأول من القرن الذي تلاه (انظر **الربح** ص 238-239).

91 ـ تزوّج على الأقلّ بأربع نساء :

أ) **ستّي** بنت عَمْرو بن أحمد المشرفي التراري وكان عمْرو هذا قد عزم على اغتياله بدعوى أنه كان يذيع البدَع المُنكرة والسبب الحقيقي إنّما هو مزاحمته في الولاية. غير أنه لم يتمكّن من تنفيذ عزمه بل أخجله سيدي أحمد

بن يوسف بكرامة وأرغمه على الاعتذار والتوبة. فسمع بذلك شخصان من الناحية هما عثمان بن عمر وعبد الرحمان الغلامي وأقبلا على سيدي أحمد بن يوسف أوّلهما راكبا على أتانه وثانيهما راجلا وعرضا عليه الزواج بستّي بنت عمرو لكن بصداق فيه ما فيه من الغلوّ اشترطه أبوها وذلك : 100 دينار وجاريتان وبغلتان. وكان هو حينئذ معسرا عاد منذ قليل من بجاية حيث كان طالبا لكنّه رضي مع ذلك بشروط الزواج ووجد كما سنراه بعدُ الوسيلة لمقابلتها. وما كان له إذ ذاك من الثروة إلا علمه وقد سبره عثمان وعبد الرحمان وتحقّقا بأنه «بحر من العلم لاساحل له» (انظر **البستان** ص 12-13 و **الربح** ص 144 و 169 و 172).

ب) **كليلة** بنت محمد الدرجي **تزوّجها** رغما من معارضة والدها وقد تمكّن بعض مريديه من إقناعه بأن الزواج انعقد بمحضر جبريل عليه السلام ومحمد ﷺ والخلفاء الراشدون الأربعة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم وحولهم جماعة من الملائكة في السماء (انظر **العقد** ص 453 و**الربح** ص 168).

ج) **عائشة** المدعوة **الزغلة** بنت قادة بن مرزوقة صديقه الحميم الذي زاره بالسجن في تلمسان حيث حبسه أبو حمّو الثالث. فعرض عليه الزواج بابنته. فرضي سيدي أحمد بن يوسف بالزواج ولمّا خرج من السجن بنى بها.

د) **خديجة** بنت محمد المريني ولا علم لنا بظروف زواجه بها.

92 ـ وكان له من البنين ثلاثة أو أربعة ومن البنات اثنتان.

أ) **محمد بن مرزوقة** وأمه عائشة وسمّي باسم جدّه لأمّ وقيل هو الذي يشبهه حزما وعزما وأنه تلقّى منه قبيل وفاته الوصايا الأخيرة لصيانة أسرته وتسيير زاويته بالقلعة (انظر **العقد** ص 454 وما بعدها).

ب) **محمد الصغير** الملقّب **أمزيان** وأمّه ستّي والغالب أن تلقيبه بالصغير سببه وفاة شقيق له قبله مسمّى باسمه. وهذه العادة معمول بها إلى الآن في الجزائر بأن يسمّى الولد باسم أخيه المتوفى كأنه خلفه. وقيل إن أمزيان هذا كان له أخ آخر وأخت بالصحراء وأن أخاه مات بمصر في مكان اسمه ضريح عبد الكريم. فمن هو هذا الأخ ومن هي هذه الأخت ؟ ولماذا مصر ؟ ولماذا الصحراء ؟ فالمصادر لا تجيب عن هذه الأسئلة مع ما فيها من

التحقيق والتدقيق عن محمّد بن مرزوقة. الذي مات بتاريخ غير مذكور وقبره بأم سلمون على 17 كلم. غرب شرشال وهو أبو أحمد العنتري وجد جميع المرازقة (انظر **العقد** ص 454).

هـ) وقيل إنه كان له ابن اسمه **منصور** خلّف ذرية ذكرها بعضهم في القرن الماضي ببلاد قورارة.

و) وذكر صاحب **العقد** ص 454 أن له ابنا اسمه العنْتري دون أن يعرّف بأمّه ولا بتاريخ وفاته ولا بنسله.

وأما بنتاه فهما :

ا) **آمنة** والراجح إنها شقيقة أمزيان توفّيت بالصحراء بل بالضبط في مكان اسمه الشلاّلة الغربية (وهي الآن الشلاّلة الظهرانية) غير قصر الشلاّلة الواقع في شمال وشرق العين الصفراء على 79 كم. وقد رووا لسيدي أحمد بن يوسف قوله : «الشلاّلة شلاّلتي تركت بها بنتي ونعالتي» وأضافوا أنه يوجد إلى الآن في هذا المكان نعالتان كانتا له وبقيتا تتضوّع منهما بركته (انظر **العقد** ص 445).

ب) **عائشة** وهي على ما يبدو من زواج سابق لاقامته ببجاية وقبل زواجه بستّى التي لم تكن زوجته الأولى. وليس لدينا علم بهذه البنت ولا بمن كانت أمّها.

وقيل إنه قبل وفاته بثلاثة أشهر سلّم لكل واحدة من زوجاته الكالئ من صداقها وعيّن لها حظّها من الميراث.

لقد عُثر على بعض نسله في أواسط القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي. ففي سنة 1740/1153 كان الرحّالة الورثيلاني في قافلة الحجّاج وعليها أميرها أحمد بن الطيّب (أو بن الطيّبة) وهو من سلالة سيدي أحمد ابن يوسف فاتصل به الورثيلاني في خنقة سيدي ناجي وقال إن أبناء سيدي أحمد بن يوسف «الوالي على الاطلاق... معظمون عند أهل وطنهم ولا يخلو بعضهم من العلم والبركة في جميعهم رضي الله عنهم...» «وكانت ولايته ظاهرة شرقا وغربا». (انظر رحلة الورثيلاني (الحسين بن محمد) **نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار**» ص 107).

في أوائل القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي ألفت الانظارَ شخص اسمه أحمد بن يوسف من نسل سيدي أحمد بن يوسف. فانه تحزّب للقضية الفرنسية ورافق كلوزال في حملته على لمدية وزوّده بالمعلومات المفيدة. فجازاه كلوزال بأن سمّاه في نوفمبر 1830/1246 خليفة فرنسيًّا في البليدة ونواحيها ولكن السكّان تمكّنوا من طرده مرفوضا (انظر تروملي Trumelet في كتابه البليدة Blida ص 971).

93 ـ هكذا تبطل الدعوى الشائعة في مليانة بأن سيدي أحمد بن يوسف لم يتزوّج ولم ينجب ولم يخلّف نسلا من صلبه. ويذهب بعض المليانيّين إلى أن ينسبوا له هذه الجملة : «قَشّ المرا اعوَج في اعوَج واحمد ما يتزوّج». ولعلّ مرادهم بهذا حرمان مواطنيهم الكثيرين من الانتساب إليه وممّا يضفي عليهم نسبه من التشريف والفوائد الماديّة. والحقيقة أنهم قد يترفّعون على غيرهم من جهة ويتقاسمون نقود الصندوق الذي بجانب ضريحه والذي يتلقّى فرنكات الزائرات والزائرين ويستخصّون الامتياز دون غيرهم غالبا لإقبار موتاهم في جوار ضريحه.

94 ـ يحصى الآن فعلا في هذا الجوار نحو العشرين جدثا منها ثمانية للنساء وستّة في الصحن والباقي في مقبرة صغيرة غرب البناية. وأقدم هذه القبور مؤرّخ في 1854/1271 وليس هناك اقدم منه لأنّ الجيش الفرنسي حطّم كلّ القبور التي وجدها يوم اقتحامه للمدينة (انظر قبل هذا الفقرة رقم 56).

والأسماء المرقومة على رخام القبور لا تدلّ دلالة قاطعة على أن مَن هناك كلّهم من نسل سيدي أحمد بن يوسف. فها هي الأسماء مرتّبة ترتيبا أبجديا : بلْخَيْثر ـ بلْخوجة ـ بنْصيام ـ بنْميلود ـ بوزار ـ حاجحمّو ـ حمدان ـ خزناجي ـ زيّانبوزيان ـ العنتري ـ الفول ـ مولاي.

ولعدم الوثائق التي لا تقبل الشكّ في صحّتها ليس هناك إلا التخمين بأن زيّانبوزيان والعنتري من ذريّة بنمرزوقة وابنه العنتري اللّذيْن سبق ذكرهما. وبنميلود ومولاي عائلة واحدة أعرقت في تيوت بالجنوب الوهراني وهي باقية على اليقين بانتسابها لسيدي أحمد بن يوسف ـ وخلافا لهذا فاسم الفول يطلق على عائلتين لا علاقة بينهما :

ا) حفدة تلميذ من تلامذة سيدي أحمد بن يوسف ومريديه اسمه عبد

الجليل التميمي عربي النسبة. فانه في يوم من الأيام قدّم لشيخه قفّة من الفول النيّئ في غير أوانه. فدعا له الشيخ بتكاثر النسل مثل خراعب الفول في حقل يسقيه مطر الربيع.

ب) حَفَدة حَفيد حقيقي من نسل سيدي أحمد بن يوسف في الجيل الخامس اسمه أيضا عبد الجليل لكن نسبته المرْزوقي ولعلّه من المرازقة. فكان أولاده يموتون في الصغر وكاد هو أن يتوفّى خاليَ الدار. فسمّى واحدًا منهم الفول على سبيل التفاؤل من جهة ومن جهة أخرى كان يتمنّى أن يكون مصيره كمصير سميّه التميمي. فتقبّل الله مناه وعاش ابنه الفول وكثرت ذريته.

والآن يصعب تمييز الفول الذي هو من نسل سيدي أحمد بن يوسف من الفول الذي ليس من نسله.

تكوينه : دراساته وسياحاته

95 ـ ليس لدينا عن تكوين سيدي أحمد بن يوسف الثقافي إلاّ معلومات ضئيلة لعلّه تعلّم القراءة والكتابة وحفظ القرآن مثل أغلب معاصريه بجامع من جوامع رأس الماء أو قلعة بني راشد. وقيل إنه سمع من عدّة أساتذة لا نعرف عنهم شيئا وهم نحو العشرة أصلهم من إيران ومن مصر ومن سوريا ومن الأندلس ألقابهم : بدر الدين وابن الحاجب وابن عصفور الخ وهي ألقاب وأسماء رجال مشاهير عاشوا في أمكنة وأزمنة لم يعرفها سيدي أحمد بن يوسف. فكأن المصادر قد بالغت بهذا الصدد (انظر **العقد** ص436-437).

غير أن المصادر تذكر له أستاذا شهيرا هو أحمد زرّوق البرنسي (846/1442-899/1493) الذي أثّر في تكوينه تأثيرا عميقا. فانه ذهب إليه من رأس الماء إلى بجاية وأخذ عنه ما أمكنه الأخذ وهو الذي أدخله الخلوة وألبسه الخرقة[54] وأخيرا أخذ عنه زرّوق وكثيرا ما كان يقع ذلك في التعليم العربي الاسلامي (انظر **البستان** ص 434). لقد درس سيدي أحمد بن يوسف عند زرّوق :

ا) القراءات السبع أو الروايات السبع[55].

ب) السيرة النبوية على كتاب الشفاء للقاضي عياض (عنه انظر

الموسوعة الاسلامية ط. الثانية ج. الرابع ص 302).

ج) التصوّف على كتاب ابن عطاء الله تاج الدين المتوفى سنة 709/1309 وقد كتب عنه زرّوق أكثر من عشرين شرحا (انظر **الربح** ص 175).

96 ـ أحسن تعريف للتصوّف ذلك الذي كتبه ابن خلدون في **المقدمة** (ط. بيروت ج 1 ص 863 وما بعدها). نشأ بالشرق الاسلامي في صدر الاسلام وانتشر في دار الاسلام بأسرها وقد عرف له المغرب بمدّة قبل سيدي أحمد بن يوسف أعلاما أجلاء منهم الدّقاق المتوفّى في فاس في الربع الأخير من القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي وتلميذه أبو مدين الغوث المتوفّى في سنة 594/1197 الذي كان له أستاذ آخر مغربي وهو أبو يَعْزَى (ويقال له أيضا بوعزّة) وكان عبدا أسود توفى في سنة 572/1177 الخ.

97 ـ لكن سيدي أحمد بن يوسف تأثّر بأفكار كِبار الصوفية المشارقة الاقدمين في مواقفه وتصرّفاته ومنهم مالك بن دينار أبو يحيى الشامي المتوفى بالبصرة سنة 130/747 وإبراهيم بن الأدهم أبو اسحاق المتوفّى بخراسان سنة 161/777 وذو النون المصري المتوفّى بمصر في الجيزة سنة 246/861. فحملته أفكارهم إلى الانخراط في الطريقة الشاذليّة وقد أخذ بيده لذلك أستاذه زرّوق كما ذكر سابقا من أجل الجهاد الأكبر (عن شاذلي وشاذلية انظر **موسوعة الاسلام** ط. الأولى ج 4 ص 256-259)[56].

والشاذليّة تتطلّب من أتباعها السياحة عملا بالحديث «سيحوا تصحّوا» وبالقول المأثور «لاخير في رجل لم يجل» ولهذا ساح سيدي أحمد بن يوسف طيلة أكثر من خمس عشرة سنة. فإنه قضى سنتيْن بالرّيف في شمال المغرب الأقصى كمُجاهد وأقام بفاس في جوار «أجداده» بني إدريس وبتازة والسوس الأقصى ووجدّة وتلمسان وتاهرت وفيجيج ثلاث سنوات والشلاّلة الغربية والعامريّة في الجنوب الغربي من وهران وفي كريستال ومزغران ويلّل وسيرات ومليانة وفي جبال وانشريس ثلاث سنوات وفي جبال جرجرة ثلاث سنوات وفي بني منجلات وأسّس فيها زاوية وفي بجاية وفي جبل زغوان سنة ونصف وفي الزاب والجريد والقيروان وطرابلس والاسكندرية والقاهرة وجدة سبعة أشهر ومكة ثلاث سنوات والمدينة سنة.

ورد ذكر هذه المعلومات في **البستان** ص 441 ولعلّها غير موافقة للحقيقة

ولكن عدم وسائل التحقيق يمنع من رفضها ومن قبولها بدون تحفّظ.

حسب صاحب **البستان** كان سيدي أحمد بن يوسف يعتزل بالجبال لأجل التأمل والتفكير وكان مع ذلك يحبّ الاتصال بأهل الريف ويدعو للسلم والتصالح بين القبائل المتحاربة وفي نفس الوقت كان يبثّ أفكاره الصوفيّة ويطلب في الحواضر الاتصال بالعلماء للمباحثة والمذاكرة.

98 ـ وذكر صاحب **العقد** من ناحيته ص 444 وما بعدها أسماء العلماء الذين لقيهم سيدي أحمد بن يوسف بفاس والسوس ووجدة وتلمسان ومنهم محمد بن عيسى المغيلي الجلاّب المتوفى سنة 1470/815 ومحمّد بن عبد الكريم المغيلي المتوفى سنة 1503/909 والزقّاق المتوفى سنة 1564/961 وواحدا من العقبانيين الستّة (السعيد وأحمد وقاسم ومحمد وإبراهيم وعثمان) الذين ماتوا بين 1408/811 و 1475/880.

في هذه القائمة أخطاء عديدة. فمن المحال أن يكون سيدي أحمد بن يوسف لقي أحمد بن علي بن عاشر المتوفى سنة 1366/765 ولا المنجور أبا العباس أحمد بن علي المتوفى سنة 1587/995. وذكر صاحب **العقد** الزقّاق وسمّاه عليّ مع أن اسمه عبد الوهّاب. ويستغرب هذا من جانب سي مْحمد بن الهاشمي الذي خلّف ذكرى رجل ذي خصال معروفة من بينها الصدق والنزاهة العلمية. فمن أين أتته هذه المعلومات؟

اعتبارا لتاريخ الوفيات فان سيدي أحمد بن يوسف إنّما لقي هؤلاء العلماء ـ إن لقيهم حقا ـ لمّا كان شابّا ولا علم لنا هل اقتصر على زيارتهم أو حضر دروسهم لأنّهم جميعا دكاترة نظريون في الشريعة والتوحيد. وبهذا الصدد كان من المحتمل أن يتّصل بعلماء تلمسان المعاصرين له من أمثال مْحمد (بسكون الميم) السنوسي المتوفى سنة 1488/895 وابن زكري المتوفى سنة 1494/900 وابن مرزوق الكفيف المتوفى سنة 1495/901 وابن مرزوق الخطيب المتوفى سنة 1503/918 الخ . . .

99 ـ كان قُبيل وفاته ـ ولا ندري لماذا ـ عند بني راشد في الظهرة شمال وادي الفضّة. ولمّا أحسّ بقرب الخاتمة أوصى أتباعه بأن يجعلوا جثمانه بعد خروج الروح على ظهر بغلته وأن يدعوها تسير حرّة. ففعلوا ذلك وسارت

البغلة شرقا وما وقفت إلا بمليانة حيث بركت به في قُمامة اليهود وماتت هي أيضا. فدفنه المليانيّون في نفس المكان ودفنوا البغلة بقربه (انظر **البستان** ص 139).

100 ـ كيف كان ذاتا وخُلُقا؟ كانت له لحية مضفورة تصل إلى حزامه يسرّحها أحيانا لاسيما إذا غضب وكان له عمامة بيضاء وبرنس أبيض وملابسه كلّها بيضاء (انظر **البستان** ص 442). وكان مثل الامام مالك يحبّ الرقيق من اللّباس والزرابي الجميلة والمآكل الطيّبة وبينما كان أبو مدين الغوث يوصي كلّ واحد من أتباعه بالصيام حتى يصير كالشبّابة التي تسمع اسم الله كان هو يقول: «تلميذي كالنفض لا يدوي إلا بالدّكّ!» أي يجب أن يكثر من الأكل (انظر **البستان** ص323 و**الربح** ص 188). وكان شيخه زرّوق يرى رأيه (**البستان** ص 323). وكان يركب فرسا مسرجة بقعاء.

وكان يتكلّم غالبا بالزناتيّة وهي لغته الحقيقيّة. فاذا أراد أن يقول: «**ذاك أنا**» قال: «**دادّاك ذاك**» (انظر **البستان** ص 82). قال في شأن تلميذه القيلالي الذي ارتقى إلى درجة الولاية ولعلّه أدركها بدون استحقاق: «**اتشيش ان أيوازن يوا غير الله أطّاس**» ومعناها في العربية: «رجل قليل أعطاه الله مقاما عظيما» (**البستان** ص 434).

101 ـ وقد تمنّى أن «**يجعله الله كالأرض يمشي عليه المسلم والكافر والمطيع والعاصي. . . فهمًا وعلمًا. . .**» (**البستان** ص 120) ـ وقال: «**اِعلم أن الحقّ لا يخفى إلاّ على من عميت بصيرته وخسرت سريرته واضمحلّت خليقته. . .**» (**البستان** ص322). وقال أيضا: «**الفتوّة هي الصفح عن عثرات الاخوان**» (**البستان** ص 324). وقال: «**دعوت الله على ثلاث: العلم ومبلغ الرجال ورؤية المصطفى**» فنال الثلاث على ما قيل العلم بدون تعب. وأمّا رؤية النبي فكانت في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي عند الصوفية المَغاربة من الامتيازات القيّمة التي يتمنّاها كلّ مؤمن ويعدّ من السعداء إذا نالها.

والسّعداء وقتئذ كثيرون منهم معاصره محمد بن عبد الله الفراوسني الزواوي البجائي صاحب **تحفة الناظر ونزهة المناظر** الذي سجّل في كتابه أنه رأى النبي ﷺ مائة مرة وتسع مرّات في ظرف عشر سنوات من سنة 1447/851

إلى سنة 1457/861 . والرؤيا هذه تكون غالبا في النوم وقد تكون في اليقظة .

ويروى أن الامام أحمد بن حنبل رأى الله في المنام تسعا وتسعين مرّة (**البستان** ص 23 **والربح** ص 14) وأن عبد الرحمان الثعالبي رآه في النوم مرارا وكذلك خير الدين بربروس هو الآخر[57] .

102 ـ لم يمارس سيدي أحمد بن يوسف أي وظيفة دنياويّة ومع هذا بقيت له سمعة وسلطة روحية لا يعرفها أي كاتب ولا أي مفكر ولا أي رئيس حرب ولا أي سياسيّ ولا أي سلطان في الماضي القريب أو البعيد وهذا منذ خمسمائة سنة . فالطبقات الشعبية من أمّيين وممّن لهم إلمام بالقراءة والكتابة في مليانة تجهل أسماء مشاهير الحياة العامّة والحركة الثقافيّة في العالم العربي الاسلامي لكنّها لا تأنف من القسم باسم سيدي أحمد بن يوسف خلافا للشريعة وتنطق باسمه «سيدي خَمْبَنْيوسَف» .

وما نال هذا الصيت العريق «لا بطول لحيته ولا ببياض ثيابه ولا بحبّه للطيبات في الحياة ولا بزناتيته ولا بالحكم والأمثال المنسوبة إليه بل ناله إلى حد ما بصفته ككاتب وكثيرا بعمله كمعلّم وواعظ وأكثر بكونه سياسيًّا .

ماذا كتب ؟

لم يخلّف أيّ تأليف ذي بال وهو في هذا ككثير من رجال الدين في عصره وقبل عصره وبعد عصره شبيه بأبي الحسن الشاذلي القائل : «كتبي أصحابي ومريدي» وبالشيخ بيّوض العالم المُصلح بوادي ميزاب المتوفّى سنة 1981/1400 الذي كان يقول : «دروسي مقيّدة في الرؤوس لا في الطروس» .

لكن الأجيال المتأخّرة تنسب لسيدي أحمد بن يوسف تلك الحكم الانتقادية في المُدُن والقبائل . وقد أثبت المستشرق روني باسي René Basset أنّها ليست له . غير أن هذا لم يمنع الذاكرة الشعبية من الاستشهاد بها في كلّ مناسبة . وإلى القارئ أنموذجا منها في بني غَمْريان : «من لَخْش لَبْدا الشرّ لَبْدا» (لَخْش ولَبْدا نهران وكلاهما من روافد شلف) وقيل إن خصمه سميان لمّا سمع هذه الكلمة لم يسعه إلاّ أن أوصى بني غمريان بقوله : «خرجت من فم غول، ما عندي ما أقول، عليكم بالضّفيرة والفول» .

ونسبوا له أيضا أغانيَ بالملحون منها خمسة موضوعها الغرام والحبّ

وواحدة في مدح النبيّ ﷺ وواحدة في معراجه وواحدة في مدح الدّرهم . وقد أطلعني السيد مصطفى باغلي التلمساني على كراسة مخطوطة فيها هذه الأغاني .

هذا ويؤكّد صاحب **الربح** ص 210 بأنه «وقف على مجموع يشتمل على عدّة كراريس في ذكر رسائله لتلامذته الأخيار «ويقول ص 217 إنه» «كتب لأهل مرّاكش وباديس ولأمير فاس ولأهل فاس وتازة ولعلماء تازة ولأهل توات ومصر القاهرة وبغداد الخ . . » . وذكر من جهته صاحب **البستان** ص 311 ثماني رسائل غير واضحة المعنى وانما فيها بعض الجمل تظهر كأنها تمسّ ببعض مباحثه في الأخلاق والتوحيد. وليس له إلاّ كتاب واحد تامّ موجود في مخطوط بالخزانة العامّة برباط الفتح تحت رقم 2792 عنوانه «**رسالة في الرقص والتصفيق والذكر والأشواق**» (انظر **التاريخ** ج 1 ص120 تعليق 54) .

ماذا علّم ؟

103 ـ لعلّها الموادّ التي قرأها هو برأس الماء وبجاية وهي القرآن والشريعة والحقيقة (أي الحقّ سبحانه أو ماهية الله) والأدب (أي جملة المعارف التي لا يسوغ للانسان الفاضل أن يجهلها) . والمصادر لا تقول كيف درس هذه الموادّ ولا بأي مصنّف وإنما تروي شيئا من تفاسيره .

في شأن الحقيقة قال : «العقل يحاول إدراك الأشياء بأسبابها والخيال يحاول إدراكها من ظواهرها والاحساس يحاول إداركها من محيطها والحالة أن الله ليس له سبب حتى يدركه العقل ولا ظواهر حتى يدركه الخيال ولا يحيط به شيء حتى يدركه الاحساس» .

وقال في العقل البشري : «العجز عن الادراك ادراك» والله ليس كمثله شيء (**ربح** 210) .

وقال : «الايمان محلّه القلب والاسلام محلّه اللسان» (**البستان** 446) .

وسمعه أحد أتباعه اسمه عبد الحق المطهري يشرح معنى العبادة فقيّد ما سمع ثم جعل ذلك في قالب شعريّ قال :

«سمعته قائلا لي إن مذهبنا ... أن نعبد الله إحسانا بلا علل
من كان يعبد خوف النار أو طمعا ... في الحور كالعَبْد والأجير في المثل

والقول الذي سمعه هو : «خديم الدنيا أسير وخديم الآخرة أجير وخديم الحقّ أمير» (**الربح** 188).

وقال : «عرّفني الله بطبيعة الانسان كلّها وهي مركّبة من أنواع شتّى أرضيّ وسماويّ وهوائيّ وحارّ وبارد وجَمَلي وبَقَري وغَنَمي ولا يخفى عليّ من طبائع الخلائق بأسرهم طبيعة» (**البستان** 356).

أين علّم تلامذته ؟

104 ـ في مصراته وفي تاقصريت وفي يلّل وخصوصا في زاويته بقلعة بني راشد. فإنه رحل بعد وفاة أبيه من رأس الماء إلى القلعة وأسّس بها زاويته التي قال في شأنها : «زاويتنا كسفينة نوح من دخلها أمن من الخوف» (**البستان** 323). وقيل «ما دخل في قبّتها عليل إلاّ شفي من علته ولا ملهوف إلاّ أغيث في لهفته ولا مكروب إلاّ فرج الله كربته ولا حزين الاّ ووجد بها راحة البال» (**البستان** ص121). والزاوية ـ كم هو معلوم ـ محلّ ديني في الغالب مدرسيّ شبيه بالدير وبالثانوية وهي أيضا مركز اعتزال وحركة صوفية لنشر التصوف بين العوامّ وهي أخيرا كثيرا ما تكون مركز طريقة دينية وكان المغرب في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي تربة صالحة للتصوّف والطرقيّة والزوايا. وان التعليم في الزوايا كان مقصورا فعلا على تربية دينية وعلى التدرّب في الزهد وعلى إصلاح الانسان لأن بإصلاحه يتحقق إصلاح المجتمع.

قال لتلميذ من تلامذته : «يا ولدي من دلّك على الدنيا فقد أتعبك ومن دلّك على العبادة فقد أشقاك ومن دلّك على مولاك فقد نصحك» وقال : «يا ولدي غب من الدنيا والآخرة وغب عن الحور والقصور والجنّة والنار. . . شتّان ما بين همّتنا أن نطلب الحور والقصور وبين همّتنا أن نطلب رفع الستور ودوام الحضور. . .»

بهذا التعليم صار ـ كما قيل ـ «قنديلا يستضاء به» (**البستان** 355).

فقراؤه تلامذته :

105 ـ وعدد تلاميذه ـ كما هو في **البستان والعقد والربح** ـ أكثر من أربعين تلميذا نكتفي بذكر أسماء بعضهم اختيارا للبارزين منهم :

ـ محمد بن أحمد بن علي بن عبد الرحمان الصبّاغ المدعوّ ابن مَعزّى والِد صاحب **البستان** صوّام قوّام ذو صوت رخيم منقطع لشيخه قلبا وقالبا حتى

«صار عنده أفضل من الأب والأخ الشقيق. . . كان يغسل ثوبه ويعصره ويشرب وسخه» (**البستان** 20 و 396) وكان يداعب قرض الشعر فمدح شيخه بقصيدة طويلة وعاش مقرّبا عنده الى أن استشهد في وقعة «مجشر السوخ» مع الأصبان عام 1518/924 بقيادة الاسكندر.

أبو عبد الله مْحمد (بسكون الميم) بن أحمد الشريف الزهّار الذي كان «أكثر حاله السكر والغيبة ويقول : يا أحمد بن يوسف اشتغلت بالنساء» كان بالقلعة قبل مجيء الاسكندر والأتراك، يتعبّد بمغارة فوق مصراتة. فعزم أصحاب سيدي أحمد بن يوسف أن يزجروه على جسارته نحو شيخهم فقال لهم بنوع من الخبث : «الخروف إنّما يلعب على ظهر أمه !» فهو الخروف وسيدي أحمد بن يوسف هو النعجة. ومع كلّ هذا كان «موحدًا غارقا في بحر التوحيد يتخبّط فيه بجناحيه» ومن مناقبه أن ألقى مرقّعته ثم نفسه في النار فلم تعدُ عليهما» (الربح 193) وكان يدخل مسجد القلعة حافيا ويقول : «أدنّسه قبل أن ينجّسه الكفار» على وجه الانذار باستيلاء الأصبان على القلعة. وقال : «إن النصارى سيأخذون تلمسان». فقيل له : «مع وجود أبي مدين بها ؟» قال : «نعم ويطأون بطنه». وكان الأمر كما قال عام 1543/950 وأخبر أيضا باستيلاء النصارى على بجاية بأن قال : «التواتي ما يواتي !» فكان ذلك عام 1510/916 على يد بدرو نافرّو Pedro Navarro ولم يخرجوا منها إلاّ في سنة 1555/962. ومارس وظيفة نقيب الأشراف بالجزائر العاصمة حيث توفي عام 1541/948 وقبره بالمسجد المسمّى باسمه في القصبة يتبرّك به وله إلى الآن نسل متعدّد بها وبغيرها من مدن الجزائر (**البستان** مخطوط 413 ـ مطبوع 378 ـ **العقد** 438 ـ **الربح** 193 ـ **التعريف** ج 2 ص 469).

ـ عبد الحق بن على المطهري الذي كان يحبّ نظم الشعر فألّف في سنة 1528/935 مرثية فيها 125 بيتا (أغلبها فاسد) رثى بها شيخه (الربح 206).

ـ مْحمد (بسكون الميم) بن عبد الجبّار الفجيجي المسعودي التلمساني، شاعر متصوّف صاحب عدة قصائد في مدح النبي ﷺ أسّس زاوية في حدّوش بتسّالة وبنى بجانبها مسجدا ومعه عين ومحل للضيافة حيث كان أتباعه يجدون السكنى والطعام حتى أنه اشتهر في سائر المغرب الأقصى والأوسط وكثر أتباعه. توفي في 1543/950 عام دخول الأصبان في تلمسان (ابن مريم 287-88).

- أبو الحسن علي بن عبد الله الفيلالي الذي ورث الشيخ روحيا ومثّله في المغرب الأقصى حيث نال صيتا عظيما في الطبقات الشعبية لكنّه اتهم أخيرا بالزندقة واعتناق مذهب الاباضية فأزعجه عمّال السلطان عبد الله الغالب صاحب فاس (1574/982) وهو الذي نظم الطريقة اليوسفيّة وفي حقّه قال سيدي أحمد بن يوسف : «اقشيش ان . . .» لنفي صيته دون إنكاره (**البستان** 392).

- محمد بن سعيدة القلعي الذي مات مجاهدا ضدّ الأصبان عام 1518/924.

- قاسم بن سعيد القلعي الذي مات مجاهدا في نفس الوقعة (**البستان** ص 397).

- علي بن قاسم ابن السابق المدعوّ ابن الحولاء (أمّه كانت حولاء) وكان يتطوّع بالأذان بالمسجد الجامع بالقلعة (**البستان** ص 377).

- مسعود العروسي هو من الذين أقنعوا محمد الدرجي للرضى بزواج ابنته كليلة مع الشيخ (**البستان** ص 458) (انظر أعلاه الفقرة رقم 91).

- أبو العباس أحمد البطحي نظّام شعر مدح الشيخ بقصيدة تنيف على مائة بيت (**البستان** ص 614).

- عبد الله أخلال كان فقيرا فأصبح غنيّا بدعاء من الشيخ وتمكّن من افتداء كثير من الأسرى المسلمين عند النصارى (**البستان** ص 396).

- محمّد بن غالية كان كثيرا ما يذهب ليلا للغزو في أرض النصارى صحبة محمد الشريف البوعمراني ويعود بالأسرى والغنائم (**البستان** ص 465).

- موسى بن علي الكثيري الذي قال لما حضره الموت : «ابقي على خير يا الدنيا السلام عليك يا ربّي !» وخرجت روحه (**البستان** ص 468).

- محمد العنتري العربي صاحب قصيدة مخمسة نقلها (**البستان** ص 392).

106 - ومن بين أتباع سيدي أحمد بن يوسف جماعة المذابيح لهم مقام ممتاز وهم سبعة رجال وثلاث نساء وقد امتحن إخلاصهم له بكيفية غريبة

(**الربح** ص 207). فالسبعة رجال هم :

- مْحمد بن عبد الجبّار الذي سبق ذكره.

- سليمان بن أبي سماحة (بو سماحة) البكري وقبره في بني ونيف شرق فيجيج وهو جدّ سيدي الشيخ بن الدين والسماحات.

- الحاج بن عامر وقبره في البيِّض. موسى البريشي - موسى الجراري.

- عبد الرحمان وقبره شرق وادي السهول (؟) وهو شيخ سيد أحمد بن موسى صاحب الطريقة الكرزازية.

- يعقوب المدفون في ميسور (؟) أراد هو الآخر أن يشارك في الامتحان وخاطب الشيخ بقوله : «ياسيدي هل لا تصلح النعجة للذبح ؟».

وأمّا النساء الثلاث فهنّ :

- ميمونة الجناوية الجزّانية (هل هي سوداء من إين جزّان ؟)

- عائشة العَدَوية المِكناسية.

- فاطمة ستّي الجيلانية قبرها في قمة الجبل المطلّ على تلمسان. (هل هي لالّة ستّي ؟).

كان الامتحان يوم عيد النحر أي عيد الأضحى كما يلي : تتابع الأتباع في بيت له بابان واحد للدخول والآخر للخروج. وبعد دخول أحدهم يظهر خيط من الدم من باب الدخول يراه الحاضرون وهم ينتظرون دورهم. والحقيقة هي حيلة فقط شبيهة بالقصة الواردة في التوراة والقرآن عن تضحية سيدنا إبراهيم الخليل عليه السلام لابنه إسحاق في التوراة وإسماعيل في القرآن. والضحية هنا وهناك إنما هي خروف أو كبش (**الربح** 438).

التصديق الساذج والطاعة المطلقة

107 - ليأذن الشيخ لنفسه الشروع في مثل هذه الخزعبلات المضحكات كان لا بدّ له من عِباد سذّج مصدّقين خاضعين يفعل بهم ما يشاء وله عليهم سيطرة مطلقة وفعلا كان حوله من يصدّق تصديقا راسخا بأن نخلات أبي بكر

الصديق رضي الله عنه طارت بأجنحتها من مكّة إلى المدينة وقدّمت جذوعها لبناء المسجد النبوي وذلك تلبية لدعاء دعاه النبي ﷺ في زعمهم.

ويصدّقون بأن شابّا من شبّان تَنَس مضى الى مالَقة وقت الظهر وعاد الى تَنَس وقت العصر من يومه (**البستان ص** 161).

ويصدّقون بأن شابّا آخر من شبّان تَنَس مضى الى مكّة بطريق الجوّ على فرّوجين مشويّيْن وبيده في منديل فرّوج وخبز سلّمهما له أبو زكرياء المغيلي (**البستان ص** 162).

ويصدّقون بأن الفارسي حبيب العجمي كان يوم التروية (التاسع ذي الحجة) بالبصرة وكان في الغد بعرفات لحضور الوقفة (**البستان ص** 169).

ويصدّقون بأنّ أبا العباس أحمد بن بو معزة الراشدي كان يدخل فرن خبّاز ويفرّق فيه خبز المسلمين من خبز اليهود دون أن يتأذّى من الحرارة. (**العقد ص** 425).

ويصدّقون بأن النحاس يحوّل الى فضّة وذَهب وأن النقود المزيّفة تُحوّل الى نقود صافية (**البستان ص** 211).

ويصدّقون بأنّ «الزويجة» تحرث بدون «خمّاس» **إذا كان من الأولياء** (**البستان** 164).

ويصدّقون بأن دادًا يحيى بن علي بن محمد بن علي بن أبي عمران (بو عمران) طبيب هوّارة تمكّن من إحياء ثور كان لحمه البارحة «زَرْدة» لفقراء سيدي أحمد بن يوسف (**البستان ص** 171).

ويصدّقون بأن أحمد بن بومعزة المذكور سابقا كان **يملك معزة** (عنزا) يذبحها في كلّ مرّة لأضيافه وأنها وقفت مائة مرة حية.

ويصدّقون بأن «عبد القادر بن حماشة المصراتي وَجدَه علي بن غرّوس في شعاب مصراته مع الحجل تفلي ثوبه (**البستان ص** 455-462) الربح ص 199-204).

ويصدّقون بأن محمد العربي العنتري يكفيه أن يرضع اصبعه وينفخ فيه فيصير مصباحا (**البستان ص** 437).

ويصدّقون بأن محمد بن بلّوطة كان يستغني عن مشقّة السفر الى الحرمينْ للحج لأن الكعبة كانت تسافر إليه وتطوف به (**البستان ص** 438).

هذه أنواع منوّعة من الشعوذة لا يستطيع أصحابها أن يفعلوها إلا بصفتهم أتباعا للشيخ القطب الذي يجولون حوله ويتلقّون منه قليلا من بركته وقوّته الخارقة للعادة.

والحقيقة أن سيدي أحمد بن يوسف قد ارتقى بفضل تأديبه وأسفاره ومعاشراته الى منزلة تفوق مستوى المجتمع الذي كان فيه المتألّف من ريفيين يرون فيه شخصا شاذًا. وقد قال هو مستهزئا (طويل).

«عليّ بحث المعاني من معادنها   وما عليّ إذا لم تفهم البقر»
(**البستان ص** 189).

108 - لقد ورد في ترجمته أنه أظهر في صباه مواهب غريبة في المكاشفة. سأل يوما زرّوق تلامذته ببجاية قال: مَنْ يخبرني بشيء عن ابني في فاس؟ قال سيدي أحمد بن يوسف: أنا أراه أمام غرفته مع أمّه تمشط له - قال زروق: ثم ماذا؟ - قال: قد ضفرت شَعره وربطته بحاشية من حرير على رقبته وللحاشية شرّابة من حرير - قال زرّوق: «بارك الله فيك!». وأقبل مسافر بعد قليل من فاس وأثبت كل هذه التفاصيل (**البستان ص** 90).

وروي أيضا أنه في بداية نشاطه أراد أن يقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأن يقوم مقام المحتسب عند عودته من بجاية الى رأس الماء. فبلغه أن شخصا من دوار أبيه قد هرب بامرأة وبقي يزني بها جهارا فقال لأبيه: «يجب علينا أن نهجر هذا المكان الذي ليس فيه النهي عن المنكر». فقال له أبوه: «خذ جارية تحضّر لك طعامك وآمض في سبيلك وأمّا أنا فلا أفضح أناسا آستقبلوني بالبشاشة».

فمضى سيدي أحمد بن يوسف الى قاضي بني راشد ورغب منه أن يقضي على ذلك العار فلم يلتفت إليه. وسمع به ذلك الرجل وأقسم أنه سيعقر فرسه وأن يريه ما يريه. فقال له سيدي أحمد بن يوسف بواسطة إنسان إنه سيقتحم أمرا فوق طاقته. (**البستان** 114).

وروي أنه قبل أن يتجاوز عهد الشباب والدراسة كان يقابل بين الحياة

اليومية في وقته (القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي) حياة فاسدة ملوّثة والحياة اليومية في وقت ولي الله الشهير سيدي عبد القادر الجيلاني (القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي) حياة كانت في نظره موسومة بالفضيلة والأخلاق الطاهرة. فرأى من واجبه بحكم القرآن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باليد والاّ فباللسان والاّ فبالقلب وذلك أدنى الايمان. وبما أنه تعرّض للتكبّر والاهانة من جانب القاضي وسمع بالتهديد من جانب الزياني فانه بقي يتأمّل فيما يلزمه أن يفعله للوصول الى مستوى سيدي عبد القادر الجيلاني.

كـرامـاتـه

109 ـ من كلّ هذا كان التحاقه بالطريقة الشاذلية أملا في العثور على المساعدين لكنه سرعان ما رأى أن ارتقاءه يتطلّب منه مبادرات أخرى منها بالخصوص براهين باهرة من شأنها التأثير في عقول الطبقات الشعبية. فرُوي له عدّة كرامات:

منها أن امرأة كانت «مسكونة» بجنّ فجاءه بعلها وحصل منه على «قرطاس» قرأه عليها وفي الحين نطق الجن على لسانها وصاح: «سمعًا وطاعةً لله وللشيخ إني خارج!» فتخلّصت المرأة بذلك وإذا بالعامّة تذيع بأنّ الشيخ كان يتصرّف في عشرين ألف تابع من الانس وفي عدد لا يحصى من الجنّ.

ومنها أنّه كان ذات يوم مع اثنين أو ثلاثة من أصحابه فأخبر تلميذه الصبّاغ بزيارتهم له في منزله. فرأى الصبّاغ من واجبه تحضير وجبة لعددهم لكن لما كانوا في الطريق التحق بهم موكب عظيم للمشاركة في «الزردة». فلمّا رأى الصبّاغ ذلك اعتراه اضطراب شديد. فقال له الشيخ: «قدّم لنا ما حضرت لا غير!» واقتصر هو على أن يذوق من كل لون قبل أن يفوّته لأصحابه مع شيء من الدعاء. فشبعوا كلّهم وخلّفوا الفضل. وقد جرى مثل هذا في عدة مناسبات من بينها واحدة مع تلميذه محمد العنتري الواضحي (**البستان** ص 120-121).

ومنها أنّ قائد هوّارة فرض على محمد أقنّيش تلميذ سيدي أحمد بن يوسف أن يهدي له «حنبلا» وهدّده بالعقاب إذا هو لم يأته به. فصار أقنّيش في حيرة لأنه لم يجد الحنبل للبيع وخاف على نفسه. فرأى في المنام أسدا كأنه اعترضه في الطريق وكلّمه قائلا: «اذكر اسم الله ولا تخف». فلما أصبح الصباح مضى إلى شيخه وقصّ عليه ما رأى في المنام وما سمع. فقال له سيدي أحمد بن يوسف: «دادّاك ذاك» ولم يطالبه أحد بعد ذلك بشيء، (**البستان** ص 113).

ومنها أنه رافقه تلميذه سعيد أعراب راجلا وهو راكب الى سيرات (على 21 كم من مستغانم). فاعترضهما وادي سيرات حاملا (ويسمى الآن وادي يَسّر). فقال الشيخ لسعيد أعراب: «أَمسِك ذيل فرسي واغمض عينيْك وتقدّم!» فقطعا السيل ولم يَمَسَّ الماء «صبّاط» سعيد أعراب الذي أذاع القصّة وضمن صحّتها (**البستان** ص 80).

ومنها في ظروف مماثلة أو تكاد أن رجلا من الجزائر العاصمة كان في ليلة قرّ لا بد له أن يقطع وادي مينة (من روافد شلف) وهو حامل. فخاف على نفسه وعلى دابّته فاستنجد بسيّدي أحمد بن يوسف. فأحضره له في الحين لفيفٌ من الملائكة في شكل قنطرة مشى عليها بدون مشقّة الى ضفة الوادي الأخرى. فمضى في الغد هو أيضا إلى الشيخ وقصّ عليه قصّته. فما كان من سيّدي أحمد بن يوسف إلاّ أن قال له: «دادّاك ذاك». وكان هو عند مغادرة فراشه في الفجر مبلّلا فرأته زوجته ستّي وألحّت عليه أن يبقى تحت الغطاء لئلا يتعرّض للداء. فحكى لها الحكاية وقال إنه أحسّ في ظهره بحوافر الدابّة (**البستان** مطبوع ص 82 ـ مخطوط ص 123).

الطرقيّة: الشاذلية

110 ـ هذه الروايات الشعبيّة (الفلكلوريّة) بما فيها من ترهيب وترغيب تعدّ من الوسائل الشرعية ومن سياسة الجزرة والعصا لتوطيد سلطة الشيخ الروحيّة.

وكانت سلطة سيدي أحمد بن يوسف في قيد الحياة وبعد الممات سلطة عظيمة على مريديه. فإنه كان يمنحهم الذكر المقرّر في الطريقة

الشاذليّة ويجمعهم في حلقات الأناشيد والموسيقى. غير أن مترجميه لا يذكرون له طريقة باسمه.

ذلك أن الطريقة عادة لا يسمّيها مؤسّسها باسمه وإنما يفعل ذلك أتباعه بعد وفاته إذا ما اعتقدوا القطبيّة فيه. فإنّهم غالبًا يسجّلون اسمه في السلسلة بعد اسم القطب الذي أدخله فيها.

والقاعدة هي أن لكلّ طريقة سلسلة على رأسها اسم النبي ﷺ مع أنه ﷺ لم يعرف أي طريقة. فالشاذليّة سمّيت بالمغرب أوّلا بالمَدَنية (والصواب المدْيَنيّة) باسم أبي مدْين شُعَيب الرابع عشر في سلسلتها وبعده الشاذلي السادس عشر. ثم سمّيت باسم الشاذلي اعترافا له بنشاطه المستمرّ في خدمتها. فانتشرت في القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي وتفرّعت الى نحو العشرين فرعا في المغرب والى ثمانية فروع في مصر ولكلّ فرع سلسلته وقطبه.

من فروع المغرب فرع الزرّوقيّة وبها التحق سيّدي أحمد بن يوسف. وها هي سلسلتها كما سجّلها الصبّاغ صاحب **البستان** عن السخاوي المتوفّى سنة 1496/902.

1) الرسول ﷺ.

2) علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

3) الحسن البصري.

4) حبيب العجمي.

5) داود بن نصر الطائي.

6) معروف الكرخي.

7) السقطي.

8) الجنيد.

9) أبو طالب المكّي.

10) الجُوَيْني.

11) الغزالي.

12) ابن عربي.

13) ابن حِرزهم.

14) أبو مَدْين

15) ابن مَشيش.

16) الشاذلي.

17) المرسي.

18) القرفي.

19) زرّوق (**البستان** ص 185)[58].

ـ ويلاحظ القارئ أن الصبّاغ تحاشى عن ذكر سيدي أحمد بن يوسف في هذه السلسلة. ذلك لأن أتباعه قرّروا بعد وفاته تسجيل اسمه بها في الدرجة العشرين.

وبعد ذلك قام ستّة من أتباعه وأسّس كلّ واحد منهم فرعا من هذه الطريقة وسجّلوا اسمه علي رأس كلّ سلسلة وذلك في جنوب المغرب وهؤلاء الأتباع هم:

1) أبو الحسن على بن القاسم الغازي الذي تحرّك ابتداء من سنة 1526/932 بوادي درعة وأسّس هناك الطريقة الغازية.

2) نمت بعد ذلك هذه الطريقة بفضل الجهود التي بذلها في خدمتها مْحمد (بسكون الميم) بن ناصر الدرعي (1606/1015-1687/1089) انطلاقا من تامقروت وسمّيت بالطريقة الناصريّة. وآخر قطب كان عليها أبو عبد الله مْحمد (بسكون الميم) بن عبد السلام . . . بن ناصر المتوفّى سنة 1824/1239.

3) محمد بن عبد الرحمان السُّهَيْلى الذي أصله من الينبوع استقرّ بعد الدراسة عند سيدي أحمد بن يوسف ثم بجبل السّهول في تافيلالت حوالي سنة 1540/936 وأسّس طريقة هي الطريقة السُّهَيْليّة.

4) أحمد بن موسى الحسَني (1608/1016-1502/907) كان من تلامذة سيدي أحمد بن يوسف. فاستقرّ بكرزاز في الجنوب الغربي من فيجيج على رأس طريقة هي الطريقة الكرزازيّة التي انتشرت على سائر بلاد قورارة وآخر قطب لها هو أحمد بن محمد بن بوبغلة المتوفّى سنة 1884/1302 (انظر رين Rinn ص 342).

5) عبد القادر بن محمّد (1615/1023-1544/951) المدعوّ سيدي الشيخ كان هو أيضا من تلامذة سيدي أحمد بن يوسف وصار قطبا للطريقة الشيخيّة وهو جدّ القبيلة الشهير أولاد سيدي الشيخ (انظر رين Rinn ص 349).

6) مْحمد (بسكون الميم) بن عبد الرحمان بن بوزيان المدعّو مولاي بوزيان المتوفّى سنة 1733/1145 تلميذ علي بن عبد الله الفيلالي الذي هو تلميذ سيدي أحمد بن يوسف استقرّ عند القنادسة على رأس طريقة هي الطريقة الزيانيّة (انظر رين Rin ص 408).

111 ـ الآن لا وجود لأي طريقة باسم سيدي أحمد بن يوسف لا بناحية القلعة ولا بناحية بجاية ولا بناحية مليانة مع أنه عاش بهذه المدن الثلاث وتلقّى دراساته وعلّم ووعظ وأحاط به أتباعه المخلصون الأوفياء من جهة وأعداؤه الألدّاء من جهة أخرى. ذلك لأن الكرامات التي أبداها للطبقات الشعبية والتي نسبها إليه مترجموه بعد وفاته لم تمنعه من أن تكون له حياة عامّة ملحوظة غير خافية.

إنه لم يكن ديّنا نظريا ولا زاهدا بل كان رجلا عاملا حسب السنة الاسلامية والحديث النبوي «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا وآعمل لآخرتك كأنك تموت غدا «ولا رهبانية في الاسلام».

وإنه تعلّم وسافر وأدّى فريضة الحجّ وفريضة الجهاد وتزوّج مرارا حسب الشريعة الاسلامية وأنجب بنين وبنات وعاش في الرخاء وكان له أنصار وأعداء.

من أعدائه حموه عُمَر التراري الذي سبق ذكره والذي نوى اغتياله (**البستان** ص 4-5-37-83).

كان ذات يوم داخلا الى القلعة مع فقرائه وإذا بسعلاة تصيح في وجهه

بأنّه الدجّال.

خصمه اللدود سميان نهاه نهيا باتّا عن الاتصال بأفراد قبيلة بني فَرَح وهو الذي دعا عليه بالخاتمة المُهينة والإقبار في «زوبية» اليهود (**البستان** ص 121) وقد كان الشيخ زرّوق أنبأه من جهته بهذه الخاتمة.

وكان يواجه هولاء الخصوم بالاعتماد على فقرائه المخلصين. وانتشر بعضهم في جنوب المغرب فعرّفوا باسمه وانتسبوا اليه واستمالوا فقراء آخرين وأدخلوهم في الطريقة الشاذليّة. فقويت بمساعيهم ثقة الطبقات الشعبية به وفي نفس الوقت التفتت إليه أنظار أولي الأمر فرمقوه بعين الحذَر. ومن جهة أخرى اعترف له بالولاية بعض رجال التصوّف ومن بينهم مْحمّد (بسكون الميم) بن محمد بن يوسف السنوسي صاحب العقائد المشهورة المتوفّى سنة 1493/899 (**البستان** ص 16 وما بعدها).

مواقفه السياسية

112 ـ أما سيّدي أحمد بن يوسف فهمّه الأهم كان مصير المغرب المهدّد من الداخل بالفوضى ومن الخارج بهجومات النصارى بسبب انحلال السلطة السياسية سواء في فاس وفي تلمسان وفي تونس. وكان في ذلك تشجيع للبرتغال ولاصبانيا لتنفيذ سياستهما التوسعية بالحروب الصليبية وقد بدأ كلاهما يدوس شواطئ المغرب دون أي تعرّض للمقاومة.

كان المسيحيّون بنقطة الاقلاع والانطلاق نحو الرقي بينما كان المسلمون في حضيض الركود والانحطاط والجمود والتهاون، ليس لرؤسائهم إيمان، همّهم ممارسة السلطة لذاتها يتنافسون عليها ولا يتردّدون في الاعتماد على العدوّ لكسبها لا يمتّون بصلة إلى السلف الماجد من أمثال عمر ومعاوية والمنصور وعبد المؤمن وصلاح الدين بينما كانت النصرانيّة تدوس حدود دار الاسلام كلّ يوم وتحاول التوسّع باحتلال ساحتها :

في سنة 1061/453 بدأ روبار قسكار Robert Guiscard والمجوس Les Normands الحرب من أجل استعادة صقلّية.

في سنة 1088/481 استولى مجوس صقلية وأعوانهم من بيشة Pise وجنوة

Gênes على المهدية .

في سنة 1099/491 دخل الصليبيون القدس ولم يخرجوا منها إلا في سنة 1310/691 .

من سنة 1134/529 إلى سنة 1148/543 كان رُجار الثاني صاحب صقليّة يوالي الهجوم على جربة وبَرِشْك واطرابلس ومهديّة وجيجل وبونة وقرقنة . . .

في سنة 1212/609 انتصر الأصبان على الموحدين في العِقاب Las Navas de Tolosa بالأندلس .

في سنة 1249/647 نزل سان لوي Saint Louis ملك فرنسا بدمياط في دلتا النيل .

في سنة 1258/656 استولى المغول على بغداد .

في سنة 1270/669 نزل سان لوي Saint Louis بقرطاج .

في سنة 1492/897 دخل الملكان الكاتوليكان غرناطة .

وابتداء من هذا التاريخ كان المغرب في خطر شديد من جانب البرتغاليين والأصبان . وكان البرتغاليون قد استولوا في سنة 1415/819 على سبتة وأحدثوا بها أُسقُفية في سنة 1421/825 ثم استولى عليها الأصبان في سنة 1580/999 واستقرّوا بها إلى يومنا هذا بالرغم من الحصار الشهير الذي دام 27 سنة بفضل جهود المولى إسماعيل .

واستولى البرتغاليون في سنة 1458/862 على القصر الصغير وفي سنة 1471/876 على طنجة وأصَيْلة وفي سنة 1479/884 على عدة مراسي بالشط الاطلنطي .

واستولى الأصبان في سنة 1513/904 على مليلة واستقرّوا بها إلى الآن .

واستقرّ البرتغاليون بأسفي في سنة 1523/914 وبأزمّور في سنة 1529/920 وفرضوا حمايتهم على جزء كبير من المغرب إلى أبواب مرّاكش .

المعزّ وابنه تميم بن زيري عجزا عن الدفاع عن صقلّية والملك الأفضل الذي كان وزيرا مستبدًّا على مصر هو المسؤول عن ضياع القدس وسائر

فلسطين واحتلال الصليبيّين الأفرنج بهما .

وهذا الوضع هو الذي حمل السكّان على الالتفاف حول رجال الدين وحمل رجال الدين على ممارسة المعارضة والدفاع عن دار الاسلام فجعلوا من زواياهم ملاجئ لضحايا السلطة الحاكمة الغاشمة وجعلوا منها مرافئ لمجاهدي البحر وللقراصين الأتراك الذين كانوا وقتئذ يجوبون المتوسط الغربي . هذا ما فعله محمد الهواري المتوفّى سنة 1439/843 في وهران ومحمد التواتي المتوفّى سنة 1475/901 في بجاية والذي أجار بيري رايس . والمعروف أن وهران وبجاية ما دخلهما الأصبان إلا بعد وفاة الشيخين (انظر عنهما **التاريخ** ج 1 ص 466-469) .

113 ـ مارس سيّدي أحمد بن يوسف الشؤون العامّة وتداخل في الأمور السياسيّة فأثار بينه وبين سلطان فاس وبني زيان نزاعا حمله على وضع يده في يد عروج أكبر الاخوة بربروس وعلى أن يقف مع الحكّام وقوف رجل مستقل حرّ معتدّ بنفسه يخاطبهم خطاب المتحدّي بلهجة التهييج والتهديد في بعض الأحيان .

وشى به الحسّاد والخصوم بفاس لدى السلطان عبد الله الغالب الذي سبق ذكره ووصفوا أفكاره ودعايته بأنها مخالفة للسنّة ، هدّامة لمبادئها ، تستحقّ إجراءات الزجر . فلمّا بلغه الخبر كتب حينا إلى السلطان رسالة منها قوله :

«المولى جلّ جلاله أمدّني بعدله ووصفني بأوصافه حتّى صرت أنا هو وهو أنا يا أمير المؤمنين لا تقهر الفقراء أو يعمل لك العلماء برنسا من الثلج ويلبسونه لك في السمائم ومن الماء عمامة يشدّونها شدّا مائلا ومن الريح قنديلا يعملون منه فتائل» .

لمّا وصل هذا الرمز للأمير أحضر العلماء لفكّه فسلّموا واعترفوا بعجزهم .

وسجل الورثيلاني هذا النصّ مع بعض التصرّف وحاول تأويله في رسالة وجيزة معتمدًا على بعض الأحاديث وعلى ألفاظ خاصّة بالتوحيد (**الرحلة** ص 108-109) غير أنه لا يسوغ القول بأنه وفق لذلك توفيقا .

114 ـ وكان لسيدي أحمد بن يوسف مع بني زيان شنآن وأي شنآن. كان ذات يوم بوهران في جمع من فقرائه جالسين يتناشدون قصائد التصوّف ويرقصون وإذا ما استراحوا تبادلوا الآراء وتجاذبوا أطراف الحديث في الشؤون العامّة وفي نظام تلمسان خاصّة. فقال واحد منهم : إنها سلطنة كسلطنة اليهود : (**البستان** ص 36) أو «إنها سلطنة أسوأ من سلطنة اليهود» . (أي اليهود الذين هم ألدّ أعداء المسلمين) . فنُقِلت هذه الكلمة إلى أبي عبد الله الثابتي الملقّب أبو قَلَموس (1516/923-1504/910) . فأمر قائده بوهران بإلقاء القبض حينا على سيدي أحمد بن يوسف . فأنذره محبّوه . فمضى إلى رأس الماء لكن تبعه هناك نفس الأمر إلى القائد أحمد بن أبي غانم بإلقاء القبض عليه . غير أن هذا الأخير عِوَض أن ينفّذ أمر الثابتي أشار على سيدي أحمد بن يوسف بالاختفاء . وفي هذا دليل على ما في قلوب الرعيّة نحو أبي قلموس وحتى في قلوب الموظّفين السامين . وحقّ لفقراء سيدي أحمد بن يوسف أن يتآمروا رغبة في إنهاء نظام تلمسان[59] .

وها هو سيدي أحمد بن يوسف على فرسه وابنته عائشة مرادفة له ومحمّد العنتري راجل أمامه يحثّون السير إلى يلّل للالتجاء عند هوّارة . وهناك قال ذات يوم لبعض فقرائه : «شوّشونا الله يشوّشهم برّا وبحرا» (**البستان** ص 36) .

هذه الجملة دعاء على نظام تلمسان كان مقبولا لأن أسطول اصبانيا استولى في سنة 1505/1915 على أحسن مرفأ بالشاطئ الجزائري هو المرسى الكبير ثم استولى بيدرو نفرّو Pedro Navarro على وهران سنة 1508/918 وأشرف الكردينال كسيمينس Cardinal Ximenes على مقتلة 4 000 من المسلمين وعلى أسر 8 000 منهم وعلى تحويل مسجدين إلى كنيستين للكثلكة .

ثم استولى بيدرو نفرّو على بجاية سنة 1510/920 فبقيت في يد الأصبان 45 سنة . فهل كان هذا مراد سيدي أحمد بن يوسف ؟

تمكّن الثابتي من إلقاء القبض على سيدي أحمد بن يوسف وحكم عليه بأن يُحرَق حيّا وأتى بنو ورنيد بألفي حمل من الحطب اليابس لترميده بأنزوت بين تلمسان والعُبّاد بمحضر اثنين من فقرائه . وفي نفس الوقت حكم الثابتي على ابنه محمد بن مرزوقة بالإعدام . والمصادر لا تبيّن لنا كيف نجا من

الموت كلاهما وإنّما تلمح إلى حصول ذلك بكرامة (**البستان** ص 467) .

أُلقِي القبض للمرّة الثانية على سيدي أحمد بن يوسف لسبب مجهول في المصادر . فسُجِن في تلمسان بأمر أبي حمّو الثالث (1527/934-1516/923) في جواره بالقصر . فأراد أبو حمّو أن يختبر مواهبهُ الخارقة للعادة . فقدّم له ذات يوم فرّوجيْن مشويّيْن ما منهما إلا واحد مذكّى حلال . فلم ينخدع سيدي أحمد بن يوسف بهذه المكيدة واكتشفها لأوّل وهلة .

ثم أراد أبو حمّو أن يمتحن شجاعته بأن بعث إليه سيّافه في السجن . فدخل السياف عليه والسيف بيده غير أنه حملق ما حملق فلم ير أحدا بالسجن مع أن سيدي أحمد بن يوسف كان هناك مطمئنا ساخرا منه . فكرّر السيّاف التجربة ثلاث مرّات فلم يفلح . فأراد أبو حمّو أن يتحقّق الأمر بنفسه وولج باب السجن فلم يفلح هو الآخر لأن سيّدي أحمد بن يوسف انتزع له موقتا قوة البصر . فأيقن أبو حمّو بولايته وعرض عليه إطلاقه من السجن . فكان من جوابه أن قال : «لن أخرج من السجن إلاّ بعد أن يخرج أبو حمّو هو الآخر من قصره إلى غير رجعة[60]» .

وفعلا طرأ بعد قليل أبو محمّد عبد الله المسعود المدعو المسعور (1540/947-1527/934) وعزل أخاه أبا حمّو الذي هرب إلى وهران عند الأصبان بينما مضى سيدي أحمد بن يوسف للاحتفال بسراحه بأن قضى ليلته الأولى عريسا للبناء بعائشة الزغلة كما ذُكِر سابقا .

حليف الاخوة بربروس

115 ـ كان أول اتصاله بالعثمانيين بمناسبة إقامته على شاطئ البحر في كريستل غرب وهران . هناك رأى ذات صباح مركبا رسا بقرب الشاطئ ونزل منه رجلان هما عراج (أي عروج) وأسير مغربيّ كان دليلا له وترجمانا وقيل إنه هو الذي نصحه بالنزول هناك للاتصال برجل من رجال الدين مشهور بالولاية . فقال له عروج : «سأصدّق بولايته وبمواهبه الخارقة للعادة إذا استطاع أن يقول لي شيئا عن مقاصدي فإني إذن سأقبّل رجليْه وسألتمس منه الدعاء الصالح !» ولأوّل وهلة قال سيدي أحمد بن يوسف بدون مقدّمة : «عزمت إذن وأصحابك الهجوم على العدوّ !» فجثا عروج حينا وقبّل رجليه وحصل على دعائه الصالح

الذي قيل إنه كان بمثابة البيعة (**البستان** ص 34).

كان سيدي أحمد بن يوسف كغيره من رجال التصوّف مستعدًا للترحيب بالقراصين العثمانيين راضيا بهم شاعرا بأنهم مسلمون ذوو صلابة وحزم وعزم وعمل نافذ وكان عالما بأنّهم يجوبون دوما المتوسط الغربي يكافحون الأصبان وينقذون مسلمي أصبانيا أولائك الموريسك المعذّبين بالتعصّب الكثلكي. وكان القراصين من جهتهم يعلمون بأن رجال التصوّف خير حليف لهم في صراعهم.

كانوا أربعة : عرّوج وخير الدين وإسحاق ومعهم الإسكندر صديق إسحاق الحميم وكان إلياس رابع الاخوة الثلاثة قد استشهد برودُس في وقعة أُسِر فيها عروج وبيع إلى أن تمكّن خير الدين من إنقاذه. فأصبحت القرصنة دأبهم ومهنتهم وفيها جُرِح عروج وقطعت يده. . . وتمكّن من الاستقرار بمرفأ جيجل واتخاذه قاعدة لثلاثتهم يهاجمون منها العدو بحرا ويتخلّلون ربوع المغرب برًّا.

تلقّى عروج من أهل تلمسان نداء لبّاه وقصدهم مارًّا بالقلعة فبلغه أنّ الأصبان سادة وهران كانوا يتسوّقون بموافقة بني زيان للتموين في القلعة. فأمر سكّانها بأن يكفّوا عن معاملتهم. فكان من ردّ الفعل من أبي عبد الله صاحب تلمسان ومن حلفائه الأصبان محاصرة القلعة. فكلّف عروج أخاه الأصغر إسحاق بإنقاذها. فاستولى عليها واستقرّ بها لكنه حوصر بها مدة ستة أشهر مع صديقه الإسكندر فاستشهدا بها مع عدد غفير من المجاهدين.

واستولى عروج من جهته على تلمسان لكنه استشهد هو الآخر في نهاية الأمر[61].

116 ـ شاهد سيدي أحمد بن يوسف جميع هذه الحوادث. فما كان منه إلاّ أن يشعر بالإعجاب من هؤلاء الأبطال المسبّلين أنفسهم من أجل العقيدة ولم يبق منهم إلاّ خير الدين. وكان يعرفه وقد تلقّى منه بواسطة عروج رسالة ودّيّة وهديّة قدرها 4.000 دينار وبعض العروض النفيسة. (**البستان** ص 214). فشكره بأن بعث إليه بالدعاء الصالح. فأجابه خير الدين بأن عيّن له منحة قدرها ثمانية صيعان (لاندري ما فيها) مأخوذة من الجزية تدفع له كل سنة بمناسبة ذهاب الحجّاج إلى الحرمين. وهذا الإنعام لم يمنع سيدي أحمد بن

يوسف من أن يبعث إليه برسالة ورد فيها من التحفظات ما يلي : «إن حكمك لا يجري علينا ولا على نسلنا ولا على من تعلّق بنا ولا على نسلهم فإن رهبتم أحسنتم وإن خالفتم عوقبتم» ! (**الربح** ص 168).

يبدو من هذا النصّ أن صاحبه كان من جهة يرحّب بالعثمانيين كمدافعين عن دار الاسلام ومن جهة أخرى يتوقّع الأضرار من حكمهم. وكأنّ تحذّره منهم كان شائعا في أتباعه حتى أنه اضطر مرّة لأن يهدّئ من تخوّفات واحد من فقرائه بأن قال له : «إنّ الترك إذا رأونا ذابوا كما يذوب الملح من الماء». (**البستان** ص 78). في كل هذا تناقض وتعقيد في موقف سيدي أحمد بن يوسف. ومع هذا «ظل هو أتباعه مؤيِّدين للعثمانيّين كما حافظ هؤلاء على التزامهم له ولطريقته وأولاده وأتباعه. . .» (**التاريخ** ج 1 ص 470).

فان خير الدين استقبل من بعد في الجزائر العاصمة محمد بن مرزوقة بكر سيدي أحمد بن يوسف بحفاوة خاصّة وأعطاه كمية كبيرة من الدراهم وسمّاه أمير الحجّاج لحمل «الصُرّة» إلى الحرمَيْن تلك الصرّة التي ظلت تقليديّة. وبقيت إمارة الحجّ هذه في ذريّة ابن مرزوقة الذين استوطنوا بعدئذ بوادي الحامول في نواحي لمدية فتمتّعوا بها الى نهاية النظام العثماني في الجزائر.

«وقيل إن الداي حسين ـ آخر الباشاوات ـ كان متزوّجا بإحدى حفيدات سيدي أحمد بن يوسف». (**التاريخ** ج 1 ـ ص 470 أيضا).

117 ـ لم يكن لسيدي أحمد بن يوسف في حياته ما كان قبله للثوار المغاربة في القرون الوسطى من صلابة وقوة حتّى قادوا الشعوب وأطاحوا بالدول وأسّسوا أنظمة سياسيّة وإنما كان هو حليفا للإخوة بربروس فقوّموا كما ينبغي تأييده على صراع بني زيّان وحلفائهم الاصبان.

وبقي اسمه بعد وفاته رمزًا لقوّة روحيّة يحافظ عليها حفدته الأحقّاء وغير الأحقّاء أولاً في مليانة ثم في كلّ مكان من شمال وجنوب المغرب الأوسط عند بني فرح وأولاد الشعير قرب البرواقية وفي ناحية المشرية وفي توات وعين الصفراء وعند الزكارة في ناحية وجدة وعند غياثة في ناحية تازة وعند الغنانمة والرحامنة في ناحية مرّاكش وعند العطاونة في الساورة فضلا عن بني عداس وعمر النوريّين الرحّل باعة الخيل وكسّاري الحجر الخ. فكلّهم يزورون



الفناء الداخلي من نفس البناية مع الفوّارة المدعوة «الخاصّة» لها أهميّة لدى المليانيين وهم يرنمون من شأنها عدة أناشيد . تصوير م . عريب

Cour intérieure de l'édifice avec la vasque dite *al- khâṣṣa* (pour *fawwâra* qui est peut visité). Les Milyanaises lui accordent de l'importance et fredonnent en son honneur une riche répertoire de chansons. Photo M. Arib



زائر في «قشّابة» وقد جاوز الكهولة يشرب من ماء «الخاصّة». تصوير م . عريب

En *qashshâbiyya*, un visiteur d'âge mûr s'abreuve de l'eau de la *Khâṣṣa*. Photo M. Arib

ضريحه فرادى وجموعا. فينظم سكّان الدواوير بناحية مليانة في أوقات معيّنة «أركابا» ويهرعون من بو معاد والدالية وجلّيدة وزكّار والحمّام وواجر وبني فرح وعنّاب وبني غمريان وبوهلال، بسناجيقهم وخيلهم للسباق وطبولهم وزغاريدهم ورقصهم.

118 ـ هذا كلّه إنّما هو «فلكلور» أو شبهه مع أن هناك أربعة أسئلة تتطلّب الجواب :

1) لماذا صار اسم سيدي أحمد بن يوسف ملازما لاسم مليانة التي لم يعش فيها يوما واحدا والتي ما أتتها بغلته إلا بجثمانه !

2) كيف تمكّن من إزاحة صيت الكثير من الأسياد الباقية أضرحتهم في مليانة وفي ضاحيتها وخفض من قدرهم إلى أدنى مستوى حتى عدل الجمهور عن زيارتهم باستثناء بعض الزائرات وهؤلاء الأسياد هم : سيّدي عبد القادر على قمة زكّار الغربي وسيّدي بلهدلي (لعلّه ابن الهُذَيلي) وسيّدي بلقاسم (أي أبو القاسم) داخل المدينة وسيّدي بوقمّين (؟) وسيّدي بولفراد (أبو الافراد أي الثيران) وسيّدي المخفي وسيّدي سعد الله في الضاحية ؟

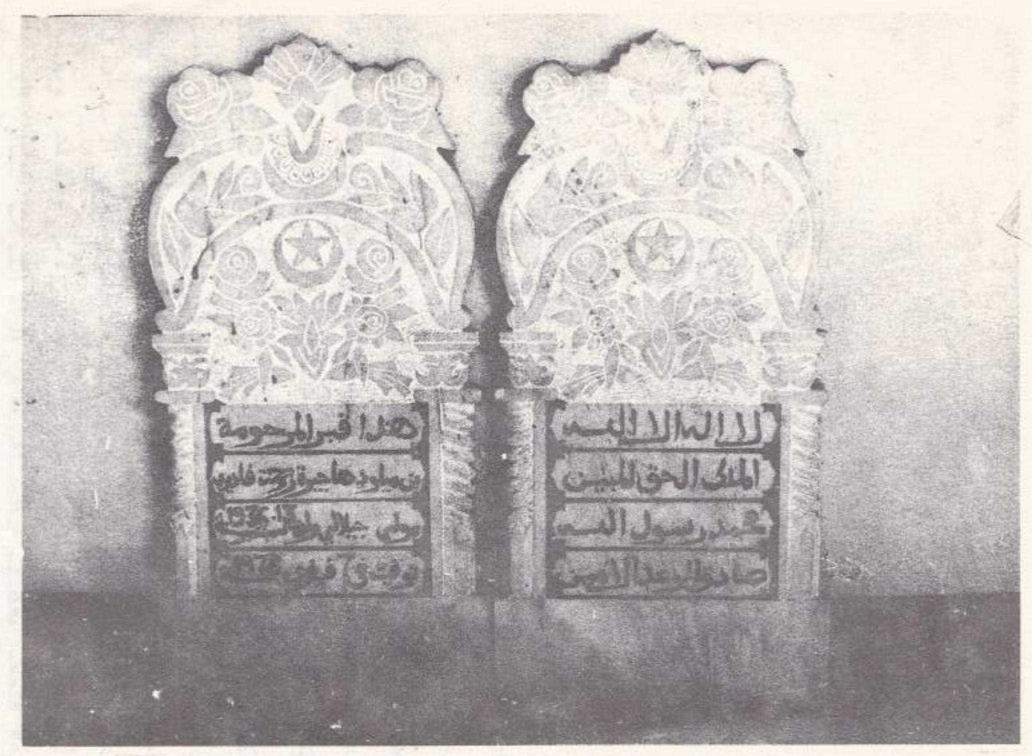
3) لماذا نسي بنو فرح وبنو مناصر ما كان من عداوة وليّهم سميان لسيّدي أحمد بن يوسف حتى أصبحوا «خُدّاما» لهذا الأخير في هذا الوقت ؟

4) لماذا نسي المليانيّون وغيرهم أبناءَ مليانة الذين اشتهروا عن جدارة كفقهاء وقضاة وأساتذة وكُتّاب ورجال سياسة بين القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي والقرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي ؟

لعلّ الجواب عن هذه الاسئلة في السياسة الدينيّة التي مارسها العثمانيون في الجزائر. فلم يخفَ على داي الجزائر ولا على باي وهران بأن سيّدي أحمد بن يوسف ساعد الاخوة بربروس وأن حفدته الذين ما زالوا على الوفاء للنظام العثماني قادرون على إعانتهم في توطيد سلطتهم على القبائل ومن أجل هذا بذلوا جهودهم في الحفاظ على ذكراه وتقوية نفوذه روحيا حتى يكون كالقطب الجاذب المساعد على تهدئة الفتن بين سكّان الجبل وعلى كبح الفوضى المزمنة في قبائل السهل. ولأجل هذا شيّدوا على قبره الحقير

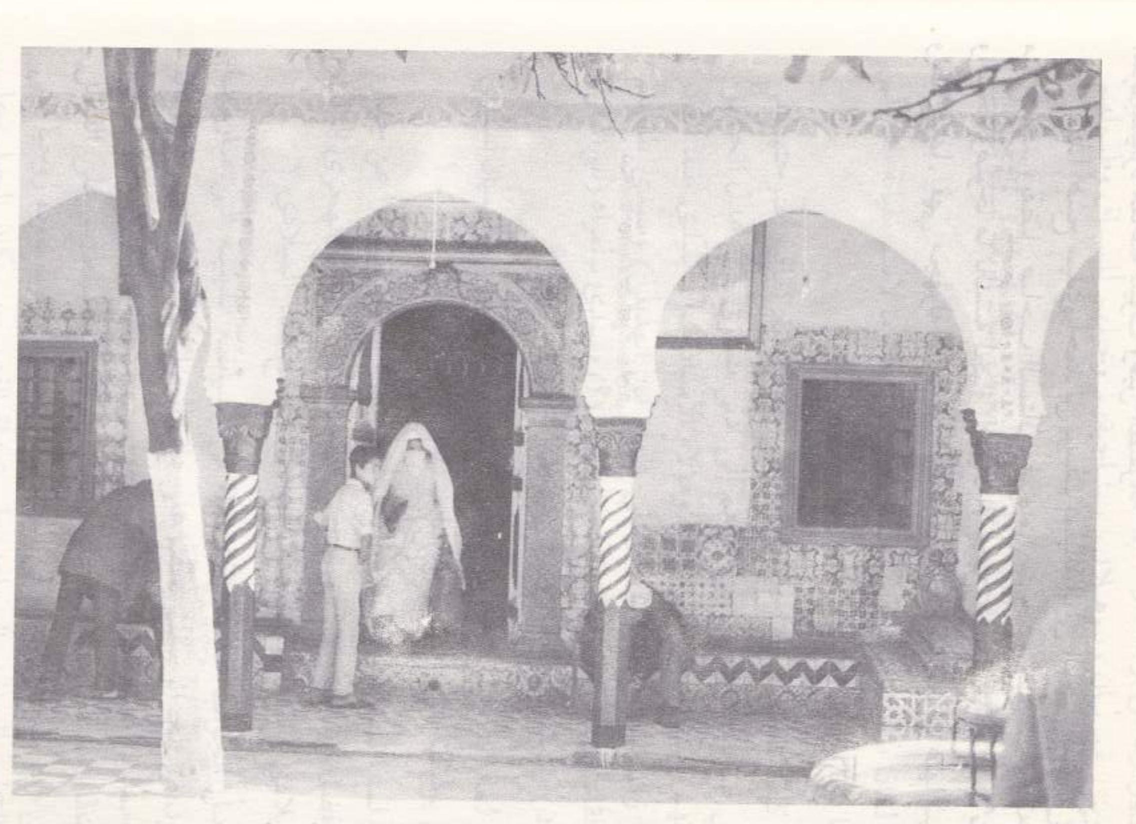
ضريحا ومسجدا كلاهما فاخر بناهما من مالية باي وهران محمد الكبير المتوفّى سنة 1213/1799 أحد حفدة سيدى أحمد بن يوسف اسمه الخلادي جد أسرة بنميلود القاطنة بتيوت وعين الصفراء[62].

بهذا أصبح سيدي أحمد بن يوسف بمليانة الولي الوحيد الذي لا ينازعه منازع أحد وبفضل صاحب **البستان** وغيره من مترجميه أصبحت حياته جلية واضحة وضوحا ما بالنسبة لحياة الأسياد الآخرين أصحاب الأضرحة بمليانة وبضاحيتها. فهي مجهولة غارقة في الظلمات الحالكة لا نعرف عنها شيئا.



«شاهد» قبر المرحومة هجيرة بن ميلود زوجة قَديري مولاي جيلالي المولودة في 13 سبتمبر 1936 المتوفاة في 7 فيفري 1978 .   تصوير م . عريب

Stèle de la tombe de feue Hadjira Benmîlûd épouse Qâdîrî mawlay Djîlâlî (sic), née le 13 septembre 1936, décédée le 7 février 1978.
Photo M. Arib



مليانية جاوزت الكهولة في «حائكها» الأبيض ونعلاها بيدها خارجة من الضريح وبقربها شابٌ .   تصوير م . عريب

En *hâyik* blanc, ses chaussures en main, une Milyanaise d'âge mûr sort du mausolée. Près d'elle un adolescent.   Photo M. Arib

القسم الثالث

بعض الشخصيّات من أبناء مليانة

119 ـ خلافا لما سبق توجد مجاميع لتراجم أخرى فيها معلومات شافية ضافية عن عدد من المليانيّين ألْفتوا الأنظار في الماضي بنشاطهم الثقافي أو السياسي، قبل سيدي أحمد بن يوسف وبعده.

نعم ما كانت مليانة أبداً إلاّ حاضرة إقليمية ليس لها أهليّة لأن تتحوّل الى عاصمة سياسيّة أو الى مركز ثقافة أدبيّة وعلميّة وفنيّة. فإذا ما تلقّى أبناؤها دراسة ابتدائية تحتّم عليهم أن يذهبوا لتكميلها الى مكان آخر.

وكانوا في مرحلتهم الأولى يؤمّون غالبا زاوية أسّسها وسيّرها مْحمّد (بسكون الميم) بن علي أَبَهْلول المجّاجي وأخوه أبو علي قرب تَنَس. وكانت هذه الزاوية معروفة بتدريس «التفسير والحديث والأصول والمنطق والبيان بعد الفقه والتوحيد وغيرهما...». وإذا كانت للطلبة رغبة في الاستزادة في العلوم المهمّة سافروا غالبا إلى بجاية وأحيانا الى فاس والقاهرة وبغداد والمدينة. فتمكّن بعضهم بالمساهمة في إثراء التراث الثقافي العربي الاسلامي من تسجيل اسمه في قائمة رجال الثقافة والسياسة.

120 ـ منهم أبو العباس أحمد بن عثمان بن عبد الجبار الملياني المتّوسي المتوفّى سنة 1246/644. فإنه بعد أداء فريضة الحج وبعد أن زار بعض بلاد المشرق للاتّصال بمن فيها من الأفاضل والجلّة استقرّ ببجاية وعلّم فيها مدّة

اللغة العربية والفقه والأصول والتصوّف. قيل إنه «كان له في **التلقين** (لعبد الوهاب البغدادي) تقدّم ونظر لم يكن لغيره... فهو في هذا الكتاب أجلّ من غيره من الكتب وله عليه تقييد فيه تنبيهات خفيّة...» فاق بها شارح **التلقين** أبا عبد الله محمد بن علي التميمي المازري قاضي القيروان والمهديّة (المتوفّى في سوسة سنة 536/1142)[63] حتى قيل إن «بين كلام الرجلين على **التلقين** ما بين بلديهما...» ولقد استدعاه الأمير أبو «زكرياء يحيى مؤسّس الدولة الحفصية (634/1236-647/1249) الى تونس «وحضر مجلسه وجعل بعض الحاضرين يلقي بعض المسائل النحويّة بحضرته ليحرّكه «للكلام فلم يتحرّك للجواب وكانت المسائل من المبادئ فرأى أن الكلام في المبادئ «لا يُفيد ولا يُجدي ولا يُظهر فضيلة الفاضل ولا جهل الجاهل...» قبره بمليانة «تلتمس البركة بشهوده ويظفر زائره بمقصوده...» (الغبريني، **عنوان الدراية** ص 109 **التعريف** ج 2 ص 37 وما بعدها). وليس لنا علم بتاريخ عودته إلى مليانة ولا بمكان قبره.

121 ـ ومنهم علي بن عِمران بن موسى الملياني أبو الحسن الملقّب ابن أساطير. هو من أبناء النصف الثاني من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي. كان يُتقن الفقه والأصول والتصوّف والحكمة (أي الفلسفة). وتخصّص بالتوثيق في بجاية وكان من العدول بها. وظل هناك من أخص أصدقاء أبي الحسن علي بن أحمد بن الحسن بن إبراهيم الحرّالي التوجيبي (المتوفى بحماة سنة 637/1239). فتأسّى به في سلوكه «متزهّدا متقلّلا من الدنيا متعفّفا مقتصدا ومضى له زمان وهو في غاية التخلّي والانقطاع... وكان يحمل خبزه الى الفرن بيده... وإذا رغب أحد في حمله عنه امتنع من ذلك... وكثيرا ما كان يشتري ما يحتاج إليه من ضرورات منزله بيده ويحمله بنفسه ولا يترك أحدا يحمله عنه ولم يكن ذلك منه إلا قصدا للبراءة من الكبر لأنّه كانت له رياسة وهمّة وعلوّ منزلة ولم يكن من هو دونه في المنزلة يفعل ذلك...» يقول الغبريني المتوفى سنة 704/1304 إنه سمع شيخه أبا محمد عبد الحق يقول فيه إنه «العالم المطلق» (كأرسطو) بعد أن قرأ عليه مع خواص بجاية **كتاب الاشارات والتنبيهات** لابن سينا. توفّي بمليانة في سنة 670/1271. (**عنوان الدراية** ص 133).

122 ـ ومنهم في نفس المدّة ثلاثة من أبناء مليانة النجباء وهم :

أ) أبو العبّاس أحمد الملياني فقيه محدّث بارع خرج عليه عدد من العلماء وكان له سلوك كله همّة وديانة جلب له مودّة أولي الامر المعاصرين له ومنهم أبو يوسف يعقوب المنصور سلطان فاس الذي كلّفه بإدارة مليانة (انظر الفقرة السابقة رقم 23 و**العبر** ج 6 ص 657).

ب) ابنه أبو علي الذي كان عاريا من خصال أبيه، «عبدًا لهواه». لمّا خلف أباه كانت مليانة وناحيتها من ملك بني حفص وكان يغمراسن صاحب تلمسان يحاول انتزاعها وامتلاكها. فلمّا رأى هذا التنافس بين تلمسان وتونس «حدثته نفسه بالاستبداد ببلده. فجمع لها جراميزه فخلع طاعة آل أبي حفص ونبذ دعوتهم وانبرى بها داعيا لنفسه. وبلغ الخبر الى السلطان. فسرح إليه أخاه الأمير أبا حفص عمر ومعه الأمير أبو زيد (عبد الرحمان) بن جامع ودُونْ الرّنك (بن هرنندز الأرغوني Don Rank fils de Hernandes d'Aragon) أخي ألْفُنش «أو اذفونش» وطبقات الجند. فخرج من تونس سنة 659/1261 وأغذّ السير الى مليانة. فنازلها مدّة وشدّ حصارها حتّى اقتحموها غِلابا. وفرّ أبو علي تحت الليل وخرج من بعض قنوات البلد ولحق ببني يعقوب بن موسى من آل العطّاف أحد شعوب زُغْبة. فأجاروه وأجازوه الى المغرب الأقصى (**العبر** ج 657 وج 7 ص 136)... «فلحق بيعقوب سلطان فاس المذكور. فأحلّه بمراتب التكرمة والمبرّة وأقطعه بلد أغمات طعمة». وكانت مهدَ بني حفص الذين أخرجوه من مليانة. فحمله حبّ الانتقام على نبش قبورهم وإظهار أشلاءهم واحتزاز جماجمهم لإرسالها الى فاس الأمر الذي لم يغضب له أبو يوسف يعقوب وإنّما عدها من هناته. ثم رقّاه أبو يعقوب يوسف الى رتبة قابض الضرائب بناحية جبل دَرَن (الأطلس الأعلى). غير أن أبا علي تناسى دفع الضرائب للخزينة. فألقي القبض عليه وحكم عليه بالنفي من البلاد. قيل إنه مات في سنة 686/1296 دون أن يُعرَف المكان الذي مات به.

ج) أبو العباس أحمد حفيد الأوّل وابن أخي الثاني كان كاتبا عند أبي يعقوب يوسف المذكور أعلاه. فكلّفه ذات يوم بتحرير رسالة لابنه الذي كان واليا بمرّاكش يأمره فيها بإلقاء القبض على شيخين من المصامدة هما علي بن محمد كبير هنتاتة وعبد الكريم بن عيسى كبير كدميوة ومن معهما من الولد والحاشية وبمصادرة أموالهم. فرأى أحمد الملياني حينا في هذا الأمر

الفرصة للانتقام لأعمامه الذين قبضهم بنو حفص وأبادوهم. وكان يومئذ وضْع العلامة السلطانية على الرسائل بيد محرّرها لصلاحية تنفيذها. فحرّر أحمد الملياني في سنة 1307/697 رسالة يأمر بها الأمير الوالي لا بالاعتقال والمصادرة بل بالأبادة والمصادرة. وبعث الرسالة بالعلامة مع البريد. «ونجا بنفسه الى فاس الجديد. وعجب الناس من شأنه. ولمّا وصل الكتاب الى ابن السلطان أخرج أولائك الرهط المُعْتَقَلين من المصامِدة الى مصارعهم . . . وطيّر الأميرُ وزيرَه الى أبيه بالخبر. فقتله لحينه حنقا عليه وأنفذ البريد باعتقال ابنه وحرد على أحمد الملياني فافتقد. ولحق بتلمسان وهي بحال حصارها ونزل على آل زيّان ثم لحق بعدها بالأندلس عند إخراج السلطان عنها في تلك السنة». (عبر ج 7 ص 479-480). فاستُقبل بحفاوة في غرناطة حيث قضى نحبه في سنة 1324/715 ودفن في مقبرة باب البيرة. غير أن ابن الخطيب لسان الدين قال فيه: **«إنه تركها شنيعة على الأيام وعارا في الأقاليم على حَمَلة الأقلام»**. ولم يمنعه ذلك من الفخر فأنشد:

العزّ ما ضُربت عليه قِبابي — والفضلُ ما اشتملت عليه ثيابي
والزهر ما أهداه غصن يراعتي — والمسك ما أبداه نقش كتابي
والمجد يمنع أن يُزاحِم موردي — والعزم يأبى أن يُسام جنابي
فإذا بلوت صنيعة جازيتها — بجزيل شكري أو جزيل ثوابي
وإذا عقدتُ مودّة أجريتها — مجرى طعامي من دمي وشرابي
وإذا طلبت من الفراقد والنهى — ثأرا فأوشك أن أقال طلابي

(ابن الخطيب: **الاكليل** كما نقله **التعريف** ج 2 ص 63 و**الاحاطة** ط. عِنان ج 1 ص 292-294 عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العامّ ج 2 ص 194).

قضية أحمد الملياني حملت السلطان يوسف على أن خصّ وضع العلامة بكاتب واحد يختاره هو لهذه المسؤولية. فاختار عبد الله بن سيدي أبي مدين لهذا الشرف بما فيه من مسؤولية.

123 ـ في أواخر القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي كان بمليانة فقيه اسمه علي المكّي لا نعرف عنه سوى كونه من تلامذة عبد الرحمان الوغليسي المتوفى في سنة 1384/786 والذي كان أستاذا ممتازا ببجاية وكوّن

عددا من التلاميذ وألف عددا من الكتب في الفقه منها **الجامع في الأحكام الفقهية** المعروف **بالوغليسية** (**التعريف** ج ص 283).

124 ـ في النصف الأول من القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي جاء أحمد العُبّادي من تلمسان إلى مليانة وقضى بها نحبه سنة 1524/931 بعد أن حضر استيلاء العثمانيين على تلمسان والاضطرابات الناتجة عنه. وكان من قبل هاجر إلى المغرب الأقصى صحبة والده المسمى أيضا أحمد العبّادي. فلقيا هنالك حفاوة بالغة عند السلطان عبد الله الغالب. فأقاما بمرّاكش. ويبدو أن الابن درس بفاس أو بمرّاكش وكان من بين تلاميذه ابن عسكر محمد بن علي (1529/936-1578/986) صاحب **دوحة الناشر**. فأجازه أحمد العبادي. وابن عسكر هو الذي قال إنه استقرّ بمليانة وتوفّي بها. وقد ألّف بتلمسان ترجمة للشيخ مْحمد (بسكون الميم) بن يوسف السنوسي المتوفّى سنة 1483/899. (**التاريخ** ج 2 ص 372 وما بعدها معتمدا على ابن عسكر في **الدوحة** ص 100-203).

125 ـ في آخر القرن العاشر عاش في مليانة محمد بن أحمد الوهراني المتوفّى سنة 1604/1013 بعد أن كان من قبل نائب قاض وفي بعض الأحيان واعظا وكانت له شهرة حسنة كفقيه (**التعريف** ج 2 ص 355).

126 ـ في القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي نبغ أربعة من أبناء الجزائر في حقل الثقافة بمستوى المغرب والمشرق العربي الاسلامي هم:

أحمد المقّري التلمساني المتوفّى سنة 1630/1041.

سعيد بن ابراهيم بن حمّودة المدعوّ قدّورة الجزائري المتوفّى سنة 1655/1066.

عبد الكريم بن الفقّون القسنطيني المتوفّى سنة 1662/1073.

يحيى الشاوي الملياني المتوفّى سنة 1685/1096.

ولد أبو زكرياء يحيى بن مْحمد الشاوي النائليّ المليانيّ بمليانة لكنّنا لا نعرف تاريخ ولادته بالضبط ولا سبب نسبتيْه الى الشاوية والى أولاد نائل وانما نعرف بالتحقيق أنه تلقّى دراسته الابتدائيّة بمليانة ثم مضى الى مجّاجة

للتكميل بزاوية محمد بن مْحمد (بسكون الميم) بن علي أبهلول ثم الى تلمسان حيث قرأ على سعيد المقّري (1602/1011-1521/928) ثم الى الجزائر حيث سمع من ثلاثة أساتذة أفذاذ هم أبو الحسن علي أحمد بن عبد الواحد الأنصاري السّجلماسي عالم من علماء المغرب استقرّ بمدينة الجزائر وتوفّى سنة 1647/1057 وسعيد قدّورة المذكور أعلاه وهو من أبناء مدينة الجزائر وأصله تونسي وعيسى الثعالبي المتوفّى سنة 1669/1080 .

اجتهد الشاوي في كلّ مكان لتعميق معارفه في العلوم الشائعة وقتئذ كالفقه والبيان والمنطق والنحو والحديث والسيرة والتفسير والتصوّف . وقيل إنه كانت له ذاكرة عجيبة وذكاء وقاد ومع ذلك طموح لاحدّ له .

بعد وفاة الأنصاري وقدّورة انتصب بصدر المشهد كأستاذ ممتاز وشخصية بارزة بجانب السلطة السياسيّة الحاكمة .

إلاّ أن الوطن كان منذ سنة 1637/1047 في شرقه الى أبواب العاصمة مجالا لثورة أحمد بن الصخري على العثمانيين بسبب سلوك مُراد باي قسنطينة . فهل خاطر الشاوي بنفسه في هذه الثورة ؟ فالعياشي الذي لقيه من بعد بمكّة يقول إنه عدل عن الرجوع الى وطنه «لأمر أراده الله به» . فهل معنى هذه العبارة أن وطنه كان حراما عليه ؟ . فعلى كلّ حال إنه رحل من مدينة الجزائر في سنة 1663/1074 الى بجاية فقسنطينة فعنابة ثم الى مكّة لأداء فريضة الحج ثم الى القاهرة حيث قرأ على مشاهير علمائها (البابلي والشرابلي والمزاحي الخ . .) قبل أن يشرع بدوره في التعليم بالأزهر «فاعصوصب عليه هناك جماعة من طلبة المغاربة فطار له صيت عند المغاربة إلى أن توصل لأرباب الدولة فتولّى قضاء المالكية بعد أن عُزل عنه الشيخ عمر فكرون زعما منه أنه يجور في الحكم ويداهن بأخر الرشا» (العياشي) . وتولى أيضا الفتوى للمالكية وألقى الدروس في ثلاث مدارس بالقاهرة (الأشرفية والسليمانية والسرغتمية) . فكثر طلبته وأجاز عددا غفيرا منهم .

ثم مضى الى دِمَشْق وألقى دروسا بمسجد بني أميّة الكبير بمحضر أكابر علمائها الذين التمسوا منه الاجازات فأجاز من جملة من أجاز محمّد الأمين بن فضل الله المُحِبّي (1699/1111-1651/1061) صاحب **خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر** (ط. القاهرة 1867/1284) حرّر إجازته شعرًا في

45 بيتا .

ثم مضى بعد مدّة الى اسطنبول وسمع بها الدروس التي كانت تلقى بمحضر السلطان وشارك في المناقشة التي كانت تتلوها منتهزًا لفرصة التعريف بمعارفه . فحصل بذلك مقابلة شيخ الاسلام المُنْقري ومقابلة الوزير الأوّل بكلّ حفاوة ونال ارتقاءه على مِنبر لتعليم التفسير والنحو والتوحيد . وقد أنزله مصطفى باشا «مصاحب السلطان» بداره مُعزّزا مُكرّما . لعلّه نال هذا العزّ والاكرام بجزائريته وبما كان له من دراية وخبرة بشؤون وطنه وبالحوادث الجارية هنالك في مضمار السياسة .

وقد تصعب مسايرته في تجواله بين القاهرة التي أقام بها على الأقلّ ثلاث مرّات ومكّة ودمشق واسطنبول التي أقام بها على الأقل مرتين .

وفي اتّصالاته بأولي الأمر لم يكن مثل الكثير متملّقا ولا رجّازا مدّاحا بل كان هو هو بمزاجه الصلْب وفي بعض الأحيان بحدّته وهيجانه ، سريع الجواب سليط اللسان بسهولة طبيعية وإذا كتب غمس قلمه في دواة الزاج كما تشهد على ذلك رسالته الى نوز الدين ابراهيم الكوراني الذي وصفه بالزندقة فإنه جعل لتلك الرسالة عنوانا هو «**النبل الرقيق في حلقوم السابّ الزنديق**» . غير أنه في تلك المناسبة جاءه جواب مناسب من محمد بن محمد بن رسول البرزنجي للدّفاع عن الكوراني هو : «**العُقاب الهاوي ـ على الثعلب العاوي ـ والنشّاب الكاوي ـ للأعشى الغاوي ـ والشّهاب الشاوي ـ للأحول الشاوي**» . وكانت هذه النقائض جارية في مكّة بجوار المسجد الحرام بين مسلمَيْن ! نصّ الرسالتين يوجد اليوم بخزانة جامعة برنستون Princeton بالولايات المتحدة رقم 978 .

ومهما يكن من شيء فانّه سمّي في آخر حياته أميرَ الحج على الركب المغربي وأنّه قاد قافلته غيرما مرّة الى مكّة مفضّلا طريق البحر فمات على ظهر سفينة في بحر القلزم (البحر الأحمر) سنة 1685/1096 ودفن برأس أبي محمد ثم في جبّانة القاهرة بفضل مساعي ابنه عيسى الذي جدد هذه الجبّانة بماله .

يبدو أنه وجد بالقاهرة نصيبا من الفراغ لتأليف ما خلّف من آثار وهي على ما يقول مترجموه خمس رسائل في التوحيد وأربعة في النحو وواحدة في

التفسير يوجد منها مخطوطات بخزانات رباط الفتح وتطوان وتونس واسطنبول والقاهرة وبرنستون.

من بين هذه التآليف رسالة صغيرة في أصول النحو جعلها على أسلوب كتاب **الاقتراح** للسيوطي وباسم السلطان العثماني محمد خان (وهو التاسع عشر من سلاطين اسطنبول، 1059/1649-1099/1687) وقرّظها شيخ الاسلام وغيره من العلماء العثمانيين.

فيما يعود الى مسائل التوحيد كان الشاوي شاعرا موقنا بأنّ «بعض مدّخرات العلوم بقيت للمتأخّرين ممّا عسُر فهمه على كثير من المتقدّمين» لكنّه رفض أن يكون مجتهدا أمام رجال السنّة كالأشعري والرازي في الأحوال نفيا وإثباتا... فقد قال: «أمّا ما طلبتم منّي من تعيين المصيب من المخطئ في أيمّة أهل السنّة فهيهات الدخول بين أنياب الحيّات لوجوه: أحدها أني لست من أهل الاجتهاد حتى أخوض تلك الفيافي والوهاد، وثانيها بتقدير اقتحامي وعظيم احترامي... أكون كواحد منهم واجتهادي كاجتهادهم...».

فقد كان إذن هذا الملياني عالما بمعنى هذه الكلمة في القرون الوسطى وكان رحّالة وواحدا من أهل عصره ناشطا بموقف وسط بين المحسوس والمعقول المجرّد (التفاصيل الضافية في **التاريخ** ج 2 ص 108 وما بعدها وما معها من المصادر).

127 ـ في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي كان أحد أبناء مليانة بايا على الايالة الغربية (الوهرانية) مقيما بمعسكر من سنة 1170/1756 الى سنة 1176/1762 هو أبو إسحاق إبراهيم الذي بقيت في ناحية مليانة ذكراه كمالك كبير لقطاع واسع من الأرض في السهل على شاطئ شلفَ بدوار جلّيدة، يقال لذلك القطاع «بلاد الباي إبراهيم». وهو الذي أمر بتشييد برج المَخْزَن التركي بمعسكر وبأن يرسم عليه ما يلي: «بسم الله الرحمان الرحيم وصلّى الله على مولانا وسيّدنا محمّد وآله وصحبه وسلم أمّا بعد أمر بتشييد هذا الفُندُق المبارك الظريف الجامع لعسكر الجزائر المنتصر سيّدُنا أمير المؤمنين المجاهد في سبيل ربّ العالمين مولانا ابراهيم باي الايالة الغربية وتلمسان خلّد الله مُلْكه وأعزّه ونصره آمين وكان الفراغ منه أول شهر

الله المعظّم رمضان عام 1176 عرفنا الله خيره وكفانا ضيره وشرّه آمين يا رب العالمين وصانع هذا التاريخ محمّد بن الحسين بن صرماشيق». وكان هذا الباي من شدّة محبّته للعلماء يشتري لهم الجواري الحسان وكان قد جعلهم طبقات بحسب تفاوتهم في العلم وكان يكثر من مجالستهم ومذاكرتهم وإذا تعرّض أحدهم لحاجة عنده قضاها له فورا... قيل إنّه اشترى لأحدهم اسمه أحمد بن يوسف الزياني جارية. وقال له العلماء: «قد وقفت النوبة فيك. فقال: لا أحبّ هذا لأني متزوّج بقليعية فيها فوق الكفاية ولو كانت تقبل التجزئ لجزيتها على مائة جزء واستبقيت جزءا لنفسي وأعطيت الباي تسعة وتسعين جزءا مكافأة له على إحسانه للعلماء» فلمّا سمع الباي بذلك ضحك كثيرا. والتمس الزياني منه أن يُعفِيه من ذلك قائلا: «القليعية غيور أخشى منها الضرر». فعفاه. توفي الباي ابراهيم سنة 1185/1771 ودفن بالقبة التي شيّدها من قبل الباي الحاج عثمان لولي الله الشيخ عبد القادر الجيلاني والتي هي مصاقبة للمسجد الكبير. بمُعَسكر ـ (**الدليل** ص 196 وما بعدها).

128 ـ تحدّث الناس كثيرا في الجزائر وفي فرنسا عن أحد أبناء مليانة اسمه عبد القادر بن عبد المؤمن وذلك في زمان قريب منا هو الربع الأخير من القرن 13 هـ. 19 م.

كان لوالده نسبة «الاسكندري». فهو إذن مصري الأصل وقد تغيّرت نسبته هذه الى «السكندري» و«الزقندري». كان بمليانة قبل أن يحتلّها الجيش الفرنسيّ عام 1256/1840 وصار من بعد مفتيا ورئيسا لمجلس تعقيب أحكام القضاة. وإن الجريدة La Vigie Algérienne نشرت له بالفرنسية يوم 17 نوفمبر 1891 فتوى وجّهها عام 1841 الى العلماء والأعيان الجزائريين منها قوله: «بما أن العدوّ قد استولى على الوطن... هل تجوز الحياة تحت حكمه مع مشاهدة قبائحه دون مقاومة؟ وقبول تغلّب الكفر على الاسلام؟... فالعلماء ورثة النبي من واجبهم التضحية والدفاع عن الدين لا بأنفسهم فحسب بل بأهلهم وأموالهم... إذا ساد الظلم في البلاد وجبت مغادرتها والهجرة من أرض دنّسها الكفر... وأبيح قتل رؤساء الدين المصرّين على البقاء بأرض احتلّها العدوّ لأن ذلك إنكار للدين...».

ليس بين أيدينا من هذه الفتوى الاّ الترجمة الفرنسيّة التي نُشِرت كحجّة على الابن ودليل على تعصّبه ضدّ فرنسا. ولا يسوغ الجزم بصحّتها ما

لم يكتشف أصلها العربي .

ولد عبد القادر بمليانة عام 1836/1251 ودرس بالمدرسة الرسميّة لمّا كانت بالبليدة قبل انتقالها الى الجزائر العاصمة عام 1859/1276 وتخرّج منها عام 1863/1280 بعد أربع سنوات دراسيّة .

كانت مليانة إذ ذاك تحت الحكم العسكري يتصرّف فيها ضبّاط «المكتب العربي» . فعيّنوه وهو ذو سبع وعشرين سنة من عمره قاضيا متنقّلا في عرش أولاد ميرة ثمّ في عرْش بني مناصر ثم في عريب ثم في ريغة وأخيرا بعد إحدى عشرة سنة في مليانة عام 1874/1291 .

زاول بها مهنته مدّة سبع سنوات بدون مشكل مع تقدير رؤسائه واحترام السكّان من أوروبيّين وأهالي بإجماع على أنه موظّف كفء مثقّف أمين وفوق كل شيء نزيه .

واذا به، من سنة 1881/1299 الى سنة 1896/1314، تورّط في «قضيّة غامضة» صارت موضوعا للحديث في مليانة وعين الدفلى وجندل وعين السلطات وبو حلوان وبو مدفع . وطالما رنّ صداها بمحكمتي البليدة والجزائر العاصمة وحتّى في إدارة الشؤون الجنائيّة بوزارة العدل في باريس وقاعة الجلوس في السينا (مجلس الشيوخ) .

كيف ذلك ولماذا ؟

من بين أبناء مليانة كان شابّ يتيم الأب يتابع دراساته بمدرسة المعلّمين في بوزرّيعة ليكون معلّما . وكان متقدّما على جيله يتمنّى التماس الرقي الى درجة مواطن فرنسيّ بنبذ حالته الشخصية كمسلم .

اسمه عبد الحقّ حاج حمّو . وبما أنه كان قاصرا كان تحت ولاية القاضي عبد القادر بن عبد المؤمن . وكان يملك بحيّ العناصر بستانا مساحته ثلاث هكتارات ورثه من أبيه مجاورا لبستان شيخ بلديّة مليانة .

اسم هذا المير بورابي Pourailly «ڤاوْري» كان من قبل تطوّع في الجيش الفرنسي لمدّة الحرب حرب 1870 بين فرنسا وألمانيا . فجُرح في الميدان ولمّا تحرّر من الجنديّة أقبل الى الجزائر مغامرا . فاستقرّ بمليانة وفتح بها صيدليّة وإذا بشيطان السياسة يوسوس له ويعيّن له أخصر طريق الى

النجاح طريق ما كان يسمّى يومئذ بالانتخابات فاقتحمها وانتُخِب عام 1881 بـ 133 صوتا من 200 صوت نائبا بلديا ثم ميرا وبذلك انطلق في مضمار السياسة لمدّة 15 سنة تقريبا يحدوه شوق عارم لاستثمار هذه الصناعة وسرعان ما امتلك ذلك البستان . فما لبث أن أراده أوسع بابتياع بستان جاره عبد الحقّ .

غير أن الصفقة لا بدّ لها من رضى السيّد القاضي عبد القادر وإذا به واجهها بالرفض النهائيّ الذي لا رجوع عنه إذ ليس للقاضي حق في بيع مال القاصر إلاّ للضرورة المطلقة أو لكسب فائدة واضحة والحالة أن المسيو المير لم يعرض عليه إلاّ مبلغا طفيفا مبلغ 150 فرنك يُسدَّد مؤجّلا وهو أقلّ من نصف المبلغ الجاري في المعاملات بالناحية .

وكان القاضي يتوجّس خطرا من ردّ الفعل من جانب المير فأخذ حذره بأن استشار رئيسه وكيل الدولة بالبليدة فطمأنه وأمره ملحّا بأن يحمي مصالح اليتيم .

هذا الرفض أخرج بورابي عن رشده وأفقده عقله فأقسم قسَما غليظا ليهلكنّ هذا القاضي الذي لا يعرف معنى للمرونة واللين . بماذا ؟ بالسعاية والوشاية واستنفار جميع المغرضين من أهالي وأوروبيّين، الراغبين في مؤازرته لبلوغ غايته .

شرع أوّلا في مسح بستانه وانتهز الفرصة للتعدّي بأن استحوذ على الخُمُس من مساحة بستان جاره .

كان القاضي وقتئذ بصدد النظر في قضيّتين هامتين لشخصيّات محظوظة لدى أرباب الاستعمار .

القضية الأولى سببها وفاة الحاج أحمد بن الخلاّدي قائد بني فرح الذي أقبِر عام 1870/1287 وخلّف زوجته وابنه وتركة تفوق أربعمائة ألف فرنك ذهب حازها ظلما قريبه الحاج إبراهيم بن الخلاّدي زيان بوزيان الذي كان من قبلُ «مَخازنيّا» بالمكتب العربيّ ثم ارتقى بفضل بورابي الى مقام مساعد أهليّ ببلديّة مليانة مكلّف خاصّة بمراقبة أحياء الأهالي . هذا هو أصل الثروة الطائلة التي تمتّع بها الحاج إبراهيم الى يوم وفاته عام 1934/1353 رغما عن كلّ المقاومات بعد أن جاوز التسعين من العمر .

قام الوارثان عام 1885/1303 بمرافعته لدى القاضي لتسليم التركة. وكان القاضي يخشى التدخّل في القضيّة غير أنّ الوكالة العامّة كانت في البداية من ورائه. فحكم يوم 9 جمادى الثانية 1304 - 5 مارس 1887 على الحاج ابراهيم بردّ كلّ ما أخذ بدون حقّ. فطلب الحاج ابراهيم الإعادة لدى محكمة البليدة فوافقت على حكم القاضي فأستأنف لدى محكمة التميز فخاب استئنافه بقرار يوم 17 ذي القعدة 15/1306 جويلية 1889. ومع هذا لم يُنفَّذ الحكم أبدا. فالحاج إبراهيم كان طويل الباع ولا تسأل عن بغضه للقاضي من ذلك الحين.

والقضيّة الثانية سببها أيضا تركة. هي تركة باش آغا جندل الحائز لوسام الشرف من درجة «كومندور» بوعلام بن الشريفة قارون الناحية وقتئذ. فقد قضى نحبه عام 1885/1302 وترك عقارات بالبليدة والجزائر العاصمة ومزارع مساحتها تنيف على 6.000 هكتار ومصوغا ونقودا ذهبية وسروجا فاخرة مطرّزة وأسلحة فاخرة وخيلا مسوّمة وأنعاما كثيرة وكميات عظيمة من قمح وشعير في 114 مطمورة وخلّف من الورثة ثلاث زوجات مريم وزينب ومستورة وثلاثة أولاد. وكان قبل وفاته عيّن ابن أخيه الحاج محمّد بن الشريفة قائد بو حلوان للتصرّف في مخلّفاته.

وكان بعض الورثة قاصرين فوجب على القاضي التدخّل في القضيّة. وكان قبل ذلك رغب من الوكيل العامّ أن يعفيه من هذه المسؤولية لكنه أجيب برسالة جافّة أن لا سبيل إلى إعفائه بل لا مناص له من أداء واجبه المهنيّ. فخرج إذن إلى عين المكان وحصر التركة باتفاق سائر الوَرَثة ووافق على وصية الهالك.

لكن ظهر له بعد شهرين أن تصريف الحاج محمّد سيّئ جدّا وأنه زيادة على ذلك ترتّبت عليه ديون كثيرة. فعزله وخلفه بحفيد من حَفَدة الباش آغا اسمه ابن يوسف.

كان بورايبي بالمرصاد لحركات القاضي وسكناته يتلقّى شفاهيا وكتابةً أخبارًا ضافية من الموظّفين المحلّيين كمُحافظ الشرطة وقاضي الصلح ومتصرّفي البلديّات الممتزجة يصفون القاضي بالتعصّب والتكبّر والعتوّ

والشموخ والمراوغة والاتّصال بالأهالي والبغض للأوربيّين والمؤامرة ضدّ فرنسا والتعرّض للمعاملات بين الأهالي والأوربيّين في العقار ونهي المسلمين من العمل عند الأوربيّين وإجبارهم على العمل عنده مجّانا بقطع النظر عن موقفه العدائي أثناء ثورة الجنوب الوهراني. فقد قال جولي Joly ضابط الدرك: «إن أوّل أهليّ أُلقِي عليه القبض إذا ما انتشرت هذه الثورة الى الناحية هو القاضي بالذات!». هذه تُهَمٌ لا أساس لها وإنما هي تأكيدات وهميّة باطلة من وحي العنصرية فقط.

غير أن بورايبي كان له نصير نافذ هو الحاج إبراهيم الذي كان يحرّض الأهالي على الشكوى من أحكام جائرة في زعمهم وعلى رمي القاضي بالرشوة والشراهة وأخذ أموال القاصرين.

بقي للمير الخوض في ذلك الوحل وقد فعل باصرار عجيب بأن بعث الرسالة تلو الرسالة لأولي الأمر كعامل العمالة والوالي العامّ والوكيل العامّ لإيثار البحث والتفتيش في سيرة القاضي وتصرّفاته.

جرى البحث تسع مرّات متوالية أثناء سبع سنوات من سنة 1882/1300 الى سنة 1889/1307 قام به رجال محكمتي البليدة والجزائر العاصمة منهم نائب وكيل الدولة أوجان روب Eugène Robe وقاضي البحث إيبار Ebert ووكلاء الدولة باريزو Parisot وكوشار Cochard وزيل دي زيل Zill des Iles والنوّاب العامّون (الغرّاقون) راك Rack ودي مواروْن De Moiron ووُرْتز Wartz ومستشار المحكمة بوروييّو Bourrouillou والوكلاء العامّون مايي Maillet وفلاندا Flandin فضلا عن قاضي الصلح بمليانة شنار دي صُربي Chesnard de Sorbay ودوبوي Dupuy وعن متصرّفي جندل وحمّام ريغة ووادي الدالية الذين كانوا في اتّصال يوميّ بالمير وما قصرّوا من الحركة في الرقْص بالسرَبَنْد (Sarabande) ذاك.

أمّا القاضي فكان له تِرْس هو نزاهته والموضوعية النسبيّة من جانب بعض الباحثين والمفتّشين الذين رفضوا غير ما مرّة اتّهامات المير العارية من الصحة واعترفوا للقاضي بالاخلاص والكفاءة والنزاهة في سيرته وتصرّفاته. فالنائب العامّ راك Rack المعروف «بالرهبة مع الأشخاص المشبوهين» قال له ذات يوم: «ما دمتُ هنا لن يمسّ أحد شعرة من رأسك!» والعرض الذي

قدّمه وكيل الدولة كوشار Cochard ـ مع أنـه كان صهـرًا للسّيناتـور موقـان Mauguin ـ كان واضحا من هذه الناحية حتّى اعتبر إدانة لبورايـي.

لكن لأسباب غير ظاهرة في الوثائق تشدّد عليه إيبار Ebert وصمّم على إهلاكه. فقد كان يرحّب دائما بسعايات المير وبقي يستنطقه مدّة عام وزيادة ببطء معتمد.

وقبله كان رئيس دائرة مليانة قد اقترح عام 1881/1299 وَقْفه أو عزله أو انتقاله على الأقلّ غير أن رؤساءه لم يوافقوه على اقتراحه.

أما إيبار فقد أمره يوم 16 شعبان 28/1305 أبْـريل 1888 بـالتخلي عن التصرّف في تركة بو علام وعيّن مكانه الموثّق نيبوتي Nepoty الذي بحث ما بحث إلاّ أنه لم يكتشف أي خيانة أو مخالفة ـ وفي نفس المدّة طلب إيبار من الوكيل العامّ إمّا تعليقه وإما تسريحه لشهرين. فاصطدم برفض الوكيل العامّ مالي Mallet الذي رأى تعيين خبير أوّل للبحث فلم يعثر هو الآخر على أي مخالفة.

الوكيل العامّ الشابّ فلاندان Flandin لمّا خلف مالي أراد أن يفعـل أحسن من ذلك. فعيّن ثلاثة خبراء كلّفهم بنفش تصريفه في تركة بوعلام وبالنظر في أراشيفـه منذ تسميتـه قاضيـا بمليانـة عام 1874/1281. فقـاموا بالمأمورية ولم يعثروا على شيء يؤاخذ به القاضي.

ومع هذا قرّر إيبار إلقاءه في السجن دون أن ينتظر نتيجة البحث وذلك في غيبة وكيل الدولة روب Robe ودون أن يستشير نائبه دوريو دي ليرتز Dur-rieu de Lyritz وأدخله زنزانة في سجن البليدة.

أُلقِي عليه القبض يـوم الخميس آخـر رمضـان. . . . بينمـا كـان المسلمون وقد أضناهم الصيام يتأهّبون للاحتفال بعيد الفطر وإذا بالقاضي يجرّ بكرة إلى السجن مكبّلا في شوارع البليدة محفوفا بالحرس العام وأسرته في هَلَع لمّا سمعت بالخبر.

أحدث هذا جزعا شديدا في دائرة مليانة وفي البليدة دون أن يتحرّك له نصير وإنما حرّك الشهامة في إنسان فرنسي للدفاع عنه هو الأستاذ المحامي ملّرمي Me Mallarmé الـذي لم يتردّد في أن هـدّد الوكيـل العام بمـرافعته

الشخصيّة معتمدا على الفقرة 75 من قرار حديث صادر في 17 أبْريل 1889 ينصّ بأن القاضي بصفته قاضيا لا يحاكمه إلاّ رؤساء محكمة الاستئناف وأنّ جميع الاجراءات التي اعتمدها إيبار باطلة مخالفة للقانون وهي نظرية وافق عليها من بعدُ في 3 ديسمبر 1890 محافظ الأختام وزير العدل.

فاضطرّ الوكيل العـام على نسخ الأمـر بالسجن يـوم 11 ذي الحجة 29/1367 يوليو 1889. فخرج القاضي بعد أن قضى 56 يومـا مع اللصـوص والقتّالين واستمرّ البحث على يد الوكالة العامّة تارة مباشرة وتارة بالتعويض.

وكان القاضي مكرها على الاقامة بالجزائر العاصمة رقم 3 نهج جان دي متى 3, rue Jean de Matha وأفراد أسرته وهم أكثر من 13 نفـرا مقيمون بمليـانة. وأمـر قاضي الصلح هنـاك في غيابـه رجال الـدرك بحصار داره وتفتيشها من الأساس الى الراس وعيّن امرأة أوربيّة باستنطاق وتفتيش زوجته وأولاده.

بعد أن التمس ونال من الوكيل العام رخصة الذهاب الى مليانة وبعد أن سافر إليها فِعلا جاءه من السيد الوالي العام أمر بالعودة الى العاصمة في نفس اليوم وذلك «باسم الأمن» على حد التعبير الوارد في الأمر.

نعم جاءه الأمر من الوالي العام لأن النازلة كانت من جهة مطروحة لبحث رجال القضاء ومن جهة ثانية كانت من اهتمـامات رجـال السياسـة بالعمالة وكانوا لا يحجمون عن التدخّل في صـالح الميـر لدى السلطات الإداريّة من متصرّفين ورئيس الدائرة وعامل العمالة والوالي العام.

وكان كبيرهم الاسكندر موقان Alexandre Mauguin مير البليدة ورئيس المجلس العام بالعاصمة والنائب بالمجلس الوطني ثم السيناتور وكان رديفه لوتَلْيـي Letellier نائبا بالمجلس الوطني ومحاميا للحاج إبـراهيم وكلاهمـا حريصان على معاضدة زميلهما بورايي المير ثم النائب بالمجلس العام لأنّه كان لهما سمسارا في الانتخابات.

وفي مستوى أدنى كان منهم ابن صيام المعاون الأهلي بالمجلس العامّ الحائز لوسام الشرف بدرجة كومندور وهو صهر الحاج إبراهيم.

هؤلاء الثلاثة كانوا يؤلّفون عصبة لتأييد إيبار في غيّه وسوء طويته وكانوا

يجدون عند الوالي العام تِرمان Tirman الشهير ببغضه للعرب أذنا صاغية.

اتّصل موقان أولا بالقاضي ومعه ابن يشو الصّيْرفي بالبليدة كمترجم له وأشار عليه بالتماس الانتقال من مليانة ووعده بـالسعي لارتقائـه في جوق الشرف غير أن القاضي بعد أن فكّر أياما رفض اقتراح موقان «لئلاّ يترك الجوّ خاليا للدسائس والمظالم» كما قال ثم أضاف : «إذا أنا مذنب عاقبُوني وإذا أنا بريء دعوني في راحة البال. . .» قال ابن يشو : «لمّا سمع موقان هذا الجواب اصفرّ وجهه !» وأضاف للقاضي : «إنه ينذرك بأنك لن تنتصر على رجل من طراز بورايي !».

تُرى من هو موقان ؟ هو من أسرة عمال فقراء تجنّد في فرقة من الخيالة كسخّار للعقيد بدرجة «بلقادير» brigadier ولما خرج من الجنديّة اشتغل كعامل وضيع عند الورّاق روش Roche بالبليدة ثم فتح لنفسه وراقة بباب السبت ومنها أقلع في جوّ السياسة وحلّق حتى صار من أرباب الجزائر المستعمرة. فأنشأ جريدة «التلّ» وهي أقدم جريدة في الصحافة الجزائرية وبعدها موّل ثلاث جرائد نضالية.

كان الوالي العامّ وقتئذ لوي تِرمان Louis Tirman الذي بقي في منصبه من نوفمبر 1881 الى أبريل 1891 فجاوز رقم القياس كوالٍ عامّ بفضل مرونة صلبه أمام السادة الحقيقيين في جزائر ذلك الوقت. فلُقب «جُنْدب (مَرّاد) الذهب» إذ كان خادما مطواعا للنّواب حتّى أن ملاحظا شاهدا شهد يومئذ بأن «الوالي كان يقوم بدور الفرس وكُلّ نائب يقوم بدور الفارس !».

لمّا رأى القاضي إقامته الإجبارية والبحث بدون نهاية راسل أوّلا الوالي العام يوم 21 يوليو 1889 ثم راسل رئيس الجمهورية صادي كرنو Sadi Carnot يوم 21 سبتمبر 1890 ولم يتلقّ جوابا لا من هذا ولا من ذاك.

عند ذلك أشار عليه محاميه بمراسلة أوغست إسحاق Auguste Isaac سيناتور الغوادلوب Guadeloupe ففعل يوم 8 أكتوبر 1890 وكان إسحاق رئيسا للجنة الحماية والدفاع عن الأهالي بباريس فأجابه فورا وطلب منه الزيادة من المعلومات ولمّا اطّلع عليها أوعز إليه بتقديم عريضة للسينا (مجلس الشيوخ) ففعل يوم 17 فبراير 1891.

كان الوقت يبدو مواتيا إذ بدأ نوّاب المجلسين الوطنيّين في باريس من

جهة والرأي العام الفرنسي من جهة أخرى يشعرون بوجوب النظر من قريب فيما كان جاريا في العمالات الثلاث الجزائرية وإنقاذ الثلاثة ملايين من الأهالي ووقايتهم من هوى ممثلي الكولون (المعمّرون).

اضطرّ تِرمان Tirman يوم 26 فبراير 1891 على تقديم استقالته أمام السينا وخلّى منصبه لجول كمبون Jules Cambon الذي تلقّى من رئيس الجمهورية صادي كرنو Sadi Carnot مأمورية مزدوجة : أن يبيّن للأهالي عطف فرنسا وأن يستعيد استقلال الادارة. هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى تعينّت يوم 16 مارس 1891 لجنة من 18 سيناتور تحت رئاسة جول فيري Jules Ferry للبحث عن الحالة السياسية والاجتماعية في الجزائر الخبر الذي دعا مفتي العاصمة الى القول «بانتشار رائحة من العدل في ربوع الوطن !».

قدّم مستشار محكمة الاستئناف بورويّو Bourrouillou للوكيل العام فلاندان Flandin يوم 24 أبريل 1891 نصّا ضافيا شافيا لقرار العَفْو من محاكمة القاضي «عن كلّ ما اتُّهِم به».

كما وضع إسحاق يوم 19 يونيو 1891 عرضا بمجلس السينا عن «نازلة عبد المؤمن» وفتح السينا يوم 13 نوفمبر 1891 باب المناقشة لعريضة القاضي وكان اسحاق قد استخلص في عرضه براءة القاضي وأدان بشدّة الادارة الجزائرية التي كانت كلّها خاضعة للنواب وردّت الصحافة الفرنسية ردا طويلا لصدى النازلة بالعناوين الضخمة عن «الفضائح الجزائريّة».

طالت الجلسة في السينا وسادها الاضطراب في بعض الأحيان وكان موقان يجتهد في تفنيد العرض الذي حرّره إسحاق. هذا من جهة، ومن أخرى كان عدد من أعضاء السينا ـ لا سيما بولية Pouliat ـ يقاطعونه تارة بالتعجّب والسخرية فيفحمونه وتارة بالحجج الدامغة فيفضحونه حتى وافق المجلس الأعلى في النهاية على رأي إسحاق واستخلص منه براءة القاضي. فكان النصر لهذا الأخير في تلك الدورة غير أنه لم يبلغ نهاية محنته.

قبل ذلك بشهر تقريبا وبالضبط يوم 8 أكتوبر 1891 نقل جبرا الى لمدية بأمر من محافظ الاختام أرْمان فليار Armand Fallières الذي ارتقى من بعد إلى

رئاسة الجمهورية وارتأى أن «القاضي ما دام بين الأصدقاء الذين يحدوهم شوق المودّة والأعداء الذين يحرّكهم دافع الهوى ومهما كان له من حرّيّة الفكر وصلابة الشكيمة لا يسعه إقناع الناس بعدم التحزّب».

قرار النقل هذا لم يكن خاليا من المشاكل غير أن القاضي أذعن له وعبّر لرؤسائه بالرضى والامتنان في رسالة بعث بها الى الوكيل العام يوم 23 نوفمبر 1893 جوابا عن الأمر الذي تلقّاه منه في 28 أكتوبر 1893. نقتطف من هذه الرسالة ما يلي: «ما وقفت عليه... بأن السادات الوزراء يتولّون الانتقام من خصمائي وخصومتهم كما وقفت على رسالة من طرف السيد البروكيرار جنرال مؤرخة في 11 سامنبر سنة 1891 في عدد 4994 ظامنة كونه يشتغل بإعانتي... فلم أر شيئا من ذلك بل وقفت على ضدّه ولا زلت مطلوبا بالشرع في جميع الأمور التي رماني بها مسيو بورايبي وغيره ولم يبق أثر للمباحث التي تداولت علي في سنة 1889 وسنة 1890 وسنة 1891... ثم إني لمّا رأيت نيران الخصومات اشتعلت عليّ من كلّ جانب فإني مطلوب بثلاث خصومات في البليدة لدى الطريبونال والسيد الجوج دبّي وفي لاكور وفي المدية وخصومة في مليانة قد تمّت ولم أجد لمقاومة هذه الخصومات وقتا ولا قدرة ولا دراهيم (كذا) وان لي من وكلاء الخصام ما بين أفوى وأفوكَ ستة كلّهم شرعوا في خصوماتي وهم متوقّفون ينتظرون أجرتهم وعلمت التمالي علي من كل جانب سلّمت الأمر وألقيت السلاح فصارت الأحكام تبرم علي في الغيبة. ثم لمّا كان لي أحباء من الفرانساوية من أهل الغيرة والانصاف ضجّوا ضجّة واحدة وكتبوا بأحوالي لفرانسه يطلبون لي الاعانة من الدولة كي تخرجني من هذا الظيق (كذا) الى السعة.... لكن لا يخطر ببالي أن الدولة تتولّى عني جميع هذه الخصومات وأن تهون لاجلي أكثر من عشرين ألف فرنك مصاريف... هذا من المستحيل. وإنما نطلب (كذا) لها دية من رجل واحد أن يشير على بطلان هذه الخصومات فإنها تبطل من حَينها لأنّها ما أحاطت بي الاّ بأمره للوكلاء المسلمين والفرنساويّين لأنّهم في قبضته وهم يخدمون بلا أجرة وبعضهم يخاصمون من غير توكيل رغبة في مضرّتي ويشغلوني عن طلب حقّي من مسيو بورايبي. وأما أرباب الحقوق فإنهم لم يدعوا علي شيئا».

كل هذا التشويش انتهى أمام القضاة بخيبة خصوم القاضي أجمعين

تارة في بداية المحاكمة وتارة في مستوى الاستئناف.

بعد ذلك تشجع القاضي وطالبهم بالمحاسبة والنيابة العامة من ورائه فصدر يوم 13 أبريل 1896 حكم عليهم لدى محكمة الاستئناف بمبلغ 15.000 فرنك غرامة من أجل الوشاية الكاذبة.

تلك خاتمة الرواية وقد تتابعت فصولها مدة 15 سنة من 1881 إلى 1896. إنها لرواية خاصّة بمرحلة من مراحل التاريخ الجزائري تقدم لنا عنه معلومات خاصّة عندما كان حزب الأحرار بمجلس النواب في فرنسا يحاولون التعرض لجور نواب الكولون.

ماذا كان مصير أكابر ممثّلي الرواية؟

القاضي - وكان معروفا باسم سي عبد المؤمن - قضى بقية حياته في راحة البال والطمأنينة بعد أن حرم منهما مدّة طويلة ونال وسامه من جوق الشرف وتوفّي يوم الخميس 16 محرّم 12/1322 ماي 1904 في الثامنة والستّين من عمره وخلّف ذكرى إنسان عادل.

بورايبي - فضلا عن دوره في الرواية - عاش عيشة مضطربة. فقد عزله الوالي العام كمبون Cambon ثلاث مرّات من أجل اختلاس أموال الدولة إلاّ أنه انتخب في كلّ مرّة. وإنّما أخوه وقرينه في الذنب وقابض دَخْل أملاك الدولة هو الذي حكمت عليه محكمة الجنايات بعشرين سنة للأشغال الشاقة. وأما هو فقد استنكره السينا علانية كجلاّد للقاضي وقد تجاسر على شتم المجلس الأعلى أثناء اجتماعات عامّة وبلغت به الوقاحة الى أن أثار مظاهرات عدائيّة عند مرور اللجنة السيناتورية. هذا كلّه قبل أن يموت يوم 12 ماي 1904 في نفس الساعة التي توفّي فيها القاضي على قول جريدة **الأخبار** عدد 17 ماي 1904.

قاضي الصلح دوبوي Dupuy عزل وحكم عليه من أجل مخالفات متنوّعة وذلك في غيبته فأنهى حياته خارج وطنه مهاجرا.

وكيل الدولة باريزو Parisot صار مستشار محكمة الاستئناف في ديجون Dijon.

وكيل الدولة كوشار Cochard صار مستشار محكمة الاستئناف في

منبلي Montpellier .

المدّعي العام (الغرّاق) راك Rack صار وكيل دولة في منس Le Mans .

قاضي البحث إيبار Ebert نال ملامة قاسية بأمر وزارة العدل وبواسطة الوكيل العام فلاندان Flandin .

الوكيل العام فلاندان Flandin صار نائبا لعمالة اليون l'Yonne في سنة 1893 ثم سيناتورا في سنة 1914 ثم وزيرا في سنة 1936 وقام بدور هام في البرلمان كمقترح لإصلاح العدالة في الجزائر.

129 ـ هنا ينتهي الرواق الذي صفّت فيه صوَر لأبناء مليانة الذين كان لهم نصيب في إنماء الثقافة العربيّة الاسلاميّة أو مساهمة في تسيير الشؤون العامّة. نعم إنّهم لم يشرفوا من عل على عصرهم إشراف أبي مدين الغوث (1198/595-1332/520) أو ابن خلدون (1382/784-1332/732) أو المليانى إذا كان لا بد من الاقتصار على ذكر المشاهير لكنّهم احتلّوا منزلة شريفة في حقل الثقافة أو في الحياة السياسيّة في زمانهم لا في حدود المغرب العربي فحسب بل كذلك في المشرق ولهذا كان من الإنصاف التعريف بهم بقدر الامكان وإبرازهم من ظلمات النسيان الذي حكم عليهم به الخلف ظلما.

الخـــلاصـــة

130 ـ مليانة في الأصل بلدة بربرية صارت فينيقية ثم رومانية ـ هذا قبل الاسلام ـ ثم مركزَ إدارة في عهد العرب والعثمانيّين ثم سوبريفكتور Sous-Préfecture في عهد الاستعمار ثم منذ 1382/1962 مركز دائرة.

والآن ما بقي لها من حلي إلاّ خضورة جنانها وبساتينها وشوارعها التي حلّت منذ أواسط القرن الماضي محلّ أسوارها بعد أن كانت حصينة حاضنة لديارها ومساجدها التي لم ينج منها إلا مسجد سيدي أحمد بن يوسف بعد التدمير الذي جرّه عليها الاحتلال الفرنسي.

لها موقع بديع على مهماز ضخم صَخْري في حجر زكّار ومكانها ممتاز يشرف منه الجبل على سهل شَلَف ولهذا كانت أبدا مهيّأة لمبادلة النتاج الفلاحي ولعقد المعارض والاحتفالات ومن بينها «حفلة الكَرَز» الشهيرة السنويّة.

من ضريح سيدي أحمد بن يوسف يتضوّع عليها أريج الروحانيات الذي يجلب إليها وفود المؤمنين من الأماكن البعيدة غربًا وشرقًا وجنوبًا لا يسوغ اعتبارها كمدينة قديمة لا يتحرّك بها إلاّ أشباح الأموات. ولا يسوغ النظر إليها كمدينة ميّتة مقبورة تحت رماد الماضي بل إنها حية تنظر الى المستقبل. فبجانب الأحياء العتيقة التي تتجدّد الآن شيّدت أحياء أخرى تجري فيها حياة ناشطة. ولها طريقها الكبير التجاري بما فيه من دكاكين متعددة رائجة ومن حركة مستمرّة طول النهار وردحا من الليل في المقاهي

ولها شارعها المديد بجانب الحديقة العمومية وبجوار المسبح البلدي يقصدها الباعة يوم الأحد ويوم الثلاثاء ويوم الجمعة بكمية كثيرة من البضائع .

وقد تجاوزت مليانة الحديثة حدود الأسوار القديمة بأحياء جديدة هنا وهناك فارتفعت العمارات الجماعية في موضع البساتين والعرايش وشيّدت الفِلَل الأنيقة المحفوفة بالخضورة . وقد بُذِلت جهود عظيمة منذ سنوات قليلة في ميدان البناء ووافقت السلطة العامّة أخيرا على مشروع توسيع المدينة شرقا وغربا .

هل مستقبلها في الصناعة ؟ يجوز النظر فيه . هل تضاف الى الصناعات الموجودة الآن (صناعة الرخام وصناعة أدوات الصحة وصناعات الشرابات) صناعات أخرى (للطحين والميكانيكية الصغيرة والنجارة واللعبات الخ . . .) للاستزادة في اليد العاملة ورفاهية التجارة المحليّة ودَخْل المدينة بأسرها ؟ فإن روح المقاولة في الشباب المليناني يجيز الرجاء لذلك .

كما هي الآن مليانة لها ما يكفيها من سحر لجلب السائح وقد منحها دوما موقعها الممتاز أهميّة استراتيجية عظمى . فهي الى هذا مركز للسياحة نحو أماكن متنوّعة المظهر بغابة البلّوط والكرز البرّي بعين النسور وبأوعارها وسهولها الخضراء أي نحو ما في الطبيعة من جمال متنوّع انحصر في هذه الزاوية الصغرى من القطر الجزائري .

الملحق الأوّل

131 ـ سيدي علي المبارك وليّ القليعة

أصله من قبيلة الحشم . فما وراء هذا العلَم ؟ لفظة حشَم ومفردها حُشمة وحَشَمة تُطلق في اللغة على خوَل الانسان وعلى أتباعه وأهله وعبيده وجيرانه وعلى كلّ من يؤازره عندما تنتابه محنة أو تصيبه مصيبة . ثم صارت هذه النكرة علَما لقبيلة عربية بالمغرب الأوسط عمد أهلها الى ربطها باسم هاشِم رغبة منهم في الانتساب الى النبي ﷺ بواسطة جدّه مع أن هناك فرقا بين الحاء في حشَم والهاء في هاشم . والحقيقة غير هذا كما بينها محمد بن الأمير عبد القادر لما قال : «إنهم أخلاط من قبائل وخدّام لبني زيان ملوك تلمسان» . عاش بينهم أبوه وجدّه دون أن يكونا منهم .

ولد سيدي علي المبارك على ما قيل عام 1556/954 وتوفي عام 1630/1040 لكننا لا نعلم شيئا عن سلفه ولا عن حياته بناحية معسكر وانما نعلم أنه رحل بفقره وأَسْمَالِه حوالي سنة 1601/1009 أي في الخامسة والأربعين من عمره ونزل بجوار القليعة التي أسّسها حسن بن خير الدين بربروس عام 1550/954 على ربوة من رُبى الساحل على 40 كلم غرب مدينة الجزائر لمراقبة قبائل متّيجة المتمرّدة . وكان حسن بن خير الدين أنزل بجانبها عددا من اللاجئين الأندلس المشردين من ديارهم الفارين من طغيان المَلِكَيْن الكاتوليكَيْن .

وكانت لؤلائك اللاجئين سمعة ثقافية دينية جلبت إليهم كل طالب علم

وكان ذلك شأن علي الحشمي. أقبل من ناحية معسكر صحبة رفيقين آثرا الوقوف قرب مليانة على شاطئ شلف حيث أنجبا وخلفا حفدة هم الحشم الذين منهم الآن أولاد العباس والشعاعرة وغيرهم بناحية خميس مليانة.

أمّا علي الحشَمي فلم يكن له إذاك إلا هدف واحد: التعلّم على الأساتذة الأندلسيين: لكنه كان لا بدّ له من اكتساب قوته. فتحتّم عليه العمل كخمّاس عند إنسان مالك لأرض اسمه إسماعيل بن محمد. فكان في فصل الحرث يسوق بكرة «زويجة» ثورين الى الحقل وهناك يستلقي على ظهره ويركن للنعاس والأحلام عوض شد «الوصلة» وسياق الثورَيْن ويخلّيهما يجرّان المحراث كيفما يشاءان فيأتيه سرب من الحجل يفليه ويشبع من قمله. ويكون العمل في نهاية النهار تاما نافذا بدون تعطيل. فاطلع اسماعيل على تلك الكرامات وعاينها. فحار ودهش ثم أسرع ذليلا الى التصريح لخمّاسه بأنه راغب في أن يكون من أتباعه ومريديه موقنا بأنه إزاء وليّ من أولياء الله الصالحين.

كان علي الحشَمي إذن مُباركا. فذاع صيته في سهل متيجة وهرع اليه السكّان بهداياهم. فأسّس زاوية تهاطل عليها طلبة القرآن والتوحيد والفقه فاكتسبت القليعة سمعةَ مدينةٍ مقدّسة حتى سميت «المدينة» وكثر زوارها ومن بينهم باشاوات مدينة الجزائر وبها كثر نسل سيدي علي المبارك وبها كان قبره وما زال من ذلك الوقت إلى الآن يجلب في المواسم المتوالية الجموع الغفيرة من سكان شنوة وحجوط وموزاية وبني مناصر وبني مناد وسوماتة وريغة وبوحلوان وغيرهم. فكان لأولي الأمر في هذا التجمع تسهيل للمراقبة ولذلك بنوا على قبره مسجدا فخما.

الملحق الثاني

132 ـ الحاج محيي الدين الصغير

لعلّه من الجيل الخامس أو السادس من ذرية سيدي علي المبارك ولُقّب بالصغير لتمييزه من محيي الدين آخر سبقه في نفس السلالة. وتاريخ ولادته غير معروف بالضبط لكن الفرنسيين الذين اتصلوا به قالوا في سنة 1832/1248 إنه كان يومئذ في الثانية والأربعين أو الثالثة والأربعين من عمره وعلى هذا تكون ولادته بين سنة 1789/1204 وسنة 1790/1205. وحياته قبل اتصاله بالفرنسيين مجهولة اللهم إلا أنّه كان يتمتع بنصيب من الجاه لدى السلطات العثمانية في مدينة الجزائر والغالب أنه قضى طفولته وصباه في ظلّ زاوية أسلافه بالقليعة حيث تلقّى تكوينه حتى صار «رجل دين لا سلاح له سوى اللسان والمثل» كما قال ذات يوم للدوك دي روفيقو Duc de Rovigo.

يبدو أنه كان في كهولته على رأس ثروة طائلة مكّنته من أن يقدّم للجنرال كلوزال Clauzel 200 قروي شعير للخيالة الفرنسيين بمناسبة حملتهم الزجرية على بو مزراق من 17 نوفمبر إلى فاتح جانفي 1831/1247 ومن أن يقدم مثلها لخيالة الجنرال برتيزان Berthezène بعدئذ. وكان راغبا في الحصول على الحضوة لدى النصارى حتى أنه ترأس أعيان القليعة لتقديم التموين لعساكر برتيزان عند مرورهم بوسط القليعة عائدين من جولة في غرب متيجة. فلاحظ برتيزان بمسرة خاصة تصرّفه هذا ورؤية التوبُقراف الفرنسي بقمة صومعة المسجد ساعات عديدة في الأمان لاصلاح بعض العمليات الخاصة بوصف الأرض ومسحها.

كان «للمرابط» في وضعية الوطن الجديدة أفكار حملته ككثير من أعيان الوقت على البحث عن وسائل التكيّف معها. لكن الجهاد كان يومئذ على ساق في شرق متّيجة يدعو إليه رجل دين من سلالة دينية ببلاد القبائل هو سيدي السعدي ويسيّره بحزم وعزم قائد فليسة الحاج محمد بن زعمون وقد جاوز الثمانين من عمره وكان معه ابنه الحسين بينما كان سي أحمد بن

مصطفى بو مزراق يعيد كرّاته على الفرنسيين في غرب ميتجة .

ولمواجهة ذلك ارتأى برتيزان من جهة محاربة التعصّب بنفس سلاحه (تلك عبارته) ومن جهة أخرى الاتصال «بالأعيان المعتدلين» والاستعانة بهم . فقرّر عرض منصب آغا العرب لمرابط ذي صيت نافذ في أعين القبائل من أجل نسبه ومنزلته المحترمة ومعاهداته مع العشائر .

فكان هذا وصف محيي الدين بالذات . وكان إلى ذلك موضوع وصايا حارة من جانب الكثير من أعيان مدينة الجزائر الذين جنحوا لقضية فرنسا .

منصب آغا العرب أُسنِد من قبل بين 8 يونيو 1830 و 7 جانفي 1831 إلى شخص من حضر مدينة الجزائر هو حمدان أبو الركائب (بوركايب) بن أمين السكة ثم عزله كلوزال ونفاه إلى باريس حيث تزوج بغسّالة فرنسية وتوفي سنة 1834/1250 وخلفه من 18 فيفري إلى يوليو 1831 فرنسي اسمه مندري Mendiri كان رئيسا على الدرك (سمّاه جليان «الآغا المضحك» Fantoche) .

هـذا الوظيف أنشـأه العثمانيـون لإشراف صـاحبه على دار السلطان بمؤهلات تساوي مؤهلات باي . وإذا به عند الفرنسيين لم يبق له إلا السهر على العلاقة بين الغالب والمغلوب (أي مدير الشؤون الأهلية قبل الحرف) .

تردد محيي الدين أياما قبل القبول لاقتراح برتيزان ثم اشترط شرطين أوّلهما 70 000 فرنك راتب سنوي وثانيهما بقاء المسلمين وغير المسلمين كل في مكانه الخاص . فرضي برتيزان بالشرطين وأمضى التسمية يوم 24 جانفي 1831 .

للقيام بمهمّته كان لمحيي الدين خليفة اسمه حمّيدو وحاسب اسمـه قدّور بن تركية وكوكبة من الخيالة ومنزلان أحدهما بالقليعة والثاني بالبليدة . فمارس مهمته أحد عشر شهرا منها أربعة في عهد برتيزان وسبعـة في عهد روفيقو .

يبدو أن برتيزان احترم الالتزامات فكانت العلاقة بينه وبين محيي الدين طيبة وثيقة خلافا لما آلت إليه مع روفيقو .

كان روفيقو من قبل وزيرا لنابليون الأول ومدير شرطته متطبّعا باستغلال الاستعلامات التي يقدّمها له وكلاؤه السرّيون ، يحتقر الضمانـات القانـونية

ويستهين بحياة الناس . . . ولما باشر مهمته في الجزائر عمد الى الإجراءات البوليسية لإهانة الآغا مع إبقائه في منصبه وانتقاص جاهه . . . (جليان ص 92) .

يُستخلص مركّب الرجلَيْن بوضوح من مطالعة 18 رسالة كتبهـا محيي الدين و7 رسائل أجاب بها روفيقو .

كان هذا الأخير معتدا بنفسه لا يؤاخذ ضميرَه بشيء ، ولا يرى في الآغا إلا «الأنديجان الخادِم» . فقد وصفه في رسالة مؤرّخة في جانفي 1832 بأنه رجل طيّب وفرنسيّ وفيّ . . . وفي أخرى مؤرخة في ماي أخبر وزيره قائلا «إنه لا يَصلُح لي في شيء لأنه بكل ما في اللفظ من قوّة راهب واعِظ يقول لي إن عقيدته تمنعه من النظال ومن العقاب . فإننا نؤدي ثمنا باهظا في مقابلة مواعظ لا يستمع اليها حتى العرب . . . لقد انتهزت فرصة لتوبيخه بشدة . فليس في طبعه شيء من الحزم بل يمقت الشدة من أجل عقيدته . . . »

أما محيي الدين فقد كان عالما بضيق الهامش للمناورة بين الغـالب صاحب الأمر وابن ملّته الذي لم يعترف بعد بأنه مغلوب ولم يرض بالإذعان والطاعة . فكان دور الآغا من أصعب الأدوار ولم يكن التظاهر بخدمة روفيقو وإسدال التحذير لأبناء ملته بالشيء الهين . لقد تبين له أن مهمته صعبة جدا فقدم في نوفمبر 1831 استقالته لبرتيزان الذي كان يقدّره ويعتبر فضله .

فكيف ولماذا عاد الى الخدمة مع روفيقو ؟

قال إنّ روفيقو استدعاه ووعده بالتزام ما التزمه برتيزان . لكن روفيقو ادّعى بأن محيي الدين هو الذي كاتبه يوم 22 جانفي 1832 والتمس منه العودة الى خدمته وجاءه صحبة 22 شخصا من أعيان العشائر من أجل مفاوضة دامت عشرة أيام .

وعلى كل فإنّ محيي الدين كان عـالما بـأنه متهم ومـراقب ومعرض للاشارة بالبنان فقدم لروفيقو استقالته ثلاث مرات فردّت إليه ثلاث مرات وفي أوت 1832 قدمها لآخر مرة برسالة شرح فيها أسباب استعفائه وهي :

1 ـ إبادة قبيلة العَوْفية بناحية الحرّاش بقـرار من روفيقو الـذي ترأس المجزرة بنفسه في ربيع سنة 1832 وذلك لأسباب تـافهة كمـا بيّنه من بعـد

برتيزان .

2 ـ إلقاء القبض على ابني عمه علال ومحمد بأمر من روفيقو. فعدّها محيي الدين إهانة له بلا سبب .

3 ـ إجراءات مختلفة للسلب والقمع قررهـا روفيقو فـأثارت جمـاهير متّيجة منها سجن قاضي ومفتي العاصمة ومنها غرامة جماعية قدرها 200 000 بوجه فُرضت على سكان البليدة والقليعة من أجل مشاجرة جرت في بوفاريك يوم 10 أكتوبر 1832 إلى غير ذلك .

بعد هذه الرسالة بعث محيي الدين عدة رسائل الى باريس يندد فيها تصرفات روفيقو فاضطرّه للدفاع عن نفسه لدى وزيره يوم كان مصابا بالمرض الذي مات منه .

وكان محيي الدين قد انعزل بالجبل عند بني مناد وهناك بدأ يدعو الى الجهاد وحظّر كل معاملة مع الكفار فقطع عنهم ابتياع الخيل والصوف بل قطع عنهم كل شيء وقيل إنه اتصل بأحمد باي قسنطينة كما بيّنه الجنرال أفيزار Avizard في رسالة مؤرخة في 10 أفريل 1833 .

وبعث للجنرال فوارول Voirol رسالتَيْن احداهما في 1833/04/26 ذكر فيها خدماته قبل وبعد أن يسمّى آغا العرب وندّد بتصرفات روفيقو والثانية في 1833/06/16 احتج فيها بفضائله ومواقفه وباغتياضه من عدم الجواب عن رسائله (انظر فوارول هنا وهناك) .

كتب فوارول لوزيره في 1833/06/06 قال : «ان الآغا له نفوذ مبني على ما لسلفه من الجاه الديني وعلى إخلاصه التام للاسلام ولهذا يستحيـل أن يستخدم نفوذه هذا لتأييـد سلطة الكفار . . . فهـو يقبض دراهمنا وفي نفس الوقت يخادعنا سرّا كما يدل على هذا عدة رسائل ثقفناها أخيرا . . . »

ومع هذا ـ حسب شهادة رئيس الطابور عبد الله الحسبوني ـ كان فوارول راغبا هو الآخر في عقد اتفاقية مثل اتفاقية دي ميشال. فاتّصل بمحيي الدين وحاول أن يسمّيه آغا العرب ودفع له في يوليو 1834 مبلغا كبيرا من الدراهم .

لكن محيي الدين كان وقتئذ يسعى ليكون سلطانا مُعترفا به من شيوخ القبائل المختلفة وكان سعيـه هذا معـاكسا لسعي الأميـر عبد القـادر الذي

تحسّنت علاقته مع فوارول. فقد راسله هذا الأخير ليعبّر له عن سروره بعد إمضاء اتفاقية دي ميشال وبعث إليه ببرنس شرفي وأخبره بأنه سيفرج في أقرب وقت عن محمد ابن عم الآغا وكان معتقلا بحاضرة الجزائر منذ ثمانية عشر شهرا وأنه يفعل ذلك تلبية لرغبته .

كيف صار محيي الدين من أنصار الأمير عبد القادر ؟ إنه لاحظ ابتداء من سنة 1835 ميل الجماهير والأعيان اليه في ناحية مليانة وفي قبائل بني مناد وسوماتة وبني مناصر وشنوة وموزاية. وقد كتب شيوخهم في 1834/05/24 الى فوارول رسالة صرّحوا فيها بطاعتهم للأمير. فتحاشى محيي الدين معارضة تيار الرأي العام واتصل هو الآخر بالأمير وطلب منه أن يسميه خليفة على أيالة التيطري وكان قبلئذ دْرُوِي Drouet يريد أن يسميه لهذا المنصب بصفة آغـا فرنسي (انظر دْرُوِي ص 303). وفي آخر الأمر سمّـاه الأمير خليفـة له على مليانة .

الملحق الثالث

133 ـ محمد بن علّال

لا نعرف شيئا عن حياته قبل أن يكون خليفة للأمير بمليانة. قيل إنه ابن أخي محيي الدين. وقيل إن أباه علّال ابن عم محيي الدين وهو الذي سجنه روفيقو وسرّحه فوارول في يوليو 1833 بتداخل الأمير. لا علم لنا بتاريخ ولادة محمد بن علال ولا هل ولد بالقليعة أو بمليانة وانما نعلم أن والده علال أقبر بجوار ضريح سيدي أحمد بن يوسف وأن قبره دمّره الجيش الفرنسي من جملة قبور أخرى كما أخبر بذلك الدكتور أكيلاس (انظر الفقرة رقم 55).

إلى القارئ بعض التفاصيل عن دوره ومصيره بعد استيلاء الفرنسيين على مليانة:

يوم 1843/01/28 كان عند أولاد عنتر قرب بوغار وإذا بالدوك دومال duc d'Aumale الذي كان يتحكّم في لمدية أخذ له 28 خيمة. فأبى المواجهة نظرا لضعف وسائله.

يوم 05/16 استولى الدوك دومال على زمالة الأمير بطاقين في شلَف الأعلى تلك الزمالة التي كانت مدينة متنقلة تحتوي على 30 000 نفس يشرف عليها خليفة هو قدور بن عبد الباقي. وكان من بين الأسرى أسرة ابن علال. فنُقِلت إلى فرنسا.

يوم 07/24 كان بوانشريس مع زميله البركاني على رأس جيوش لمدية ومليانة مواجهَيْن بيجو Bugeaud نفسه.

يوم 09/22 كان قرب ضريح سيدي يوسف بقرية تيغنّيف جنوب معسكر على رأس 550 فارسا وبقايا كتائب لمدية ومليانة. فهاجمه خيالة افريقية يقودهم العقيد مُرّيس Morris. فحمي الوطيس واستشهد فيه الخليفة قدور بن عبد الباقي.

يوم 11/06 كان ببلاد الجعافرة غرب سعيدة. فهاجمه العقيد جيري Géry أوّلا ثم الجنرال تمبور Tempour على رأس 800 فارس و 500 صيّاد و«السبايس» و 30 خيالة من الأهالي. فتقهقر وهُمْ وراءه خمسة أيام ومعه 600 محارب من بينهم 60 فارسا ونحو 20 سيّافا بلا جنود. فاشتد القتال وتغلّب العدو. فقاوم ما استطاع المقاومة وهو يرمي رصاصه النافذ بمهارة غريبة قبل أن يقع صريعا وبعد أن ضاع له 400 قتيل و 360 أسيرا. وقد لاحظ الفرنسيون راميا لا تضيع رصاصته ولما أصيب وانتهى رميه اكتشفوا جثمانه وتحققوا أنه أعور فأيقنوا بأنه ابن علال. فابتهجوا وأذاعوا الخبر في صحافتهم بفرنسا. فاحتزوا رأسه وحملوه مع رايات الخلافة الى تمبور ثم عرضوا ذلك على الملإ بوهران ثم بمليانة ثم بالقليعة وهناك أقبروا رأسه بجانب ضريح جدّه سيدي علي المبارك بعد أن شرّفوه باستعراض عسكرهم بأمر من بيجو إجلالا لبطل شجاع.

«به أضاع الأمير عبد القادر أشجع وأوفى خلفائه وأمين أسراره وصاحب مشورته وأصدق مساعديه... تلك كارثة تساوي كارثة الزمالة... عظم الأسى في القلوب... اضمحلّ الإيمان الراسخ... مع الروح التي لا تعرف الونى ولا الخذلان... وتُوفي العدوُّ اللدود للكفرة... وكان قد كاتب ذويه في الأسر وأوصاهم بالاستسلام لقضاء الله والصبر والاعتصام بالاسلام قائلا: «قد يلاقي الانسان أهله بعد الفراق لكنه لن يستعيد عقيدته إذا فارقته ولن يرى وجه الله... عليكم إذن بالصلاة وتلاوة القرآن... أما أنا فلن أكف عن الجهاد ولن ألتمس تحريركم من فرنسا... وأغلب ظنّي أني لا أتلقى منكم أي خبر ولا أراكم في غير الآخرة... وقد صلّيت عليكم صلاة الجنازة وإلى اللقاء في دار البقاء!»

قيل إن والدته لمّا عاينت رأسه أطلقت بكل قواها الزغاريد ولم تذرف الدموع ولم تصرخ بالعويل موقنة بأن ابنها كان في جنة الرضوان (انظر أزان Azan).

التعاليق

ف = فقرة في النص

1 ف 2 ورد اسم هذه السلسلة الجبلية في صيغتين :

أ) وانشَريس بمدّ الواو عند قدماء الجغرافيين العرب وهذه الصيغة موافقة لما يُنطق به الآن وارسنيس بمدّ الواو كما أن وارجلان في الكتب موافقة لوارجلا في النطق.

ب) وَنْشريس بمد الراء عند الكتّاب المتأخّرين خصوصا تركيب النسبة قالوا الونشريسي وهي نسبة لعدة أدباء مغاربة منهم أبو العباس أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي التلمساني الفقيه المالكي الشهير (تلمسان 1428/834 ـ فاس 1508/914) [صاحب **المعيار المُغرب الجامع المُعرِب عما تضمّنته فتاوي علماء افريقية والأندلس والمغرب**] ط. حجرية فاس 1893/1315 في 12 جزءا ـ ترجمة فرنسية جزئية قام بها إميل أمار Emile Amar في الأراشيف المغربية ج 12 باريس 1908. ومنهم ابنه عبد الواحد المتضلع هو أيضا في الفقه قاضي ومفتي فاس الذي «لا يقل شهرة عن والده». قتله عملاء السلطان محمد الشيخ في سنة 1548/955 وفي عمره سبعون سنة. وكلاهما لا يمتّ بصلة بجبل وانشريس الا بالنسبة.

2 ف 3 الاشارة هنا الى نصَب من عهد الأمبراتور أورِلْيان (270/275

م) اكتشفه في ناحية سوقبار أُوسّون دي شنصال Ausson de Chancel عليه كتابة مختزلة حسب العادة (انظر نصّها في النسخة الفرنسية) ترجمتها بالعربية : «مولانا الأمْبِراتور لُوسْيوس دُومِيسْيُوس أورليانوس أوتستوس على أربعة أميال من سوقبار».

3 ف 6 هذا المكان مجهول الآن وكان اسمه يطلق على بلدة في سهل شلف غرب الخضراء (اسم عين الدفلى القديم) أسسها ابراهيم بن محمد بن سليمان الذي سبق ذكره. فقد كان أولائك الشرفاء في القرن الثالث الهجري يؤسسون المراكز الدينية التجارية فتُسمّى بأسمائهم منها سوق حمزة (البويرة الحالية) أسسها حمزة بن حسن بن سليمان بن علي بن أبي طالب. ولعل سوق ابراهيم هو العطّاف الحاليّة أو وادي الفِضّة.

4 ف 6 نعم هناك فرق بين الدال والطاء، وبين الكاف والغين لكن قبيلة مطغرة يقال لها أيضا مدغرة ومضغرة وكانت حسب البكري وآبن خلدون قاطنة بالمغرب الأوسط بين مليانة ووجدة بجانب مطماطة وفروع أخرى من بني فاتن.

5 ف 8 انظر البكري ص 61 و 69. فهو الوحيد الذي يذكر بني وريفن عَلَما لهذه البلدة البائدة الآن وكانت لمطغرة بملتقى وادي الفضة وشلف وشرق الأصنام. ذكر آبن خلدون بني ورسيفان : فرع من زناتة (انظر العبر ج 7 ص 50) فهل هي صيغة ثانية لبني وريفن ؟ وليست هذه القرية وحدها تسمى باسم قبيلة. فقد ذكر البكري بُليدة جميلة تسمى باسم فرع آخر من مطغرة هي بني جلّيدن. ويوجد الآن شرق عين الدفلى دَوّار جَلّيدة الذي صار بلديّة كسائر دواوير الجزائر ثم مركز دائرة منذ قليل.

6 ف 8 اليك نص الادريسي : «هي مدينة قديمة البناء أزلية حسنة البقعة كريمة المزارع ولها نهر يسقي أكثر مزارعها وحدائقها وجناتها. ولها أرحاء على نهرها المذكور ولأقاليمها حظ من سقي نهر شلف» (انظر طبعتنا «**المغرب العربي من كتاب نزهة المشتاق** للادريسي» ص 106.

7 ف 9 ابن محشرة أول من ذكر اسم زكّار وذكر الرَّيْحان. والآن يسيل شرق مليانة نهر اسمه وادي الرّيْحان من روافد شلَف وكانت بلدة سيدي الأخضر الحاليّة (لافارَنْد سابقا) تُسمّى في أوائل القرن 19/13 واد الريحان.

ثم إن المليانيّين مازالوا متعوّدين تفريش القبر بأغصان وأوراق الريحان قبل اقبار الميت (انظر **الاستبصار** في الترجمة الفرنسية ص 106).

8 ف 11 الغالب أن المياه (الحارّة) التي ذكرها ابن بطّوطة هي مياه حمّام ريغة.

9 ف 13 كان الرحالة الانجليزي شاو توما Shaw Thomas (1692-1751) كابلانيا Chapelain بالجزائر. وقد تجوّل في ربوع المغرب. فلاحظ وسجّل كتابة لاتينية ترجمتها بالعربية أنّ : «حفيد الجنرال الروماني بومبي Pompée ووالد حفيده مدفونان بمليانة (انظر نص هذه الكتابة في النسخة الفرنسية فقرة 13).

ثم إن شاو يحدّد موقع مليانة على 400 تواز toises شرق وش سال الخربة. . . يقول : «ان الزائر لا يجد بها مدينة وانما يجد قرية صغيرة ديارها مغطاة بالقرميد عوض السطوح كما هي العادة في البلاد غير أنه يلاحظ أن لها سقيا جيدا يأتيها من زكّار الغربي وأنها محفوفة ببساتين جميلة وحقول الدالية وأن لها منظرا على أراضي جندل Djendal ومطماطة وغيرهما من القبائل العربية إلى لمدية. . . ويأتيها في فصل الربيع أتقياء الجزائر والبُلَيْدة والنواحي المجاورة لتقبيل تابوت سيدي يوسف Sidy Youseph وليّ المدينة. . . »

ويقول : «على ثلاثة فراسخ lieues شرق مليانة أي على نصف المسافة تقريبا بين شَلَف والبحر يوجد حمّام مريقة Meriga (أي Aquae Calidae Colonia)» ومن هنا تفاصيل في وصف حمّام ريغة.

10 ف 14 من بين أسماء هذه القبائل البربرية ثلاثة أسماء قديمة هي زناتة ومغراوة ومطماطة والأخيرتان فرعان من الأولى لعبتا أدوارا هامة في تاريخ المغرب الاسلامي. عن مغراوة انظر **الموسوعة الاسلامية** ط. الأولى ج 3 ص 111 والطبعة الثانية ج 5 ص 1163 الى 1173 مقال هامّ جدا بقلم ت. ليويسكي البولوني وعن مطماطة نفس المرجع ص 468. أما سنجاس فهي فرع من مغراوة كان أهلها حسب ابن خلدون «من أوسع القبائل وأكثرهم عددا وكان لهم في فتنة زناتة وصنهاجة آثار بافريقية والمغرب وأكثرها في إفساد السبيل والعيث في المدن ونازلوا قفصة سنة 514/1121 بعد أن عاثوا بجهات القصر

وقتلوا من وجدوا هنالك من عسكر ملكاتة وخرجت إليهم حامية قفصة فأثخنوا فيهم وكثر فسادهم وسرح السلطان قائده محمد بن أبي العرب في العساكر الى بلاد الجريد فشرّدهم وأصلح السابلة ثم عادوا الى مثلها سنة 1122/518 . فأوقع بهم قائد بلاد الجريد وأثخن فيهم بالقتل وحمل رؤوسهم الى القيروان فعظم الفتح فيهم ولم تزل الدولة تتبعهم بالقتل والإثخان إلى أن خضدوا من شوكتهم (**العبر** ج 7 ـ ص 96-97) .

11 ف 16 هكذا يلذّ للأدباء الإباضية المعاصرين أن يسمّوا النظام الذي أنشأه بنو رستم في المغرب الأوسط فيطلقون عليه لفظة «الجمهوريين» ويطلقون على نظام بني أمية وبني العباس لفظة «المَلَكيين» (انظر دبّوز ج 3 ص 539 حيث يجتهد في تفنيد رأي مبارك الميلي في كتابه **تاريخ الجزائر** ج 2 ص 33 ط . الأولى بالجزائر) .

12 ف 16 هناك تردّد في ضبط تاريخ ارتقائه للامامة في **الموسوعة الاسلامية** ط . الأولى ج 4 ص 1270 غير أن دبوز ج 3 ص 584 يحدّ إمامته من 855/241 إلى 892/281 ويقول إنه ولد حوالي 791/181 .

13 ف 16 كان اليعقوبي متعصّبا لبني إدريس . أبوه واضح كان واليا على مصر لما أقبل إدريس الأول هاربا الى المغرب بعد هزيمة فخّ فساعده واضح على مواصلة مسيرته . لهذا كان اليعقوبي يمقت الخوارج ويراهم في كل حاضرة من حواضر المغرب ويحذّر منهم (انظر **كتاب البلدان** ص 13) .

14 ف 17 شجرته في **العبر** ج 6 ص 312 عن ابن النحوي المؤرّخ الأندلسي وهي : «صناك بن واسفاق بن جبريل بن يزيد بن واسلي بن سليل بن جعفر بن إلياس بن عثمان بن سكاد بن ملكان بن كرت بن صنهاج» مزيج جميل من أسماء بربريّة وأسماء عربيّة .

15 ف 21 عن بني غانية انظر التفاصيل الضافية في **العبر** ج 6 ص 390-409 .

16 ف 21 هذه الصيغة (واجَر) موافقـة للنطق في وقتنـا وهي لابن خلدون في **العبر** ج 6 ص 406 وهي بعيدة عن التّرّهات التي نقرؤها في الطريق الوطني الرابط بين الجزائر ووهران . فهي تارة واد جر وتارة واد الجير الخ . . .

17 ف 21 عن صراع أبي زكرياء جدّ بني حَفْص ويحيى بن غانية ورديفه علي بن مذكود وعن مصرع منديل بن عبد الرحمان الذي صُلِب جثمانه وعرض على أسوار مدينة الجزائر سنة 1225/623 انظر **العبر** ج 6 ص 406 والنكتة الأخيرة وهي : «أرسل يحيى بناته الى أبي زكرياء بتونس فأسكنها هذا الأخير بقصر البنات» .

18 ف 23 في **العبر** ج 7 ص 137 ما يلي : «داخل السلطان طائفة من مشيخة البلد المنحرفين عن أبي علي المليـاني فسرب إليهم جنـدا بالليـل واقتحموه من بعض المداخل وفرّ أبو علي الملياني تحت الليـل وخرج من قنوات البلد فلحق بأحياء العرب . . . »

19 ف 24 بعد أن أوصى دادّا يَغْمُراسن لدادّا عثمان ابنه بأن قال له : فاياك واعتماد لقائهم (أي بني مرين) وعليك باللياذ بالجدران متى دلفوا اليك وحاوِل ما استطعتَ في الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحّدين (أي بني حفص) . . . » أصابه الوجع بنواحي مليانـة (وكان استـولى عليها) . . . وهلك آخِر ذي القعدة من سنة 1282/681 . فحمله ابنه على أعواده الى تلمسان (انظر **العبر** ج 7 ص 189) .

20 ف 24 في الصراع بين تلمسان وفاس كان أشياخ أعراب بني عامر ـ وهم من زغبة ـ شيعةً لبني عبد الواد وكان أشياخ سُوَيد ـ وهم أيضا من زُغبة ـ شيعةً لبني مرين . وكان ابن خلدون معاصرا لهذا الصراع وبذل فيه جهوده كدبلوماسي (انظر **العبر** ج 7 ص 279 وما بعدها) .

واسم سُوَيْد من جدّهم «سُويد بن عامر بن مالك بن زغبة وكان لهم اختصاص في أول الأمر ببني عبد الواد الذين سلّموا لهم إتـاوات على بلد سِيرات والبطحـاء وقلعة هـوارة . . . ومن بطونهم فليتـة وشبانـة ومجـاهـر ومجالاتهم إذ ذاك كانت بين وادي مينة وشلف الأوسط وقاعدتهم قلعة ابن سلامة الشهيرة التي خرّبها أبو حمّو عام 1369/771 . لما نشأ الخـلاف بينهم وبين بني عمّهم بني عامر تقرّبوا من بني مرين وعلى رأسهم أبو زياد عريف بن يحيى الذي أصبح مساعدا حميما لأبي الحسن وبقي ابنه ونزمّار على سيرته مع أبي عنان . (انظر **العبر** ج 6 ص 95 وما بعدها و**الثغر** ص 34 وما بعدها .

21 ف 25 من دار السلطان :

ا) الفحص أو الساحل (بما فيه بوزرّيعة وبني مسّوس والسحاولة وبئر الخادم والقبّة والعناصر الخ . . .)

2) وطن الخَشْنة (بما فيه الاربعاء وبني عائشة وبني عمران والخضراء ورغاية وعين طاية . . .) ووطن بني موسى (بما فيه خزرونة وشفّة) ووطن السبت (بما فيه القليعة وتيبازة وموازية وسُماتة وبني مناد وشنوة).

3) مدينة شرشال وما إليها من بني مناصر وقوراية.

4) يسّر ومعها تادلس وقشطولة وبني جنّاد وعمراوة.

5) وأخيرا مليانة وما إليها من براز والحشم وبني زُقزُق وبني فَرْح وبني غَمْريان وبوراشد والفغايلية والعبيد وبني بودُوّان وبني بو خنّوس.

وكانت إدارة دار السلطان تارة لآغا العرب الذي كان أيضا رئيس جنود الداي وتحت أمره قوّاد أتراك يساعدهم أشياخ عرب كل واحد منهم على عَرْش (انظر بوايي Boyer ص 18 وما بعدها وجوليان Julien ص 9) وتارة لخوجة الخيل (عنه وعن صلاحياته انظر حمدان ص 128 فيه تفاصيل ضافية).

22 ف 26 انظر هيدو Haedo ص 230 وما بعدها **والثغر** ص 27 و 35 وتعليق 26 وص 26 **والدليل** ص 59 والتاريخ ج 1 ص 208.

23 ف 26 انظر **الثغر** ص 48 وما بعدها ناقلا عن البوزاغتي، **والدليل** ص 326. تعرضت مليانة دوما لعيث قبائل السهل والجبل وكان العثمانيون يعارضون ذلك بأعراب المخزن. وهم قبائل يعفونهم من الضرائب ويجندون منهم المحاربين لتحقيق الأمن وقبض الضرائب. مثلا في القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي جلب الباي ابراهيم من ناحية البيّض فرقة من أولاد عيسى أجداد الحاج الصادق وحطّهم في دوار الفغايلية لصدّ بني زُقزُق وأولاد ميرة الذين كانوا يهاجمون مليانة. (انظر عن الباي ابراهيم الفقرة 120 من بعد).

24 ف 26 دامت مقاومة أحمد باي إلى سنة 1848/1240 أي ثماني عشرة سنة وتوفي بعد ذلك بسنتيْن عام 1850/1242 ودفن بجبّانة سيدي عبد الرحمان بمدينة الجزائر وعلى هذا كانت مقاومته أطول من مقاومة الأمير عبد

القادر. (انظر امريت Emerit في مذكّراته Mémoires ص 66 وحمدان ص 220 وما بعدها).

25 ف 27 في نظر حمدان كان بومزراق طموحا. فقد «جمع سائر الأتراك الذين أرادوا أن يتبعوه واقترب من مدينة الجزائر رغبة في الاتصال بالفرنسيين واستطاع بفضل نفوذ صديقه بَكري (اليهودي) أن يحصل على مرتبة آغا بتعيين من المارشال دي بورمون de Bourmont . . . ثم عُزل بدون ما سبب وخلفه كآغا العرب محمد أبو الركائب (بوركايب) بن أمين السكة . . . ثم قدّم هبات كثيرة للتمكن من الرجوع الى لمدية ومن مواصلة تسييره للبايلك كما في السابق (انظر حمدان ص 220).

26 ف 27 عن شخصية الباي حسن بن موسى انظر رأي حمدان ص 219 وما فيه من اللطف والرفق بخلاف ما يبدو من سيرته المضطربة الملينة بالضوضاء والمكر وسفك الدماء والاستبداد والعُنف. انظر خصوصا **الثغر** ص 49 و 53 وانظر التفاصيل الضافية في الدليل ص 237 الى 254.

27 ف 27 يقول حمدان إن كلوزال حاول أن يبيع ايالتي وهران وقسنطينة لباي تونس وبعث لهذا الغرض رسولين الى الباي يشترط عليه تسديد مليوني فرنك لفرنسا سنويا. ومشروع هذه الصفقة سطّره المارشال دي بورمون بايحاء قنصل فرنسا بتونس ماتيو دي لسبس Mathieu de Lesseps. يستعمل حمدان لفظة «بيع» مع ذكر إتاوة سنوية. غير أن جليان Julien ص 68 يوضح القضية مفصّلة بكيفية منطقيّة.

28 ف 28 انظر كور Cour ص 29 وما بعدها وفيها نصّ هذه البَيْعة بالفرنسية. لقد شاهد عبد الرحمان بحكم المجاورة احتضار النظام العثماني في شرق مملكته وما فرّط في شيء من المساهمة في تدَهْور ذلك النظام. فانه شجع الطريقة التيجانية على التشويش ضد حكم الباشاوات وكان يرى نفسه مجدّدا لمساعي يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن من أجل السيادة على أغلب مساحة من المغرب الكبير. ولم يكن مصدّقا بإضافة الجزائر الى فرنسا. فإنه أكد لقنصل فرنسا بشهرين قبل نزول الفرنسيين بسيدي فَرَج بأنه يبقى على الحياد ووعده بالإذن للفرنسيين عند الحاجة لأن يتموّنوا في مراسي مملكته.

29 ف 29 كان القراغلة كارهين لطاعة سلطان المغرب متحزّبين

لأحمد باي قسنطينة متّصلين دائما به.

30 ف 29 لم يبق لسكان وسط البلاد وغربها، بعد انصراف الداي حسين والباي بومزراق والباي حسن قائد يرشدهم ويحميهم ويستحق ثقتهم ما عدا رجال الدين وشيوخ الطرُق. وكان ذلك شأن محيي الدين.

31 ف 32 بعد أن كان عبد القادر خليفة لا غير لسلطان المغرب أصبح يفضل هذه الاتفاقية أمير المؤمنين أي رئيسا روحيا لسائر المغرب ورئيسا حاكما لسائر الأرض السالمة من سيطرة الفرنسيين. (انظر كوكنبو Cockenpot هنا وهناك وأزان Azan ص 26).

32 ف 35 انظر امريت Emerit, l'**Algérie** ص 204 وما بعدها. كان للأمير عبد القادر 5 000 فارس و 1 500 راجل ومدفعان ـ عن درقاوة قبل النزول بسيدي فرج انظر **الموسوعة الاسلامية** ط. الثانية ج2 ص 165 **والثغر** ص 30 وما بعدها بما فيها من تفاصيل دقيقة ضافية.

33 ف 35 كان بوخرشفة شَمال قنطرة الباشا المشيدة سنة 1814/1230 على الشطّ الأيمن من شلف ولعل بوخرشفة بمكان قرية عريب الحالية. (انظر كلوزال Clauzel ج 1 ص 107 والتعليق في أسفلها). هذا وسكان الناحية لا علم لهم باسم بوخرشفة ولا بمكانه في وقتنا الحاضر.

34 ف 36 عن قضية بو حمار، انظر امريت Emerit, l'*Algérie* ص 208 وما بعدها ودروي Drouet ص 562.

35 ف 36 محمد بن عيسى البركاني من أُسرة البراكنة الدينية ذات النفوذ والصيت لدى قبيلة بني مناصر في ناحية شرشال وهو الذي شيّد عام 1839/1255 في بوغار الحصن المربع المسلح بالمدافع وبه مخزن ومنسج للبرانص وأفران ومطامير واسعة ومخبزة ومستودعات للكبريت ومستشفى الخ...

36 ف 36 في نص العرض الذي قدّمه تريزال Trézel لدروي Drouet في ست صفحات عن الهزيمة التي قتل فيها الكولونال أودينو Oudinot رئيس الخيّالة حاملي الرماح وجُرح فيها عدد من عسكر فرنسا لا بأس به وتكسّرت صندوقتان للتجهيز... وكانت عُلَب القرطاس عند الأمير عبد القادر مكتوبا

عليها تولون Toulon بضبط سنة 1832 و 1833 وقتل فيها 52 عسكريا و 189 جريح منهم 100 لا يقدرون على المشي... وكان في الجيش ثلاث كتائب بولونية والطابور الأجنبي وكتيبة ايطالية... فارتفع عدد الخسائر نهائيا إلى 262 قتيل و 308 جريح. فتكدّر تريزال من فداحة مسؤوليته فكتب ما يلي: «لا أستطيع ولا أريد بعد انكسار كهذا مواصلة القيادة التي أسندت إليّ... واني راض بدون تذمّر باللوم وبكل تعنيف توجّهه الى حكومة الملك... وعبّر دروي Drouet عن رأيه في تريزال قال: «جنرال صغير طمّاع... حملته الرغبة في الحصول على النجوم الثلاثة وفي إهذار الناس عنه فقرّر مهاجمة رئيس عربي فهزمه هذا الأخير شرّ هزيمة وكبّده خسائر بلغت 400 قتيل وجريح وأجبره على أن يتوارى في جحره.

37 ف 37 عن سيدي علي المبارك وعن محيي الدين وابن علال انظر الملاحق الأول والثاني والثالث.

38 ف 40 انظر دمريمون Damrémont ص 255 ـ وفاة محيي الدين في الثامنة والأربعين من عمره تحتاج الى تفسير.

39 ف 43 عدة شخصيات من مليانة من بينهم الحاج المليانى والعنتري والخلادي خابت أمانيهم وآمالهم من جانب الأمير عبد القادر فتقرّبوا من الفرنسيين. وكان منهم عُمَر ولد الباشا. أما العنتري فقد كان الأمير نفاه إلى ندورمة في سبتمبر 1838، (انظر فالي Valée ج 4 ص 49 و 51، دوماس Dumas ص 335 وامريت Emerit, l'Algérie ص 286).

40 ف 46 كانت المحكمة الحربية في شهر أوت 1858 تبحث في قضية الجنرال بروسار Général Brossard بعد أن اشتكى به بيجو Bugeaud بوقاحة. فاعترف هذا الأخير بأنه حصل على 12 000 فرنك بالسمسرة (من الأمير عبد القادر)... وأقرّ بأنه طلب من الأمير بموافقة رئيس الحكومة مولي Molé 100 000 ف لاصلاح الطرق القروية في عمالة دُردُنيا Dordogne... والحقيقة أنه طلب 100 000 بوجهه التي تساوي 180 000 فرنك...» جليان Julien ص 138.

41 ف 46 روى هذه الواقعة محمّد بن عبد القادر بقوله: «وفي الخامس من ربيع الأول سنة سبع وخمسين (1257) وفي الثامن والعشرين من

أبريل (نيسان) سنة احدى وأربعين (1841) نهض الجنرال بيجو من الجزائر في جيش كثيف الى مليانة. ثم انقلب راجعا الى الجزائر على طريقه. وكان الأمير أعدّ فرقة من عساكره النظامية قرب البلد وأكمن له فرقة أخرى في الغابة قريبة من الفرقة الأولى. فلما خرج العدو من البلد بادرته الفرقة الأولى بالقتال. ولما حمل عليها استجرت له وأرخت العنان أمامه. فلحقها الى أن وصل الى الغابة فخرج الكمين واشتد القتال. وبينما هو كذلك أقبل الأمير بباقي الجيوش الاسلامية وهجم على العدو من ورائه. واختلطت العساكر بالعساكر وحمي الوطيس فانهزم بيجو بجيوشه ورجعوا الى مليانة تاركين القتلى والجرحى والذخائر التي كانت معهم في أيدي المسلمين. . . (التحفة ص 394).

42 ف 46 يوم 23 ماي 1841 كان تخريب بوغار ويوم 25 منه تخريب تازة ويوم 26 منه احتلال معسكر ويوم 16 أكتوبر تخريب القيطنة ويوم 22 منه تخريب سعيدة.

43 ف 50 قال دوماس Daumas ص 168 : «نهبوا المدينة ومزّقوا خيمته وأخذ له الهواري آغا الحشم مضلّته علامة الامارة ولقّبوه آستهزاء «سلطان الغابة». وقال أزان Azan ص 65 : «قالوا له : نشأت بيننا وجعلناك سلطانا وهِجْرتك هذه مخالفة لتقاليد العرب وتحدث التخوف في الضمائر. فاجتمعوا يوم 12 و 13 أفريل 1838 وقرّروا مراسلته كتابة طالبين منه إعادة اسرته الى مُعَسْكر حينا. . .»

44 ف 51 بعد أن سبق للحَشَم مؤازرته أثناء البيعة الأولى لم يفتأوا من مؤاخذته وتشويشه (انظر دوماس Daumas هنا وهناك).

45 ف 51 هي قرية على 35 كلم. شرق ثنية الأحد على طريق بوغار في وسط قبيلة البهاليل الذين ثاروا على الأمير عبد القادر فشرّدهم. وهنالك أمر محمد بن علال في عام 1838 بتشييد حصن ورحى مائية ونحو 30 دارا وبها انعقد مجلس المداولة يوم الثالث جويلية 1839 لاستئناف الجهاد (انظر أزان Azan 154). احتلها الجنرال باراجاي ديلّنس Baraguey d'Illens وخرّبها يوم 25 ماي 1841 عُوّضت سنة 1868 بمركز استعمار سمّوه ترولار Trolard وآسمها الآن برج الأمير عبد القادر (انظر دوماس 191 ـ وآزان 171 وجليان 185).

46 ف 51 تاقدمت اسم مكان عربي بجذرة ق د م وبربري بحرفي تا

في أول الكلمة وت في آخرها ومعناها القديمة «وهي في الأصل تاهرت السفلى التي أسسها عبد الرحمان بن رستم في القرن الثاني الهجري الثامن الميلادي بقرب ملتقى وادي تاهرت ووادي مينة في موقع مشجّر علوه 850 متر. أسس به الأمير عبد القادر بين سنة 1835 و 1841 قصبة بقي منها بعض الجدران. وفي ربوة هناك جبانة سيدي قادة بن المختار وبها قبور سلف الأمير عبد القادر وبقربها قبة والده محيي الدين. خرّب الفرنسيون القصبة يوم 25 ماي 1843 (انظر دوماس Dumas هنا وهناك وجليان Julien ص 191).

47 ف 51 دوران يهودي جزائري نشأ بفرنسا ويحسن الفرنسية وقام بأدوار هامة في الشؤون الجزائرية من 1834 الى 1837. كان وكيل الأمير بمدينة الجزائر بعد اتفاقية دي ميشال Desmichels. كان داهية في المناقشة فنفع الأمير إزاء دروي Drouet وكلوزال Clauzel وبيجو Bugeaud دون أن يهمل مصالحه الخاصة. فانه بعد اتفاقية تافنة تسلم من الحكومة الفرنسية هبة 000 60 فرنك ومن الأمير الامتياز في تجارة الأنعام. وحضر في منتبلي Montpellier كشاهد في محاكمة الجنرال بروسار Brossard وذهب أيضا الى باريس بصفة دليل ومستشار للميلود بن عراش الذي أرسله الأمير الى لوي فيليب Louis Philippe رغبة في تنفيذ شروط اتفاقية تافنة تنفيذا صادقا حقيقيا (انظر دروي Drouet هنا وهناك وكذلك دمريمون Damrémont وجوليان Julien).

48 ف 52 من قصيدة فيها 35 بيتا من البحر البسيط وقافية الراء في **التحفة** ص 530-531.

49 ف 53 سجّل قابريال كولّان Gabriel Collin كتابة تازة وترجم الى الفرنسية لا ما على باب بل على منضدة خشبية ضاعت على ما قيل بعد أن كانت معلّقة على جدارٍ النادي العسكري بمدينة الجزائر. وهذا مخالف لما رواه أزان Azan ومحمد بن الأمير عبد القادر. عمل كولان Collin في كتابه Recueil des inscriptions arabes et turques en Algérie ج 1 ـ عمالة الجزائر ص 279-280 (انظر الثقافة ص 91).

50 ف 54 صُنع بهذا المسبك (أو بهذه المصهرة) مسائد المدافع وكذلك الأحذية الفرنسية للجنود المشاة. (انظر فالي Valée ص 232 روسي Rousset ص 445 امريت Emerit, l'Algérie ص 283 ـ بورويبة في

الثقافة ص 99).

51 ف 54 استخدم الأمير عبد القادر لتنظيم جنوده ولتجديدها على زي العصر عددا من الأسرى ومن الهاربين من جيش فرنسا. غير أن الأسرى كانت إقامتهم عنده لا تطول بسبب المبادلة بأسرى المسلمين بينما كان غالب الهاربين يصيرون جنودا من جملة جنوده أو موظفين في إدارته. وكانوا من كُلّ جنسية ومن كل ديانة منهم الفرنسيون والألمان والايطاليون والسويسريون والمالطيون والبولونيون والأسوَديون نصارى ويهود. وقد اجتهد القنصل دوما Daumas في اكتشاف هويتهم بقدر الامكان ليخبر رؤساءه الجنرال راباتال Rapatel والجنرال جيهنّاك Guehennec الخ . . . وبلغه أن الأمير عبد القادر كان يعرض من أجل جلبهم ثلاثة دورو للرجال وعشرين دورو للفارس الذي يأتيه بفرسه. وقد تمكن دوما من مشافهة بعضهم ومن معرفة أسمائهم الأصلية. فمنهم عبد الله الذي اسمه الأصلي شوفال Cheval وهو يهودي فرنسي اسمه الحقيقي جافال Javal ومنهم حمّيدو وهو جَستِرنْجر Gestringer من ميونيخ Munich كابورال في الطابور الأجنبي وهو منظِّمَ ممتاز لمشاة الأمير. ومنهم مصطفى وهو هُلسن Hulsen أصله من بروسيا وكان في الطابور الأجنبي متضلّعا في العلم من أقارب الجنرال هُلسن في بروسيا الى غيرهم. . . (انظر دوما Daumas هنا وهناك).

52 ف 63 هو الدكتور ألميراس Alméras الذي بقي يزاول مهنته كطبيب ويتمتع دائما بسمعة طيبة جدا الى أن توفي في سنة 1986. هذا وفي الجزائر منذ استقلالها عدد من غير المسلمين كمعاونين من عدة جنسيّات (الألمان والأسكنديناف في مليانة أكثر من الفرنسيين في سنة 1984) ومن الأجانب عدد من الفيتنام أطباء، يعيشون كلهم على انفراد لأن إقامتهم مؤقتة مبدئيا.

53 ف 64 انظر Ben Cheneb, *Mots turcs et persans conservés dans le parler d'Alger*, Alger, 1922. في مليانة عدد الألفاظ التركية أقل من هذا العدد.

54 ف 95 عن زرّوق انظر E. Lévi-Provençal, 187, x. 4.

55 ف 95 القُرّاء السبع هم :

ابن كثير، ايراني كان في مكة وتوفي سنة 737/120.
عاصِم بن أبي النجود من الكوفة توفي سنة 744/127.
ابن عامر عبد الله من دِمَشق توفي سنة 762/145.
أبو عمرو بن العلاء ولد بمكة وتوفي بالكوفة سنة 770/154.
حمزة بن حبيب من الكوفة توفي سنة 772/156.
نافِع وُلد بالمدينة من أسرة اصبهانية توفي سنة 785/168.
الكسائي علي بن حمزة، ايراني من الكوفة تُوفّي سنة 804/189.

يضاف إلى هؤلاء ثلاثة :
أبو جعفر يزيد، ايراني من المدينة توفي سنة 747/130.
يعقوب بن اسحاق من البصرة توفي سنة 820/205.
خلَف من بغداد توفي سنة 843/229.

56 ف 97 ألفتت الطرق الدينية الاسلامية أنظار المسؤولين الفرنسيين أعوان الاستعمار في وقت باكر. منهم لوي رين Louis Rinn قائد كتيبة ورئيس مصلحة الشؤون الأهلية في الولاية العامة. ألّف **مرابطون وإخوان** *Marabouts et Khouns* الجزائر 1855. ومنهم دوبون أوكتاف وكوبولاني قزافيي Dupont O. et Coppolani X. **الطرق الدينية الاسلامية** *Confréries religieuses musulmanes* الجزائر 1897 ومنهم الاختصاصي بالاسلاميات ماسينيون Massignon في **الموسوعة الاسلامية**. ط. الأولى ج 4 ص 700-705 كلمة **طريقة** وكلمة **تصوف** في حوليات العالم الاسلامي Annuaire au monde musulman ط. الثانية باريس 1926. فقد استغلّوا لهذه الغاية وثائق وافرة وأحصوا نحو مائة طريقة وعرّفوا بأسرارها حكّام الاستعمار. وقد يصعب اليوم الوصول الى تلك الوثائق.

57 ف 101 في أدب الصوفية المغاربة نوع من جملة الأنواع الأخرى يقال له نوع المرائي كان له في نظرهم قيمة خاصة في القرن التاسع الهجري، الخامس عشر الميلادي (انظر عنه **التاريخ** ج 1 ص 93 وما بعدها).

58 ف 110 تختلف سلسلة الزروقية بحسب المصادر. ففيها أحيانا عبد القادر الجيلاني وابنه أبو بكر وأحمد بن عقبة الحضرمي . . .

59 ف 114 عاقب محمد الثابتي رجال الدين بمزيد القساوة (انظر بوايي Boyer **مساهمة في دراسة السياسة الدينية التي مارسها الأتراك في ايالة**

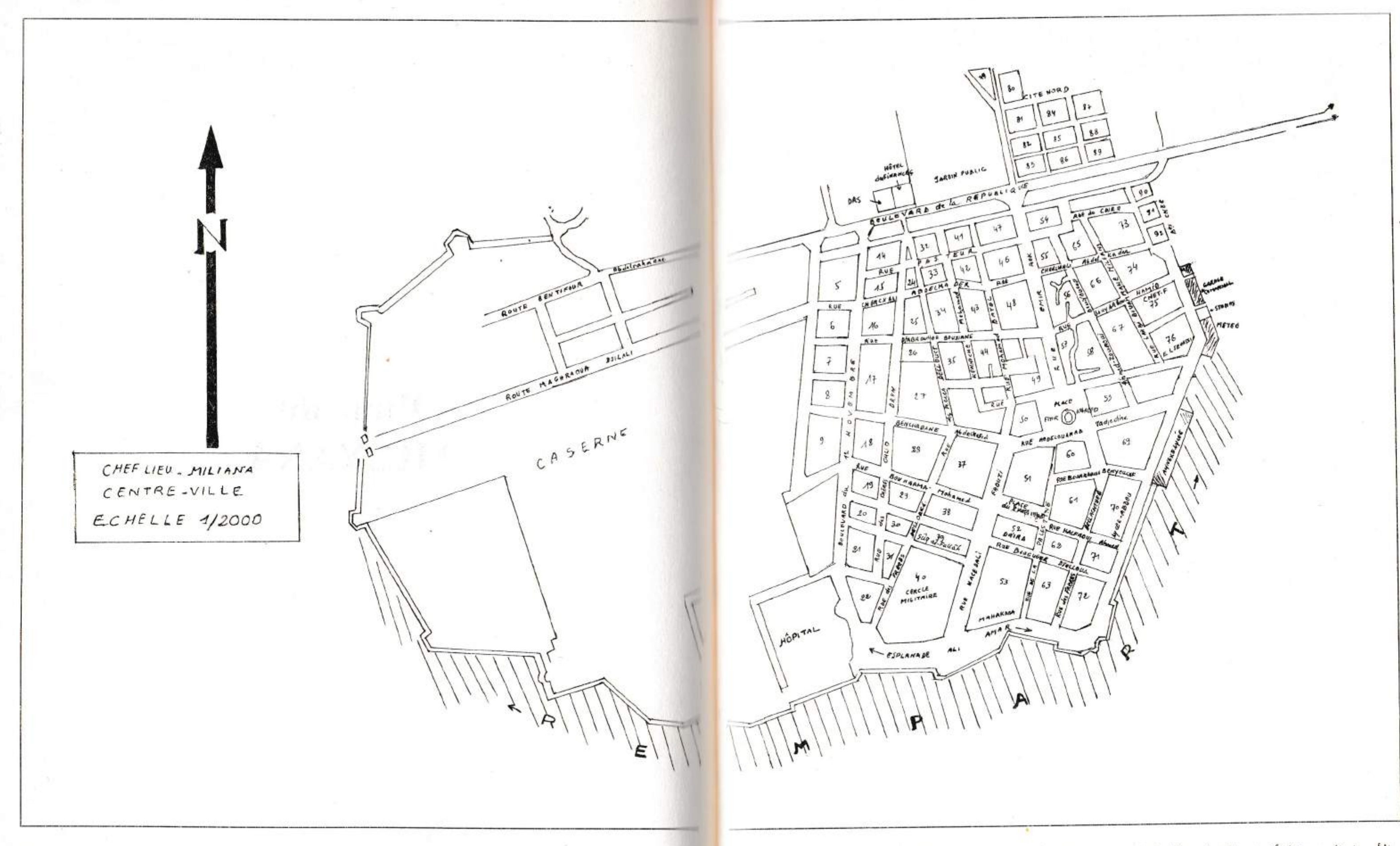
الجزائر من القرن السادس عشر الى القرن التاسع عشر الملاديين في مجلة المغرب الاسلامي والبحر المتوسط ج 1 ص 11 الى ص 49 . Contribution à l'étude de la politique religieuse des turcs dans la Régence d'Alger (XVI - XIX siècle) in Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerrané, I, 11 à 49 .

60 ف 114 مؤسس الطريقة الدرقاويّة أبو عبد الله محمد العربي الدرقاوي أبى هو الآخر الخروج من سجن المولى سليمان (1150/1737-1239/1823) بفاس قائلا : لن أخرج من السجن حتى يغادر سليمان عرشه (انظر رين في كتابه الذي سبق ذكره . ص 235) .

61 ف 115 هاجم الثابتي والأصبان بابا عروج فخرج من تلمسان ثم عاد اليها وشرّد أعداءه وقتل نحو الستين أميرا من بني زيّان منهم سبعة كانوا طامعين في العرش . ثم حاصره من جديد الثابتي والفارس غرسيا فَرْنَنْدَز دي لابلازا Le Chevalier Garcia Fernandez de la Plaza ستة وعشرين يوما فأضناه الحصار وخرج بمن بقي من أصحابه خروج اليأس فتمكن من النجاة وحاول أن يلجأ الى المغرب الأقصى . لكن تبعهم العدو ولحقهم بجبل موسى عند بني يزناسن فاستشهدوا على آخرهم سنة 924/1518 .

62 ف 118 حظي غالب رجال الدين الذين لهم نصيب من الشهرة بهذه النوع من الحفاوة الانتفاعية من طرف السلطة التركية . فإن خير الدين ومعه ابنه حسن زار عام 942/1535 سيدي أحمد الكبير (881/1476 - 947/1540) ولي البليدة الذي كان ساكنا في قربي (كوخ) بوادي الرمّان وبنى له في مقابلة دعاء صالح مسجدا وبقربه فرنا وحماما لأتباعه المورسك بمكان ساحة الأسلحة الحالية La Place d'Armes . وحصل إما على ضريح أو مسجد كلّ من سيدي عبد الرحمان الثعالبي المتوفى عام 1107/1696 وسيدي محمد (بسكون الميم) بن عبد الرحمان في مدينة الجزائر وسيدي علي المبارك بالقليعة وسيدي ابراهيم الغبريني بشرشال الخ . . .

63 ف 120 عن المازري انظر الورثيلاني ص 429-430 وص 658 .



Les nouveaux noms de rues, de boulevards, de place ou d'esplanade ont été choisis pour honorer la mémoire et conserver le souvenir de ceux des Milyanais qui ont participé à la lutte pour l'indépendance du pays.

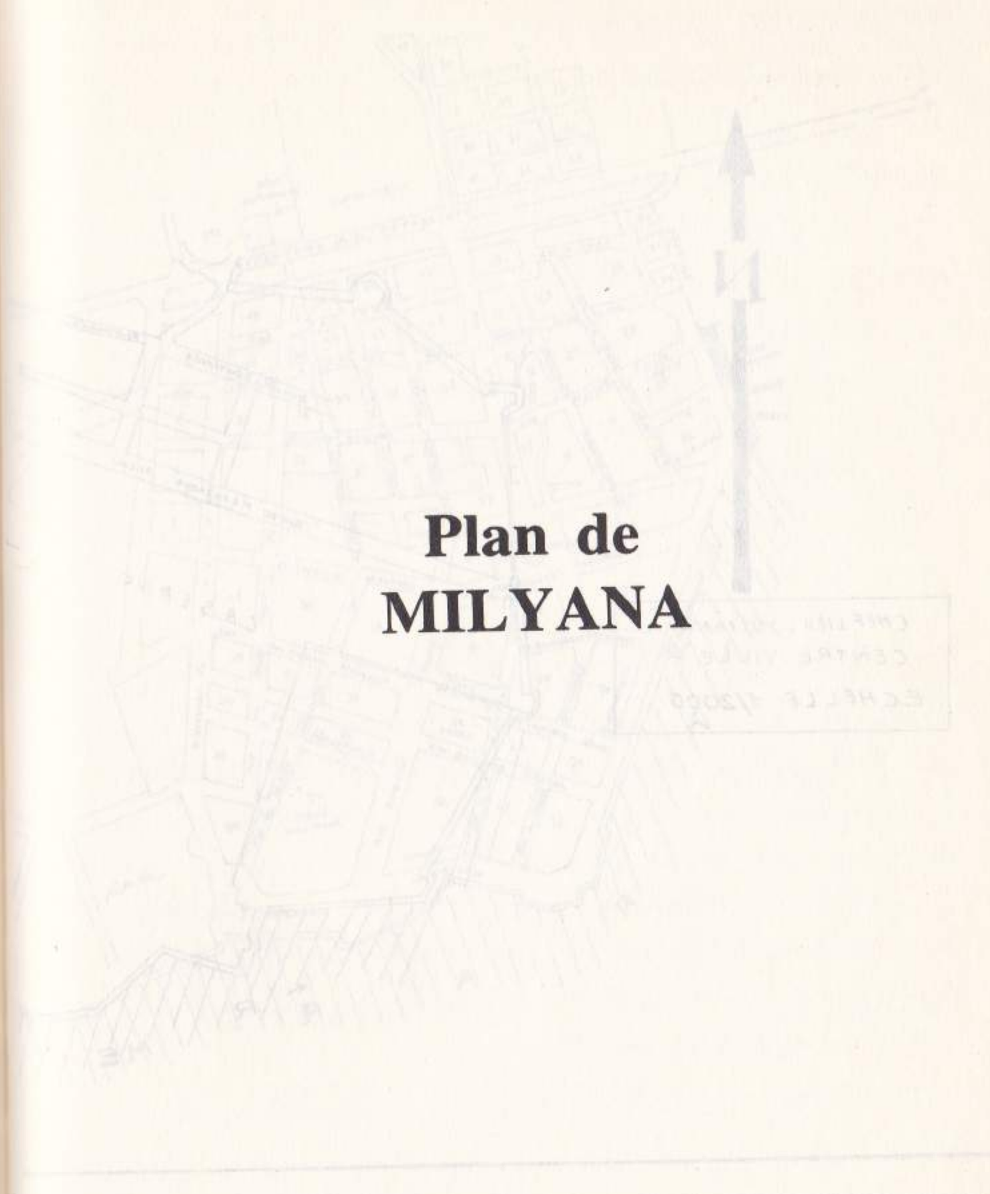
A propos de chaque nom circulent des récits qui gagneraient à être enregistrés et étudiés scientifiquement par un chercheur. Pour le présent travail, il n'a pas été possible d'obtenir des indications précises et objectives sur le coût de cette lutte pour les habitants de Milyâna.

الأسماء الجديدة للأنهاج والشوارع والساحات جرى انتقاؤها لتشريف المليانيين الذين ساهموا في الصراع من أجل استقلال الوطن وعن كل اسم تجري أخبار تستحق التسجيل والدراسة العلمية. ولم يكن في الامكان عند إنجاز هذا العمل العثور على معلومات دقيقة موضوعية عن ثمن ذلك الصراع من جانب المليانيين.

walad : enfant, fils ;
wâli : gouverneur, préfet (néol.) ;
waliyy : saint ;
wilâya : préfecture, département (néol.) ;

z)

zag̲h̲ârîd : youyou ;



Plan de MILYANA

djihâd : effort, guerre sainte ;

f)

falâqa : bastonnade sur la plante des pieds (fendre) ;
fatwa : consultation juridique ;
funduq : hôtellerie et aussi écurie ;
fuqarâ' : pauvres (sing. faqîr), adeptes d'un saint ;

h)

ḥadjdj : pèlerinage à Makka et Madîna
ḥâdjdj : pèlerin ;
ḥâkim : administrateur ;
ḥallâq : barbier, coiffeur (= ḥaffâf) (néol.) ;
ḥawsh : ferme, cour intérieure ;
ḥadîth : propos, geste (du Prophète) ;

i)

'idjâza : autorisation, diplôme, licence ;
'iyâda : clinique (néol.) ;

k)

khalîfa : successeur, calife ;
khûdja : scribe (empr. au turc) ;

l)

labbân : laitier ;

m)

maḥkama : tribunal ;
makhâzini : agent du pouvoir ; cavalier de commune mixte ;
maḥw : action d'effacer ;
makhbaza : boulangerie ;
maktab : bureau, école ;
maqhâ : café (local) ; pl. *maqâhî* ; (néol.) ;
mawâdd ghidhâ'iyya : produits alimentaires ; (néol.) ;
mudjâhid pl. mudjâhidîn : combattant de la guerre sainte *(djihâd)* ;
mudjawharât : bijouterie (néol.) ;
mustashfâ : hôpital ;

n)

nahdj : rue (néol.) ;
nahr : rivière ;

naḥw : grammaire ;
Naṣârâ : Nazaréens, chrétiens ;

q)

qâḍî : juge, cadi ;
qâ'id : conducteur, guide, général, caïd ;
qaṣṣâb : boucher (néol.) = *djazzâr* ;
qirâ'a : lecture, étude ;
qubba : coupole ;

r)

rakb : groupe, cortège de fidèles ;

s)

sha'ba : ravin, petit cours d'eau ;
sâḥa : enceinte, place (publique) ;
salṭana : pouvoir politique, autorité (du *sulṭân)* ;
shâri' : boulevard
shârî'a : loi religieuse ;
shârîf : noble, descendant du Prophète, chérif (pl. *shurafâ'* = chorfa) ;
shâwush : planton (orig. turque) ;
shaykh : vieillard, chef de tribu, cheikh ;
shurṭa : police (néol.) ;
ṣûq : marché, bazar = souk ;
surra : bourse (d'argent) ;

t)

tafsir : exégèse, commentaire (du *Qur'ân*) ;
ṭarḥa : tare, soustraction ;
ṭarîqa : confrérie religieuse ;
taṣawwuf : mysticisme musulman ;
tawḥîd : théologie ;
tawthîq : notariat (néol.) ;
turdjumân : traducteur, interprète, drogman ;

u)

'udûl : témoins instrumentaires en justice ou au notariat (sing. *'adl*) ;
'ulamâ' : savants (sing. *'âlim*) ;
'ummiyya : analphabétisme (néol.)

w)

wâd : vallée, rivière, oued ;

23° : ث = th = thâ' :

thaniyya	thniyya	ténia

24° : u voyelle de 'ayn :

'ulamâ'	'ûlâma	ulémas
'Ullayq (wâd el-)	'Ellîg (wâd al-)	Aleug (Oued el)

25° : و = w = *wâw* :

wâd	—	oued
Wâdjar	—	Oued Djar
Wajda	—	Oudjda
Wahrân	Wahren	Oran
walad	weld	ould
Walhâṣa	—	Oulhassa
Wânashrîs	Wâresnîs	Ouarsenis
waṭan	wṭan	outane
wazâghira	Wzâghra	—

26° : ي = y = *yâ'* :

Yaḥyâ	Yeḥya	Yahia
Ya'*qûb*	—	Yagoub et Jacob
Yassar	Yesser	Isser
Yûda	—	Juda
Yûsuf	Yûsef	Youssouf et Joseph

27° : ز = z = *zây* :

Zakkâr		Zaccar
zamâla	zmâla	zemala
Zanâta	Znâta	Zenata
B. Zugzug	—	Béni Zougzoug

28° : ظ = ẓ = *ẓâ'* :

Ẓahra	—	Dahra

GLOSSAIRE

Glossaire de vocables communs susceptibles de gêner le lecteur non initié à l'arabe classique ou dialectal. Certains d'entre eux puisés dans l'arabe classique, ont été inconsidérément substitués à leurs synonymes du dialectal apparıcnant pourtant parfaitement au fonds de la langue arabe.

a)

'abd : esclave, serviteur ;
'amâla : département (v. *'âmil* infra) ;
'âmil : préfet ;
'amîr : commandur, émir ;

b)

baladiyya : municipalité (néologisme) ;
baqqâla : épicerie (néol.)
baraka : éfluve sacré, bénédiction ;
bâsha : pacha (emprunté au turc) ;
bây : bey (orig. turque) ;
bay'a : salutation, serment d'allégence ;
bâylik : pouvoir, administration ;

d)

dâ'ira : arrondissement (néolog.) ;
dâr : maison, pays, cité ;
darak al-waṭanî (ad-) : gendarmerie nationale (néol.) ;
dawwâr : douar, circonscription de tribu ;
dây : dey, (empr. au turc) ;
dhabbâḥ : égorgeur, bourreau ;

Khawâridj	—	Kharédjites
Khirba		Kherba
khûdja	—	khodja

13° - ل = l = *lâm* :

Lamdiyya	el-Mdiyya	Médéa

14° - م = m = *mîm* :

Madîna	mdîna	médina
Maghrib	Maghreb	Occident, Maroc
makhâzini	mkhâzni	mokhazni
Makka	Mekka	Mekke et Mecque
B. Manâṣir	Manṣôr	Mansour
Marâziqa	Mrâzqa	—
Marrâkush	Marrâkesh	Marakèche
Marsâ l-kabîr	Mars el-kbîr	Mers-el-kébir
Mashriyya	Meshriyya	Mécheria
Mashwar	—	Mechouar
Mattîdja	Mettîdja	Mitidja
Mawlây	Mûlây	Mouley
Mawlûd	Mûlûd et Mîlûd	Mouloud et Miloud
Miknâs	Meknâs	Meknès
Milyâna	Melyâna	Miliana
Mu'adhdhin	mwedhdhen	muezzin
Mu'askar	M'askar	Mascara
mubârak	mbârak	mebarek
mudjâhid	—	moudjahid
mudjâhidîn	mûdjâhdîn	—
Muḥammad	Mûḥammed	Mohammed et Mohamed
Muḥyî d-Dîn	Meḥye d-Dîn	Mahiedine
murâbiṭ	mṛâbeṭ	marabout
Murâbiṭîn	Mṛâbṭîn	Almoravides
Musṭafâ	Mesṭâfa, Mestfa, Mostfa	Mustapha
Mustaghânim	Mestghânem, Mestghalem	Mostaganem
Mûzâya	Môzâya	Mouzaïa

15° : ن = n = *nûn* :

Naṣâra	Nṣâra	Nazaréens

16° : ق = q = *qâf* :

qabâ'il	qbâyel	tribus et Kabyles
qâḍî	—	cadi
Qâdiriyya	Qâdriyya	Kadria
qaṣaba	qaṣba	casba

qâ'id	qâyed	caïd
Qayṭana	Gaṭna	Guetna
Qunayṭira	Qnîṭra	Kénitra
Qulay'a	Qlî'a	Coléa
Qurghalân	Qurghlân	Coulougli
Qusanṭina	Qsenṭîna et Qsemṭîna	Constantine

17° : ر = r = *râ'* :

ramaḍân	ramḍân	ramadan
Rûdus	—	Rods

18° : س = s = *sîn* :

Sabâw (*wâdî*)	Sbâw	Sebaou
Saṭâ Wâlî	Sṭâwâlî	Staouéli
sayyid-î	sîdî	sidi
Sikkâk	Sekkâk	Sikkak
Sindjâs	Sendjâs	—
Subayḥ	Sbîḥ	—
Sulaymân	Slîmân	Slimane et Soliman
Sumâta	Sûmâta	Soumata

19° : ص = ṣ = *ṣâd* :

ṣaghîr	ṣghîr	seghir

20° : ش = sh = *shîn* :

Shaffa	Sheffa	Chiffa
Shalaf	Shlef	Chélif
Shanwa	Shenwa	Chenoua
sharîf	shrîf	chérif
Sharshâl	Shershâl	Cherchel
shâwush	—	chaouch
shaykh	shîkh	cheik

21° : ت = t = *tâ'* :

Tâdallâs	Delles	Dellys
Tâfina	Tâfna	Tafna
Tâhart	Tyâret	Tiaret
Tanas	Tnes	Ténès
Tîhâmî	Tuhâmî	Touhami
Tilimsân	Tlemsân	Tlemcen
turdjumân	ṭordjmân	drogman (traducteur, interprète)
Tuwât	Twât	Touat

22° : ط = ṭ = *ṭâ'* :

Ṭâgîn	—	Taguine

'Abd al-Qâdir	'Abd al-Qâder et 'Abdaqqâder	Abdelkader
'Afrûn	'Afrôn (jamais d'article)	El-Affroune
'Alî	'Lî	Ali
'Arîb	'Rîb	Arib
'Arûdj	'Arrôdj	Aroudj
'Attâf (al-)	—	Les Attafs

3° - ب = b = *bâ'*

B. abréviation de banû, banî	bnî	beni
B. 'Amir	B. 'Amer	B. Amer
B. Fâṭim	B. Fâṭem	B. Fatem
B. Ḥafṣ	—	Hafsides
B. Ḥammâd	—	Beni Hammâd
B. 'Idris	—	Idrissides
B. Manâṣir	B. Mnâṣar	B. Menacer
B. Marîn	—	Mérinides
B. Murâd	B. Mrad	B. Méred
B. Mûsâ	—	B. Moussa
B. Tûdjîn	—	B. Toudjine
B. 'Ubayd	—	Obeïdides
B. 'Umayya	—	Omeyades
B. Zîrî	—	Zirides
Barishk	—	Brechk
Barwâgiyya	—	Berrouaguia
bâshâ	—	pacha
bây	—	bey
Bashîr	Bâshîr	Bachir
Birâz	Brâz	—

Bû = abréviation de 'Abû, en Français Abou ou Bou

Bû Ḥalwân	—	Bouhalouane
Bû khurshufa	Bû khurshfa	Bou Khorshfa
Bû maṭmûra	—	Bou-matmoura
Bû mi'âd	Bû m'âd	Boumad
Bû rakîka	Bû rgîga	Bourkika
Bû fârîk	—	Boufarik
Bulayda	Blîda	Blida
Bûṭân	—	Boutane

4° - د = d = *dâl* :

ad-Dâliya	ad-Dâlya	Adélia

Darqâwa	—	Derkaoua
dawwâr	—	douar
dây	—	dey
Dimashq	—	Damas

5° - ج = dj = *djîm* :

djabal	djbel	djebel
al-Djazâ'ir	Dzâyer	Alger
Djîdjal	—	Djidjelli

6° - ف = f = *fâ'* :

Faradj	Fradj	Feruch
Fiḍḍa (*wâdî* l-)	Faḍḍa (wâd el)	Fodda (oued-)

7° - غ = gh = *ghayn* :

Gharîs	Ghrîs	Eghris
Gharnâṭa	—	Grenade

8° - ح = ḥ = *ḥâ'* :

Ḥaḍar	ḥḍar	hadar
ḥâdjdj	ḥâdj	hadj
Ḥadjdjûṭ	Ḥâdjdjôṭ	Hadjout
Ḥasham	Ḥshem	Hachem
Ḥusayn	Ḥûsîn	Hocine

9° - i voyelle de la *hamza'* : ء

'Ibâḍiyya	—	Ibadites
'Ibâhîm	Brâhîm	—
'Ighîl Izân	Ghîlîzân	Relizane
'Ikhwân	khwân	khouan
'Isḥâq	Yesḥâq	Isaac
'Iṣkandar	Skander	Alexandre
'Iṣkandariyya	Skandriyya	Alexandrie
'Ismâ'îl	Smâ'în	Smaïn
'Isṭanbul	Sṭanbôl	Stamboul

10° - i voyelle de *'ayn* : ع

'Ikrima	'Akkarma	Akerma
'Isâ	—	Aïssa

11° - ك = k = *kâf* :

Karistal	Krîstel	Christel

12° - خ = kh = *khâ'* :

Khamîs	Khmis	Khemis
Khanq an-niṭâḥ	—	karguenta

'Arûdj fut contraint d'évacuer Tilimsân. Mais, revenant à la charge, il obligea ses ennemis à fuir et fit exécuter environ soixante princes de B. Zayyân dont sept d'entre eux briguaient le trône. Ensuite il fut à nouveau assiégé par a th-Thâbitî et le Chevalier Garcia Fernandez de la Plaza pendant vingt-six jours. A bout de force, il fit, avec le reste de ses compagnons, une sortie désespérée mais couronnée de succès, cherchant à gagner le Maroc. Mais, poursuivis, ils furent rattrapés à Djabal Mûsâ chez B. Yasnâsan et exterminés jusqu'au dernier en 924/1518.

§ 118 - note 62 : La plupart des religieux de quelque renom, vivants ou morts, ont eu droit à ce genre d'attention intéressée de la part du pouvoir turc. Khayr ad-Dîn, accompagné de son fils Ḥasan rendit visite en 942/1535 à *sayyid-î* 'Aḥ. al-Kabîr (881/1476-947/1540) *waliyy* de Bulayda, qui vivait dans un gourbi à Wâdî r-Rummân. En échange d'une bénédiction, il lui fit construire, sur l'emplacement actuel de la Place d'Armes, un *masdjid* (oratoire), et non loin de là un four banal et un *ḥammâm* pour ses Morisques. Ont eu également droit qui à un mausolée, qui à une mosquée, 'Abd ar-Raḥmân a th-Tha'âlibî et Mḥammad b. 'Abd ar-Raḥmân, entre autres, à al-Djazâ'ir, 'Alî l-Mubârak à Qulay'a, 'Ibrâhîm al-Ghubrînî à Sharshâl, etc...

§ 120 - note 63 : Sur Mâzarî, v. War thilânî, 429-430 et 658.

INDEX

De quelques noms propres et de quelques noms communs arabes contenus dans le texte de cette étude :

1° - en translittération classique

2° - en transcription phonétique de leur prononciation locale

3° - en orthographe française usuelle

turques en Algérie, I, Département d'Alger, pp. 279-80, a relevé et traduit l'inscription de Tâza, non pas sur une porte, mais sur une «table» en bois qui aurait disparu après avoir servi de décor sur un mur du cercle militaire d'Alger. Cette version est un contradiction avec celle d'Azan et de Muḥ. b. 'Abd al-Qâdir. V. *ath-Thaqâfa,* 91.

§ 54 - note 50 : V. Valée, 232 ; Rousset, 445 ; Daumas, 501 ; Emerit, *l'Algérie,* 283 ; Bû-rwîba dans *ath-Thaqâfa,* 99. On y a fabriqué des affûts de canons, des baïonnettes et aussi des souliers français pour l'infanterie.

§ 54 - note 51 : Pour organiser et moderniser ses forces militaires, 'Abd al-Qâdir s'est servi des prisonniers et des déserteurs de l'armée française. Etant le plus souvent échangés, les prisonniers ne restaient pas longtemps chez lui, tandis que les déserteurs faisaient, pour la plupart, carrière dans son administration. Ils furent de toutes les nationalités et de toutes les confessions : des Français, des Allemands, des Italiens, des Suisses, des Maltais, des Polonais, des Suédois, des Chrétiens, des Juifs. En sa qualité de consul, Daumas s'est attaché à en identifier le plus possible, afin de renseigner ses supérieurs les généraux Rapatel, Guehenneuc, etc... Il a appris que, pour les attirer, 'Abd al-Qâdir offrait 3 *douros* au fantassin et 20 au cavalier qui arrivait à cheval. Daumas a réussi à faire parler quelques-uns d'entre eux et à connaître leur véritable nom derrière leur nom arabe : 'Abd Allâh était Cheval, un juif français, de son vrai nom Javal ; Ḥammîdû était Gestringer de Munich, caporal de la Légion Etrangère, excellent organisateur de l'infanterie de l'émir ; Musṭafâ était Hulsen, un Prussien de la Légion Etrangère, très instruit, parent du général Hulsen de Prusse, etc... (V. Daumas, passim).

§ 62 - note 52 : C'est le docteur Alméras, encore en activité en 1983 et jouissant depuis toujours d'une excellente réputation, il est décédé en 1986. Depuis l'indépendance du pays, il y a toujours eu des «coopérants», non musulmans, de diverses nationalités (les Allemands et les Scandinaves, à Milyâna, plus nombreux que les Français). Les Vietnamiens y sont aussi comme médecins en 1984. Ils vivent entre eux, leur séjour étant en principe provisoire.

§ 62 - note 53 : V. Ben Cheneb Mohammed, *Mots turcs et persans dans le parler d'Alger,* Alger, 1922. A Milyâna, il y en a certainement moins.

§ 95 - note 54 : Au sujet de Zarrûq v. E. Lévi-Provençal, 187, n. 4.

§ 95 - note 55 : Les sept lecteurs du Qur'ân sont :

1) Ibn Kathîr, un Iranien de Makka mort en 120/737 ;

2) 'Aṣim b. 'Abî n-Nudjûd de Kûfa mort en 127/744 ;

3) Ibn 'Amir ('Abd Allâh) de Dimashq mort en 145/762 ;

4) 'Abû 'Amr b. al-'Alâ', né à Makka, mort à Kûfa en 154/770 ;

5) Hamza b. Ḥabîb de Kûfa, mort en 156/772 ;

6) Nâfi' né à Madîna d'une famille originaire d'Isbahân, mort en 168/785.

7) al-Kisâ'i (Alî b. Ḥamza) d'origine iranienne, de Kûfa, mort en 189/804.

A ces sept lecteurs canoniques, on ajoute trois

'Abû Dja'far (Yazîd) un Iranien de Madîna mort en 130/747 ;

Ya'qûb b. 'Isḥâq de Baṣra mort en 205/820 ;

et Khalaf de Baghdâd mort en 229/843.

§ 97 - note 56 : De bonne heure les confréries musulmanes ont retenu l'attention des responsables français de la colonisation, entre autres le chef de bataillon, chef du Service des Affaires Indigènes au Gouvernement Général, Louis Rinn, auteur de *Marabouts et Khouans,* Alger, 1855, O. Dupont et X. Coppolani, auteurs de *Confréries religieuses musulmanes,* Alger, 1897, l'islamologue L. Massignon dans *E. I. IV,* 700-705, s.v. Ṭarîka et dans son *Annuaire du Monde musulman,* 2ème édition, Paris, 1926. A cette fin, ils ont dépouillé une abondante documentation, recensé une centaine de confréries et en ont fait connaître tous les secrets aux autorités coloniales. Aujourd'hui cette documentation est devenue d'accès difficile.

§ 101 - note 57 : La littérature des mystiques maghribins comprend, entre autres, un genre appelé *al-marâ'î* (les visions en rêve) particulièrement apprécié au IX/ XVème siècle. V. *Ta'rîkh,* I, 93 et suiv.

§ 105 - note 58 : La liste des «chaînons» de la Zarrûqiyya varie selon les sources. On y trouve, entre autres, 'Abd al-Qâdir al-Djîlânî, son fils 'Abû Bakr, 'Aḥ. b. 'Uqba l-Ḥaḍramî, etc...

§ 114 - note 59 : Muḥ. ath-Thâbitî a sévi avec la dernière rigueur contre les religieux. V. Boyer, *Contribution à l'étude de la politique religieuse des Turcs dans la Régence d'Alger* (XVI/XIXème siècle) in Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, I, pp. 11 à 49.

§ 114 - note 60 : Le fondateur de l'ordre de Darqâwa, Abû 'Abd Allâh Muḥ. al-'Arabî d-Darqâwî, incarcéré à Fâs par Mawlâya Sulayman (1150/1737 - 1239/1823) a aussi refusé sa libération en déclarant : «Je ne sortirai de prison que lorsque Sulaymân aura quitté le trône». (V. Rinn, *Marabouts et Khouans, 235).*

§ 115 - note 61 : Assailli une première fois par ath-Thâbitî et les Espagnols,

complètement, lui fait éprouver une perte de 400 tués ou blessés et le force à rentrer dans sa place...»

§ 37 - note 37 : Sur *sayyid-î* 'Alî *l-mabârak*, Muḥyî-d-Dîn et Muḥ. b. 'Allâl, voir annexes I ; II et III.

§ 40 - note 38 : V. Damrémont, 255. Il reste que la mort de Muḥyî-d-Dîn à 48 ans demanderait une explication. V. Bû-Ḍarba à Damrémont, 166.

§ 43 - note 37 bis : «De tous les coins que nous avons occupés en Afrique, Milianah est peut-être la ville où nos soldats ont eu à supporter les plus rudes épreuves». Comte de Castellaux, *Souvenir de la vie militaire*, cité par Autran, p. 182.

§ 43 - note 39 : Plusieurs personnalités de Milyâna, entre autres al-*ḥâdjdj* al-Milyânî, al-Khallâdî, 'Umar al-Bâsha, al-'Antarî (celui-ci avait été exilé à Nadrûma), déçues dans leurs espérances par l'émir 'Abd al-Qâdir, se sont rapprochées des Français. (v. Valée, IV, 49 et 51 ; Daumas, 355, Emerit, *l'Algérie*, 286).

§ 46 - note 40 : «Devant le Conseil de Guerre de Perpignan, qui jugeait en Août 1838 le général Brossard imprudemment dénoncé par Bugeaud, il (Bugeaud) reconnut avoir obtenu un courtage de 12.000 francs... Il dut avouer qu'il avait demandé à l'émir, avec l'accord du Président du Conseil Molé, 100.000 francs pour les chemins vicinaux de la Dordogne... en réalité 100.000 *boudjous*, soit 180.000 frs...». (Julien, 138).

§ 46 - note 41 : Ce fait d'armes est rapporté par Muḥ. b. 'Abd al-Qâdir en ces termes : «L'émir avait disposé un premier groupe de ses «réguliers» *(niẓâmiyya)* près de la ville et dissimulé un autre groupe dans le maquis *(al-ghâba)*, non loin de là. Quand l'ennemi sortit de la ville, il fut attaqué par le premier groupe. Par suite d'une contre-attaque, ce groupe recula et l'attira jusqu'au maquis où se trouvait le deuxième groupe. Quand se produisit la mêlée, l'émir survint avec le gros de son armée sur les arrières de Bugeaud. Désemparé, celui-ci recula vers Milyâna, abandonnant ses morts, ses blessés et son ravitaillement». V. *Tuḥfa*, 394.

§ 46 - note 42 : Le 23 Mai 1841, destruction de Bû-ghâr : le 25, destruction de Tâza ; le 26, occupation de Mu'askar ; le 16 Octobre, destruction de Qayṭana ; le 22 Octobre, destruction de Sa'îda.

§ 50 - note 43 : «Ils avaient mis la ville au pillage, déchiré sa tente ; al-Hawwârî *'âgha* des Ḥasham lui a enlevé son parasol, signe du commandement. Ils l'ont, par dérision, surnommé *«sulṭân al-ghâba»* (le roi de la forêt = le chèvrefeuille). V. Daumas, 168 et suiv. ; Azan, 65 : «Sans s'opposer au départ de sa famille, ils lui représentèrent qu'il était né chez eux, qu'ils l'avaient fait *sulṭân*

et que cette émigration, contraire aux mœurs des Arabes, jetteraient l'inquiétude dans tous les esprits... Ils se sont réunis le 12 et le 13 Avril 1838... et ont décidé de lui écrire pour lui demander de renvoyer immédiatement sa famille à Mu'askar. V. Daumas, 130.

§ 51 - note 44 : Après avoir été ses meilleurs partisans lors de la première *«bay'a»*, al-Ḥasham n'ont jamais cessé de créer des difficultés à 'Abd al-Qâdir. V. Daumas, passim.

§ 51 - note 45 : Localité située à 35 km à l'est de Thaniyat al-'Aḥad, sur la route de *Bû-ghâr*, au centre de la tribu des Bahâlîl révoltés contre 'Abd al-Qâdir et dispersés par lui. C'est là qu'il a fait construire par Muḥ. b. 'Allâl en 1838 un établissement comprenant un fort, un moulin à eau et une trentaine de maisons. C'est là que s'est tenue la conférence du 3 Juillet 1839 pour la reprise du *djihâd*. Cf. Azan, 154. Occupée et détruite par le général Baraguey d'Hillens le 25 Mai 1841, elle a été en 1888 remplacée par un centre de colonisation appelé Trolard. Aujourd'hui elle est appelée Bordj al-'Amîr 'Abd al-Qâdir. V. Daumas, 191 ; Azan, 171 ; Julien, 185.

§ 51 - note 46 : Toponyme arabo-berbère (rac. ar. *q. d m*, préfixe et suffixe berbère t) = *l'ancienne*. C'est l'ancienne Tâhart as-Suflâ d'Ibn Rustam fondée au II/VIII ème siècle, près du confluent de *wâdî* Tâhart et *wâdî* Mîna dans un site boisé à 850 m d'altitude. 'Abd al-Qâdir y a fondé une *qasaba* entre 1835 et 1841. Il en subsiste quelques pans de murs. Sur un mamelon est le cimetière de *sayyid-î* Qâda b. al-Mukhtâr où sont enterrés les ancêtres de 'Abd al-Qâdir ; tout près est la *qubba* de son père Muḥyî-d-Dîn. La *qasaba* a été détruite par les Français le 25 mai 1843. V. Daumas, 6 et passim ; Julien, 191.

§ 51 - note 47 : C'est un Juif algérien, élevé en France et parlant couramment le français ; il joua un rôle important dans les affaires algériennes de 1834 à 1837, fut *wakîl* de 'Abd al-Qâdir à al-Djazâ'ir après le traité Desmichels ; négociateur astucieux et habile, il rendit des services à 'Abd al-Qâdir auprès de Drouet d'Erlon, de Clauzel et de Bugeaud, sans pour autant négliger ses propres intérêts. Après la conclusion du traité de Tâfina, il reçut du gouvernement français une gratification de 60.000 francs et de 'Abd al-Qâdir le monopole du commerce des bestiaux ; il comparut à Montpellier, comme témoin, au procès du général Brossard ; il alla aussi à Paris comme guide et conseiller de Milûd b. 'Arrâsh qui était envoyé par 'Abd al-Qâdir auprès de Louis-Philippe afin d'obtenir une application loyale des clauses du traité de Tâfina. V. Drouet d'Erlon, passim, Damrémont, passim et Julien, passim.

§ 52 - note 48 : C'est un poème, en 35 vers, du mètre *basîṭ* et de rime *ri*, reproduit dans Muḥammad b. 'Abd al-Qâdir, *Tuḥfa*, 530-31.

§ 53 - note 49 : Gabriel Collin, dans le *Recueil des inscriptions arabes et*

Milyâna a toujours été exposée aux exactions des tribus de la plaine et de la montagne. Les Turcs leur opposaient des tribus arabes dites *ma khzan* qui, moyennant la dispense d'acquitter toute redevance fiscale, leur fournissaient des contingents armés chargés de faire régner la sécurité et de faire payer l'impôt. Ainsi, au XII/XVIIIème siècle, le *bây* 'Ibrâhîm a fait venir de la région d'al-Bayyâḍ une fraction des 'Awlâd 'Isâ ancètres d'al-*ḥadjdj* aṣ-Ṣâdiq et les a installés au *dawwâr* al-Faghâ'iliyya pour contenir les pillards B. Zugzug et 'Awlâd Mîra. Sur ce *bây*, v. infra § 120.

§ 27 - note 24 : 'Aḥ. *bây* a résisté à la conquête française plus longtemps que 'Abd al-Qâdir. Il a lutté pendant dix-huit ans, jusqu'en 1240/1848 pour mourir deux ans après, en 1242/1850. (V. Emerit, *Mémoires,* 66 ; Ḥamdân, 220 et suiv.).

§ 27 - note 25 : Ḥamdân, 220 et suiv., considère Bû-Muzrâg comme un ambitieux et un intrigant, ami du juif Bakrî qui lui facilita le contact avec le maréchal de Bourmont et sa désignation comme *'âghâ* des Français ; il qualifie (p. 245) son entreprise d'insensée quand il s'est proclamé *bâshâ* de la Régence ; v. aussi Emerit, *Mémoires,* 79.

§ 27 - note 26 : Sur la personnalité du *bây* Ḥasan b. Mûsâ, voir le jugement bienveillant de Ḥamdân, 219 ; sur sa carrière mouvementée, pleine de bruit, de fureur et de sang, voir *Thaghr,* 49-53, et surtout les détails circonstanciés dans *Dalîl,* 237 à 254.

§ 28 - note 27 : Ḥamdân, 236 et suiv., prétend que Clauzel a voulu vendre les provinces de Wahrân et de Qusanṭîna au *bây* de Tûnis moyennant deux millions de francs à payer annuellement à la France. A cet effet, il envoya deux émissaires au *bây*. Le projet de cette cession aurait été préparé par le maréchal de Bourmont. L'idée lui en avait été suggérée par Mathieu de Lesseps, consul de France à Tûnis. Ḥamdân emploie le mot de *bay'* (vente), mais fait état de redevances annuelles ! Julien, 68, présente cette affaire de façon plus pertinente et plus détaillée.

§ 29 - note 28 : V. Cour, 29 et suiv. qui reproduit le texte de cette *bay'a* en français. En tant que voisin, 'Abd ar-Raḥmân a été témoin de l'agonie du régime turc à l'est de son royaume et n'a pas peu contribué à en précipiter la fin. Il a encouragé l'agitation des Tîdjâniyya contre le pouvoir des pachas. Il se voyait sans doute, à l'instar de Yûsuf b. Tâshifîn et de 'Abd al-Mu'min, maître de la plus grande partie sinon de l'ensemble du Maghrib. Ne croyant pas à l'annexion de l'Algérie par la France, il avait, deux mois avant le débarquement de *sayyid-î* Faradj, assuré le consul de France à Ṭandja de sa neutralité et promis d'autoriser les Français, en cas de besoin, à s'approvisionner dans ses ports.

§ 29 - note 29 : Hostiles à l'obédience marocaine, Qurghalân étaient pour 'Aḥ.

bây avec qui ils ont toujours gardé le contact.

§ 31 - note 30 : Après le départ de Ḥusayin, de Bû-Muzrâg et de Ḥasan, les populations du centre et de l'ouest du pays n'avaient plus de guides ni de protecteurs dignes de confiance autres que les religieux, chefs de confréries. C'était le cas de Muḥyi. d-Dîn.

§ 32 - note 31 : De Khalîfa de 'Abd ar-Raḥmân, ce traité faisait de lui *'amir al-mu'minîn,* c'est-à-dire le chef spirituel de tout le Maghrib central et le chef temporel de tout le territoire qui échappait à l'autorité des Français. V. Cockenpot, passim et Azan, 26.

§ 35 - note 32 : V. Emerit, *L'Algérie....,* 204 et suiv. 'Abd al-Qâdir avait réuni 5.000 cavalier, 1.400 fantassins et deux canons. Sur Darqâwa, avant le débarquement de *sayyid-î* Faradj, v. *E.I.*, II, 165 : *Thaghr,* 30 et suiv., qui fournit des détails plus précis et plus circonstanciés.

§ 35 - note 33 : Bû-khurshufa était au nord de *qantarat al-bâshâ* (= le pont du Shalaf, bâti en 1230/1814), sur la rive droite du Shalaf, probablement sur l'emplacement actuel du village de 'Arîb. V. Clauzel, I, 107, en note. Les gens de la région ignorent aujourd'hui ce toponyme.

§ 36 - note 34 : Sur l'affaire 'Abû Ḥimâr, v. Emerit, *l'Algérie,* 208 et suiv. et Drouet, 562.

§ 36 - note 35 : Muḥ. b. 'Isâ l-Barkânî appartenait à la famille des religieux al-Barâkina dont l'influence était prépondérante dans l'importante tribu de B. Manâṣir de la région de Sharshâl. C'est lui qui élèvera, en 1839, à Bû-ghâr, un fort rectangulaire armé de canons, avec une manutention, des fabriques de *barnûs,* des fours, de vastes silos, une boulangerie, des entrepôts de soufre, un hôpital, etc...

§ 36 - note 36 : V. Drouet, 511 et suiv. Compte-rendu de Trézel à Drouet sur six pages : le colonel Oudinot chef d'escadron des lanciers tué ; bon nombre de blessés ; deux caissons des équipages brisés... les enveloppes des cartouches de l'Emir portent «Toulon» et les millésimes 1832 et 1833... 52 tués, 189 blessés... dont plus de 100 ne pouvaient marcher... dans les effectifs, il y avait trois compagnies polonaises, la Légion Etrangère, un bataillon italien... les pertes se sont finalement élevées à 262 tués et 308 blessés... Oppressé par le poids de la responsabilité, Trézel écrit : «Je ne puis ni ne veux, après un pareil échec, conserver le commandement qui m'a été confié... je me soumettrai sans murmure au blâme et à toute la sévérité que le gouvernement du Roi jugera nécessaire d'exercer à mon égard...». Drouet d'Erlon, 530, juge Trézel : «... un petit général ambitieux... poussé par l'envie d'avoir les trois étoiles et de faire parler de lui, s'avisa de... attaquer un chef arabe... qui le bat

(républicains) en opposition à *malakiyyûn* (monarchistes) qu'ils appliquent au régime de B. 'Umayya et de B. l-'Abbâs. Voir Dabbûz, III, 539, qui s'efforce de refuter la thèse de Mubârak al-Mîlî in *Ta'rîkh al-djazâ'ir*, II, 33, 1ère éd. al-Djazâ'ir s.d.

§ 16 - note 12 : Il y a hésitation sur la date exacte de son avènement. V. *E.I.*, III, 1270 et Dabbûz, III, 584 qui le fait naître vers 181/791 et le fait régner de 241/855 à 281/892.

§ 16 - note 13 : Ya'qûbî avait des attaches particulières avec B. 'Idrîs. Ce fut son père Wâdiḥ, gouverneur d'Egypte, qui facilita le passage d'Idrîs 1er en fuite vers le Maghrib. Lui-même avait les Khawâridj en horreur. Il les voyait partout dans les cités du Maghrib. V. son *k. al-Buldân*, 13 ; trad. fr. *«Les Pays»*, 216.

§ 17 - note 14 : Voir *'Ibar*, VI, 312, qui donne sa généalogie d'après Ibn an-Naḥwî, historien andalou : Sanâk b. Wâsifâq b. Djibrîl b. Yazîd b.Wâsilî b. Samlîl b. Dja'far b. 'Ilyâs b. 'Uthmân b. Sakâd b. Malkân b. Karat b. Ṣanhâdj «un beau mélange de noms arabes et berbères.

§ 21 - note 15 : Des détails particulièrement circonstanciés sur B. Ghâniya sont dans *'Ibar*, VI, 390 à 409.

§ 21 - note 16 : Cette orthographe, qui correspond à la prononciation actuelle, est celle d'Ibn Khaldûn, *'Ibar*, VI, 406, et n'a rien à voir avec les transcriptions fantaisistes qu'on lit sur la route nationale d'al-Djazâ'ir à Wahrân : Wâd Djar, Wâd al-Djîr, etc...

§ 21 - note 17 : Sur la lutte d'Abû Zakariyâ', l'ancêtre de B. Ḥafs, contre Yaḥyâ b. Ghâniya avec le concours de 'Alî b. Mathkûd et sur la mort de Mandîl b. 'Abd ar-Raḥmân dont le cadavre fut mis en croix et exposé sur le rempart d'al-Djazâ'ir en 623/1225, v. *'Ibar*, VI, 406, qui note ce détail : «Yaḥyâ avait envoyé ses filles chez Abû Zakariyâ', à Tunis, où elles ont séjourné à Qasr al-Banât !».

§ 23 - note 18 : V. *'Ibar*, VII qui décrit la fuite rocambolesque d'Abû 'Ali par les souterrains de la ville pour chercher refuge chez 'Awlâd Ya'qûb, branche de 'Aṭṭâf.

§ 24 - note 19 : «Après avoir rédigé son fameux testament politique recommandant à son fils aîné *dâddâ* 'Uthmân de tout faire pour vivre en paix avec B. Marîn, Yaghmurâsan tomba malade et mourut près de Milyâna». v. *'Ibar*, VII, 189 et *Ta'rîf*, 36.

§ 24 - note 20 : La lutte entre dynastes était soutenue par les chefs des tribus arabes nomades : B. 'Amir, de Zughba, pour B. 'Abd al-Wâd ; Suwayd, également de Zughba, pour B. Marîn. Contemporain de cette lutte, Ibn

Khaldûn s'y est dépensé comme diplomate. V. *'Ibar*, VI, 279 et suiv.

Suwayd tire son nom de Suwayd b. 'Amir b. Mâlik b. Zughba, ce dernier étant l'un des principaux chefs de B. Hilâl arrivés au Maghrib au V/XIème siècle. Ce groupe s'est d'abord trouvé en rapport avec les premiers dynastes de B. 'Abd al-Wâd qui lui concédèrent en apanage la perception de l'impôt à Sîrât, à Baṭḥâ' et à Qal'at Hawwâra. Entrés en conflit avec leurs cousins B. 'Amir, Suwayd se rapprochèrent de B. Marîn. A leur tête était 'Abû Zayyân 'Arîf b. Yaḥyâ qui devint l'ami, le confident et le soutien d'Abû l-Ḥasan. Son fils Wanzammâr eut un comportement identique avec 'Abû 'Inân. Leurs terrains de parcours étaient entre *wâdî* Mîna et le moyen Shalaf. Qal'at Ibn Salâma, leur point d'attache, a été détruite en 771/1369 par 'Abû Ḥammû. Ils ont eu comme rameaux Falîta, Shabâna et Madjâhir dont les descendants sont toujours dans l'ouest algérien. V. *'Ibar*, VI, 95 et suiv. ; *Bughya*, 34 et suiv. ; *Musnad*, passim.

§ 25 - note 21 : Faisaient partie de Dâr as-Sulṭân :

1°) al-Faḥs ou Sâḥil avec Bû-Zarrî'a, B. Massûs, as-Saḥâwila, Bi'r al-khâdim, al-Qubba, etc... ;

2°) quatre territoires de tribus dits *'awṭân* :

a) al-Khashna avec al-'Arbi'â, B. A'isha, B. 'Amrân, al-Khadrâ', Righâya, 'Ayn Ṭâya ;

b) B. Mûsâ avec al-Ḥarrâsh, ad-Dâr al-Bayḍâ', *sayyid-î* Mûsâ ;

c) B. Khalîl avec Khazrûna, Shaffa ;

d) as-Sabt avec Qulay'a, Tîbâza, Mûzâya, Sumâta, B. Manâd, Shanwa ;

3°) la ville de Sharshâl avec M. Manâṣir

4°) Yassar avec Tadallas, Gashtûla, B. Djannâd, 'Amrâwa ;

5°) et enfin Milyâna avec Birâz, al-Ḥasham, B. Zugzug, B. Farḥ, B. Ghamriyyân, Bû-Râshid, B. Bû-duwwân, B. Bû-Khannûs.

L'ensemble était administré tantôt par l'*âghâ* des Arabes, chef de l'armée du *dây* avec sous ses ordres des *qâ'id*-s turcs eux-mêmes assistés de *shaykh*-s arabes placés chacun à la tête d'un *'arsh*. (V. Boyer. 18 et suiv. ; Julien, 9) ; tantôt par Khûdjat al-Khayl sur lequel et sur ses attributions v. Ḥamdân, 128, qui donne des détails circonstanciés.

§ 26 - note 22 : V. Haedo, 230 et suiv. ; *Thaghr*, 27, 35, n. 25, 36 ; *Dalîl*, 59 ; *Ta'rîkh*, I, 208.

§ 26 - note 23 : V. *Thaghr*, 48 et suiv., citant al-Bûzâghîtî ; *Dalîl*, 236 .

L. DO	c'est-à-dire	Lucio Do
MITIO	c'est-à-dire	Micio
AUREL	c'est-à-dire	Aurel
IANO	c'est-à-dire	iano
AUG	c'est-à-dire	Augusto (regnante)
A ZUCC.	c'est-à-dire	A Zucchabari
M.P. IIII	c'est-à-dire	Millia passurant quatuor

Dont la traduction serait : «Notre Seigneur l'empereur Lucius Domitius Aurelianus Augustus, à quatre milles de Zucchabar.

§ 6 - note 3 : Ce toponyme, aujourd'hui inconnu, a été celui d'une localité de la plaine du Shalaf, à l'ouest d'al-Khaḍrâ' (ancien nom de 'Ayn ad-Difla) fondée par Ibrâhîm b. Muḥ. b. Sulaymân plus haut nommé. Ces *shurafâ'* du III/IXème siècle fondaient des centres à vocation religieuse et commerciale, des *sûq-s*, portant leur nom. Il en fut ainsi notamment de Sûq Ḥamza (actuelle Buwayra) fondé par Ḥamza b. al-Ḥasan b. Sulaymân b. 'Alî b. 'Abî Ṭâlib. Sûq Ibrâhim pouvait être l'actuelle al-'Aṭṭâf ou Wâdî l-Fiḍḍa.

§ 6 - note 4 : Il y a loin évidemment de d à t et de k à gh mais on verra plus loin que la tribu de Maṭghara (on dit aussi Maḍghara et Madghara), selon Bakrî et Ibn Khaldûn, habitait le Maghrib central entre Milyâna et Wajda avec Matmâta et d'autres branches de B. Fâtin.

§ 8 - note 5 : Bakrî (texte arabe 61 et 69, trad. franç. 127 et 142) est seul à citer B. Warîfan comme nom d'une localité, aujourd'hui oubliée, appartenant aux Berbères Maṭghara et située au confluent de Wâdî l-Fiḍḍa et du Shalaf à l'est d'al-'Asnâm. Ibn Khaldûn cite B. Warsîfân (*'ibar* VII, 50) nom d'une branche de la tribu de Zanâta. S'agit-il de deux versions du même nom ? Ce n'est pas le seul exemple d'une localité portant le nom d'une fraction de tribu. Quelques lignes avant, Bakrî cite B. Djallîdan «jolie petite ville appartenant également à une fraction de Maṭghara». Aujourd'hui, dans la plaine du Shalaf, à quelques kilomètres à l'est de 'Ayn ad-Difla, se trouve *dawwâr* Djallîda, promu depuis peu *baladiyya* (commune) comme tous les *dawwâr-s* du pays.

§ 8 - note 6 : Voici ce qu'en dit Idrîsî : «Ville antique, bien située, abondamment pourvue de ressources agricoles ; un cours d'eau irrigue la plus grande partie de ses cultures, vergers, jardins, et fait tourner ses moulins. Les districts qui en dépendent sont, en partie, irrigués par les eaux du Shalaf.» (v. Notre éd. *«Le Maghrib au 6/12 ème d'après Nuzhat al-Mushtâq*, p. 98).

§ 9 - note 7 : Ibn Maḥshara est le premier à citer le nom de Zakkâr et à mentionner le myrthe *(ar-rayḥân)*. Aujourd'hui, à l'ouest de la ville, coule un cours d'eau appelé *wâd* ar-Rayḥân qui se jette dans le Shalaf. Le centre de Sayyid-î Lakhdar (ex. Lavarande) s'appelait jadis Wâd ar-Rayḥân. En outre,

les Milyânais ont encore l'habitude, à l'occasion des enterrements, de tapisser l'intérieur de la tombe de branches et de feuilles de myrthe. Cf. *k. l-istibṣâr*, trad. fr. 106).

§ 11 - note 8 : La station thermale dont parle Ibn Baṭṭûṭa est vraisemblablement Ḥammâm-Rîgha.

§ 13 - note 9 : Le voyageur anglais Shaw (Thomas) (1692-1751) qui fut chapelain du Comptoir Anglais d'al-Djazâ'ir et qui visita le Maghrib en tous sens, a remarqué et relevé dans la région plus d'une inscription romaine dont celle-ci :

Q. POMPEIO
C.N.F. QUIRIT CLEMENTI IA
DIIUR EX TESTAMENTO
Q. POMPEIO F. QUIR ROGATI FRATRIS SUI
POMPEIA Q.P.
MARBRA POSUIT

Et Shaw d'interpréter : «Il paraîtrait que le petit-fils de Pompée et probablement son arrière petit-fils ont été enterrés à Milyâna».

Shaw situe Milyâna à quatre cents toises au-dessus de la plaine et à deux lieues à l'est nord-est d'el-Herba... On ne trouve, au lieu d'une ville, qu'un petit village dont les maisons sont couvertes en tuiles au lieu de terrasses, suivant l'usage du pays. Maliana a cependant de remarquable qu'il est bien arrosé au nord-ouest du Mont Zeckar ; qu'il est environné de beaux jardins et de vignobles ; et enfin que la vue y domine sur les territoires des Djendill, des Matma-ta et d'autres tribus arabes jusqu'à Mé-dea. Au printemps, les dévots d'Alger, de Blida et du voisinage y viennent baiser la châsse de Sidy Youseph, le saint tutélaire de la ville... A trois lieues à l'est nord-est de Maliana et à peu près à moitié chemin entre le Chélif et la mer sont les Ham-mam ou sources de Mériga (l'Aquae Calidae Colonia des Anciens)... (suit une description détaillée de Hammâm Rîgha).

§ 14 - note 10 : De ces noms de tribus berbères, trois sont anciens : Maghrâwa, Maṭmâṭa et Sindjâs. Branches importantes de Zanâta, Maghrâwa et Maṭmâṭa ont joué des rôles de tout premier ordre dans l'histoire de l'Occident musulman. Sur Maghrâwa, v. *E.I.*, 1ère éd. III, 111 ; sur Maṭmâṭa, *ibid*, 468. Sindjâs est un rameau de Maghrâwa. Selon Ibn Khaldûn, ils étaient partout au Maghrib, en très grand nombre, coupeurs de routes, redoutables pour les cités, tous acquis au schisme des Khawâridj. (V. *'Ibar*, VII, 96-97).

§ 16 - note 11 : C'est ainsi que les publicistes 'ibâḍiyya modernes se plaisent à qualifier le régime institué par B. Rustam et se servent du mot *djumhûriyyûn*

Lamdiyya et de Milyâna, il se trouvait près du mausolée de *Sayyid-î* Yûsuf, non loin de Tîghannîf, au sud de Mu'askar, quand il fut attaqué par les chasseurs d'Afrique du colonel Morris ; la mêlée fut des plus chaudes au cours de laquelle fut tué le *khalîfa* Qaddûr b. 'Abd al-Bâqî.

Le 6 Novembre, il était au pays des Dja'âfira, à l'ouest de Sa'îda, quand il fut attaqué d'abord par le colonel Géry, ensuite par le général Tempoure à la tête de 800 fantassins, 500 chasseurs et spahis et 30 *khayyâla* autochtones. Battant en retraite, il fut poursuivi pendant cinq jours ; il avait sous ses ordres 600 hommes dont 60 cavaliers et une vingtaine de *siyyâfa* (capitaines) sans troupes ; une mêlée eut lieu qui fut finalement à l'avantage de l'ennemi ; il perdit 400 tués et 360 prisonniers ; avec les survivants il résista, procédant lui-même à un tir d'une extraordinaire précision avant d'être abattu d'une balle. Constatant qu'ils avaient eu affaire à un tireur d'élite et qu'il était borgne, les Français furent certains que c'était bien Muḥ. b. 'Allâl. L'événement fut diffusé par la presse ; la tête et les drapeaux du *khalîfa* furent portés à Tempoure pour être exposés à Wahrân, puis à Milyâna pendant trois jours, puis à Qulay'a où sa tête fut enfin inhumée près du tombeau de son ancêtre *Sayyid-î* 'Alî l-mubârak, après avoir reçu, sur ordre de Bugeaud, les honneurs militaires dûs à un brave soldat.

En lui, 'Abd al-Qâdir perdait «son plus brave et son plus dévoué lieutenant, son confident, son conseiller, son appui le plus sûr...». Ce fut pour lui un désastre presque équivalent à la perte de sa *zamâla*... L'effet moral sur les populations fut considérable... Ibn 'Allâl était celui qui avait la foi la plus ardente... l'âme la plus indomptable. Ennemi irréductible des Infidèles, il écrivait aux siens (mère, frères, fils) en captivité pour leur conseiller de se soumettre à la volonté d'Allâh, de prendre patience et de rester bons musulmans car si on retrouve toujours les parents dont on a été séparé, la vraie foi et le visage du Très-Haut, jamais ! Priez, lisez al-Qur'ân... Il n'est pas question pour moi de cesser *al-djihâd* ni de demander à la France votre libération... Il est probable que je ne recevrai plus de vos nouvelles et que je ne vous reverrai pas ailleurs que dans l'au-delà... J'ai déjà fait pour vous la prière des morts *(ṣalât al-djanâza)* et je vous donne rendez-vous dans la «demeure de l'éternité» (*dâr al-baqâ'*). On rapporte que sa vieille mère, en considérant sa tête, au lieu de verser des larmes ou de se lamenter, fit entendre un retentissant *«yû-yû»* persuadée que son fils était déjà au Paradis.

NOTES

§ 2 - note 1 : Le nom de cette chaîne de montagnes est orthographié en arabe de deux façons :

a) *Wâ-nash-rîs* chez les anciens géographes avec une première syllabe longue, une deuxième brève fermée et une troisième longue comme dans *Wâ-res-nîs* qui est la prononciation actuelle, (comme pour *Wâ-raq-lân* aujourd'hui *Wâ-reg-la)* ;

b) *Wan-sha-rîs* avec première syllabe brève fermée, une deuxième brève ouverte et une troisième longue fermée, chez les auteurs postérieurs, essentiellement dans la formation de l'ethnique Wan-sha-rî-sî qui est celui de plusieurs personnages de la littérature maghribine, entre autres :

1°) 'Abû l-'Abbâs 'Aḥ b. Yaḥyâ b. Muḥ. b. 'Abd al-Waḥîd b. 'Alî at-Tilimsânî, célèbre juriste *mâlikî* (Tilimsân, 834/1428, Fâs 914/1508) auteur de *k. al-mi'yâr al-mughrib al-djâmi' al-mu'rib 'ammâ taḍammanat-hu fatâwî 'ulamâ' Ifrîqiyya wa l-'Andalus wa l-Maghrib*, lith. Fâs, 1315/1893, en 12 volumes ; trad. franç. partielle par E. Amar dans Archives Marocaines, t. XII, Paris, 1908 ;

2°) 'Abû Muḥ. 'Abd al-Wâḥid, fils du précédent, lui aussi savant juriste, qui fut *qâḍî* et *muftî* à Fâs où il a été assassiné en 955/1548 à l'âge de 70 ans ; tous deux n'ont de rapport avec Wânashrîs que leur *nisba*.

§ 3 - note 2 : Il s'agit d'une borne milliaire du temps de l'empereur Aurélien (270-275 après J.C.) découverte dans la région par Aussone de Chancel et portant les abréviations suivantes :

D.N.	c'est-à-dire	Domino nostro
IMP	c'est-à-dire	Imperator

10 avril 1833). Au général Voirol, commandant par intérim, il écrivit deux lettres : le 26 avril 1833, pour rappeler les services qu'il avait rendus à la cause française avant et après sa nomination par Berthézène et pour dénoncer les méfaits de la politique de Rovigo ; le 16 juin 1833 pour protester de ses vertus et de son comportement d'homme de religion... et pour s'indigner en même temps de ne pas recevoir de réponse à sa correspondance... (v. Voirol, passim).

Dans un rapport du 6 juin 1833, Voirol admet que l'*âghâ* dont l'influence était basée sur la sainteté de ses ancêtres et sur son entier dévouement à l'islamisme, ne pouvait employer cette influence pour consolider la puissance des Infidèles. «En recevant notre argent, ajoutait-il, il nous trahissait en secret ainsi que le prouvent plusieurs de ses lettres qu'on a saisies récemment». (v. Voirol).

Cependant, aux dires du chef d'escadron 'Abd Allâh d'Asbûn, ceci n'a pas empêché Voirol, qui était désireux de conclure lui aussi une paix comme le général Desmichels, de prendre contact avec Muḥyî d-Dîn, de tenter de faire de lui son *âghâ* et, à cette fin, de lui verser, en Juillet 1834, une forte somme d'argent.

Mais Muḥyî d-Dîn travaillait alors à se faire reconnaître comme *sulṭân* par les chefs des diverses tribus. Il faisait pratiquement campagne contre l'émir 'Abd al-Qâdir qui était apparemment en bons termes avec Voirol puisque celui-ci lui avait écrit pour lui dire sa satisfaction à la suite de la conclusion du traité Desmichels, lui avait envoyé un *barnûs* d'honneur et annoncé la prochaine libération de Muḥammad (cousin de l'*âghâ*) retenu à al-Djazâ'ir depuis dix-huit mois, libération souhaitée par 'Abd al-Qâdir (v. Voirol).

Comment Muḥyî d-Dîn est-il passé au service de 'Abd al-Qâdir ? Il avait observé que, depuis le début de l'année 1835, les populations de la région de Milyâna (B. Manâd, Sûmâta, B. Manâṣir, Shanwa, Mûzâya) s'étaient ralliées à l'émir et avaient même écrit à Voirol, le 24 mai 1834, une lettre signée par leurs notables qui était un véritable manifeste. Plutôt que de s'opposer à ce courant d'opinion, il prit contact avec 'Abd al-Qâdir et lui demanda de le nommer *khalîfa* du Tîṭrî, poste auquel Drouet d'Erlon voulait aussi le nommer comme *khalîfa* français (v. Drouet d'Erlon, 303). Finalement 'Abd al-Qâdir le nomma *khalîfa* de Milyâna.

ANNEXE III

133. Quant à Muḥammad b. 'Allâl, on ne sait à peu près rien de sa vie antérieure à son accession au poste de *khalîfa* de 'Abd al-Qâdir à Milyâna. On le dit neveu de Muḥyî d-Dîn. Ne serait-il pas le fils de 'Allâl cousin de Muḥyî d-Dîn ? 'Allâl qui a été incarcéré par Rovigo et qui a été libéré en Juillet 1833 par Voirol sur intervention de 'Abd al-Qâdir. Où et quand est né Ibn 'Allâl ? On ne le sait pas davantage. A Qulay'a ? A Milyâna ? On sait seulement que son père est mort à Milyâna, qu'il a été enterré près du mausolée de *Sayyid-î* 'Ah. b. Yûsuf et que sa tombe a été détruite parmi d'autres par l'armée française. Cette précision est donnée par le docteur Lebrun Aquilas (v. supra).

Quel fut son rôle après la prise de Milyâna ? Et quel fut son sort ?

Le 28 Janvier 1843, il se trouvait chez 'Awlâd 'Antar près de Bû-ghâr quand le Duc d'Aumale, qui exerçait le commandement à Lamdiyya, lui enleva ses 28 tentes ; ce jour là, tenant compte de la faiblesse de ses moyens, il préféra refuser le combat plutôt que de faire front.

Le 16 Mai, le même Duc d'Aumale surprit la *zamâla* de 'Abd al-Qâdir à Ṭâgîn, dans le haut Shalaf, une agglomération de 30.000 âmes, administrée par un *khalîfa*, Qaddûr b. 'Abd al-Bâqî ; la famille d'Ibn 'Allâl y fut capturée parmi d'autres et transférée en France ;

Le 24 Juillet, il était au sud de Wânashrîs avec son collègue al-Barkânî à la tête des garnisons de Lamdiyya et de Milyâna pour faire face à Bugeaud en personne ;

Le 26 Août, à l'ouest de Sa'îda, la cavalerie de la Moricière, au cours d'une attaque surprise, réussit à s'emparer de sa tente et de celle de 'Abd al-Qâdir ;

Le 22 Septembre, avec environ 550 cavaliers et le reste des bataillons de

d'énergie, et son fils al-Ḥusayn, pendant qu'à l'ouest le fils de Bû-muzrâg multipliait ses raids contre les Français. Pour faire front, Berthézène pensa qu'il fallait, d'une part, «combattre le fanatisme par ses propres armes» (c'est son expression) et tenter, d'autre part, un rapprochement avec les notables «modérés». A cet effet, il décida d'offrir le poste d'*aghâ* des Arabes à quelque *«marabet»* qui, «par sa naissance, son caractère saint et ses alliances puissantes... devait exercer une grande influence sur l'esprit des tribus...». C'était alors le profil de Muḥyî d-Dîn qui était au surplus chaudement recommandé par de nombreux notables d'al-Djazâ'ir et de Mattîdja ralliés à la cause française.

Le poste d'*agha* des Arabes avait été occupé du 8 juillet 1830 au 7 janvier 1831 par un citadin d'al-Djazâ'ir, Ḥamdân Abû Rakâ'ib (vulg. Bû-rkâyeb) b. 'Amîn *as-sikka* qui a été révoqué par Clauzel, exilé à Paris où il épousa une lavandière française et où il mourut en 1250/1834. Il fut remplacé, du 18 Février à Juillet 1831, par un Français, le chef de gendarmerie Mendiri, grand prévôt de l'armée (que Julien, 81, appelle «*aghâ* fantoche»).

La fonction avait été instituée par les Turcs et son titulaire avait pour mission d'administrer *«Dâr as-Sulṭân»* avec des prérogatives comparables à celles d'un *bây*. Désormais il devait seulement veiller aux relations entre vainqueurs et vaincus (un directeur des affaires indigènes avant la lettre).

Avant d'accepter la proposition, Muḥyî d-Dîn hésita plusieurs jours, puis posa deux conditions : 1°) un traitement de 70.000 francs par an ; 2°) maintien des Musulmans et des non-Musulmans dans leurs zones respectives. Berthézène accepta ces conditions, reçut le nouvel *aghâ* en grande pompe et signa sa nomination le 24 janvier 1831.

Muḥyî d-Dîn eut un *khalîfa*, Ḥammîdû, un *khûdja*-comptable Qaddûr b. Turkiyya, un peloton de cavalerie, deux résidences, l'une à Qulay'a l'autre à Bulayda. Ses fonctions dureront onze mois, quatre avec Berthézène et sept avec Rovigo. Durant les quatres premiers mois, les engagements furent, semblent-ils, assez bien respectés et les rapports entre Berthézène et Muḥyî d-Dîn, confiants et corrects. Avec Rovigo il en fut autrement.

«Nommé le 6 décembre 1831, cet ancien ministre de Napoléon Ier avait gardé de son passage mémorable à la direction de la police impériale l'habitude du renseignement fourni par des agents secrets, le mépris des garanties légales et de la vie humaine... Par des mesures policières, il s'ingénia à humilier son *aghâ* et, tout en le maintenant en place, à affaiblir son prestige et son autorité...» (Julien, 92).

Les dix-huit lettres de Muḥyî d-Dîn et les sept réponses de Rovigo montrent bien le complexe de l'un et de l'autre.

Très sûr de lui, dénué de scrupules, Rovigo ne voit en son *aghâ* que

«l'indigène de service». Dans une lettre de janvier 1832, il le traite de «brave homme et de fidèle français»; en mai, il le dénonce à son ministre en ces termes : «Il n'est bon à rien ; c'est, dans toute la force du mot, un moine prédicateur qui me déclare que sa religion lui défend de combattre et même de sévir. Assurément c'est payer trop cher des sermons que même les Arabes n'écoutent pas... J'ai saisi l'occasion de le réprimander vivement. Il est indolent de nature et, par dévotion, il a horreur de la sévérité... «(Rovigo, passim).

Muḥyî d-Dîn, lui, savait que sa marge de manœuvre était étroite et qu'entre le vainqueur qui ordonnait et le coreligionnaire qui ne se considérait pas encore comme vaincu et qui n'entendait pas obéir, son rôle était des plus difficiles. Faire semblant de servir l'un et mettre en garde l'autre n'était pas chose aisée.

Estimant que sa mission était trop délicate, il avait, dès novembre 1831, offert sa démission à Berthézène qui lui manifestait pourtant des égards. Comment et pourquoi a-t-il repris du service avec Rovigo ? Selon lui, ce fut Rovigo qui le lui demanda par une convocation dans laquelle il lui laissait croire qu'il confirmerait les conditions initialement convenues avec Berthézène. Mais Rovigo prétend que ce fut Muḥyî d-dîn qui vint le voir accompagné de vingt-deux notables des tribus avec lesquels s'engagèrent des entretiens pendant dix jours.

Mais Muḥyî d-Dîn se savait soupçonné, surveillé et dénoncé. Trois fois il offrit sa démission à Rovigo et trois fois elle lui fut refusée. Au moins d'Août 1832, il lui présenta la dernière lettre de démission motivée expressément par : a) l'extermination des 'Awfiyya, petite tribu des environs d'al-Ḥarrâsh, extermination décidée et présidée par Rovigo en personne au printemps 1832 pour des prétextes vains comme l'a souligné Bertézène a posteriori ; b) par l'arrestation ordonnée par Rovigo de deux de ses cousins, 'Aliâl et Muḥammad, arrestation considérée par lui comme une offense gratuite ; c) par toutes sortes de mesures de spoliation et d'oppression prises par Rovigo et qui avaient mis toute la Mittîdja en effervescence : incarcération du *qâḍi* et du *muftî* d'al-Djazâ'ir, amende collective de 200.000 *boudjous* infligée aux habitants de Bulayda et de Qulay'a pour une échauffourée qui avait éclaté à Bû-Fârîk le 10 Octobre 1832. En plus de cette lettre, Muḥyî d-Dîn en écrivit plusieurs autres à Paris ce qui mit Rovigo dans l'obligation de se justifier auprès de son ministre alors qu'il était déjà atteint de la maladie dont il allait mourir.

Muḥyî d-Dîn, lui, s'était retiré dans les montagnes, chez B. Manâd, et avait commencé à prêcher *al-djihâd*, interdisant tout commerce avec les infidèles (plus de chevaux, plus de laine, etc...), ne laissant rien passer ; il entra même en relation avec 'Aḥ. *bây* de Qusanṭîna (v. lettre du général d'Avizard du

andalous. Il lui fallait gagner son pain. Pour cela, il ne put que s'engager comme *khammâs* chez un propriétaire foncier appelé 'Ismâ'îl b. Muḥ. Pour les labours, il lui fallait conduire, aux aurores, un attelage *(zawîdja)* de deux bœufs aux champs. Mais là, au lieu de tenir le mancheron et de guider l'attelage, il s'abandonnait à la somnolence et à la rêverie et laissait les bœufs aller à leur guise avec la charrue tandis que des perdrix venaient l'épouiller et se rapaître de sa vermine. A la fin de la journée, sa tâche était accomplie sans le moindre retard. Témoin de ces deux faits surnaturels, 'Ismâ'îl en fut stupéfait et s'empressa d'aller lui faire part humblement de son souhait d'être compté parmi ses adeptes, sûr qu'il avait affaire à un saint.

'Alî était donc *mubârak* (gratifié de la *baraka*, l'effluve sacré d'Allâh). Sa renommée se répandit dans Mattîdja dont les habitants affluèrent chez lui avec leurs offrandes. Il fonda une *zâwiya* où des disciples vinrent de plus en plus nombreux apprendre al-Qur'ân, la théologie et les sciences religieuses *(al-fiqh)*. Qulay'a acquit la réputation d'une ville sainte et fut longtemps appelée al-*Madîna*. Elle était visitée même par les pachas d'al-Djazâ'ir. C'est là que proliféra la famille de *Sayyid-î* 'Alî *l-mubârak* dont le tombeau, depuis sa mort, attire toujours, à l'occasion de pélérinages périodiques, les foules de Mattîdja et des montagnes environnantes : Shanwa, Ḥadjdjût, Mûzâya, B. Manâṣir, B. Manâd, Sûmâta, Rîgha, Bû-Ḥalwân, etc..., rassemblement commodes pour le contrôle.

ANNEXE II

132. Muhyî d-Dîn est sans doute un descendant de *Sayyid-î* 'Alî *l-mubârak*, à la cinquième ou sixième génération. On ne connait pas sa date de naissance exacte mais les Français lui ont donné en 1248/1832 entre 42 ou 43 ans. Il serait donc né entre 1204/1789 et 1205/1790. Il était surnommé aṣ-Ṣaghîr pour le distinguer d'un autre Muḥyî d-Dîn plus ancien et descendant lui aussi de *Sayyid-î* 'Alî *l-mubârak*. Sur sa vie avant 1246/1830, on ne sait rien, sinon qu'il jouissait d'un certain crédit auprès des autorités ottomanes d'al-Djazâ'ir. Il a dû passer son enfance et sa jeunesse à Qulay'a, près de la *zâwiya* ancestrale et y recevoir sa formation «d'homme de religion n'ayant pour armes que la parole et l'exemple» comme il le dit un jour au Duc de Rovigo.

Devenu adulte, il a dû avoir une situation matérielle des plus confortables. Elle lui a permis, lors de l'expédition punitive de Clauzel contre Bû-muzrâg (17 novembre - 1er janvier 1831), de fournir 200 mesures d'orge pour la cavalerie française et, par la suite, d'en fournir autant pour celle de Berthézène. Dans son désir de plaire aux *Naṣâra*, il poussa la complaisance jusqu'à se mettre en tête des notables de Qulay'a pour offrir des vivres aux soldats de Berthézène qui traversaient la ville à la fin d'une «course» faite à l'ouest de Mattîdja. Berthézène considéra avec une particulière satisfaction ce comportement du *«marabet»* ainsi que la scène du topographe français qui, en toute sécurité, était resté plusieurs heures sur le minaret de la mosquée pour rectifier certaine opérations géodésiques.

Le *marabet* avait décidément ses idées sur la nouvelle situation du pays et, comme beaucoup d'autres notables, surtout les citadins *(ḥaḍar)*, cherchait à s'en accomoder. Cependant *al-djihâd* faisait rage à l'est de Mattîdja, prêché par *Sayyid-î* s-Sa'dî, un religieux descendant de religieux de Kabylie et conduit par Ḥâdjdj Muḥ. b. Za'mûn, un *qâ'id* octogénaire de Falîsa û Mallîl, plein

qu'un verger ou un vignoble s'élèvent tantôt des immeubles collectifs, tantôt de belles villas entourées de verdure. En quelques années, des efforts appréciables ont été accomplis dans le domaine de la construction. Récemment, les pouvoirs publics ont approuvé un projet d'extension de la ville à l'est et à l'ouest.

L'avenir de Milyâna sera-t-il industriel ? Il est permis de l'envisager. Aux industries existantes (marbreries, matériels sanitaires, limonaderies) viendra-t-il s'en ajouter d'autres (miroiterie, petite mécanique, menuiserie, jouets, etc...) qui, en augmentant la main d'œuvre laborieuse, accroîteraient en même temps la prospérité du commerce local et celle de la ville tout entière ? L'esprit d'entreprise de la jeunesse milyânaise permet de l'espérer.

Telle qu'elle est, Milyâna possède suffisamment de charme pour retenir le touriste. Sa position privilégiée, entre la plaine du Shalaf et la plaine de Mattîdja lui a toujours valu une grande importance stratégique. Elle est aussi un centre d'excursions vers des sites aux aspects les plus divers : forêts de chênes-lièges, de chênes verts, de cèdres, de sycomores, de merisiers à 'Ayn an-Nusûr, gorges abruptes, vallées verdoyantes de la région, toutes les beautés et tous les contrastes de la nature réunis en ce petit coin d'Algérie.

ANNEXE I

131. SAYYID-Î'ALÎ AL-MUBÂRAK *waliyy* al-Qulay'a. Il est originaire de la tribu des Ḥasham. Que signifie ce vocable ? Dans la langue arabe courante, le substantif «*ḥasham*» (sing. *ḥushma et ḥashama*) désigne l'entourage, la suite de quelqu'un, sa famille, ses esclaves, ses voisins qui prennent fait et cause pour lui en cas d'épreuve. Il est devenu un nom propre désignant une tribu arabe du Maghrib central. Confondant à dessein avec Hâshim, le nom de l'ancêtre du Prophète, cette tribu s'est voulue apparentée au Prophète. Or Muḥammad b. 'Abd al-Qâdir, 217, n'est pas de cet avis ; il assure que c'est un «ramassis» *('a khlâṭ)* de tribus qui furent des serviteurs *(khuddâm)* de B. Zayyân, rois de Tilimsân. Son père et son grand-père ont vécu parmi eux sans avoir de parenté avec eux. Sayyid-î 'Alî al-Mubârak est de cette tribu. Il serait né en 954/1556 et il est mort en 1040/1630. On ne sait rien de son ascendance et rien de sa vie dans la région de Mu'askar.

Vers 1009/1601, à l'âge de 45 ans, il serait venu en haillons à Qulay'a, ce fortin que Hasan b. Khayr ad-Dîn Barberousse avait fait construire en 957/1550 sur une colline du Sâḥil, à 40 km à l'ouest d'al-Djazâ'ir pour la surveillance des tribus belliqueuses de Mattidja.

Près de ce fortin avaient été installées des réfugiés andalous chassés d'Espagne par les Rois Catholiques. Ils avaient la réputation d'hommes de culture et de piété si bien que la nouvelle agglomération devint, pour un temps, un pôle d'attraction pour ceux qui recherchaient le savoir. C'était le cas de 'Alî. Il fit le voyage avec deux compagnons qui préférèrent, eux, s'arrêter dans la région de Milyâna où ils firent souche et laissèrent comme descendants les Ḥasham actuels du bord du Shalaf, notamment 'Awlâd al-'Abbâs, ash-Sha'â'ira, etc... non loin de Khamîs-Milyâna.

'Alî, lui, n'avait qu'un but et y tenait : s'instruire auprès des maîtres

que le *qâḍî*, dit le journal *al-Ahkbâr* du 17 mai 1904».

Le juge de paix Dupuy fut révoqué et condamné pour toutes sortes d'infractions, par contumace, et termina sa vie l'étranger.

Le Procureur de la République Parisot devint conseiller à la Cour d'Appel de Dijon.

Le Procureur de la République Cochard devint conseiller à la Cour d'Appel de Montpellier.

L'avocat général Rack devint procureur de la République au Mans.

Le juge Ebert eut un «blâme sévère» par ordre du Ministre de la Justice et par l'intermédiaire du Procureur Général Flandin.

Le Procureur Général Flandin devint député de l'Yonne en 1893, puis sénateur en 1904, ministre en 1936 et joua un rôle important au Parlement comme promoteur de la réforme de la justice en Algérie.

129. Tous ces enfants de Milyâna sont aujourd'hui oubliés ou presque.

Certes ils n'ont pas dominé leur siècle comme Abû Madyan (526/1126-595/1198), Ibn Khaldûn (732/1332-784/1381) ou *Sayyidî* A.b.Y pour ne citer que ces trois exemples célèbres entre tous. Cependant ils ont occupé, tant au Maghrib qu'au Mashriq, une place honorable. C'est pourquoi il a paru normal de les présenter ici avec autant de détails que possible et de les tirer ainsi de l'oubli auquel la postérité les a condamnés.

CONCLUSION

130. Bourgade berbère, phénicienne ou romaine avant l'Islâm, centre administratif et militaire à l'époque arabe et turque, sous-préfecture pendant la période coloniale, devenue en 1382/1962 siège d'une *dâ'ira*, Milyâna ne semble aujourd'hui avoir d'autre couronne que la verdure de ses jardins, de ses vergers et de ses boulevards qui, au milieu du XIXème siècle, ont remplacé ses remparts turcs. C'était, en effet, une ville fortifiée. De ses mosquées, une seule, celle de *sayyid-î* A.b.Y., a échappé aux destructions consécutives à la conquête française.

Admirablement située, dans un endroit privilégié où la montagne surplombe la plaine du Shalaf, la ville a été de tous temps destinées aux échanges de produits agricoles : d'où l'importance de ses marchés et de ses foires dont la «fête des cerises» n'est pas la moins célèbre. La présence du sanctuaire de *sayyid-î* A.b.Y. spiritualise le paysage et attire encore aujourd'hui de nombreux fidèles venus des lointaines régions de l'ouest et du sud.

Cependant il ne faudrait pas considérer Milyâna sous le seul aspect d'une ville ancienne où ne flottent que des ombres, encore moins la traiter de «ville agonisante» ensevelie sous les cendres du passé. Milyâna est résolument tournée vers l'avenir. A côté des vieux quartiers, qui sont en cours de rénovation, il en est d'autres tout bruyants, animés d'une vie active. C'est d'abord la rue principale, la grande artère commerciale : les boutiques y sont nombreuses, bien achalandées, parfois coquettes ; l'animation y règne toute la journée et se prolonge, à la nuit, dans les cafés. C'est ensuite la large avenue qui longe le jardin public et la piscine municipale et où, trois fois par semaine, les forains, étalent une grande quantité de marchandises diverse et colorées.

Milyâna déborde aujourd'hui hardiment de l'enceinte de ses anciennes murailles. Des quartiers nouveaux surgissent dans la nature ; là où il n'y avait

Le 26 février 1891, Tirman était contraint de donner sa démission devant le Sénat et remplacé par Jules Cambon qui reçut du Président Sadi Carnot une double mission : a) prouver aux Indigènes la sollicitude de la France ; - b) reconquérir l'indépendance de l'administration.

Le 16 mars 1891, une commission de dix-huit sénateurs présidée par Jules Ferry était désignée pour enquêter sur la situation politique et sociale de l'Algérie «ce qui avait répandu une odeur de justice sur ce pays» (le *muftî* d'al-Djazâ'ir dixit).

Le 24 avril 1891, le Conseiller à la Cour Bourrouillou proposait au Procureur Général Flandin le texte amplement motivé d'une ordonnance de non-lieu «à raison de tous les faits dont le *qâḍî* était inculpé».

Le 18 juin 1891, Issac déposa un long rapport au Sénat sur «l'affaire 'Abd al-Mu'min et le 13 novembre 1891 le Sénat ouvrit le débat sur la «pétition». Isaac avait conclu à l'innocence du *qâḍî* et jugé sévèrement l'administration algérienne toute entière à la dévotion des élus. La presse française fit largement écho à l'affaire avec des titres sur les «scandales algériens».

La séance au Sénat fut longue et parfois houleuse. D'un côté Mauguin s'efforçait de réfuter le rapport d'Isaac, de l'autre plusieurs sénateurs métropolitains et surtout Pauliat lui répliquaient par des exclamations et des remarques ironiques qui le décontenançaient ou par des arguments percutants. Finalement la Haute Assemblée entérina les conclusions du rapporteur. Le *qâḍî* gagnait cette partie mais n'était pas pour autant au bout de ses peines.

A peu près un mois auparavant, exactement le 8 octobre 1891, il avait été muté d'office à Lamdiyya. La décision avait été prise sur instruction du Garde des Sceaux qui était alors Armand Fallières, le futur Président de la République. Il avait estimé «qu'à Milyâna, entre des amis ardents et des ennemis passionnés, quels que soient l'indépendance et le caractère du *qâḍî*, il ne lui serait pas possible de faire croire à son impartialité».

Ce changement n'était évidemment pas sans inconvénients pour le *qâḍî*, mais il s'inclina et exprima sa reconnaissance à ses chefs dans une lettre au Procureur Général, formulant seulement le vœu d'avoir leur approbation pour l'action en justice qu'il comptait intenter contre ses calomniateurs.

Mais Pourailly, ses acolytes et ses protecteurs ne se tinrent pas pour battus et ne tardèrent pas à contre-attaquer. Selon l'expression du *qâḍî* «ils allumèrent autour de lui les feux des procès de tous côtés» : trois procès devant le tribunal de première instance de Bulayda, un autre devant le juge de paix de Bulayda, un cinquième devant la Cour d'Appel d'al-Djazâ'ir, un sixième à Lamdiyya et un septième à Milyâna. L'infortuné *qâḍî* ne savait où donner de la tête. Il avait

constitué six avocats et avoués alors qu'il n'avait «ni le temps, ni la force, ni l'argent» pour faire face. Dans une lettre émouvante en arabe, dont l'original nous est parvenu et qui est datée du 23 Novembre 1893, il faisait part au Procureur Général de son découragement. Ses avocats et avoués attendaient leurs honoraires et des jugements par défaut étaient rendus contre lui en première instance. Il devait plus de vingt mille francs de frais depuis plus de deux ans.

Des amis de France, prenant fait et cause pour lui, avaient demandé à l'administration de lui accorder une assistance pécuniaire mais leurs démarches restèrent sans résultat et lui-même n'y croyait pas. Au Procureur Général il indiquait dans sa lettre que la solution, à son avis, consistait à faire comprendre à une seule personne, Pourailly, de mettre fin à toutes ces instances car, disait-il, «tous mes adversaires, Français et Musulmans, sont sous sa dépendance et plaident sans raison valable, seulement pour lui plaire et pour le plaisir de me nuire, m'empêchant ainsi de m'occuper de lui qui est mon seul véritable ennemi».

Cet imbroglio prit fin devant les juges, à la confusion des adversaires du *qâḍî* qui furent tous déboutés soit en première instance, soit en appel.

Reprenant courage, il leur demanda des comptes et, soutenu par le ministère public, il obtint contre eux, devant la Cour d'Appel, le 13 avril 1896, un arrêt les condamnant à quinze mille francs de dommages et intérêts pour dénonciations calomnieuses.

Tel fut le dénouement de cette pièce dont les péripéties se seront succédées durant quinze ans, de 1881 à 1896. Elle appartient à une période de l'histoire de l'Algérie sur laquelle elle fournit une information spécifique quand les libéraux du Parlement Français freinaient les abus des représentants des colons.

Que sont devenus les principaux acteurs de la pièce ? Le *qâḍî*, connu surtout sous l'appellation de Si 'Abd al-Mu'mîn, passa les dernières années de sa vie dans la tranquillité qui lui avait si longtemps manqué. Il eut sa Légion d'Honneur et mourut le 12 mai 1904 à l'âge de soixante-huit ans, laissant le souvenir d'un «juste».

Pourailly, lui, en dehors de son rôle dans la pièce, connut une vie tumultueuse. A trois reprises, le Gouverneur Général Cambon le fit révoquer pour détournement de fonds publics, mais il fut toujours réélu ; son frère et complice, receveur des Domaines, fut seul condamné par la Cour d'Assises, à vingt ans de travaux forcés. Lui-même fut publiquement flétri au Sénat comme tortionnaire du *qâḍî*. Il eut l'audace d'injurier la Haute Assemblée en réunion publique et de susciter des manifestations hostiles au passage de la Commission Sénatoriale. Tout ceci pour mourir lui aussi le 12 mai 1904, «à la même heure

Le 29 mai 1829, sans attendre les résultats de l'expertise, en l'absence du procureur de la République Robe et sans consulter son substitut Darieu de Leyritz, Ebert décerna contre le *qâḍî* un mandat de dépôt et le mit au secret à la prison de Bulayda. L'arrestation eut lieu un jeudi, juste à la fin du Ramaḍân... et tandis que la population musulmane, fatiguée par un jeûne pénible, célébrait la fête, le *qâḍî* était traîné de bonne heure à la prison, menottes aux mains, dans les rues de Bulayda, escorté par des agents de la force publique, pendant que sa famille, apprenant cette nouvelle, était affolée.

L'événement produisit dans la région une vive émotion. Un homme de cœur ne craignit pas de prendre la défense du *qâḍî* : le bâtonnier Me Mallarmé. Il n'hésita pas à menacer le procureur général de «prise à partie», s'appuyant sur l'article 75 du récent décret du 17 avril 1889 selon lequel le *qâḍî*, en tant que magistrat, n'était justiciable que des chefs de la Cour, toute la procédure suivie par Ebert étant illégale comme devait en convenir, par la suite, le 3 décembre 1890, le Grade des Sceaux, Ministre de la Justice.

Le procureur général dût ordonner la main-levée du mandat de dépôt, ce qui fut fait le 29 juillet 1889. Le *qâḍî* était libéré. Il avait purgé cinquante-six jours de détention parmi les voleurs et les assassins. L'instruction était désormais menée directement ou par commission rogatoire par le Parquet Général.

Assigné à résidence à al-Djazâ'ir, 3 rue Jean de Matha, il laissait sa famille, plus de treize personnes, à Milyâna. En son absence, le juge de paix fit, peu après, cerner sa maison par les gendarmes qui la fouillèrent de fond en comble. Le juge fit aussi interroger et fouiller, par une dame européenne, la femme et les enfants du *qâḍî*.

Ayant sollicité et obtenu du Parquet la permission d'aller à Milyâna et s'y étant rendu, le *qâḍî* fut rappelé le jour même à al-Djazâ'ir par télégramme du Gouverneur Général «au nom de la sécurité».

Oui, par ordre du Gouverneur Général car, parallèlement à l'instruction judiciaire, l'affaire était suivie de près par les hommes politiques du département qui ne se gênaient pas d'intervenir en faveur du maire auprès des autorités administratives (administrateurs, sous-préfet, préfet, gouverneur).

L'un deux, le plus important, était Alexandre Mauguin, maire de Bulayda, Président du Conseil Général d'al-Djazâ'ir, député puis sénateur ; l'autre était Letellier, député et avocat d'*al-ḥâdjdj* Ibrâhim. Ils étaient l'un et l'autre soucieux de soutenir leur collègue Pourailly, maire, puis conseiller général, qui leur servait d'agent électoral.

A un échelon au dessous était Ibn Ṣiyâm (Bensiam) assesseur indigène au

Conseil Général d'al-Djazâ'ir (nommé), commandeur de la Légion d'Honneur, beau-frère d'*al-ḥâdjdj* Ibrâhim. Ensemble ils formaient une camarilla qui soutenait Ebert dans sa malveillance et qui trouvait chez le Gouverneur Général Tirman, dont l'arabophobie était notoire, une oreille attentive.

Mauguin, accompagné de Bénichou, un banquier de Bulayda qui lui servait d'interprète, alla jusqu'à rencontrer le *qâḍî* pour lui conseiller de demander son changement en lui faisant miroiter une promotion dans l'ordre de la Légion d'Honneur. Mais le *qâḍî*, après quelques jours de réflexion, refusa pour ne pas laisser, dit-il, le champ libre à l'intrigue et à l'injustice, et ajouta : «si je suis coupable, punissez moi, mais si je suis innocent laissez moi en paix». A cette réponse, le visage de Mauguin devint blême aux dires de Bénichou qui ajouta : «Il vous prévient que vous n'aurez pas le dernier mot avec un homme de la trempe de Pourailly !».

Au fait, qui était Mauguin ? Fils d'ouvriers pauvres, il fut incorporé dans un corps de cavalerie où il servit comme ordonnance du colonel avec le grade de brigadier. A sa libération, il occupa un modeste emploi chez le libraire Roche à Bulayda, puis il eut sa petite papeterie à Bâb as-Sabt d'où il s'élança dans la politique qui fit de lui l'un des potentats de l'Algérie coloniale. C'est lui qui créa le journal «Le Tell», le plus ancien de la presse algérienne, et commandita trois autres journaux de combat.

A ce moment là le Gouverneur Général était Louis Tirman qui resta en poste de Novembre 1881 à Avril 1891. Un record de duré pour un gouverneur général. Grâce à sa souplesse d'échine devant les vrais maîtres de l'Algérie d'alors. Surnommé «Criquet d'or», il fut un humble serviteur des parlementaires. Un observateur de l'époque a pu écrire : «le gouverneur a le rôle du cheval et la députation celui du cavalier».

L'assignation à résidence et l'instruction judiciaire s'éternisant, le *qâḍî* écrivit d'abord au Gouverneur le 21 juillet 1889, puis au Président de la République Sadi Carnot le 21 septembre 1890. Il ne reçut de réponse ni de l'un, ni de l'autre.

Sur les conseils de son avocat, il s'adressa le 28 octobre 1890 à Auguste Isaac, sénateur de la Guadeloupe, premier président du *Comité de Protection et de Défense des Indigènes* à Paris, qui lui répondit sur le champ pour lui demander de plus amples renseignements et, quand il les eut reçus, lui suggéra d'adresser une «pétition» au Sénat, ce qu'il fit le 17 février 1891.

Le moment semblait favorable parce que le Parlement et l'opinion métropolitaine commençaient à regarder de près ce qui se passait dans les trois départements algériens et entendaient soustraire quelques peu les trois millions d'Indigènes à la discrétion des représentants des colons.

indûment. Frappé d'appel devant le Tribunal de Bulayda, son jugement fut confirmé le 22 décembre 1887 et un pourvoi en cassation fut rejeté le 15 juillet 1889. Mais ce jugement n'a jamais pu être exécuté. *Al-hâdjdj Ibrâhîm* avait le bras long et sa haine contre le *qâḍî* était devenue incommensurable.

La deuxième affaire concernait également une succession, celle du *bâsh-âghâ* de Djandal Bû-'lâm b. *ash-sharîfa*, Commandeur de la Légion d'Honneur, le Crésus de la région. Décédé en 1885, il laissait des immeubles à Bulayda, à al-Djazâ'ir, des exploitations agricoles de plus de six mille hectares, des bijoux, des pièces d'or, des harnachements de luxe avec broderies, une magnifique collection d'armes, des chevaux de luxe, du bétail, d'énormes réserves de blé et d'orge enfermées dans 114 silos, et comme héritiers, ses trois veuves, Meryem, Zaynab et Mastûra et trois enfants.

Avant sa mort Bû-'lâm avait désigné son neveu *al-hâdjdj* Muh. *qâḍî* de Bû-halwân pour gérer son héritage.

Comme il y avait des mineurs parmi les héritiers, le *qâḍî* avait l'obligation de s'immiscer dans l'affaire. Au préalable, il demanda au Procureur Général de l'en dispenser, mais il lui fut répondu sèchement qu'il n'en était pas question et qu'il devait s'acquitter de ses obligations professionnelles. Alors il se transporta sur les lieux où, avec l'accord de tous les intéressés, il fit dresser un inventaire de la succession et entérina les dernières volontés du *de cujus*.

Deux mois après, s'étant aperçu que la gestion d'*al-hâdjdj* Muh. était déplorable et qu'il était au surplus criblé de dettes, il prit sur lui de le révoquer et de le remplacer par un petit-fils du *bâsh-âghâ* appelé Ben-Yûsuf.

Pourailly se tenait au courant de tous les fait et gestes du *qâḍî*. Il recevait oralement ou par écrit des rapports des fonctionnaires locaux (commissaire de police, juge de paix, administrateurs) aux yeux de qui le *qâḍî* était un fanatique hautain, distant, fin, rusé, trop bien avec les Indigènes, méprisant pour les Européens, comploteur contre la France, ennemi des transactions immobilières entre Européens et Indigènes et du travail des musulmans chez les Européens mais contraignant ces mêmes musulmans à travailler gratuitement chez lui, sans parler de son attitude hostile lors de l'insurrection du sud-Oranais. «Si ce mouvement se propageait dans la contrée, dit l'officier de gendarmerie Joly, le premier Indigène que je ferai arrêter sera le *qâḍî* !». Dans tout ceci, pas le moindre fait précis, mais des affirmations gratuites d'inspiration raciste.

Mais Pourailly avait un auxiliaire plus efficace : son adjoint *al-hâdjdj* 'Ibrâhîm qui arrivait à susciter des plaintes sur de prétendus passe-droits en justice et à faire accuser le *qâḍî* de prévarication, de rapacité et de spoliation des biens des mineurs.

Il ne restait plus au maire de Milyâna qu'à patauger dans cette boue, ce

qu'il fit avec une remarquable persévérance, en écrivant lettres sur lettres aux autorités supérieures, Gouverneur Général, Préfet, Procureur Général, pour provoquer, sur la conduite et la gestion du *qâḍî*, des enquêtes et des inspections.

Il y en eut neuf, échelonnées sur sept ans, de 1882 à 1889, mettant en branle les Parquets de Bulayda et d'al-Djazâ'ir : le substitut Eugène Robe, le juge d'instruction Ebert, les procureurs de la République Parisot, Cochard et Zill des Iles, les avocats généraux Rack, de Moiron et Wurtz, le conseiller à la Cour Bourrouillou, les procureurs généraux Maillet et Flandin, sans compter les juges de paix de Milyâna Chesnard de Sorbay et Dupuy, et sans parler des fonctionnaires d'autorité de la région : les sous-préfets Gouin et Carles, les administrateurs de Djandal, de Hammân Rîgha et de Wâd ad-Dâliya, lesquels, en relation quotidienne avec le maire, ne furent pas les moins remuants dans cette sarabande.

Le *qâḍî* avait pour lui son intégrité et l'objectivité toute relative de certains magistrats enquêteurs et inspecteurs qui ont plus d'une fois rejeté les accusations du maire comme infondées pour reconnaître que la conduite et la gestion de Si 'Abd-al-Qâdir ont toujours été celles d'un magistrat loyal, compétent et intègre. L'avocat général Rack «terreur des personnages suspects» ne lui avait-il pas déclaré à l'issue d'une enquête : «tant que je serai ici on ne touchera pas à un cheveu de votre tête !». Le rapport du procureur de la République Cochard, pourtant gendre du sénateur Mauguin, fut tellement net à cet égard qu'il a été considéré comme «un réquisitoire contre Pourailly».

Mais, pour des raisons que la documentation ne fournit pas, Ebert s'est acharné à le perdre. Faisant toujours bon accueil aux dénonciations du maire, il a informé contre lui pendant plus d'une année avec une lenteur voulue de propos délibéré.

Avant lui, en 1881, le sous-préfet de Milyâna avait déjà proposé son licenciement ou sa révocation, ou tout au moins son déplacement. Les supérieurs n'ont pas retenu cette manière de voir.

Quant à Ebert, il l'invita, le 28 avril 1888 à se dessaisir de la succession Bû-'lâm et désigna à sa place le notaire Népoty, mais celui-ci ne découvrit ni malversation, ni la moindre irrégularité. Entre temps, Ebert demanda au Parquet soit une mesure de suspension, soit un congé de deux mois. Il se heurta au refus du procureur général Mallet qui désigna un premier expert, lequel ne trouva non plus aucune irrégularité.

Le successeur de Mallet, le jeune procureur général Flandin, voulant faire mieux, désigna troix experts chargés d'éplucher la gestion de la succession Bû-'lâm et de dépouiller les archives du *qâḍî* depuis sa nomination à Milyâna en 1874.

pour la bonne cause et consacrer à la défense de la religion non seulement leurs personnes, mais encore leurs familles et leurs biens... Quand l'iniquité est dans un pays, il faut le quitter et fuir la terre souillée par l'infidèle... Il est permis de tuer les chefs de la religion qui persistent à vivre sur la terre occupée par l'ennemi car y demeurer c'est renier la religion....».

Seule la version française de cette *fatwâ* est connue. Elle a été utilisée contre le fils accusé de fanatisme. Est-elle authentique ? On ne saurait l'affirmer avec certitude tant que le texte original n'aura pas été retrouvé.

'Abd al-Qâdir est né à Milyâna en 1251/1836. Il fit ses études à la Médersa qui était alors à Bulayda avant d'être transférée à al-Djazâir en 1276/1859. Il en sortit en 1280/1863 après quatre ans de scolarité. A cette date Milyâna était encore sous régime militaire, administrée par des officiers du Bureau Arabe.

A 27 ans il fut nommé *qâḍi* itinérant d'abord à Wlâd Mîra, puis à B. Manâṣir, puis à 'Arîb, puis à Rîgha et enfin, au mois d'avril 1291/1874 à Milyâna.

Là, durant sept ans, il poursuivit, sans problème, une carrière de magistrat bien noté, jouissant de l'estime de ses chefs, de celle des Européens et des Indigènes qui, tous, le tenaient pour un fonctionnaire compétent, cultivé, loyal et surtout incorruptible.

Mais, de 1881 à 1896, il se trouva subitement englué au centre d'une «ténébreuse affaire» devenue le sujet de toutes les conversations à Milyâna, à 'Ayn ad-Difla, à Djandal, à 'Ayn as-Sulṭân, à Bû-ḥalwân, à Bû-mafda' et dont les échos ont souvent résonné au prétoire de Bulayda et d'al-Djazâir, à la Direction des Affaires Criminelles (DAC) du Ministère de la Justice à Paris et dans la salle des séances du Sénat.

Comment et pourquoi ?

Un adolescent de Milyâna, orphelin de père, poursuivait ses études à l'Ecole Normale de Bû-zarrî'a pour devenir instituteur. En avance sur son époque, il avait l'intention de demander son accession à la qualité de citoyen français par renonciation au statut personnel musulman.

Il s'appelait 'Abd al-Ḥaqq Ḥâdjdj Hammû. En attendant sa majorité, il était sous la tutelle du *qâḍî*. Au quartier d'al-'Anâsir, il était propriétaire d'un jardin de trois hectares hérité de son père et contigü au verger du maire de Milyâna.

Celui-ci s'appelait Pourailly. C'était un *«frangawî»* qui, engagé volontaire pour la durée de la guerre, avait fait en 1871 la campagne de France et, blessé et démobilisé après la défaite, était venu tenter l'aventure en Algérie. Il se fixa à Milyâna où il ouvrit une pharmacie et où le démon de la politique ne

tarda pas à le prendre pour lui montrer que le chemin le plus court de la réussite était alors celui de ce qu'on appelait alors les «élections». En 1881, par 133 voix sur 200, il fut élu conseiller municipal et maire. Il commença alors une carrière politique de plus de quinze ans qu'il voulut aussi fructueuse que possible. Vite devenu propriétaire d'un verger, il le voulut plus grand et désira vivement se rendre acquéreur de celui de son jeune voisin 'Abd al-Ḥaqq.

Pour cette opération, il lui fallait le consentement du *qâḍî* 'Abd al-Qâdir b. 'Abd al-Mu'min. Mais contre toute attente, celui-ci lui opposa une fin de non-recevoir ferme et définitive parce qu'il n'avait le droit d'aliéner le bien d'un pupille qu'en cas de nécessité absolue ou pour des avantages évidents. Or, Monsieur le Maire n'avait offert que la modique somme de 150 francs payable à tempérament. C'était un prix inférieur de plus de moitié à celui des transactions dans la région.

Au reste, le *qâḍî*, pressentant la réaction du maire, avait ouvert le parapluie en consultant son chef direct, le Procureur de la République de Bulayda, qui l'avait rassuré et invité fermement à sauvegarder les intérêts du mineur.

Ce refus mit Pourailly hors de lui. Il jura tous ses grands dieux d'avoir la peau d'un *qâḍî* qui manquait à ce point de souplesse. Par quels moyens ? Par la délation, la dénonciation et la mobilisation de tous ceux, Européens et Indigènes, qui pouvaient avoir quelque motif de l'aider à atteindre cet objectif. En attendant, il fit délimiter son verger et trouva le moyen d'accaparer le cinquième de celui de son jeune voisin.

A ce moment là, le *qâḍî* avait à connaître de deux autres affaires importantes concernant des personnalités jouissant d'un certain crédit auprès des responsables de la colonisation.

En 1870 mourut *al-ḥâdjdj* 'Aḥ. b. al-Khallâdî, *qâ'id* de B. Faraḥ, à la survivance d'une veuve et d'un fils, leur laissant un patrimoine de plus de 400.000 francs-or. Au moyen de subterfuges, cette succession avait été accaparée dans sa totalité par *al-ḥâdjdj* 'Ibrâhîm b. al-Khallâdi, un parent du défunt, ancien cavalier *(ma khâzinî)* du Bureau Arabe de Milyâna, promu, grâce à Pourailly, adjoint indigène chargé spécialement de la surveillance des quartiers autochtones de la ville. C'est ici l'origine de l'immense fortune dont, contre vents et marées, a pu jouir *al-ḥadjdj* 'Ibrâhîm jusqu'à sa mort le 20 juillet 1934, âgé de plus de qutre-vingt-dix ans.

En 1885, la veuve et le fils engagèrent devant le *qâḍî* une action en récession de leur patrimoine. Le *qâḍî* redoutait d'avoir à trancher dans cette affaire. Mais, couvert cette fois par le Parquet Général, il rendit le 5 mars 1887 un jugement condamnant l'usurpateur à restituer tout ce qu'il avait pris

faire état de son érudition ce qui lui valut d'être reçu par *shaykh al-'islâm* al-Munqarî et par le premier vizir avec des égards et d'obtenir une chaire de *tafsîr*, de *nahw* et de *tawhîd*. Il fut même hébergé par Mustapha Bâshâ, le confident du sultan, peut-être pour son savoir, mais plus probablement en raison de sa qualité d'Algérien au fait de ce qui se passait alors dans son pays sur le plan politique.

Il est difficile de le suivre dans ses pérégrinations entre al-Qâhira (où il fit au moins trois séjours), Makka, Dimashq et Istanbul (où il fit au moins deux séjours).

Dans ses relations avec les grands, il ne fut pas comme tant d'autres, un courtisan flagorneur ou un versificateur élogieux. Il fut lui-même, c'est à dire un tempérament fougueux et emporté, un esprit à la répartie facile et, quand il écrivait, à la plume acérée comme le montre son épître contre Nûr ad-Dîn Ibr. al-Kûrânî qu'il traita de *zindîq* (hétérodoxe, dont l'exégèse devient un danger pour la sûreté de l'Etat et passible de la peine capitale). Il l'a intitulée *«an-nabl ar-raqîq fî hulqûm as-sâbb az-zindîq»* (la fine flèche dans le gosier du médisant *zindîq*). Mais, à cette occasion, il s'attira la réponse, aussi excessive de Muh. b. Rasûl al-Barzandjî qui, prenant la défense de Kûrânî, lui répliqua vertement : *«al-'uqâb al hâwî 'alâ th-tha'lab al-'âwî wa n-nashshâb al-kâwî li-l-'A'shâ l-ghâwî wa sh-Shihâb ash-Shâwî li-l-'ahwal ash-Shâwî»* (l'aigle qui fond sur le renard glapissant, la flèche cuisante décochée à l'amblyope qui s'égare, la foudre incandescente tombant sur le loucheur Shâwî). Et cette polémique s'est déroulée à Makka ! Les textes des deux épîtres seraient aujourd'hui à la bibliothèque de l'Université de Princeton N° 978 (U.S.A.).

On comprend dès lors le mot d'al-'Ayyâshî : «Shâwî a eu peut-être des laudateurs mais a eu davantage de contempteurs» (*Rihla*, I, 368).

Quoiqu'il en soit, à la fin de sa vie, il fut nommé (par qui ? On en sait) *'amîr al-hadjdj* (responsable de la caravane des pélerins) du Maghrib et qu'il conduisit cette caravane plus d'une fois à Makka, de préférence par mer, ce qui lui valut de mourir sur un bateau, dans la Mer Rouge, d'être enseveli d'abord à Ra's 'abî Muhammad, ensuite, grâce à son fils 'Isâ, au cimetière d'al-Qâhira qu'il avait rénové lui-même de ses derniers.

C'est, semble-t-il, à al-Qâhira que ses loisirs lui permirent de composer son œuvre qui comprend, d'après ses biographes, cinq traités de théologie, quatre traités de grammaire et un traité d'exégèse coranique. On en trouve des exemplaires manuscrits dans les bibliothèques de Ribât al-Fath, de Titwân, de Tûnis, d'Istanbul, d'al-Qâhira, de Princeton.

Un de ses traités de grammaire, dédié au sultan de Turquie Muh. IV le 19ème, (1059/1649 - 1099/1687), lui a valu une post-face élogieuse *(taqrîz)* de

Shaykh d'al-'Islâm et d'autres *'ulamâ'* ottomans.

En dialectique théologique, Shâwî était conscient que «plus d'une notion n'a pas été comprise des anciens et qu'elle attend d'être appréhendée par les modernes», mais il se défendait d'être un *mudjtahid* (un novateur spéculatif) devant les *'ulamâ'* traditionnalistes. Quand on lui demanda son avis sur le principe «qu'en spéculation intellectuelle, un seul a raison *(musîb)* alors que les gens de la Sunna comme al-'Ash'arî, ar-Râzî sont souvent en désaccord», il répondit : «je ne me mettrai pas entre les crocs de ces dragons car je ne suis pas un *mudjtahid* et si je voulais l'être, mes efforts spéculatifs ne vaudraient pas mieux que les leurs».

Ce Milyânais fut donc un savant (au sens médiéval du mot), un grand voyageur et un homme du siècle, dynamique, à égale distance du concret et de l'abstrait (v. *Ta'rikh*, II, 108 et suiv. et la bibliographie citée).

127. Au XII/XVIIIème siècle Milyâna a donné à l'Oranie un *bây* qui a exercé à Mu'askar de 1170/1756 à 1176/1762. Il s'appelait 'Abû 'Ishâq 'Ibrâhîm qui a laissé le souvenir d'un homme plein d'égards pour les savants et les religieux et qui a fait construire le *burdj* de la milice turque sur lequel il y avait l'inscription suivante : «a donné l'ordre d'édifier ce *funduq* notre seigneur 'Ibrâhîm *bây* de la province occidentale et de Tilimsân ; achevé en Ramadân 1176». Mu'askar était alors le chef-lieu de la province pendant que Wahrân était aux mains des Espagnols. Ibrâhîm mort en 1185/1771 a été inhumé sous la *qubba* édifiée par le *bây* al-*hâdjdj* 'Uthmân en l'honneur du saint 'Abd al-Qâdir al-Djîlânî et qui est contigüe à la Grande Mosquée. Il était resté *bây* pendant quatorze ans (v. *Dalîl*, 196 et suiv.).

128. Plus près de nous, dans le dernier quart du XIII/XIXème siècle, un enfant de Milyâna - celle-ci étant aux mains des Français - a beaucoup fait parler de lui en Algérie et en France. Il s'appelait 'Abd al-Qâdir b. 'Abd al-Mu'Min.

Son père avait pour echnique *(nisba)* al-'Iskandarî (donc originaire d'Egypte, plus exactement d'al-'Iskandariyya (Alexandrie), déformé dans le dialecte en Skandrî, Zgendrî et Ezzeguendrî. Il était à Milyâna avant qu'elle fut prise par l'armée française en 1840 et il a assuré par la suite les fonctions de *muftî* et de président du *madjlis*, juridiction d'appel des jugements des *qâdî*-s. Le journal *«La Vigie algérienne»* du 17 novembre 1891 lui a attribué une *fatwâ* (consultation juridique) qu'il aurait envoyé en 1841 aux *'ulamâ'* et aux notables algériens et dont voici quelques passages :

«L'ennemi s'étant emparé du pays... est-il possible de vivre sous sa loi et d'être témoin passif de ses infamies... de souffrir que l'infidélité prévale sur l'islâm ?... Les *'ulamâ'* sont les héritiers du Prophète. Ils doivent se sacrifier

4 - Quand on m'oblige, je récompense soit par de vifs remerciements, soit par une large rétribution.

5 - Quand j'accorde mon amitié, elle devient mon pain quotidien et ma boisson - et se mélange avec mon sang.

6 - Quand j'ai à me venger de quelqu'un, si haut placé soit-il, je parviens toujours à mes fins».

C'est à cette occasion que Yûsuf prit la décision de réserver l'apposition de son paraphe à un seul scribe de son choix. Ce fut 'Abd Allâh fils d'Abû Madyan de Tilimsân qui eut cet honneur et cette responsabilité. (v. *Ta'rîf*, 63, reproduisant «*al-Iklîl* de Lisân ad-Dîn b. al-Khatîb).

123. A la fin du VIII/XIVème siècle a fleuri à Milyâna un juriste du nom de 'Alî b. Makkî sur lequel on sait seulment qu'il fut élève de 'Abd ar-Raḥmân al-Waghlîsî (mort en 786/1384), éminent professeur qui a enseigné à Bidjâya, qui a formé de nombreux disciples et qui a écrit de nombreux traités de droit dont *al-Djâmi' fî l-'aḥkâm al-fiqhiyya* plus connu sous le nom *d'al-Waghlîsiyya* (v. *Ta'rîf*, 283).

124. Dans la première moitié du siècle suivant un savant de Tilimsân, 'Aḥ. al-'Ubbâdî se retira à Milyâna et y termina sa vie en 931/1524. Contemporain de la prise de sa ville natale par les Espagnols et des troubles qui ont accompagné cet événement, il se rendit d'abord au Maroc avec son père, qui avait le même prénom et le même ethnique que lui. Là ils furent tous deux bien reçus à Fâs par le sultan 'Abd Allâh al-Ghâlib (mort en 981/1572). Ils séjournèrent aussi à Marrâkush. Le fils semble avoir enseigné dans l'une ou l'autre de ces deux villes. Il eut, entre autres auditeurs, Ibn 'Askar (Muḥ. b. 'Alî) (936/1529 - 986/1578), auteur de *Dawḥat an-Nâshir* à qui il délivra une *'idjâza*. C'est par Ibn 'Askar que nous savons qu'il a terminé sa vie à Milyâna. A Tilimsân, il a écrit une biographie de Mḥammad b. Yûsuf as-Sanûsî (mort en 899/1493) (v. *Ta'rîkh*, I, 67 et II, 372 et suiv. qui s'appuie sur Ibn 'Askar, *Dawḥat*, 200-203).

125. A la fin du X/XVIème siècle a vécu à Milyâna Muḥ. b. 'Aḥ. al-Wahrânî, mort en 1013/1604, après y avoir été juge suppléant et par moments prédicateur. Il jouissait d'une bonne réputation de juriste (v. *Ta'rîf*, II, 355).

126. Au XI/XVIIème siècle, quatre autres algériens ont acquis un renom culturel à l'échelle du Maghrib et du Mashriq arabo-musulman :

'Aḥ. al-Maqqarî de Tilimsân (mort en 1041/1630) ;

Sa'îd b.'Ibr. b. Ḥammûda dit Qaddûra (mort en 1066/1655) ;

'Abd al-Karîm b. al-Faqqûn de Qusanṭîna (mort en 1073/1662).

Yaḥyâ sh-Shâwî de Milyâna (mort en 1096/1685) ;

'Abû Zakariyâ' Yaḥyâ b. Muḥ. ash-Shâwî n-Nâ'ilî l-Milyânî est natif de Milyâna mais on ne sait exactement à quelle date. On ne sait pas non plus l'origine des deux ethniques qui le rattachent l'un aux Shâwiyya, l'autre à 'Awlâd Nâ'il. On est par contre certain qu'il a fait ses études primaires à Milyâna et qu'il est allé les compléter d'abord à Madjdjâd[illegible] dans la *zâwiya* de Muḥ. b. Mḥammad b. 'Alî 'Abahlûl, ensuite à Tilimsan auprès de Sa'îd al-Maqqarî (928/1521 - 1011/1602) ; ensuite à al-Djazâ'ir auprès de trois éminents professeurs : 'Aḥ. b. 'Abd. al-Wâḥîd al-'Anṣârî s-Sidjilmâsî, savant marocain établi dans cette ville (mort en 1057/1647) ; Sa'îd Qaddûra déjà nommé, algérois d'orgine tunisienne ; et 'Isâ th-Tha'âlibî (mort en 1080/1669).

Partout il s'est attaché à approfondir l'étude des disciplines en honneur à son époque : sources du droit musulman, rhétorique *(bayân)*, logique formelle *(manṭiq)*, grammaire *(naḥw)*, tradition du Prophète *(ḥadîth)*, vie du Prophète *(sîra)*, exégèse du Qur'ân *(tafsîr)*, mysticisme.

On dit qu'il était doué d'une excellente mémoire et d'une vive intelligence mais qu'il était également habité par une ambition sans bornes.

A la mort d'al-'Anṣârî et de Qaddûra, il occupa le devant de la scène comme enseignant et comme notabilité proche du pouvoir politique.

Or, depuis 1047/1637, tout l'est du pays, jusqu'aux portes de la capitale, était secoué par la révolte anti-turque de 'Aḥ. b. aṣ-Ṣakhrî, révolte provoquée par le comportement de Murâd *bây* de Qusanṭîna. S'est-il compromis dans cette révolte ? Al-'Ayyâshî, qui l'a rencontré par la suite à Makka, le laisse supposer mais sans rien préciser (v. *Rihla*, II, 368). Toujours est-il qu'en 1074/1663 il a quitté al-Djazâ'ir pour Bidjâya, puis Qusanṭîna et 'Annâba avant de pousser plus à l'est, d'abord vers Makka pour le *hadjdj*, puis al-Qâhira où il se fit auditeur d'éminents professeurs (Bâbili, Sharâbilî, Muzâhî, etc...) pour se mettre ensuite à enseigner également dans les trois *madrasa-s* d'al-Qâhira ('Ashrafiyya, Sulaymâniyya, Sarghatmiyya).

Il eut ainsi de nombreux disciples et délivra force *'idjâza-s*. On le retrouve ensuite à Dimashq enseignant à la Grande Mosquée de B. 'Umayya, parlant devant les *'ulamâ'* de cette ville qui lui demandaient des *'idjâza-s*. Entre autres, il en délivra une, en 45 vers, à Muḥ. al-'Amîn b. Faḍl Allâh al-Muḥibbî (1061/1651 - 1111/1699), l'auteur de *Khulâṣat al-'athar fi 'a'yân al-qarn al-ḥâdî 'ashar* (al-Qâhira, 1284/1867).

Quelque temps après, il se rendit à Istanbul où il suivit les cours auxquels assistait le sultan, prenant part aux discussions. C'était pour lui l'occasion de

commentateur 'Abû 'Abd Allâh Muḥ. b. 'Alî at-Tamîmî al-Mâzarî, *qâḏî* de Qayrawân et de Mahdiyya (mort à Sûsa en 536/1142). Entre sa contribution et celle de Mâzarî, on a affirmé qu'il y a la distance qui sépare Milyâna de Qayrawân[63]! Sa réputation fut telle que le sultan 'Abû Zakariyâ' Yaḥyâ, le fondateur de la dynastie de B. Ḥafṣ (634/1236 - 647/1249) l'appela auprès de lui à Tûnis et ne résista pas au plaisir d'assister à ses leçons et aux discussions qu'elles provoquaient. On ne sait pas quand il revint à Milyâna y finir ses jours, ni à quel endroit était son tombeau (v. *'Unwân*, 109 : *Ta'rîf*, 37 et suiv.).

121. Dans la deuxième moitié de ce même siècle, s'est fait connaître 'Alî b. 'Imran b. Mûsâ 'Abû l-Ḥasan al-Milyânî, surnommé Ibn 'Asâṭîr (= le fils des légendes»). Il connaissait à fond le droit, ses sources, le mysticisme et aussi *al-ḥikma* (la philosophie) et il s'est spécialisé dans le *tawthîq* (le notariat) à Bidjâya où il faisait partie des *'udûl* (les témoins instrumentaires de justice). Séjournant toujours à Bidjâya, il devint l'un des intimes du savant de l'époque 'Abû l-Ḥasan 'Alî b. 'Aḥ. b. al-Ḥasan b. 'Ibr. al-Ḥarrâlî at-Tudjîbî mort à Ḥamât, Syrie, en 637/1239). A l'exemple de ce maître, il menait une vie ascétique, sobre, désintéressée, portant lui-même son pain au four banal et faisant ses courses au marché, ne permettant à personne de s'acquitter de cette tâche à sa place. En effet, il voulait se comporter comme le commun des mortels et non pas comme beaucoup de ses contemporains qui se croyaient au-dessus de ces «mesquineries». Le biographe al-Ghubrîni (mort en 704/1304) assure avoir entendu un de ses maîtres dire de 'Alî b. 'Imrân qu'il était, comme Aristote, le «Savant absolu» *(al-'âlim al mutlaq)*. Il avait étudié auprès de lui, avec quelques personnalités de l'élite de Bidjâya, *k. al-Ishârât wa t-Tanbîhât* d'Ibn Sinâ (Avicenne).

C'est à Milyâna qu'il termina sa vie en 670/1271 (v. *'Unwân*, 133).

122. A la même époque appartiennent trois enfants de Milyâna dont la chronique a retenu le nom :

a) 'Abû l-'Abbâs 'Aḥ. al-Milyânî, un juriste, excellent rapporteur du *ḥadîth*, qui a formé des *'ulamâ'* et dont le comportement, fait de dignité et de religiosité, lui attirait la sympathie des grands de ce monde au point qu'Abû Yûsuf Ya'qûb al-Manṣûr, sultan de Fâs, le chargea d'administrer Milyâna (voir supra § 23).

b) Son fils 'Abû 'Alî qui n'avait pas ses qualités et qui était plutôt «esclave de ses passions». Au moment où il succéda à son père, Milyâna et sa région faisaient partie du domaine de B. Ḥafṣ de Tûnis mais en même temps elles étaient convoitées par Yaghmûrâsan de Tilimsân. Cette rivalité l'incita à jouer au monarque. Mustanṣir (648/1249 - 675/1277) lui dépêcha son frère 'Abû Ḥafs 'Umar flanqué d'Abû Zayd 'Abd ar-Raḥmân b. Djâmi'î et de don Rank,

fils de Hernandez d'Aragon, à la tête d'une armée qui vint assiéger Milyâna en 680/1261. 'Abû 'Alî fut obligé de fuir et de chercher refuge dans la plaine du Shalaf, chez B. Ya'qûb, une branche des Arabes nomades, 'Aṭṭâf Zughba, qui le firent passer au Maroc. A Fâs, Ya'qûb al-Manṣûr lui fit bon accueil et lui donna en fief la ville d'Aghmât berceau de B. Ḥafṣ. Là, par esprit de vengeance, Abû 'Alî fit ouvrir les tombes des ancêtres de B. Ḥafṣ, exhumer leurs squelettes, en fit détacher les crânes et les envoya à Fâs. Cet acte ne semble pas avoir déplu à Ya'qûb dont le fils, Yûsuf (685/1286 - 706/1307), promut Abû 'Alî receveur des impôts du Haut Atlas, pays de Maṣmûda. Mais Abû 'Alî oublia de reverser au trésor le produit de ces impôts. Arrêté, il fut condamné au bannissement. Il mourut, on ne sait où, en 686/1296.

c) 'Abû l-'Abbâs 'Aḥ., neveu d'Abû 'Alî et petit-fils du premier, fut engagé comme scribe par Yûsuf ci-dessus nommé, qui lui fit écrire un jour une lettre à son fils gouverneur de Marrâkush lui prescrivant de mettre en arrestation deux *shaykh-s* de Maṣmûda, 'Alî b. Muḥ. et 'Abd al-Karîm b. 'Isâ avec leurs parents et leurs partisans et de confisquer leurs biens. 'Aḥ. al-Milyânî vit aussitôt, dans la rédaction de ce message, l'occasion de venger un de ses oncles qui avait été incarcéré, puis mis à mort par B. Ḥafṣ. Jusque là le paraphe *(al-'alâma)* du souverain qui rendait exécutoires ses prescriptions pouvait être apposé par le rédacteur du message. Donc, en 687/1307, 'Aḥ. al-Milyânî rédigea une lettre demandant au prince gouverneur, non pas l'arrestation, mais la mise à mort de ces personnes et la confiscation de leurs biens. Il confia cette lettre à un courrier express et se retira lui-même à Fâs al-Djadîd. Après s'être conformé au contenu de la lettre, le prince dépêcha son vizir auprès de son père pour lui rendre compte du déroulement de l'affaire. Atterré et pris d'une violente colère, Yûsuf fit exécuter sur le champ le malheureux vizir et fit convoquer 'Aḥ. al-Milyânî. Mais 'Aḥ. al-Milyânî était déjà chez B. Zayyân, à Tilimsân alors assiégée par l'armée marocaine. A la fin du siège, 'Aḥ. al-Milyânî passa en Andalousie où il fut bien reçu et où il mourut de sa belle mort à Gharnâṭa en 715/1324. Il fut enterré au cimetière de Bâb Ilbîra. A en croire Lisân ad-Dîn b. al-Khaṭîb, sa façon d'agir est restée, pour le corps des scribes, un sujet de honte éternelle *(«taraka-hâ shanî'at 'alâ l-ayyâm wa 'âr fî l-'aqâlîm 'alâ ḥamalat al-'aqlâm»)*. Mais elle ne l'empêcha pas de déclamer des vers fort bien ciselés et d'une remarquable outrecuidance :

1 - «La gloire est là où se trouvent mes pavillons - et la vertu est ce que recouvrent mes habits.

2 - Les fleurs sont celles qui bourgeonnent sur la tige de ma plume - et le musc est ce qui se dégage de mes écrits.

3 - Mon prestige interdit qu'on me dispute l'aiguade à laquelle je m'abreuve - et mon énergie empêche toute atteinte à ma dignité.

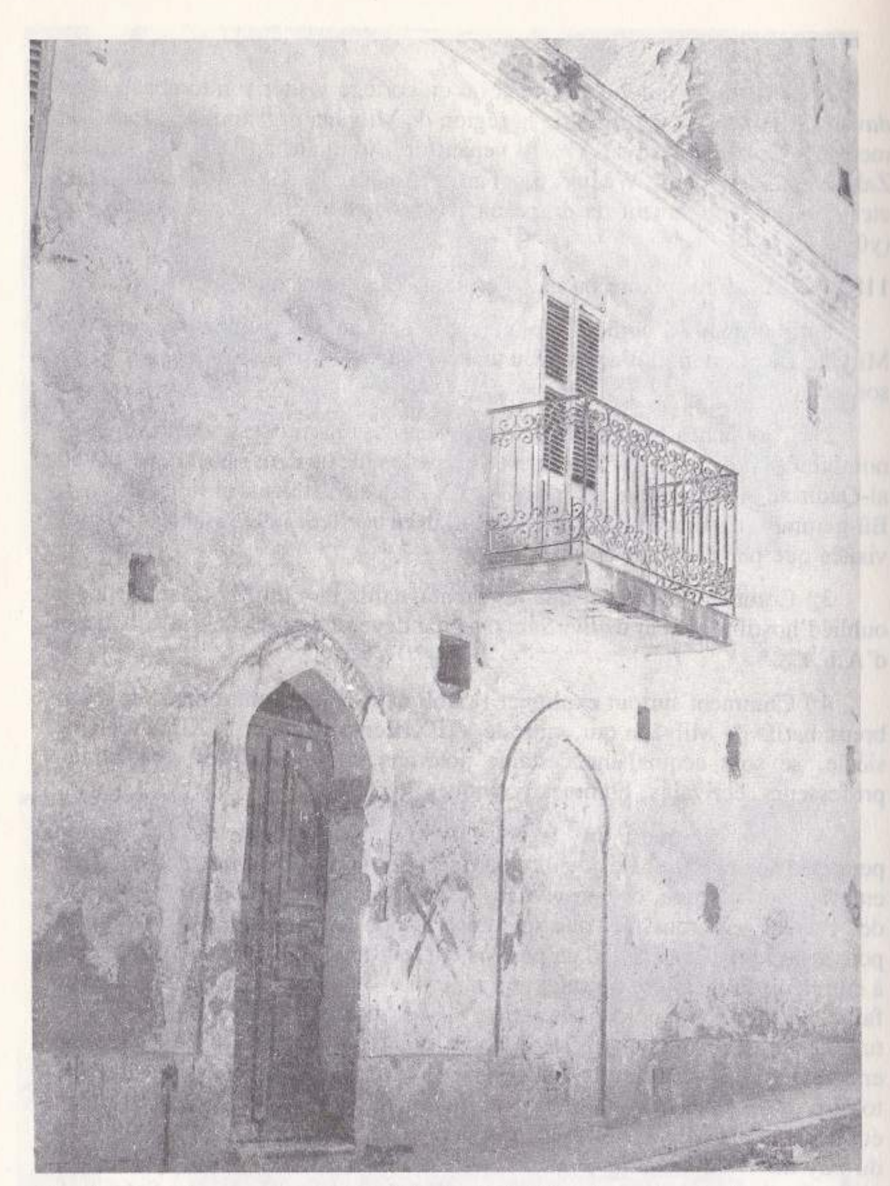
Troisième Partie

De quelques personnalités milyanaises

119. En revanche, d'autres recueils biographiques fournissent des renseignements substantiels sur des Milyânais qui se sont signalés dans le passé par une activité culturelle ou politique.

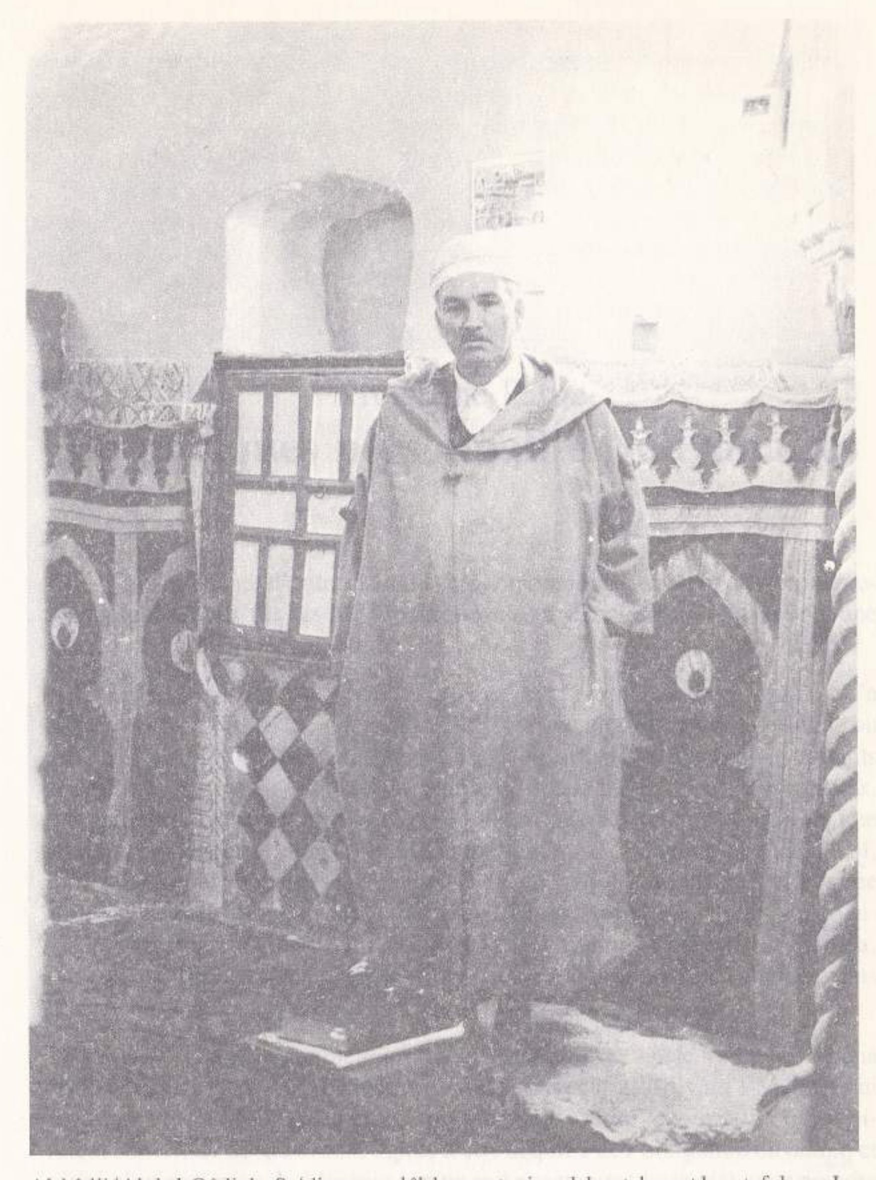
Certes, Milyâna n'a jamais été qu'une cité provinciale de garnison et n'a pas eu, comme Tilimsân, al-Djazâ'ir, Bidjâya, vocation de capitale politique ou de foyer de culture littéraire, scientifique ou artistique. Quand ses enfants pouvaient recevoir une formation primaire, il leur fallait, pour la compléter, aller ailleurs. Dans une première étape, ils se dirigeaient en général vers une *zâwiya* fondée et dirigée par Mḥammad b. 'Alî 'Abahlûl al-Madjdjâdjî, professeur réputé d'exégèse coranique et de *«taṣawwuf»*. Là, ils recevaient une sorte de propédeutique avant d'aller plus loin poursuivre des études supérieures, le plus souvent à Bidjâya, parfois à Fâs, à al-Qâhira, à Baghdâd, à Madîna. Par une contribution appréciable au patrimoine culturel arabe, quelques-uns d'entre eux ont laissé un nom.

120. Ainsi, dans la première moitié du VII/XIIIème siècle vivait à Milyâna 'Abû l-'Abbâs 'Aḥ. b. 'Uthmân b. 'Abd al-Djabbâr al-Milyânı l-Mattûsî qui mourut en 644/1246. Longtemps son tombeau a attiré les visiteurs qui désiraient bénéficier de sa *baraka*. Après s'être acquitté de l'obligation du *ḥadjdj* et visité plusieurs pays du Mashriq (on ne sait exactement lesquels) pour prendre contact avec leurs élites *(al-'afâḍil wa l-djilla)*, il se fixa à Bidjâya où il enseigna longtemps la langue arabe, le droit musulman, ses sources *(al-'uṣûl)*, le mysticisme. On dit qu'il possédait mieux que personne le traité de droit de 'Abd al-Wahhâb al-Baghdâdî intitulé *at-Talqîn* (l'initiation), alors en vogue, sur lequel il avait un point de vue personnel et qu'il a annoté de remarques des plus pertinentes et des plus subtiles, mieux que ne l'avait fait avant lui son



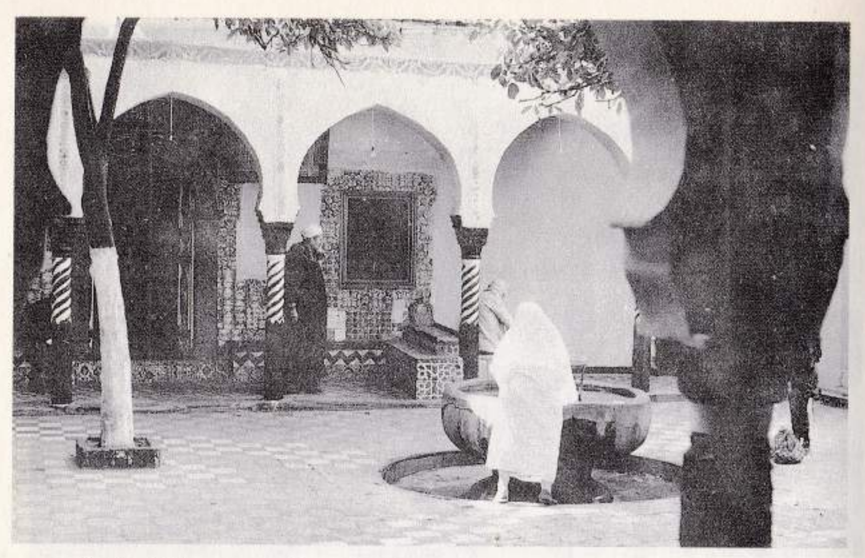
Extérieur de la demeure d'al-Hâdj Brâhîm b. al-Khallâdî, descendant du thaumaturge ; demeure contigüe au sanctuaire. A son sujet voir paragraphe 134. Photo M. Arib

منظر خارجي لدار الحاج ابراهيم الخلادي وهو من سلالة الولي وداره مماسة للضريح وفي شأنه انظر الفقرة 134. تصوير م. عريب

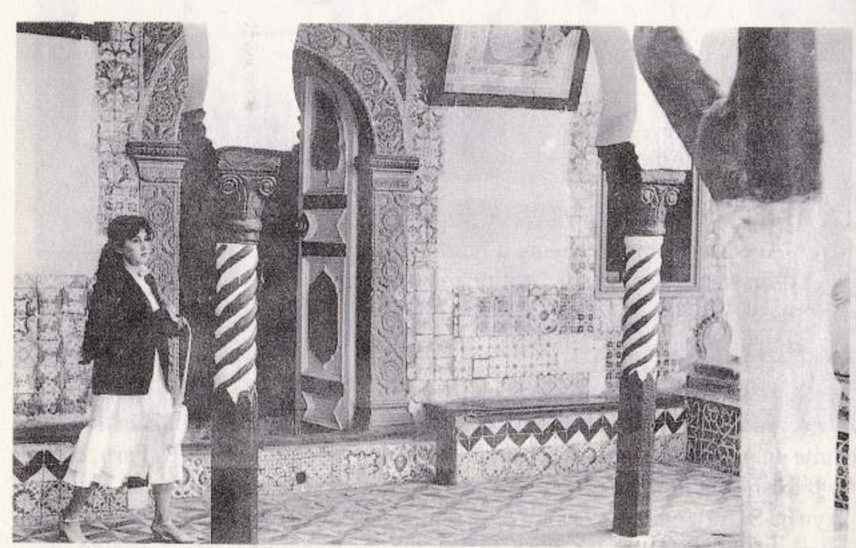


Al-ḥâdji 'Abd al-Qâdir b. Sa'diyya, *wakîl* du sanctuaire, debout devant le catafalque. Le *wakîl* n'est pas un descendant du thaumaturge. Photo M. Arib

الحاج عبد القادر بن عبد القادر بن سعدية وكيل الضريح واقف أمام التابوت. وليس الوكيل من سلالة الولي. تصوير م. عريب



En *hâyik* blanc, une Milyanaise s'abreuve elle-aussi de l'eau de la *Khâṣṣa*.
Photo A. Khelia
مليانية في «حائكها الأبيض تشرب هي الأخرى من ماء «الخاصّة». تصوير علي خلية



En tenue moderne, une jeune Milyanaise visite le sanctuaire. Photo A. Khelia
في زيّ عصري فتاة مليانة تزور الضريح . تصوير علي خلية

Tous viennent individuellement ou en cortège visiter son tombeau. Les *dawwâr-s* (fractions de tribu) de la région de Milyâna organisent périodiquement de véritables festivals *(rakb)* venant de Bû-mi'âd, ad-Dâliya, Djallîda, Zakkâr, al-Ḥammâm, Wâdjar, B. Farḥ, 'Annâb, B. Ghamriyân, Bû-ḥlâl, etc..., avec déploiement de drapeaux, fantasia, concerts, danses, *zaghârîd* (yûyû).

118. Ceci est du folkore ou peu s'en faut. Or, quatre questions se posent :

1°) Pourquoi le nom d'A.b.Y. est-il devenu inséparable de celui de Milyâna où pourtant il n'a pas vécu un seul jour et où sa mule n'a apporté que son cadavre ?

2°) Comment a-t-il pu ravaler à un niveau des plus modestes le prestige des nombreux *«sîdî»* dont le tombeau est dans cette ville ou dans sa banlieue : 'Abd al-Qâdir au sommet de Zakkâr al-Gharbî, Belhadlî, Belqâsem (intra muros), Bû-gemmîn, Bû l-efrâd, Makhfî, Sa'd Allâh en banlieue, etc... qui ne sont plus visités que par quelques femmes ?

3°) Comment expliquer que les montagnards B. Farḥ, B. Manâṣir aient oublié l'hostilité de leur *waliyy* Samyân pour devenir des serviteurs *(khuddâm)* d'A.b.Y. ?

4°) Comment surtout expliquer l'oubli dans lequel sont tombés de nombreux natifs de Milyâna qui, entre le VII/XIIIème siècle et le XII/XVIIIème siècle, se sont acquis une certaine notoriété comme juristes, magistrats, professeurs, écrivains, hommes politiques ?

A toutes ces questions, la politique religieuse du pouvoir turc fournit peut-être une réponse. Le *dây* d'al-Djazâ'ir et le *bây* de Wahrân ne pouvaient, en effet, ignorer que, de son vivant, A.b.Y. avait utilement secondé l'action des Frères Barberousse et que ses descendants, restés d'indéfectibles alliés, pouvaient les aider à étayer leur pouvoir sur les tribus. Aussi se sont-ils attachés à entretenir la mémoire du saint et à renforcer son autorité spirituelle pour en faire une sorte de pôle d'attraction susceptible de les aider à calmer la turbulence des montagnards de la Ẓahra et du Zakkâr et à freiner l'anarchie endémique des tribus de la plaine. De là la construction, sur sa misérable tombe, d'un mausolée et d'une mosquée l'un et l'autre somptueux, sans équivalent dans Milyâna et dans toute la région, construction réalisée aux frais du *bây* de Wahrân Muḥ. al-Kabîr, par un descendant du *waliyy* prénommé al-Khallâdî, ancêtre de la famille Benmîlûd de Tyût et de 'Ayn as-Safrâ'[(62)].

C'est ainsi qu'A.b.Y. a été promu *waliyy* exclusif et incontesté de Milyâna. Grâce à l'auteur du *Bustân* et aux autres biographes ultérieurs, sa vie, apparaît dans une relative clarté alors que celle des autres *«sîdî-s»* de Milyâna et de sa banlieue reste plongée dans une totale obscurité. On n'en sait strictement rien.



Vue extérieure de la mosquée de *Sayyid-î* A.b.Y. et de son minaret.
Photo A. Khélia

منظر خارجي لمسجد سيدي أحمد بن يوسف ومئذنته . تصوير علي خلية



Porte extérieure de l'édifice consacré à *sayyid-î* A.b.Y. près de laquelle se reposent et devisent des Milyânais d'âge mûr. Photo A. Khélia

الباب الخارجي من المبنى الخاص بسيدي أحمد بن يوسف وبجواره بعض المليانيين جلوس يتحدثون . تصوير علي خلية

117. De son vivant A.b.Y. n'eut pas la vigueur des «révolutionnaires» du Moyen-Age Maghribin, meneurs d'hommes, capables de renverser des dynasties et d'instaurer des régimes politiques. Il fut seulement un allié des Frères Barberousse qui ont apprécié à sa juste valeur l'appui qu'il a pu leur apporter dans leur lutte contre B. Zayyân et leurs protecteurs espagnols.

Depuis sa mort, il est resté comme une force spirituelle entretenue par ses vrais (et moins vrais) descendants qui vivent de nos jours d'abord à Milyâna, ensuite un peu partout au nord et au sud du Maghrib central : chez B. Farḥ, chez 'Awlâd ash-Sha'îr près de Barwâgiyya, dans la région de Mashriyya, au Tuwât, à 'Ayn aṣ-Ṣafrâ', chez les Zakâra de la région de Wajda, chez les Ghiyâtha de la région de Tâza, chez les Ghanânima et les Raḥâmina de la région de Marrâkush, chez les 'Aṭâwina de la Sâwira, sans parler de B. Adâs et, de 'Amr, ces bohémiens nomades, maquignons, casseurs de pierres, etc...

d'ici, répondi A.b.Y., que lorsque 'Abû Ḥammû sortira lui aussi de son palais et pour toujours[60].

Effectivement, survint peu après 'Abû Muḥ. 'Abd Allâh al-Mas'ûd dit al-Mas'ûr (l'enragé) (934/1527 - 947/1540) qui détrôna son frère 'Abû Ḥammû lequel dut fuir à Wahrân chez les Espagnols tandis qu'A.b.Y. allait fêter sa libération en passant sa première nuit de noces avec 'A'isha az-Zaghla comme il a été dit.

Allié des frères Barberousse

115. Son premier contact avec les corsaires turcs eut lieu à l'occasion d'un séjour qu'il fit au bord de la mer, à Karistal, à l'ouest de Wahrân. Un matin, il vit un bateau jeter l'ancre près du rivage et deux hommes en débarquer, 'Arûdj (c'était 'Arûdj) et un captif marocain qui lui servait de guide et d'interprète et qui l'avait engagé, dit-on, à faire cette escale pour prendre langue avec un religieux célèbre en thaumaturgie. «Je croirai à son pouvoir surnaturel, dit 'Arûdj, s'il est capable de me dire quelque chose sur mes projets. Alors je lui baiserai les pieds et lui demanderai une bénédiction». Dès l'abord, A.b.Y. lui déclara sans préambule : «Tu es donc bien décidé, ainsi que tes compagnons, à attaquer l'ennemi !». Aussitôt 'Arûdj lui baisa les pieds et reçut de lui la bénédiction qui avait, dit-on, valeur d'un serment d'allégeance *(bay'a)* (*Bustân*, 34).

Comme les autres religieux de son temps, A.b.Y. était fort bien disposé à l'égard de ces corsaires turcs, voyant en eux des correligionnaires vigoureux, déterminés et efficaces. Il savait qu'ils sillonnaient sans cesse la Méditerranée occidentale, menant une guerre de harcèlement contre les Espagnols et portant secours aux Musulmans d'Espagne, les Morisques, victimes de l'intolérance catholique. De leur côté, ces corsaires savaient que leurs meilleurs alliés dans cette lutte étaient les religieux.

Ils étaient trois frères : 'Arûdj, Khayr ad-Dîn et 'Isḥâq et, avec eux, 'Iskandar, un compagnon et ami d'Isḥâq. Leur quatrième frère 'Ilyâs a été tué dans un combat à Rûdus au cours duquel 'Arûdj a été fait prisonnier et vendu. Khayr ad-Dîn réussit à le délivrer... La course devint leur métier et valut à 'Arûdj d'être blessé et amputé de la main... Il réussit à s'établir à Djîdjal qui devint pour les trois frères une base à partir de laquelle il purent entreprendre des raids à travers le Maghrib.

A l'appel des habitants de Tilimsân, 'Arûdj passa par al-Qal'a et apprit que les Espagnols, maîtres de Wahrân, venaient s'y ravitailler avec l'accord de B. Zayyân. Il prescrivit aux habitants de cesser ce trafic. Le souverain de

Tilimsân, Abû 'Abd Allâh et ses alliés espagnols réagirent et assiègèrent al-Qal'a. 'Isḥâq, chargé de la délivrer, s'en empara et s'y installa, mais y fut à son tour assiégé pendant six mois, et finalement tué ainsi que son ami 'Iskandar accouru à son secours. Nombreux furent les *mudjâhidîn* qui périrent à cette occasion. De son côté 'Arûdj, qui avait réussi à s'emparer de Tilimsân, finit à son tour par mourir en *mudjâhid*[61].

116. Témoin de tous ces faits, A.b.Y. ne pouvait avoir que de l'admiration pour ces valeureux combattants de la foi dont il ne restait plus que Khayr ad-Dîn. Il le connaissait pour avoir déjà reçu de lui, par 'Arûdj, un message d'amitié, un présent d'une valeur de plus de 4.000 dînârs et divers objets' mobiliers de prix (*Bustân*, 214).

En guise de remerciements, A.b.Y. lui envoya ses bénédictions. En retour, Khayr ad-Dîn lui accorda une pension de huit *ṣâ'* (on ne sait de quoi) prélevés sur la recette de la capitation *(al-djizya)* qui lui étaient versés chaque année, à l'occasion du départ des pélerins pour les Lieux Saints. Ces libéralités n'empêchèrent pas A.b.Y. de lui écrire une lettre dans laquelle il faisait les réserves suivantes : «Ton pourvoir ne s'exercera ni sur nous, ni sur nos descendants, ni sur nos adeptes, ni sur les descendants de nos adeptes. Tu auras la sagesse de tenir compte de ceci, sinon tu seras sanctionné comme il se doit...» (*Ribḥ*, 168). Pour toute réponse, Khayr ad-Dîn lui fit parvenir à Mazzaghrân une lettre de remerciements.

Il semble que, d'une part, A.b.Y. faisait bon accueil aux Ottomans en tant que défenseurs de Dâr al-Islâm et que, d'autre part, il redoutait leur autorité. Il semble aussi que ses craintes étaient partagées par ses adeptes au point qu'il dut apaiser un jours les appréhensions de l'un d'eux en lui disant : «Quand les Turcs nous voyent ils fondent comme du sel dans l'eau !» (*Bustân*, 78). En tout ceci, il y a de sa part contradiction et ambiguité. Malgré tout, il restera ainsi que ses adeptes un authentique partisan des Ottomans e. ces derniers restèrent fidèles à sa personne, à ses descendants et à ses adeptes... (*Ta'rîkh*, I, 470).

Ainsi Khayr ad-dîn reçut à al-Djazâ'ir avec des égards particuliers la visite de Muḥ. Benmerzûga à qui il remit une forte somme d'argent et qu'il nomma chef de la caravane des pèlerins *('amîr al-ḥadjdj)* avec mission de remettre aux Lieux Saints le cadeau *(aṣ-ṣurra)*, devenu traditionnel, du Trésor Algérien. Cet office fut maintenu aux descendants de Benmerzûga qui se fixeront, par la suite, à Wâdi l-Ḥâmûl, dans les environs de Lamdiyya. Ils en jouiront tant que durera le régime turc en Algérie et ne le perdront que dans les remous consécutifs à la conquête française.

On dit que le dey Ḥusayn était marié avec une descendante d'A.b.Y. (*Ta'rîkh*, 470).

Vis-à-vis des gouvernants, il eut toujours l'attitude d'un homme indépendant, très sûr de soi, tenant un langage proche du défi, de la provocation et même de la menace.

113. A Fâs, des envieux l'ayant calomnié auprès du prince 'Abd Allâh al-Ghâlib plus haut nommé et présenté sa propagande comme hérétique, donc subversive, justifiant des mesures répressives, il écrivit aussitôt au monarque en ces termes : «le Seigneur - qu'Il soit exalté - m'a accordé Sa justice et a fait mon portrait d'après Ses propres attributs si bien que je suis Lui et que Lui est moi. Prince des Croyants, ne persécute pas mes *fuqarâ'* sinon ceux qui savent *(al-'ulamâ')* te confectionneront un *barnûs* de neige et t'en revêtiront en pleine canicule ; avec de l'eau, ils te feront un turban *('imâma)* qu'ils attacheront à ta tête de guingois ; avec du vent, ils te feront une chandelle ; avec du brouillard, ils te feront des mèches». A la lecture de ce message enigmatique, al-Ghâlib rassembla les docteurs de son royaume pour le lui décripter. Ils s'avouèrent tous incapables de le rendre intelligible (*Bustân*, 300, 301).

A la fin du XII/XVIII ème siècle, al-Warthîlânî reproduisit ce texte avec quelques variantes et, dans une brève épître, essaya d'en interpréter les symboles au moyen de *ḥadîth-s* et de vocables théologiques (*Rihla*, 108, 109). On ne peut affirmer qu'il y ait vraiment réussi.

114. Avec B. Zayyân, A.b.Y. eut de plus sérieux démêlés. C'est ainsi qu'au cours d'une réunion de ses *fuqarâ'*, à Wahrân, dans l'intermède des séances de chant et de danse, on échangea des idées sur le régime de Tilimsân que quelqu'un caractérisa par ces mots : «C'est un pouvoir *(salṭana)* comparable à celui des Juifs (*Bustân*, 36) ou «pire que celui des Juifs» (sous-entendu «les pires ennemis des Musulmans»). Le propos fut aussitôt rapporté à 'Abû 'Abd Allâh Muḥ. ath-Thâbitî surnommé 'Abû Qalamûs (910/1504 - 923/1516) qui ordonna à son *qâ'id* de mettre immédiatement A.b.Y. en état d'arrestation.

Averti à temps, celui-ci se rendit à Ra's al-Mâ' dont le *qâ'id* 'Aḥ. b. 'Abî Ghânim fut à son tour chargé de l'arrêter. Mais au lieu d'exécuter l'ordre du prince, il préféra conseiller au prévenu d'entrer dans la clandestinité. C'était une indication sur l'état d'esprit des sujets d'Abû Qalamûs jusqu'au niveau de ses fonctionnaires d'autorité. Les *fuqarâ'* d'A.b.Y. avaient donc de sérieuses raisons de comploter et de souhaiter la fin du régime de Tilimsân[59].

A cheval, avec sa fille 'A'isha en croupe et Muḥ. al-'Antarî à pied devant lui, A.b.Y. se rendit à Yallal se mettre sous la protection de Hawwâra. Là, il dit un jour à ses *fuqarâ'* : «Ils (B. Zayyân) ont osé nous inquiéter, Allâh les inqiètera bientôt du côté de la terre et du côté de la mer !» *(shawwashû-nâ Allâh yushawwishu-hum barran wa baḥran)*.

Cette phrase est rapportée par *Bustân*, 36, *Ribḥ*, 163, *Thaghr*, 447, *Dalîl*,

40, qui commente : Peu après, B. Zayyân furent inquiétés du côté de la mer par les Infidèles *(al-kafara)* qui prirent Wahrân et du côté de la terre par les Turcs *(al-'Atrâk)* qui prirent Tilimsân». Donc, si les Espagnols ont pris Wahrân c'est parce que A.b.Y. l'avait souhaité ! Muḥ. al-Hawwârî aussi l'avait souhaité mais lui, parce que les habitants de Wahrân avaient injustement, selon lui, mis à mort son fils 'Aḥ dit *al-hâ'idj* (le forcené). Il se serait écrié : *«Rûḥî yâ Wahrân al-fâsiqa... 'inn-î bi'tu-ki li Naṣârâ Mâlaqa wa Djâlaqa... 'anti tâliqa* (= va-t'en Wahrân la prostituée... je te livre aux Chrétiens de Mâlaqa et de Djâlaqa (= Galice)... je te répudie...» (*Dalîl*, 41). Que des religieux musulmans en arrivent à souhaiter la victoire du chrétien sur les souverains de *Dar al-Islâm*, voilà qui en dit long sur leur désespoir quant à l'amendement du comportement de ces despotes.

Effectivement, une armada espagnole s'empara en 915/1505 du meilleur mouillage de la côte algérienne, al-Marsâ l-Kabîr ; en 918/1508, Pedro Navarro prit Wahrân et le Cardinal Ximenes assista au massacre de 4.000 Musulmans, à la capture de 8.000 prisonniers et présida à la consécration catholique de deux mosquées ; en 920/1510, le même Pedro Navarro, on l'a déjà dit, s'empara de Bidjâya. Etait-ce là le souhait d'A.b.Y. ?

Mais Thâbitî réussit à faire arrêter et condamner A.b.Y. à être brûlé vif. On dit que pour son incinération B. Warnîd apportèrent deux mille charges de bois sec. La «cérémonie» devait avoir lieu à 'Anzût, entre la ville et al-'Ubbâd. Deux de ses disciples devaient assister à son supplice et, en même temps, à la mise à mort de son fils aîné Muḥ. Benmerzûga condamné par le même Thâbitî. On ne sait comment, à cette occasion, l'un et l'autre ont eu la vie sauve. Les sources l'expliquent par un miracle (v. *Bustân*, 467).

Pour la deuxième fois, et pour un motif non précisé par les sources, A.b.Y. fut incarcéré à Tilimsân sur ordre d'Abû Ḥammû Mûsâ III (923/1516 - 934/1527), qui le fit enfermer tout près de lui, dans la geôle de son palais. Pour mettre à l'épreuve les dons surnaturels qui lui étaient attribués, 'Abû Ḥammû lui fit servir un jour deux poulets rôtis dont un seul avait été rituellement égorgé. Le prisonnier n'eut pas de peine à déceler le piège (*Bustân*, 21).

Un autre jour, pour éprouver son courage, il lui dépêcha son bourreau *(adh-dhabbâḥ)*. Brandissant son glaive, celui-ci entra dans le cachot, mais il eut beau écarquiller les yeux, il n'y vit personne alors que le prisonnier était bien là, impassible et peut-être goguenard, qui le fixait du regard. Trois fois fut répétée l'épreuve avec le même résultat. Voulant s'en assurer par lui-même, Abû Ḥammû se rendit à la geôle et n'eut pas plus de succès que son *dhabbâḥ*. A.b.Y. lui avait ôté momentanément sa faculté visuelle.

Edifié, 'Abû Ḥammû lui fit proposer son élagissement. «Je ne sortirai

A.b.Y. s'instruisit, voyagea, s'acquitta de l'obligation du *ḥadjdj* et du *djihâd*, convola en justes noces autant de fois que le lui permit la loi de l'islâm, eut des fils et des filles, vécut dans l'aisance, eut des admirateurs et aussi des adversaires.

Parmi ces derniers, son beau-père 'Umar aṭ-Ṭarârî, on l'a dit, avait formé le projet de l'assassiner (v. *Bustân*, 4, 5, 37, 83).

Un jour qu'il entrait à la Qal'a au milieu de ses *fuqarâ'*, une mégère eut l'audace de lui crier à la face qu'il était le «*dadjdjâl*» (l'Antéchrist).

Son farouche adversaire Samyân de B. Faraḥ lui a interdit tout contact avec les membres de cette tribu et lui a annoncé sa fin ignominieuse d'être enterré sous les ordures ménagères des Juifs (*Bustân*, 121). Auparavant Zarrûq lui avait déjà fait la même prédiction.

En face de ses adversaires, il avait ses *fuqara'* fidèles et dévoués. Quelques-uns d'entre eux, disséminés dans le sud du Maghrib, s'attachèrent à faire connaître son nom et, se réclamant de son autorité, réussirent à rassembler d'autres *fuqara'* et à les faire adhérer à la Shâdhiliyya, ce qui a renforcé son crédit sur les masses populaires et, du même coup, attiré sur lui l'attention et la méfiance des tenants du pouvoir.

En outre, la qualité de *waliyy* lui a été publiquement reconnue par le grand mystique Mḥammad b. Muḥ. b. Yûsuf as-Sanûsî (*Bustân*, 16 et suiv.).

112. En réalité, A.b.Y. n'avait qu'une préoccupation : le sort du Maghrib musulman où la désagrégation du pouvoir politique à Fâs comme à Tilimsân et à Tûnis encourageait les ambitions expansionnistes des Portugais et des Espagnols qui, de plus en plus, prenaient pied sur ses rivages.

Côté-chrétien, c'était alors le décollage et l'essor ; côté musulman, partout le déclin et l'incurie des dirigeants sans foi, pour qui le pouvoir était une fin en soi. Ils se le disputaient entre frères et n'hésitaient pas, le cas échéant, à pactiser avec l'ennemi. Ils n'avaient plus rien de commun avec 'Umar, Mu'âwiya, Manṣûr, 'Abd al-Mu'min ou Ṣalâh ad-Dîn tandis que les frontières de Dâr al-'Islâm, depuis le milieu du V/XIème siècle, étaient sans cesse violées :

- en 453/1061 par les Normands de Robert Guiscard qui commençaient la reconquête de Ṣiqilliyya ;

- en 481/1088 par les Normands de Ṣiqilliyya, les Pisans et les Gênois coalisés qui prirent Mahdiyya ;

- en 491/1099 par les Croisés qui prirent Jérusalem et qui n'en seront

expulsés qu'en 691/1310 ;

- entre 529/1134 et 543/1148 par les Normands de Roger II qui attaquèrent et parfois occupèrent Djarba, Barishk, 'Aṭrâbulus, Mahdiyya (pendant 12 ans), Djîdjal, Bûna, Qarqana ;

- en 609/1212 par les Espagnols : désastre d'a' 'Iqâb (Las Navas de Tolosa) ;

- en 647/1249 par Saint Louis qui prit pied à Dimyâṭ dans le delta du Nil ;

- en 656/1258 par les Mongols qui prirent Baghdâd ;

- en 669/1270 par Saint louis qui débarqua à Qarṭâdj ;

- 897/1492 par les Rois Catholiques qui prirent Gharnâṭa.

A partir de cette date, la plus grave menace pour tout le Maghrib venait des Portugais et des Espagnols. Déjà, en 819/1415, les Portugais avaient pris Sabta et en 825/1421, ils y avaient installé un évêché. En 988/1580, elle leur fut enlevée par les Espagnols qui l'ont gardée jusqu'à ce jour malgré le mémorable siège de 27 ans par Mawlâya 'Ismâ'îl. Les mêmes Portugais ont pris en 862/1458 al-Qaṣr as-Saghîr, en 876/1471 Tandja et 'Aṣayla ; en 884/1479 plusieurs mouillages de la côte Atlantique. De leur côté, les Espagnols prirent en 904/1498 Malîla pour la garder jusqu'à ce jour. En 914/1523 les Portugais s'installèrent à 'Asafî et en 920/1513 à 'Azammûr, imposant un véritable protectorat à une grande partie du Maroc occidental jusqu'aux portes de Marrâkush.

Ce sont al-Mu'izz et son fils Tamîm de B. Zîrî qui n'ont pas su défendre Ṣiqilliyya ; c'est le vizir dictateur d'Egypte al-Malik al-'Afḍal qui est responsable de la perte d'al-Quds et de toute la Falasṭîn occupées par les Croisés Francs.

Mal défendues par les gouvernants, les populations du Maghrib se regroupaient autour des religieux devenus des «résistants» et dont les *zâwiya-s* servaient de refuges tout à la fois aux victimes du pouvoir, aux «*mudjâhidîn* de la mer» et aux corsaires turcs qui sillonnaient la Méditerranée occidentale. Il en avait été notamment ainsi de la *zâwiya* de Muḥ. al-Hawwârî à Wahrân (mort en 843/1439) et de celle de Muḥ. at-Tuwâtî à Bidjâya (881/1375-901/1475) qui a hébergé Piri Râyis. Ce n'est qu'après la mort de ces deux religieux que Wahrân et Bidjâya sont tombées aux mains des Espagnols (*Ta'rîkh*, I, 466 et 469).

Les interventions d'A.b.Y. dans les affaires publiques lui valurent de se retrouver en conflit avec le sultan de Fâs et avec B. Zayyân et l'amenèrent à prendre parti pour 'Arûdj, l'aîné des frères Barberousse.

les sabots de la monture (*Bustân*, ms. 123, imprimé 82).

Sayyid-î A.b.Y. ash-shâdhilî

110. Ces anecdotes folkloriques, les unes terrifiantes, les autres édifiantes, procèdent de la méthode juridico-religieuse de la mise en garde *(tarhîb)* et de l'incitation *(targhîb)*, autrement dit celle de la «carotte et du bâton» pour affermir l'autorité du Maître.

Celle d'A.b.Y., de son vivant et après sa mort, a été très grande sur ses adeptes. Il leur donnait le *dhikr* collectif des Shâdhiliyya et il les réunissait dans des séances de chant et de musique. Cependant, ses biographes ne nous disent pas s'il les avait organisés en une *ṭarîqa* portant son nom. Au reste, une *ṭarîqa* ne porte le nom de son fondateur qu'après son décès. Ce sont ses adeptes qui, *post mortem*, lui ayant reconnu la qualité de *quṭb* (pôle mystique), inscrivent son nom, immédiatement après celui de son prédécesseur qui aura été son initiateur, dans la chaîne des *quṭb-s* de l'ordre auquel il aura appartenu.

La règle est que chaque *ṭarîqa* doit avoir, en tête de sa chaîne, le Prophète alors que lui-même n'en a connu aucune. La Shâdhiliyya, au Maghrib, a d'abord été appelée «Madaniyya» (plus logiquement «Madyaniyya») du nom d'Abû Madyan Shu'ayb qui en a été le 14ème *quṭb* tandis que Shâdhilî en a été le 16ème. Elle lui a pourtant emprunté son nom, après sa mort, parce que sans doute le rayonnement de sa personne, ses pérégrinations et son inlassable activité au service de cet ordre, reconnus par ses disciples, ont fait oublier le prestige de ses prédécesseurs.

A la fin du IX/XVème siècle, cette confrérie, très répandue, s'était ramifiée en une vingtaine de branches, neuf au Maghrib et douze en Egypte, ayant chacune sa chaîne propre et son *quṭb*. Une de ses branches était la Zarrûqiyya à laquelle s'est affilié A.b.Y. Sa chaîne est rapportée par l'auteur du *Bustân*, d'après Sakhâwî (mort en 902/1496) qui s'est gardé d'y faire figurer le nom d'A.b.Y.

1- ar-Rasûl (le Prophète), 2 - 'Alî b. 'Abî Ṭâlib, 3 - al-Ḥasan al-Baṣrî, 4 - Ḥabîb al-'adjamî, 5 - Dâwud b. Naṣr aṭ-Ṭâ'î, 6 - Ma'rûf al-Karkhî, 7 - as-Saqaṭî, 8 - al-Djunayd, 9 - 'Abû Ṭâlib al-makkî, 10 - al-Djuwaynî, 11 - al-Ghazâlî, 12 - Ibn al-'Arabî, 13 - Ibn Ḥirzihim, 14 - 'Abû Madyan, 15 - Ibn Mashîsh, 16 - ash-Shâdhilî, 17 - al-Mursî, 18 - al-Qarafî, 19 - Zarrûq (*Bustân*, 185)[56].

C'est après sa mort, et par décision de ses disciples, qu'A.b.Y. en est devenu le vingième. Par la suite, six de ses disciples ont inscrit son nom en tête de six nouvelles chaînes de *ṭarîqa-s* secondaires fondées par eux au sud du

Maghrib :

1 - 'Abû l-Ḥasan 'Alî b. al-Qâsim al-Ghâzî dont l'activité, à partir de 932/1526, s'est déployée dans la vallée de Dar'a, a mis sur pied une *ṭarîqa* appelée al-Ghâziyya.

2 - Plus tard, à partir de Tâmagrût, cette *ṭarîqa* se développa sous l'impulsion de Mḥammad b. Nâṣir ad-Dar'î (1015/1606 - 1089/1678) et prit le nom de Nâṣiriyya. Son dernier *quṭb* est 'Abd Allâh Mḥammad b. 'Abd as-Salâm... b. Nâṣir, mort en 1239/1824.

3 - Muḥ. b. 'Abd ar-Raḥmân as-Suhaylî, originaire de Yanbu', se serait fixé, après des études auprès d'A.b.Y., à *djabal* as-Suhûl, dans le Tâfilâlat, vers 936/1540, à la tête d'une *ṭarîqa* dite as-Suhayliyya.

4 - A.b.Y. eut un disciple du nom d'Aḥ. b. Mûsâ l-Ḥasanî (907/1502 - 1016/1608) qui s'établit à Karzâz, au S.O. de Fîgîg, à la tête d'une *ṭarîqa* dite al-Karzâziyya qui s'étendit sur l'ensemble du Gûrâra et dont le dernier *quṭb* est 'Aḥ. b. Muḥ. b. bû-Baghla, mort en 1302/1884 (v. Rinn, 342).

5 - 'Abd al-Qâdir b. Muḥ. (951/1544 - 1023/1615), connu sous le nom de *Sayyid-î* sh-Shaykh, fut le *quṭb* de Shaykhiyya et l'éponyme de la fameuse tribu des 'Awlâd «Sidi Cheikh» (Rinn, 349).

6 - Un muqaddam des Nâṣiriyya de Tâmagrût, Mḥammad b. 'Abd ar-Rahmân Bû Zayyân dit Mulay Bû-Zayyan, mort en 1145/1733, élève de 'Alî b. 'Abd Allâh l-Fîlâlî (un disciple d'A.b.Y.) se fixa chez les Qanâdisa à la tête d'une *ṭarîqa* dite az-Zayyâniyya (Rinn, 201).

L'homme politique

111. Mais ni dans la région de la Qal'a, ni dans celle de Bidjâya et de Milyâna n'existe aujourd'hui une quelconque *ṭarîqa* se réclamant de lui, alors que c'est dans ces villes qu'il vécut, fit ses études, enseigna, prêcha et fut entouré de fidèles *fuqarâ'* et aussi d'ennemis implacables. C'est que les *karâmât* qu'il a pu réaliser à l'intention des masses populaires ou qui lui ont été attribuées *a posteriori* par ses biographes ne l'ont pas empêché d'avoir une vie publique remarquable et ramarquée.

Il ne fut, en effet, ni un religieux contemplatif, ni un ascète mais un homme d'action comme le veut l'orthodoxie musulmane qui prescrit : «Agis pour ta vie ici-bas comme si tu devais vivre éternellement et agis pour ta vie future comme si tu devais mourir demain *('i-'mal li dunyâ-ka ka'anna-ka ta'îshu 'abadan wa'mal li 'âkhirati-ka ka'anna-ka tamûtu ghadan)*, ou encore : «Pas de monachisme en 'islâm» *(lâ rahbâniyyata fî l-'islâm)*.

La recherche d'une voie

108. Les biographes d'A.b.Y. ont noté que dès sa jeunesse, il faisait preuve d'une extraordinaire perception imaginative. Un jour, à Bidjâya, Zarrûq demanda à ses élèves : «Qui peut me dire quelque chose de mon fils qui est à Fâs ?»

- Moi, répondit A.b.Y. Il est devant sa chambre, avec sa maman qui le coiffe.

- Et encore ?

- Elle lui a tressé les cheveux et elle lui a mis sur la nuque un ruban en soie qui se termine par un gland en soie *(sharrâba)*.

- Dieu te bénisse «dit Zarrûq».

Un voyageur, arrivé peu après de Fâs, confirma tous ces détails. A.b.Y. venait ainsi d'accomplir un acte dit de *mukâshafa* (*Bustân*, 90).

On rapporte aussi qu'au début de sa carrière, voulant s'acquitter de l'obligation *«d'ordonner le bien et de prohiber le mal»*, A.b.Y. se fit *«muhtasib»* (censeur des mœurs). Il venait de rentrer de Bidjâya à Ra's al-Mâ' quand il apprit qu'au *«dawwâr»* de son père un individu avait enlevé une femme et, de notoriété publique, avait avec elle des rapports sexuels hors mariage. «Quittons ces lieux, dit-il à son père, puisqu'on y tolère de telles turpitudes». Sur la réponse négative de son père, il demanda l'intervention du *qâḍî* de B. Râshid mais celui-ci ne daigna même pas le regarder. Pis encore : Ayant eu vent de cette démarche, le coupable jura «de couper les jarrets du cheval de notre jeune *«muhtasib»* et de lui en faire voir. (*Bustân*,114).

Avant même d'entrer dans la vie active, encore (jeune) étudiant frais émoulu, il faisait déjà, dit-on, un parallèle *(muqâbala)* entre la vie quotidienne à son époque (X/XVIème siècle), corrompue et polluée, selon lui, et la vie quotidienne à l'époque de l'illustre 'Abd al-Qâdir al-Djîlânî (VI/XIIème siècle) qui lui apparaissait caractérisée par la vertu et la pureté des mœurs. Et de considérer de son devoir, en vertu des prescriptions du Qur'ân *(recommander le bien et prohiber le mal)* d'agir, sinon parler et à tout le moins réprouver. Ayant subi la rebuffade du *qâḍî* et entendu parler des menaces du forniqueur, il se prit à réfléchir sur ce qu'il devait faire pour se hausser au niveau de 'Abd al-Qâdir.

Ses *Karâmât* (= grâces probatoires).

109. De là son affiliation à l'ordre des Shâdhiliyya où il comptait trouver des soutiens. Mais il s'aperçut assez vite que sa promotion exigeait de lui d'autres initiatives, surtout des démonstrations spectaculaires susceptibles d'impressionner les foules. Ses biographes en rapportent quelques-unes qu'ils appellent des *karâmât* (grâces probatoires).

Une femme de Qal'a était «habitée» par un *djinn*. Son mari obtint un *qirtâs* (un écrit) qu'il lut devant sa femme. Aussitôt le *djinn*, par la voix de cette dernière, s'écria : «J'entends et j'obéis à Allâh et au *shaykh* ! Je sors sur l'heure !». La femme était délivrée. Et la rumeur publique de dire que le *shaykh* avait, sous ses ordres, vingt mille disciples parmi les humains *(al-'ins)* et une multitude innombrable parmi les *djinn-s*.

Un jour, accompagné de deux ou trois personnes, il annonça une visite à son élève Ṣabbâgh qui crut devoir lui faire préparer un repas en rapport avec le nombre de convives. Mais, en chemin, le Maître fut suivi par un cortège de disciples désireux de participer au festin. A leur arrivée, Ṣabbâgh était affolé. «Fais nous servir ce qui a été préparé et rien de plus» lui dit le Maître qui se contenta de goûter de chaque plat avant de la passer, avec sa bénédiction, à ses compagnons. Tous s'en rassasièrent et en laissèrent comme, du reste, cela s'est passé en plusieurs autres occasions analogues (*Bustân*, 120, 121).

Son élève, Muḥ. 'Aqannîsh s'est trouvé dans l'obligation, sous peine de sanction, de fournir, comme cadeau, au *qâ'id* de Hawwâra, une couverture de valeur *(ḥanbal)*. Ne la trouvant pas, il se sentit gagné par l'angoisse. Au cours d'un somme, il vit en songe un lion effrayant mais qui lui a parlé en ces termes : «Répète le nom d'Allâh et ne crains personne !». Au réveil, il alla raconter son rêve au *Shaykh* qui lui dit en *zanâtiyya* : *«Dâa-k dhâk»*. Son pouvoir surnaturel avait dissipé l'angoisse de son élève, lequel a affirmé qu'il n'a jamais plus été inquiété (*Bustân*, 113).

Son autre élève, Sa'îd 'A'râb l'accompagna à pied à Sîrât (à 21 km. au S.E. de Mustaghânim). Comme il se doit, le Maître était à cheval. La rivière du même nom, qui s'appelle aussi Yassar, était en crue. «Saisis la queue de mon cheval, ferme les yeux et avance» lui dit-il. Les deux voyageurs traversèrent les flots tumultueux sans que soient seulement mouillées les chaussures de Sa'îd qui diffusa l'anecdote et en garantit l'authenticité. (*Bustân*, 80).

Dans des circonstances presque analogues, un Algérois doit traverser, par une nuit froide, *wâdî* Mîna (affluent du Shalaf) en crue. Il a peur pour sa personne autant que pour sa monture. Il invoque l'assistance du *waliyy* et aussitôt une légion d'anges le lui amènent sous l'aspect d'un pont sur lequel il passe sans encombre à l'autre rive. Le lendemain, il va, lui aussi, raconter son histoire au Maître qui lui dit simplement : *«Dâddâ-k dhâk !*. En quittant le lit, à l'aube, le Maître est encore tout trempé. Ce que voyant, sa femme Sattî lui recommande de rester sous les couvertures pour ne pas contracter de maladie. A son tour, il lui fait le récit de l'événement en précisant qu'il a sentit sur son dos

Mûsâ l-Barishî ;

Mûsâ l-Djarârî 'Abd ar-Raḥmân dont le tombeau est à Wâdî s-Suhûl (?) et qui fut le maître d'Aḥ. b. Mûsâ, le chef de la *ṭarîqa* l-Karzâziyya ;

Ya'qûb qui est enterré à Maysûr(?) ; pour être lui aussi désigné à subir l'épreuve, il se serait adressé au Maître en ces termes : «Monseigneur, la brebis n'est-elle donc pas bonne pour le sacrifice ?»

Quant aux trois femmes, elles s'appelaient :

Maymûna l-Ganâwiyya (la Guinéenne) al-Gazzâniyya (une négresse originaire d'In Gazzân ?) ;
'A'isha l-'Adawiyya l-Miknâsiyya ;

Fâṭima Saṭṭî l-Djîlâniyya dont le tombeau est dans la montagne qui surplombe Tilimsân (Lâlla Satti ?),

L'épreuve se serait déroulée le jour de la fête du sacrifice (*'Id al-aḍḥâ*) de la façon suivante : un à un, ces disciples étaient introduits dans un local à deux issues pourvues chacune d'une porte. Dès que l'un d'eux y pénétrait, un filet de sang s'écoulait hors du local sous les regards de ses compagnons qui attendaient leur tour. Mais ce n'était qu'une série de mises en scène, une réédition appliquée du récit biblique et coranique du sacrifice du fils d'Ibrâhîm al-Khalîl (Abraham), 'Isḥâq dans la Bible, 'Ismâ'îl dans le Qur'ân. Dans un cas comme dans l'autre, il y eut substitution d'un mouton sacrifié (*Ribḥ,* 438).

Crédulité et docilité à cette époque

107. Pour se permettre de telles plaisanteries, A.b.Y. devait avoir affaire à des êtres d'une crédulité et d'une docilité sans bornes et sur lesquels il avait acquis une immense autorité.

Autour de lui, on croyait, par exemple, dur comme fer, que les palmiers d'Abû Bakr, sur invocation du Prophète, avaient eu des ailes et qu'ils s'étaient envolés de Makka à Madîna pour mettre leurs troncs à la disposition des constructeurs de la mosquée (v. *Bustân,* 160).

Qu'un jeune homme de Tanas a pu se rendre à Mâlaqa au début d'un après-midi *(ẓuhr)* et être de retour au milieu du même après-midi *('Aṣr)* *(Bustân,* 161).

Qu'un autre jeune homme de Tanas a pu se rendre à Makka, par voie aérienne, porté par deux poulets rôtis et tenant un pain dans un mouchoir, poulets et pain fournis par un certain 'Abû Zakariyâ' al-Maghîlî (*Bustân,* 162).

Qu'un certain Ḥabîb al-'Adjamî (un persan) a pu se trouver le jour de la *tarwiya (9 dhû l-ḥidjdja)* à Baṣra et le lendemain à 'Arafât pour la *waqfa* *(Bustân,* 169).

Qu'Abû l-'Abbâs 'Aḥ. b. Bû-ma'za r-Râshidî entrait dans le four d'un boulanger à Tilimsân et là, sans être le moins du monde incommodé par la chaleur, il séparait le pain des musulmans de celui des juifs (*'Iqd,* 425).

Que le cuivre peut être changé en argent et en or et que de fausses pièces de monnaie peuvent être changées en pièces de bon aloi (*Bustân,* 211).

Qu'un attelage peut labourer sans être guidé par un *khammâs* (quintenier) quand celui-ci est un *waliyy* (*Bustân,* 164).

Que Dâdda Yahyâ b. 'Alî b. Muḥ. b. 'Abî 'Imrân, médecin de Hawwâra, a pu ressusciter un bœuf dont la chair avait servi la veille de festin aux disciples *(fuqara')* d'A.b.Y. (*Bustân,* 172).

Que le même 'Aḥ. b. Bû-Ma'za, plus haut nommé, possédait une chèvre qu'il égorgeait chaque fois qu'il avait des invités et, cent fois, elle s'est relevée vivante après les festins successifs.

Que 'Abd al-Qâdir b. Ḥamâsha se faisait épouiller par des perdrix et qu'il n'était pas le seul à jouir de cette insigne faveur (*Bustân,* 455, 462 : *Ribḥ,* 199,204).

Que Muḥ. al-'Arabî al-'Antarî, en soufflant simplement sur son pouce, transformait celui-ci en lampe. (*Bustân,* 437).

Que Muḥ. b. Muḥ. b. Ballâṭa, au lieu de prendre la peine d'aller à Makka, avait le privilège de voir venir la Ka'ba jusqu'à lui et faire elle-même le *ṭawâf* autour de lui (*Bustân,* 438).

Comme on le voit, ces «tours de force» étaient des plus variés. Ceux qui les accomplissaient ne pouvaient le faire qu'ès qualité, en tant que disciples du Maître, du *quṭb* (pôle) autour duquel ils gravitaient et recevaient de lui un peu de son effluve et de ses pouvoirs surnaturels.

- En réalité, son éducation, ses voyages, ses contacts ont fortifié la personnalité de *Sayyid-î* A.b.Y. et l'ont élevé bien au-dessus du niveau de son entourage composé surtout de ruraux qui voyaient en lui un être exceptionnel, pourvu de tous les dons. Il avait lui-même conscience de cette situation. N'a-t-il pas dit, non sans impertinence :

> «Avant tout, je recherche la «pensée» là où elle se trouve
> «et peu me chaut que les «bovidés» n'y comprennent rien»
> (en vers du mètre *ṭawîl*) (*Bustân,* 189).

«Mieux qu'un frère, dit son fils, il vécut dans l'intimité du Maître jusqu'au jour où il fut tué au combat de *madjshar* as-Sûkh livré au Espagnols sous le commandement d'al-'Iskandar en 924/1518.

Mḥammad b. 'Aḥ. a*sh-sharîf* az-Zahhâr, un joyeux drille, féru de femmes et de bon vin, méchante langue mais qui faisait des retraites dans une grotte en haut de l'agglomération de Maṣrâta. A ceux qui lui reprochaient ses frasques, il répliquait malicieusement : «l'agneau s'amuse sur le dos de sa mère !» Lui était l'agneau et A.b.Y. la brebis ! Il était tellement convaincu de l'unicité salvatrice d'Allâh qu'il n'hésita pas à accomplir le miracle de jeter d'abord sa tunique *(muraqqa'ata-hu)* puis de se jeter lui-même dans un brasier et d'en sortir indemne. Parmi ses *manâqib*, on dit qu'il annonça à sa manière la prise de la Qal'a par les Espagnols en entrant tout chaussé dans sa grande mosquée et en disant : «il faut que je la souille avant qu'elle le soit par les mécréants». Il annonça aussi la prise de Bidjâya en disant : «Tuwâtî ne fait pas l'affaire *(at-Tuwâtî mâ ywâtî !)*. Pedro Navarro s'en empara en effet en 916/1510 et elle ne fut libérée qu'en 962/1555. Il annonça enfin la prise de Tilimsân par les Espagnols et quand on lui demanda : «même avec 'Abû Madyan dedans ? - Oui, répondit-il, et ils piétineront son ventre !». Il assuma la dignité de *naqîb al-'ashrâf* (sponsor des descendants du Prophète) à al-Djazâ'ir. On ne sait quand ni pourquoi il s'y est établi. Il y mourut en 948/1541. Il a son tombeau dans la mosquée qui porte son nom à la *qaṣaba* d'al-Djazâ'ir (cf. *Bustân*, mns, 413, imprimé, 378 ; *'Iqd, 438 ; Ribḥ*, 193 ; *Ta'rîf*, II, 469).

'Abd al-Ḥaqq b. 'Alî al-Muṭahhirî, lui aussi versificateur, qui composa en 935/1528 un thrène de 125 vers (presque tous faux dans la version qui nous en est parvenue) à la mémoire du Maître (*Ribḥ*, 206).

Mḥammad b. 'Abd al-Djabbâr al-Fadjîdjî l-Mas'udî t-Tilimsânî, poète mystique, auteur de plusieurs poèmes en l'honneur du Prophète, fondateur d'une *zâwiya* à Ḥaddû*sh*, dans le Tassâla, à proximité de laquelle il fit bâtir une mosquée avec fontaine et local d'accueil où ses adeptes trouvaient le gîte et le couvert. Sa renommée se répandit dans tout le *Maghrib* occidental et central où il eut de nombreux disciples. Il mourut en 950/1547, année de la prise de Tilimsân par les Espagnols (Ibn Maryam, 287-88).

'Abû l-Ḥasan 'Alî b. 'Abd Allâh al-Fîlâlî qui fut à la fois l'héritier spirituel et le représentant du Maître au *Maghrib* occidental où il acquit une grande autorité sur les masses populaires mais finit par être suspecté, puis formellement accusé de manichéisme *(zandaqa)* et d'adhésion à la doctrine des 'Ibâḍiyya et inquiété par les agents du sultan sa'dien de Fâs 'Abd Allâh al-Ghâlib (965/1557 - 982/1574). C'est lui qui aurait organisé la *ṭarîqa* Yûsufiyya et c'est de lui qu'A.b.Y. a dit : *«aqshîsh an...*, une façon de lui contester toute autorité sans cependant le renier formellement (*Bustân*, 392).

Muḥ. b. Su'yada l-Qal'î mort en *mudjâhid* contre les Espagnols en 924/1518.

Qâsim b. Sa'îd al-Qal'î mort en *mudjâhid* au même combat (*Bustân*, 397).

'Aḥ. b. Qâsim, fils du précédent, surnommé Ibn al-Ḥawlâ' (sa mère était affligée de strabisme) qui faisait bénévolement fonction de *mu'adhdhin* à la mosquée cathédrale de la Qal'a (*Bustân*, 397).

Mas'ûd al-'Arûsî, un de ceux qui ont décidé Muḥ. ad-Dardjî à consentir au mariage de sa fille Kalîla avec le Maître. (v. *Bustân*, 458).

'Abû l-'Abbâs 'Aḥ. al-Baṭḥî, un versificateur qui chanta les mérites du Maître dans une *qaṣîda* de plus de cent vers (*Bustân*, 416).

'Abd 'Allâh 'Akhlâl qui fut pauvre mais qu'une bénédiction du Maître a rendu très riche, ce qui lui a permis de racheter plus d'un captif musulman détenu par les Chrétiens (v. *Bustân*, 396).

Muḥ. b. Ghâliya al-Murâbiṭî qui allait souvent de nuit faire des incursions en terre chrétienne en compagnie de Muḥ. ash-Sharîf al-Bû'amrânî pour faire des captifs et pour piller (v. *Bustân*, 457).

Mûsâ b. 'Alî l-Kuthayrî qui, à l'article de la mort, eut la présence d'esprit de dire : «Demeure en paix, ô vie terrestre ; je te salue, ô mon Dieu», et rendit l'âme aussitôt. (*Bustân*, 468).

Muḥ. b. 'Antarî l-'Arabî, auteur d'une *qaṣîdâ mukhammasa* reproduite dans *Bustân*, 392).

Les «Immolés»

106. Une place a part et quelque peu privilégiée est faite au groupe des *madhâbîḥ* (sing. *madhbûḥ*), les Immolés, sept hommes et trois femmes, dont le dévouement au Maître aurait été, dans des conditions étranges, mis à l'épreuve (*Ribḥ*, 207).

Les sept hommes s'appelaient :

Muḥ. b. 'Abd al-Djabbâr déjà nommé ;

Sulaymân b. 'Abî Samâḥa al-Bakrî (prononcé Ben Bû-Smâha) dont le tombeau est à B. Wannîf, à l'est de Fîgîg et qui est l'aïeul de «Sîd ash-Shîkh b. ad-Dîn» ;

Al-Ḥadjdj b. 'Amir dont le tombeau est à l'est d'al-Bayyaḍ ;

rien d'autre à dire que *'lî-kum b-ed-dfîra w-el-fûl»* (attachez-vous à tresser le palmier nain et à cultiver les fèves).

On lui a aussi attribué des chansons, toujours en arabe dialectal actuel, dont cinq ont pour thème l'amour, une autre à la gloire du Prophète, une autre son *mi'râdj* (ascension), une autre l'éloge du *dirham*. Une personnalité de Tilimsân en détient un recueil manuscrit et me l'a communiqué.

Cependant l'auteur du *Ribḥ*, 210 et 215, affirme avoir eu connaissance d'un compendium *(madjmû')* renfermant plusieurs cahiers *(karârîs)* dans lesquels sont reproduites des lettres adressées par lui à ses meilleurs disciples. Il aurait aussi, selon le même auteur, envoyé des messages aux habitants de Marrâkush, de Bâdîs, au «prince» de Fâs, aux habitants de Fâs, de Tâza, aux *'ulamâ'* de Tâza, aux habitants du Tuwât, de Miṣr (al-Qâhira), de Baghdâd, etc... L'auteur du *Bustân*, 311 et suivantes, reproduit le texte de huit lettres *(rasâ'il)* incompréhensibles. Quelques phrases seulement, plus ou moins sybillines, semblent effleurer divers thèmes de son enseignement moral ou théologique.

Un seul écrit intégral lui est attribué, qui a été conservé et qui existe en manuscrit à la bibliothèque générale de Ribâṭ al-Fatḥ sous le numéro 2792 et le titre *«Risâla fi-r-raqs wa t-tasfîq wa dh-dhikr wa l-'ashwâq* (v. *Târîkh*, II, 120).

Qu'a-t-il enseigné ?

103. Vraisemblablement les disciplines que lui-même avait apprises à Ra's al-Mâ' et à Bidjâya : *al-Qur'ân, ash-Sharî'a, al-Ḥaqîqa*, c'est à dire la Vérité ou la Réalité (d'Allâh) et *al-'adab* (l'ensemble des connaissances que ne doit pas ignorer l'honnête homme). Les sources ne disent pas comment il a enseigné ces disciplines ni d'après quels manuels. Elles reproduisent seulement quelques uns de ses commentaires.

A propos *d'al-Ḥaqîqa*, il aurait dit : «La raison cherche à percevoir les choses à partir de leurs causes, tandis que l'imagination les conçoit à partir de leur apparence et la sensibilité, à partir de leur environnement. Or, la Réalité (d'Allâh) n'a pas de cause pour être perçue par la raison, ni d'apparence pour être perçue par l'imagination, ni d'environnement pour être perçue par la sensibilité. D'ailleurs, «pour l'esprit humain, l'incapacité de percevoir vaut perception» *(= al-'adjz 'ani l-'idrâk 'idrâk)* (v. *Ribh*, 210).

Selon lui, *al-'îmân* (la foi) a son siège dans le cœur tandis qu'*al-'islâm* (la résignation) s'exprime par la langue (*'Iqd*, 446). L'homme doit adorer Allâh de façon totalement désintéressée, sans motivation, car celui qui l'adore par

crainte du feu (de l'enfer) ou dans l'espoir de mériter les faveurs d'une *ḥûriyya* dans l'au-delà est habité par une âme de prisonnier *('asîr)* ou de simple salarié *('adjîr)*. De même, celui qui agit en vue des biens matériels de la vie ici-bas est un captif *('asîr)* ; celui qui le fait pour les jouissances de la vie future est un salarié *('adjîr)* et celui qui le fait pour la Réalité (divine) est un prince *('amîr)* (*Ribḥ*, 188). On lui a fait dire enfin ceci : «Allâh m'a fait connaître la nature humaine dans sa totalité ; elle est composée de plusieurs éléments : terrestre, céleste, aérien, chaud, froid, camelin, bovin, ovin» (*Bustân*, ms 356, imprimé 166).

Où a-t-il enseigné ? Ses élèves ?

104. A Masrâta, à Tâqaṣrît, à Yallal et surtout dans sa *zâwiya* de Qal'at B. Râshîd. Ce fut à la mort de son père qu'il partit de Ra's al-Mâ' à la Qal'a pour y fonder cette *zâwiya* qui a été comparée à l'Arche de Noé (v. *Bustân*, 323). On a dit aussi que «tout malade qui est entré sous sa coupole a retrouvé la santé ; que tout être inquiété y a retrouvé la sécurité ; aux abois, y a trouvé du secours ; dans la peine, y a retrouvé la sérénité» (*Bustân*, 121). Lui-même a été regardé comme «une chandelle qui dispense de l'éclairage» (*Bustân*, 355).

La *zâwiya*, comme chacun sait, est un établissement de caractère religieux, le plus souvent scolaire, qui tient lieu du couvent, du collège et du monastère médiéval ; c'est aussi un centre de retraite et d'activité mystique pour la diffusion du *taṣawwuf* dans les masses populaires ; c'est enfin, très souvent, le siège d'une confrérie religieuse. Le *Maghrib* du IX/XVème siècle a été un terrain favorable au *taṣawwuf*, au confrérisme et aux *zâwiya-s*. L'enseignement dispensé dans les *Zâwiya-s* se limitait en fait à une éducation religieuse et à des exercices de renoncement et d'élévation spirituelle au-dessus des choses matérielles pour l'amélioration de l'individu, et, par voie de conséquence, de la collectivité. Au fil des ans et des lustres, se sentant proches les uns des autres, les disciples se donnèrent le nom d'*ikhwân* (frères) dont le relatif singulier est *khawnî* et s'organisèrent méthodiquement pour gagner l'ensemble de *Dâr al-'islâm*, veiller sur la vie spirituelle de ses habitants et défendre ses frontières de plus en plus menacées.

105. L'effectif de ses élèves, tel qu'il est rapporté dans *Bustân*, *'Iqd* et *Ribḥ*, s'élève à plus de quarante noms. On se bornera ici à un choix significatif.

Muḥ. b. 'Aḥ. b. 'Alî b. 'Abd ar-Raḥmân aṣ-Ṣabbâgh dit Ibn Ma'azza, père de l'auteur du *Bustân*, un jeûneur invétéré *(ṣawwâm)* et un prieur infatigable *(qawwâm)*, doué au surplus d'une belle voix, dévoué corps et âme au Maître au point qu'il lui lavait son linge et buvait avec ferveur l'eau du lessivage (*Bustân*, 396). Poète (ou plutôt versificateur), il le chanta dans une longue *qaṣidâ*.

dans la Ẓahra, au nord de Wâdî l-Fiḍḍa. Sentant sa fin prochaine, il recommanda à son entourage de charger son corps, dès qu'il aurait rendu l'âme, sur le dos de sa mule et de laisser celle-ci aller à sa guise. Ce qui fut fait. La mule alla vers l'est et ne s'arrêta qu'à Milyâna où elle s'accroupit sur le tas d'ordures ménagères des Juifs de la ville pour y mourir elle aussi. C'est là que des Milyânais creusèrent sa tombe et celle de sa mule et ensevelirent les deux cadavres. (v. *Bustân*, 139).

Son portrait

100. Comment était-il physiquement et moralement ? Il avait une longue barbe tressée *(maḍfûra)* qui lui descendait jusqu'à la ceinture et qu'il dénouait en certaines occasions, notamment quand il se fâchait. Son turban, son *barnûs*, tous ses vêtements étaient blancs (*Bustân*, 442). Comme l'imâm Mâlik, il aimait les vêtements fins, les beaux tapis et la bonne chère. Tandis qu'Abû Madyan al-Ghawth recommandait à chacun de ses disciples de jeûner jusqu'à devenir comme un flageolet qui résonne du nom d'Allâh, lui, par contre disait : «Mon disciple doit être comme une cornemuse qui ne résonne que lorsqu'elle est gonflée à craquer *(tilmîdh-î k-an-nafḍ lâ yadwî 'illâ bi d-dakk)*. Ce qui veut dire qu'il lui faut manger beaucoup (*Ribḥ*, 188). Son maître Zarrûq était du même avis *(Bustân*, 323). Il chevauchait, en selle, une jument de robe blanche tâchetée de noir *(baq'â')*. Il s'exprimait le plus souvent en *zanâtiyya* qui était son vrai parler. Pour dire par exemple «c'était moi», il s'exclamait : *«dâddâ-k dhâk»* (*Bustân*, 82). Parlant de son disciple al-Fîlâlî qui avait accédé, peut-être sans l'avoir mérité, à la dignité d'un saint, il a dit : *«'aqshîsh an 'iwâzan yuwa ghîr Allâh 'attâs»* traduit en arabe : *«radjul qalîl 'a'ṭâh Allâh maqâm 'aẓîm»* = un homme insignifiant auquel Allâh a conféré une haute dignité» (*Bustân*, 434).

101. Il aurait fait le vœu suivant : Qu'Allâh me rende comme un parterre que piétinent le musulman et le non musulman, l'obéissant et le rebelle» (*Bustân*., 120). Il aurait dit aussi : «Je sais que la Vérité (= la Réalité) d'Allâh est évidente et n'échappe qu'au regard intérieur *(al-baṣîra)* frappé de cécité, à la pensée intime *(as-sarîra)* dépourvue de discernement et au tempérament *(aṭ-ṭabî'a)* déséquilibré (*Bustân*, 322). Il aurait dit encore : «L'esprit chevaleresque *(al-futuwwa)* consiste à fermer les yeux sur les faux-pas du prochain» (*Bustân*, 324). Il aurait prié Allâh de lui accorder trois faveurs : acquérir le savoir *(al-'ilm)*, voir de ses yeux l'Elu (*al-muṣṭafâ* = le Prophète), être élevé au rang des hommes illustres. Sa prière a été, dit-on, intégralement exaucée (*Bustân*., 40).

Voir l'Elu, le plus souvent en rêve, quelque-fois à l'état de veille, c'était

au IX/XVème siècle chez les mystiques du Maghrib, un des privilèges les plus appréciés que souhaitait avoir tout croyant pour faire partie des Bienheureux quand il l'obtenait. Ces Bienheureux étaient nombreux à cette époque. Muḥ. b. 'Abd Allâh al-Farâwesni, un contemporain de *sayyid-î* A.b.Y. a écrit *Tuḥfat an-Nâẓir wa Nuzhat al-manâẓir* dans laquelle il a noté qu'il avait vu le Prophète cent dix fois en dix ans, entre 851/1447 et 861/1457. On dit aussi que l'imâm Aḥ. b. Ḥanbal a vu Allâh en rêve quatre-vingt dix-neuf fois (*Bustân*, 23, *Ribḥ*, 14) et que 'Abd ar-Raḥmân ath-Tha'âlibi l'a vu en rêve plusieurs fois ; il en a été de même de Khayr ad-Dîn Barberousse[57].

102. *Sayyid-î* A.b.Y., qui n'a exercé aucune fonction temporelle, jouit pourtant d'une notoriété et d'une autorité dont ne peut se prévaloir aucun écrivain, aucun penseur, aucun chef militaire, aucun homme politique, aucun souverain du passé proche ou lointain et ceci depuis un demi millénaire. A Milyâna, les analphabètes et les demi-lettrés, qui ignorent les noms des plus illustres personnages de la vie publique et de l'activité culturelle du monde arabo-musulman, jurent volontiers, en infraction avec le dogme, par le nom de *Sayyid-î* A.b.Y. (prononcé *Sîdi Ḥambenyûsef)*.

Ce prestige séculaire ne lui vient certainement pas de la longueur de sa barbe, ni de la blancheur de ses vêtements, ni de ses penchants pour la bonne vie, ni de sa *zanâtiyya*, ni des propos sentencieux qui lui sont attribués. Il lui vient un peu de sa qualité d'écrivain, davantage de son action comme enseignant, prédicateur, et encore plus comme homme politique.

Qu'a-t-il écrit ?

Comme beaucoup de religieux de sa génération, il n'a laissé aucun écrit important, tout comme 'Abû l-Ḥasan ash-Shâdhilî q. i aurait dit : «Mes livres sont mes compagnons et mes disciples», et tout comme *ash-shaykh* Bayyûḍ, savant réformiste de Wâdî Mizâb, mort en 1400/1981, qui disait à ses disciples : *«durûs-î muqayyada fî r-ru'ûs lâ fî t-ṭurûs»* (mes leçons sont notées dans les têtes de mes auditeurs, non pas sur du papier).

Mais la postérité a attribué à A.b.Y. d'abord les fameux *Dictons satiriques sur les villes et les tribus*. René basset a démontré qu'ils ne sont pas de lui. N'empêche que la mémoire populaire se plaît à citer ces dictons à tout propos. En voici un concenant B. Ghamriyyân, tribu au sud de 'Ayn ad-Diflâ : *«Men Lakhsh le-Bda esh-sharr l-ebda»* (= du cours d'eau Lakhsh au cours d'eau Bda, (deux affluents du Shalaf qui coulent sur le territoire du *dawwâr* B. Ghamriyyân), ce sera la disette en permanence). Quand son rival Samyân entendit ce dicton, il ne put que conseiller à B. Ghamriyyân : *« khardjet men fumm ghûl, mâ 'and-î mâ ngûl»* (le mot est sorti de la bouche d'un ogre, je n'ai

d'Iran, d'Egypte, de Syrie, d'al-Andalus, etc... et s'appelleraient Badr ad-Dîn, Ibn al-Ḥadjib, Ibn 'Uṣfûr, etc..., des noms de célébrités qui ont fleuri en des lieux et à des époques que n'a pas connus A.b.Y. La complaisance des sources, à ce sujet, a été apparemment exagérée (*'Iqd*, 436-37).

Mais elles lui citent un maître bien connu : 'Aḥ. Zarrûq al-Burnusî (846/1442-899/1493), qui a exercé sur lui une forte influence, qui l'a eu d'abord comme auditeur, puis les rôles se sont inversés comme c'était fréquent dans l'enseignement arabo-musulman[54]. Ils étaient à peu près du même âge.

A.b.Y. aurait alors étudié les matières suivantes :

a - *les Sept Lectures* (= les sept méthodes de récitation du Qur'ân) dites *al-qirâ'ât as-sab'* ou *ar-riwâyât as-sab'*[55].

b - *as-sîra n-nabawiyya* (= la vie du Prophète) d'après *k. ash-shifâ'* du Qâḍî 'Iyâḍ (v. *E.I.2*, IV, 302).

c - *at-taṣawwuf* (= le mysticisme musulman) d'après le traité d'Ibn 'Aṭâ' Allâh Tadj ad-Dîn, mort en 709/1309, dont Zarrûq a écrit plus de vingt commentaires (*Ribḥ.*, 175).

96. Le mysticisme musulman, dont la meilleure définition est celle qu'en a donné Ibn Khaldûn dans sa *Muqaddima* (*'Ibar*, I, 863 et suiv.), a pris naissance en Orient musulman dès le début du II/VIIIème siècle et s'est répandu partout en *Dâr al-'Islâm*. Le Maghrib en avait connu, bien avant l'époque d'A.b.Y., des représentants éminents : ad-Daqqâq (mort à Fâs dans le dernier quart du VI/XIIème siècle), son élève 'Abû Madyan al-Ghawth (mort en 594/1197) qui a eu un autre maître marocain 'Abû Ya'azzâ (vulg. Bû-'azzâ) un esclave noir (*Bustân*, 194) (mort en 572/1177), etc...

Ce sont cependant les idées des grands mystiques de l'Orient musulman qui se sont imposées à A.b.Y. et qui ont conditionné son comportement et réglé sa conduite. Ce sont, entre autres, Mâlik b. Dînâr ('Abû Yaḥyâ sh-Shâmî) mort à Baṣra en 130/747, 'Ibrâhîm b. 'Adham ('Abû 'Isḥâq) mort au Khurâsân en 161/777, Dhû n-Nûn al-Miṣrî, mort à Djîza (Egypte) en 246/861.

97. Ces idées l'amenèrent à s'affilier à la confrérie[56] *(ṭarîqa)* des Shâdhiliyya et ce fut son maître-élève Zarrûq, en qualité de parrain, qui le revêtit de la bure *(al-khirqa)* pour sa confirmation et qui l'introduisit dans la cellule *al-khalwa)* pour la retraite périodique et pour le Grand Combat *(al-djihâd al-'akbar)* qu'il doit mener contre ses propres pulsions psychiques. (Sur Shâdhilî et Shadhiliyya v. *E.I.*, IV, 256-259).

L'ordre des Shadhiliyya exige de ses adeptes, entre autres, l'errance *(as-siyâḥa)* que recommande le *ḥadîth : «Sîḥû tesiḥḥû wa taghnamû* (=

voyagez, vous aurez santé et richesse) et l'adage : *«lâ khayra fî radjul lam yadjul* (= il n'y a rien à attendre de bon d'un homme qui n'a pas voyagé). Aussi A.b.Y. a-t-il pérégriné, semble-t-il, pendant plus de quinze ans, deux années au Rif (nord du Maroc) comme *mudjâhid* (combattant de la foi), séjour à Fâs (près des mausolées de ses «ancêtres» B. 'Idrîs), à Tâza, au Sûs al-'Aqṣâ, à Wadja, à Tilimsân, à Tâhart, à Fîgîg (trois ans), Shallâla l-gharbiyya, à al-'Amiriyya (au sud-ouest de Wahrân), à Karistal, Mazzaghrân, Yallal, Sîrât, à Milyâna, dans les montagnes de Wânashrîs (trois ans), dans les montagnes de Djardjara (trois ans), à B. Mandjallât (où il fonda une *zâwiya)*, à Bidjâya, au mont Zaghwân (un ans et demi), au Zâb, au Djarîd, à Qayrawân, à Ṭarâbulus, à 'Iskandariyya, à al-Qâhira, à Djadda (sept mois), à Makka (trois ans), à Madîna (un an). Fournies par *al-Bustân*, 441, ces indications ne sont probablement pas conformes à la réalité mais, faute de moyens de contrôle, on ne peut ni les rejeter, ni les accepter sans réserve.

D'après l'auteur du *Bustân*, A.b.Y. faisait retraite dans les montagnes pour méditer, aimait le contact des ruraux, prêchait la paix et la réconciliation des tribus en guerre ; en même temps, il propageait ses idées mystiques et, dans les cités, il recherchait le contact des *'ulamâ'* pour la concertation.

98. De son côté, l'auteur du *'Iqd* rapporte, page 444 et suiv. le nom des *'ulamâ'* rencontrés par A.b.Y. à Fâs, au Sûs, à Wadjda, à Tilimsân : entre autres Muḥ. b. 'Isâ al-Maghîlî l-Djallâb, mort en 815/1470, Muḥ. b. 'Abd al-Karîm al-Maghîlî, mort en 909/1503, az-Zaqqâq, mort en 961/1564, l'un des six 'Uqbânî (Sa'îd ou 'Aḥ. ou Qâsim ou Muḥ. ou 'Ibr. ou 'Uthmân), morts entre 811/1408 et 880/1475.

Cette liste contient plus d'une erreur : A.b.Y. n'a pas pu rencontrer 'Aḥ. b. 'Alî b. 'Ashir mort en 765/1362, ni al-Mandjûr ('Abû l-'Abbâs 'Aḥ. b. 'Alî) mort en 995/1587. En outre, az-Zaqqâq y est prénommé 'Alî alors qu'il s'appelle 'Abd al-Wahhâb. C'est surprenant de la part de Si Mḥmmad b. al-Hâshimî qui a laissé le souvenir d'un homme d'une probité intellectuelle indiscutable. On se demande où il a puisé ces indications.

Compte-tenu de la date de leur décès, A.b.Y. a dû rencontrer ces *'ulamâ'*, s'il les a réellement rencontrés, quand il était encore jeune. On ne sait d'ailleurs pas s'il leur a seulement rendu visite ou s'il a suivi leur enseignement car ce sont tous des docteurs théoriciens de la *sharî'a* et du *tawḥîd*. On se serait plutôt attendu, à cet égard, à le savoir en contact avec les *'ulamâ'* de Tilimsân, ses contemporains, comme Mḥammad as-Sanûsî, mort en 895/1488, Ibn Zakrî, mort en 900/1494, Ibn Marzûq al-Kafîf, mort en 901/1495, Ibn Marzûq al-Khaṭîb, mort en 918/1503, etc...

99. A la veille de sa mort, il se trouvait, on ne sait pourquoi, chez B. Râshid,

tarakti bi-hâ bint-î wa na'âlat-î» (= la cascade est ma cascade, j'y ai laissé ma fille et ma savate) et l'on ajoute qu'il existe encore, dans cette bourgade, une paire de savates lui ayant appartenu et toujours regardées comme des reliques dégageant des effluves sacrés *(al-baraka)* (*'Iqd*, 445).

b - 'A'isha, née d'un mariage semble-t-il antérieur au séjour à Bidjâya et au mariage avec Sattî qui ne serait donc pas sa première épouse. On ne sait rien d'autre sur cette fille et rien sur celle qui a pu être sa mère.

On dit enfin que, trois mois avant sa mort, A.b.Y. versa à chacune de ses épouses le reliquat de sa dot *(ṣadâq)* et sa part d'héritage.

On trouve trace de sa descendance au milieu du XII/XVIIIème siècle. Le voyageur Warthîlânî fit partie, en 1153/1740, de la caravane des pélerins que dirigeait un certain 'Aḥ.b. at-Ṭayyib (ou b. at-Ṭayyiba) du lignage de notre thaumaturge et prit contact avec lui à Khanga *sayyid-î* Nâdjî. Il ajoute que les descendants d'A.b.Y. jouissaient de l'estime des habitants de leur région - sans nous dire laquelle - et que tous se distinguaient par le savoir et la *baraka* (Warthîlânî, *Riḥla*, 107).

Au début du XIII/XIXème siècle, un certain A.b.Y., descendant de notre thaumaturge, s'étant rallié à la cause française, accompagna le général Clauzel dans son expédition sur Lamdiya, lui fournit d'utiles renseignements sur les pays et en récompense, fut nommé fin Novembre 1246/1830, *khalîfa* français de Bulayda et de sa région. Mais, ne voulant pas de lui, les populations de la ville et celles de la montagne réussirent à la chasser comme indésirable (v. Trumelet, *Blida*, 971).

L'auteur de *Ribḥ*, 207, affirme que de son temps, au XIII/XIXème siècle, il y avait d'authentiques descendants d'A.b.Y. à Fâs, à Tilimsân, à Mu'askar, dans la région de Lamdiyya à Wâdî l-Ḥâmûl (les Marâziqa) et même à Ghadâmis. Il ajoute qu'A.b.Y., parlant de B. Faraḥ, aurait annoncé ; «Ils sont six, ils seront six cents...» pour dire que leur nombre se multipliera au centuple.

93. Ce qui précède infirme une assertion qu'il n'est pas rare d'entendre à Milyâna selon laquelle A.b.Y. ne se serait jamais marié et, par conséquent, n'aurait pas laissé de descendants. Les Milyânais vont jusqu'à lui faire dire : «*qashsh el-mra 'wedj fî 'wedj we Ḥmed mâ yezzewwedj*» (= les affaires de femmes sont entortillées et Aḥmad n'est pas pour se marier). De leur part, il y a peut-être la volonté de dénier à leurs nombreux concitoyens qui se réclament de son lignage le droit à ce titre honorifique et aux avantages qu'ils en retirent. Il est vrai que ses descendants prennent parfois un air supérieur et qu'ils se partagent la cagnote alimentée par les offrandes des visiteuses et des visiteurs de son mausolée. Ils s'attribuent aussi le privilège, en principe exclusif, d'avoir leur sépulture au voisinage de la sienne.

94. Actuellement, on dénombre en effet dans ce voisinage une vingtaine de tombes dont huit de femmes. Six sont dans le patio, les autres dans un petit cimetière à l'ouest de l'édifice. La plus ancienne est datée de 1271/1854. Toutes celles qui, plus anciennes, étaient antérieures à celle-ci, ont été détruites par l'armée française lors de la prise de la ville (v. supra § 55).

Les noms inscrits sur ces tombes ne permettent pas d'affirmer que toutes ne renferment que les cendres d'authentiques descendants du saint. Par ordre alphabétique, les patronymes sont 'Antrî, Belkhaythar, Benkhûdja, Benmîlûd, Benṣiyâm, Bûzâr, Elfûl, Ḥâdjḥammû, Ḥamdân, Khaznâdjî, Mûlây, Ziyânbûziyân. Faute de documents probants, irréfutables, on peut seulement présumer que les 'Antrî et les Ziyânbûziyân sont des descendants de Benmerzûga par son fils 'Aḥ. al-'Antarî plus haut nommé. Benmîlûd et Mûlay désignent la même famille qui a fait souche dans le sud oranais, à Tiyût, et qui, malgré la distance, est fermement sûre d'être du lignage d'A.b.Y.

Par contre, Elfûl est le nom de deux familles sans lien de parenté entre elles :

1° - Les descendants d'un *disciple* d'A.b.Y. qui s'appelait 'Abd al-Wâḥid at-Tamîmî, vraisemblablement arabe comme l'indique son ethnique qui lui offrit un jour un panier de fèves *(fûl)*, hors saison, moyennant une bénédiction à la suite de laquelle sa progéniture se serait multipliée comme les pousses d'un champ de fèves arrosé au printemps par une pluie bienfaisante.

2° - Les descendants d'un authentique petit-fils au 5ème degré d'A.b.Y. qui s'appelait également 'Abd al-Wâḥid, mais al-Marzûqî, sans doute de la branche des Marâziqa. Ses enfants mouraient en bas âge et lui-même risquait de disparaître sans laisser de descendance. A l'un d'eux, il donna le prénom Elfûl en pensant à *fa'l* (heureux présage) et aussi à ce qui était arrivé à la famille de son homonyme at-Tamîmî. Son vœu se serait exaucé. L'enfant aurait survécu et sa descendance se serait multipliée.

De nos jours, il est difficile de savoir lequel de ces deux éponymes est l'ancêtre de la famille Elfûl de Milyâna (v. *Ribḥ*., 207).

Ses études et ses voyages

95. Sur la formation d'A.b.Y., on n'a que de maigres indications. Comme la plupart de ses contemporains, il a dû apprendre à lire, écrire et mémoriser le texte coranique dans quelque *djâmi'* de Ra's al-Mâ ou de Qal'at b. Râshid. Il aurait ensuite, selon les sources suivi les leçons d'une dizaine de maîtres sur lesquels on n'a pas davantage de renseignements. Ils seraient originaires

prénoms courants à l'ouest et au centre de l'Algérie tout comme Râshdi, Melyânî, Benyûsef. Signalons au passage que le chacal est aussi appelé, on ne sait pourquoi, Benyûsef et Sî Mḥammed.

90. En ce qui concerne son lieu de naissance, on indique tantôt Tabalkûza, tantôt Tâliwânat et tantôt Qal'at B. Râshid. *'Iqd*, 433 opte pour Tâliwânat.

De sa date de naissance, on ne connaît ni le jour, ni le mois, et on hésite entre les années 836/1432, 840/1436, 844/1440.

Il avait donc entre 13 et 12 ans quand les Turcs prirent Constantinople et entre 52 et 60 ans quand les Rois Catholiques prirent Gharnâṭa et Christophe Colomb découvrit l'Amérique, et entre 62 et 70 ans quand les Musulmans, non convertis au catholicisme, furent expulsés en totalité de la péninsule ibérique. Le rappel de ces événements aide à comprendre son comportement et sa carrière.

Il n'y a par contre pas de divergence sur son lieu de décès : le village *(balda)* de Birâz (Braz), ancien nom d'al-*Khirba (auj. al-*'Amira), à 16 km. au nord-ouest de 'Ayn ad-Diflâ.

On connaît le jour de son décès : un mercredi et le jour de ses obsèques : un jeudi, mais on hésite entre le mois de Ṣafar 931/1524 et le 10 Ramaḍân 934/1527. On assure qu'il a vécu 91 ans, donc durant les trois quarts du IX/XVème siècle et le premier quart du X/XVIème siècle *(Ribḥ*, 238-39).

91. Il a convolé en justes noces avec au moins quatre femmes :

a - *Saṭṭî* bint 'Amr b. 'Aḥ. al-Mashrafî ṭ-Ṭarârî dont le père, sous prétexte que le jeune A.b.Y. répandait des innovations blâmables *(bida' munkara)*, en réalité parce qu'il commençait à lui porter ombrage en thaumaturgie, avait fait le projet de l'assassiner mais ne put donner suite à son projet et, par l'effet d'un charisme, fut confondu et amené à récipiscense. Ayant eu vent de ce fait, deux personnalités de la région, 'Uthmân b. 'Umar, monté sur son ânesse, et 'Abd ar-Raḥmân al-Ghulâmî, à pied, vinrent trouver A.b.Y. et lui proposer d'épouser Saṭṭî. Mais, pour cela, il lui fallait verser une forte dot exigée par le père : 100 dînârs, deux servantes et deux mules alors qu'il était sans ressources, venant tout juste de rentrer de Bidjâya où il était étudiant. Il accepta quand même les conditions du mariage et, comme on le verra, il trouva le moyen d'y faire face. Pour toute richesse, il n'avait alors que son savoir. 'Uthmân et 'Abd ar-Raḥmân l'avaient testé et avaient constaté qu'il «était un océan de science sans rivage» *(Bustân*, 12, 13 *Ribḥ*, 114, 169, 172).

b - *Kalîla* bint Muḥ. ad-Dardjî qu'il épousa contre la volonté du père dont les réticences furent levées par des disciples qui réussirent à lui faire accroire que le mariage avait été déjà décidé (au ciel) par Allâh en présence de

l'archange Djibrîl, du Prophète Muḥammad, des quatre premiers *khalîfa-s* 'Abû Bakr, 'Umar, 'Uthmân et 'Alî, entourés d'un groupe d'anges *(malâ'ika)* (*'Idq*, 453, *Ribḥ*, 168).

c - *'A'isha*, surnommée az-Zaghla bint Qâda Benmerzûga, son grand ami, qui vint lui rendre visite en prison, à Tilimsân, quand il était incarcéré par 'Abû Ḥammû III et qui lui proposa sa fille en mariage. A.b.Y. accepta et, dès sa libération, consomma ce mariage.

d - *Khadidja* bint Muḥ. al-Marînî dont on ne sait rien des circonstances de son mariage.

92. On connaît le nom de trois et peut être de quatre de ses fils et de deux de ses filles.

a - Muḥammad Benmerzûga dont la mère est 'A'isha et qui avait le même prénom que son grand-père maternel. On dit que c'était lui qui tenait le plus de son père : autorité *(ḥazm)*, esprit de décision *('azm)* et qu'il reçut de lui, à la veille de sa mort, les recommandations ultimes pour la protection de la famille et la gestion de la *zâwiya* d'al-Qal'a (*'Iqd*, 454 et suiv.).

b - Muḥammad aṣ-Ṣaghîr dit 'Amazyân dont la mère est Saṭṭî. L'épithète *aṣ-ṣaghîr* (junior) laisse supposer qu'il avait eu un frère de même prénom décédé auparavant. Un usage, encore vivant dans le pays, fait qu'on donne le prénom d'un frère décédé à un autre censé le remplacer.

'Amazyân a eu, dit-on, un frère et une sœur au Sahara et lui-même serait mort en Egypte, en un lieu dit Mausolée *(ḍarîḥ)* 'Abd al-Karîm. Qui étaient ce frère et cette sœur ? Pourquoi l'Egypte ? Pourquoi le Sahara ? Pas d'explication dans les sources qui sont si précises au sujet de Muḥammad Benmerzûga. Celui-ci, mort à une date qui n'est pas indiquée, aurait sa tombe à 'Umm Salmûn, à 17 km à l'ouest de Sharshâl et serait le père d'Aḥ. al-'Antarî et l'éponyme de tous les Marâziqa (el-Mrâzga) (*'Iqd*, 454).

c - A.b.Y. aurait eu également un fils prénommé Manṣûr dont les descendants ont été signalés, au siècle dernier, dans le Gûrâra.

d - al-'Antari 'Aḥ. dont on ne connaît ni la mère, ni la date de son décès, ni sa descendance (*'Iqd*, 454).

Quant aux deux filles, ce sont :

a - 'Amina, probablement la sœur du Muḥ. 'Amazyân morte au Sahara, plus exactement au lieu dit ash-Shallâla al-Gharbiyya, auj. ash-Shallâla ẓ-ẓahrâniyya) à ne pas confondre avec Qaṣr ash-Shallâla qui est à 79 km au nord-est d'al-'Ayn aṣ-ṣafrâ. On fait dire à A.b.Y. *«ash-Shallâla shallâla-î*

al-Djazâ'ir, 1981, I, 502, II, passim (en abrégé *Ta'rîkh*).

A l'exception des deux derniers, tous ces ouvrages ont été dépouillés et exploités en ce qui concerne *Sayyid-î* A.b.Y. par plus d'un arabisant français, entre autres par Bodin, Dermenghem et, tout récemment en 1978, Berque (Jacques). Des écrivains arabo-musulmans, seul le Professeur Sa'd Allâh a pris la peine de les étudier et d'en extraire la substance.

La présente étude s'appuie essentielement sur *al-Bustân*. (ms. de Milyâna et éd. de 1927).

Généalogie et état-civil

87. Qui est *sayyid-î* Aḥmad b. Yûsuf ?

D'après Muḥ. b. 'Alî at-Ṭarâbulusî, auteur d'une *Madjmû'a fî 'uṣûl aṭ-ṭarîqa sh-shâdhiliyya*, reproduite dans *'Iqd*, 430, son arbre généalogique *(shadjara)* serait le suivant : 'Abû l-'Abbâs 'Aḥ. b. 'Abî 'Abd Allâh Muḥ. b. 'Aḥ. b. 'Abd Allâh b. Yûsuf b. 'Abd al-Djalîl b. Yamdâs b. Manṣûr b. 'Alî b. Manâṣir b. 'Isâ b. 'Abd ar-Raḥmân dit Tadghîr b. Ya'lâ b. Ishâq dit 'Abd Allâh al-'Aliyy b. 'Aḥ. b. Muḥ. b. 'Idrîs al-'Aṣghar b. 'Idrîs al-'Akbar b. 'Abd Allâh al-Kâmil b. al-Ḥasan as-Sabṭ b. 'Alî b. 'Abî Ṭâlib par Fâṭima z-Zahrâ' bint Muḥammad sceau des prophètes.

Ribḥ, 157, en reproduit une autre qui présente des divergences avec la précédente : Après Yamdâs, il y a 'Abd Allâh ar-Raḍiyy b. Mûsâ l-Murtaḍâ b. Dja'far aṣ-Ṣâdiq b. Muḥ. al-Bâqir b. 'Aḥ. b. Zayn al-'Abidîn b. Ḥammûd b. 'Alî b. 'Idrîs... et après 'Abd Allâh al-Kâmil il y a Muḥ. b. al-Ḥasan as-Sabṭ b. 'Alî b. 'Abî Ṭâlib.

Vraie ou sujette à caution, cette *shadjara* fait de lui un arabo-berbère qui, comme beaucoup de *Maghribins*, se réclame d'un lien avec le Prophète (de l'Islâm), donc arabe. Mais Yamdâs, Tadghdîr, Ya'lâ sont des prénoms évidemment berbères. *'Iqd*, 431, fait remarquer que Manâṣir est l'éponyme des *shurafâ'* de Fîgîg, venus de Marrâkush.

88. Son père était donc prénommé Muḥ. Pourquoi n'est-il connu lui-même que sous l'appellatif d'A.b.Y. ? Pour l'expliquer, on a avancé deux légendes :

a - Dès sa naissance, il aurait été recueilli par un certain Yûsuf qui l'éleva avec le lait de sa vache et le traita comme son fils.

b - Il serait le fils de Manṣûr surnommé Bû-karkûr du Gurâra dont le tombeau à Tâbalkûza est encore de nos jours vénéré par les 'Aṭâwina de la Sâwira et l'on insinue que Manṣûr, à la naissance de l'enfant, était à un âge

avancé, ce qui suscitait des plaisanteries. En réponse le vieux papa jeta l'enfant, en présence de la foule, dans un brasier. Miracle : les langes brûlèrent mais le bébé fut retiré indemne. Ensuite, le vieux papa le lança en l'air. Nouveau miracle : le bébé retomba loin dans le nord, au foyer de Yûsuf ar-Râshidî déjà nommé, qui l'éleva comme il a été dit.

On dit aussi qu'il est le frère utérin de Bû-gadamma dont la *qubba* est bien connue au cimetière de Ghardâya et visitée avec ferveur par certains traditionnistes de *wâdî* Mizâb.

Mais aucune de ces légendes, si divergentes et si fantaisistes, n'est rapportée dans les écrits cités plus haut et elles ne sont colportées que par des traditions orales.

Il est sans doute plus simple de convenir qu'il s'appelle A.b.Y. du nom de son bisaëul Yûsuf dont la personnalité a dû avoir plus de relief que celles des autres personnages de la *shadjara*.

On connaît le nom de sa mère : 'Amina bint Yaḥyâ b. 'Aḥ. b. 'Alî al-Gharîsî. Il est donc l'arrière petit-fils d'un thaumaturge, connu aujourd'hui sous le nom de *sayyid-î* 'Aḥ. b. 'Alî (*Sîdî* Ḥmed ben 'Lî) dont le tombeau est toujours visité près de Mu'askar et qui compte de nombreux descendants (*'Iqd*, 433).

89. On n'attribue à A.b.Y. pas moins de cinq *nisba-s* (ethniques) :

a - *ad-Dâmûdî*, originaire de B. Dâmûd, une branche de Maghrâwa, dont les campements sont autour du village de Dâmûd au Tuwât (*Dalîl*, 42, note 22 et 56).

b - *al-Marînî* parce qu'il aurait séjourné, entre Fîgîg et Sidjilmâsa, dans le territoire de Zanâta b. Marîn. Ses lointains ancêtres, on l'a déjà signalé, vivaient à Marrâkush d'où ils auraient été obligés d'émigrer au IV/Xème siècle, à l'arrivée de B. 'Ubayd. Ont-ils donc été hostiles à la doctrine des 'Ismâ'îliyya ?

c - *al-Hawwârî* parce qu'il a passé la plus grande partie de sa vie au pays de Hawwâra qui englobait les deux villes de Qal'at Hawwâra et de Yallal, non loin, d'une part, de Mu'askar et d'autre part de, 'Ighîl 'Izân.

d - ar-Râ*shidî* parce que sa *zâwiya* était à la Qal'a de B. Râshid et aussi parce qu'il a passé la dernière partie de sa vie chez B. Râshid, un rameau des précédents, à l'est d'al-Aṣnâm (auj. Shalaf).

e - *al-Milyânî* parce qu'il est enterré à Milyâna.

Il avait en outre deux sobriquets : *Bakhkhûṣa* et *Bû-ra's* qui sont encore des

as-Sa'îd b. 'Abî Dâwud à 'Aqbû (*wilâya* de Bidjâya). L'existence des deux derniers manuscrits m'a été signalée par M. 'Alî 'Amuqrân as-Saḥnûnî, proviseur du lycée ar-Rakâ'izî à Ḥadjdjûṭ, en 1984.

Al-Bustân est fondamental pour la connaissance d'A.b.Y. A le lire, On remarque :

a - qu'il est plein de noms propres de personnages appartenant les uns, aux époques antérieures du Maghrib (y compris l'Espagne musulmane) et du Mashriq, les autres contemporains de l'auteur. Parmi ces derniers figurent, bien entendu, les *fuqarâ'* (disciples) d'A.b.Y. dont plusieurs sont les narrateurs de tel événement ou de tel miracle auquel ils auraient assisté. Il est remarquable que beaucoup de leurs noms et prénoms sont encore usités à Milyâna : Daqqîsh, Ibn Ghâliya (Benghâlia), Ibn Ḥamâsha (Benḥmâsha), Ibn Khadda, Ibn Sûna, etc...

b - qu'il est écrit dans une langue très proche des parlers arabes actuels de l'ouest algérien comme le montre la liste suivante des vocables relevés et classés dans l'ordre alphabétique :

'arsham = marque (injonctif),

dawwâr = campement, agglomération rurale,

bubbûsh = escargots,

djenwî = canif, couteau,

khudmî = même sens,

khubbîz = guimauve comestible,

khammâs = ouvrier quintenier en agriculture,

kelkha = plante ombellifère, férule,

maṣṣâṭa = os coxal, hanche,

mezwâr = fonctionnaire autrefois chargé de veiller sur l'ordre public,

meshmâsha = abricotier,

madjshar = agglomération rurale (auj. on dit *madshar*),

meṣlâṭ = gourdin, grosse matraque (auj. on dit *meslût* et *muẓlâṭ*),

qulla = cruche, jarre,

ṣabbâṭ = soulier,

sharrâba = gland de coiffure,

shukâra = sac en jute,

tellîs = grand sac en laine et poils de chèvre,

yâ-khlâ = interjection d'étonnement,

zebbûdj = olivier sauvage,

zûbya = dépotoire, tas d'ordures,

2 - 'Alî b. 'Ah. b. al-Ḥâdjdj Mûsâ, né à al-Djazâ'ir vers 1248/1833, mort en 1332/1913, qui, à l'âge de vingt-quatre ans, a été *qâḍî* à Milyâna et l'a été, par la suite à Tanas et à Tilimsân, et qui est l'auteur de *Ribḥ at-tidjâra wa maghnam as sa-sa'âda fî mâ yata'allaqu bi 'aḥkâm az-ziyâra 'ilâ darîḥ al-waliyy aṣ-ṣâliḥ sayyid-î A.b.Y. da khîl Milyâna* mn. de la B.N. d'al-Djazâ'ir n° 928, daté de 1297/1880, d'après un exemplaire autographe (en abrégé *Ribḥ*).

3 - Anonyme, *Manâqib 'Abî l-'Abbâs 'A.b.Y.*, résumé du *Bustân*, mn. n° 1427 et 1471 de la Bibliothèque Générale de Ribât (en abrégé *Manâqib*).

Ces ouvrages, essentiellement hagiographiques, mais subsidiairement biographiques, doivent être complétés par :

4 - Ibn 'Askar (Muḥ. b. 'Alî), (936/1529 - 986/1578, *qâḍi* de Mawlây 'Abd Allâh al-Ghâlib), *Dawḥat an-nâshir li maḥâsin man kâna bi l-Maghrib min mashâyi kh al-qarn al-'âshir*, Lith., Fâs, 1316/1898, II, (an abrégé *Dawha*).

5 - al-Marrâkushî 'Abbâs b. Ibrâhîm, *qâḍî* de Marrâkush, mort en 1378/1959, *al-'i'lâm bi man ḥalla bi-Marrâkush wa'Aghmât min al-'a'lâm*, éd. de Fâs 1358/1936 et suiv., I, 195 (en abrégé *'I'lâm*).

6 - 'Abû Ra's (Muḥ. b. 'Abd al-Qâdir *al-ḥâfiẓ an-nâṣir al-mu'askarî*), mort en 1249/1823, auteur de *'Adjâ'ib al-'asfâr*, trad. fr. et commentaire in Revue Africaine, t. LXVI, 1925, n° 322 (en abrégé *'Adjâ'ib*).

7 - Kattâni (Muḥ. b. Dja'far al-), 1275/1856-1346/1927), *Salwat al-'anfâs wa muḥâḍarat al-'akyâs bi man 'uqbira min al-'ulamâ' wa ṣ-ṣulaḥâ' bi Fâs*, lith., 1316/1898, II, (en abrégé *Salwa*).

8 - Zayyânî (Muḥ. b. Yûsuf al-Burdjî az-), *Dalîl al-ḥayrân wa 'anîs as-sahrân fî 'akhbâr madîna Wahrân*, al-Djazâ'ir, 1399/1979 (en abrégé *Dalîl*).

9 - Ḥafnâwî ('Abû l-Qâsim al-), *Ta'rîf al-khalaf bi ridjâl as-salaf*, al-Djazâ'ir, 1327/1909, II, 97 (abrégé *Ta'rîf*).

10 - Sa'd Allâh ('Abû l-Qâsim), *Ta'rikh al-Djazâ'ir ath-thaqâfî*.

Deuxième Partie

Sayyid-î 'Aḥmad b. Yûsuf

86. Taumaturge réputé et aussi homme politique, *waliyy* de Milyâna, il a été longtemps considéré comme l'un des supports (*'awtâd* = piquets de tente) du Maghrib. (*Bustân*, 10, 25).

Bibliographie

Pour sa biographie, on dispose, en arabe des ouvrages suivants :

1 - Ṣabbâgh ('Abû 'Abd Allâh Muḥ. b. 'Alî al-Qal'î), *Bustân al-'azhâr fî manâqib zamzam al-'abrâr wa ma'din al-'anwâr sayyid-î A.b.Y. ar-râshidî n-nasab wa d-dâr*, en abrégé *Bustân*, écrit entre 952/1545 et 962/1555, soit environ vingt ans après la mort d'A.b.Y. L'auteur, qui est le fils d'un disciple dévoué d'A.b.Y., a connu personnellement ce dernier. Il exerçait la fonction de *qâḍî* à Qal'at Hawwâra, aujourd'hui Qal'at B. Rashîd.

L'ouvrage a été édité chez Jules Carbonel à al-Djazâ'ir en 1345/1926-27, avec un complément intitulé *'Iqd al-djumân fî takmilat al-Bustân* (en abrégé *'Iqd*) dont l'auteur a voulu garder l'anonymat. En réalité, c'est 'Abû 'Abd 'Allâh Mḥammad b. Muḥ. al-Hâshimî, ancien magistrat d'al-'Aṣnâm. Il a établi le texte du *Bustân* d'après quatre manuscrits dont l'un, selon lui le meilleur, a été écrit à Fîgîg en 1195/1780, un deuxième écrit à Milyâna en 1246/1830 et deux autres sans indication de date et de lieu.

Il existe de nombreux autres manuscrits du *Bustân* : à la B.N. d'al-Djazâ'ir n° 1707 de 172 feuillets et 1708 de 221 feuillets ; chez le gardien du mausolée d'A.b.Y. à Milyâna ; chez *ash-sharîf* as-Saḥnûnî à Ighzar 'Amuqrân ; chez

quelques centimes. Citadins et ruraux y trouvent leur compte, eux qui répugnaient jadis à manger *« khubz al-bolândjî»* parce qu'ils le trouvaient cher et de qualité inférieure par comparaison avec celui que pétrissaient leurs femmes. Maintenant ils en veulent et se battent pour en avoir plus que de besoin. Il n'est pas rare d'en voir un *«shwârî»* de baguette sur le dos d'un âne allant vers le *«dawwâr»*. On ne se doute pas que cette denrée subventionnée est pétrie de pétrole.

83. Les coupures d'eau ? Jusqu'à une date récente, les Milyânaises les ont ignorées. Elles avaient l'habitude de laisser couler les robinets à longueur de journée et de nuit. Mais l'accroissement démographique, les nouvelles habitudes d'hygiène ont augmenté la consommation alors que les ressources sont demeurées les mêmes quand elles n'ont pas diminué. En user modérément est une notion qui ne s'est pas encore imposée à l'esprit des ménagères. De leur côté, les pouvoirs publics se contentent de faire payer un forfait des plus modestes sans se soucier de la quantité consommée par foyer, celle-ci n'étant pas mesurée au moyen d'un compteur.

84. On dit enfin qu'il est difficile et souvent impossible de faire réparer des appareils ménagers et autres objets du confort moderne. On ajoute que, depuis 1962, il n'y a dans cette ville qu'un seul plombier compétent et qui aurait d'ailleurs appris son métier en France. C'est un fait qui illustre mieux que tout autre propos l'état dans lequel s'est trouvé le pays le jour de son indépendance. En vingt ans, dit-on, les dirigeants auraient dû et pu faire le nécessaire pour remédier à cet état de choses en accordant plus d'importance à la formation de la petite main d'œuvre.

85. Quoi qu'il en soit, on peut espérer que toutes ces insuffisances finiront par disparaître. Elles ne sont rien à côté des misères et des privations qui étaient le lot de l'«indigène» pendant la nuit coloniale. Le moment n'est sans doute pas loin où Milyâna fera peau neuve, où elle retrouvera son aspect riant, où le Milyânais fera un meilleur emploi de son temps, où les jardins et les vergers de sa banlieue seront travaillés, où le marché offrira en abondance légumes, fruits et fleurs, où les boulangers vendront du pain à longueur de journée, où les robinets ne seront jamais à sec, où des techniciens y seront nombreux, où ses habitants seront devenus de véritables citadins, où, bref, la vie du Milyânais sera «meilleure». Amen.



Vue de la marbrerie de l'Ecole des Mines, à l'ouest de la ville. Photo M. Arib

منظر منجم الرخام ومدرسة المَناجم غرب المدينة. تصوير م. عريب

C'est sans doute le souhait qu'aurait formulé *sayyid-î* Aḥ.b. Yûsuf à l'intention des habitants de Milyâna où, après une vie mouvementée, le destin l'a conduit pour y trouver sa dernière demeure.



Banlieue est traversée par les routes qui mènent à Khamis-Milyâna et au village des coopérants. Photo M. Arib

الضاحية الشرقية والطرق المؤدية الى خميس مليانة وقرية المساعدين. تصوير م. عريب

74. Autre remarque : de bon matin, devant les boulangeries, s'allongent des «queux» pour rafler le pain et le retardataire n'a aucune chance d'en trouver au milieu de la matinée, à moins de connaître personnellement un boulanger et de lui passer commande la veille.

75. Encore une remarque : les maîtresses de maison connaissent maintenant les coupures d'eau et se préoccupent d'en constituer des réserves qui, cela va sans dire, ne résolvent pas le problème, un problème qui se pose d'ailleurs à l'échelle «nationale»...

76. Encore une dernière remarque : en dehors des produits dits de «première nécessité» qui sont subventionnés (pain, huile, sucre, lait, loyers, etc...). le coût de la vie est élevé au regard du pouvoir d'achat.

Ce sont ici autant de réalités dont on se plaint et qui sont le sujet principal

sujet des conversations. On a oublié la vie quotidienne d'autrefois, ses misères, ses humiliations !

77. Et d'expliquer ces réalités comme suit :

La ville ne se développe pas parce que son site escarpé, à flanc de montagne, est relativement pauvre en terrain à construire.

78. Ses anciens citadins ont émigré parce que la «révolution» à provoqué dans tout le pays un mouvement général de populations de la campagne vers le village, du village vers la ville moyenne, de la ville moyenne vers la grande ville.

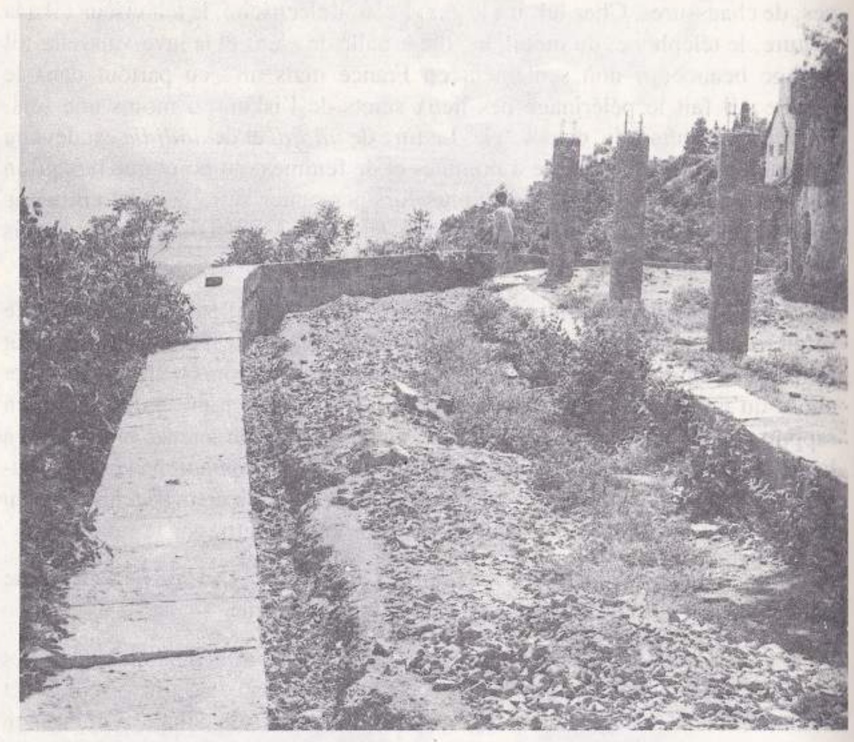
79. Ses maisons se dégradent parce qu'elles sont la propriété de l'Etat *(l-bâylek)* qui perçoit un loyer dérisoire et ne se préoccupe guère de les réparer quand il le faut. Quant au locataire, c'est un néo-citadin qui vivait naguère dans la «brousse» et qui ignore encore les contraintes et la discipline de la vie urbaine. En outre, il a le plus souvent une famille nombreuse qu'il entasse comme il peut dans un espace exigü. Enfin, dans les immeubles collectifs, il n'y a ni règlement de copropriété, ni charges locatives, ni syndic, ni gardien, ni impôts locaux. Résultat : un énorme patrimoine immobilier qui se dégrade chaque jour davantage.

80. Le trottoir et la chaussée des rues sont mal entretenus ? C'est parce que le service de voierie est mal organisé ; le personnel, mal rétribué et les responsables municipaux, incompétents parce qu'«élus» selon des critères étrangers à la qualification.

81. Rue et Café maure sont-ils en permanence pleins de Milyânais dans la force de l'âge qui s'abandonnent nonchalamment au plaisir de la tasse de café, du verre de thé, du jeu de cartes espagnoles, du domino ou se laissent tout bonnement «bayer aux corneilles» ? Il est difficile de répondre à cette question. Ils ne sont pas tous «chômeurs volontaires», mais on affirme qu'aucun d'eux ne travaille une journée pleine. Ils travaillent - peut-être - mais le moins possible et s'arrêtent pour ou sans le moindre motif. L'acharnement à la tâche n'est pas assez répandu. On aime battre la chaussée ; on est attiré par la terrasse du café et le banc du jardin public ; on excelle à deviser, à raconter et à entendre de bonnes histoires ; on s'excite à dauber sur le pouvoir, à «carder» l'administration ; on adore «tuer le temps» de n'importe quelle façon ; on ignore le dicton *«time is money»*. Le boutiquier baisse son rideau pour aller faire son marché, chercher son enfant à l'école, faire sa prière à la mosquée deux ou trois fois par jour, prendre l'air, faire une démarche sans importance, badauder... Le fonctionnaire, l'employé, l'ouvrier, dès qu'ils le peuvent, en font autant sinon davantage.

82. Les chaînes pour le pain ? C'est parce que la baguette ne coûte que

la reconstruction de la plupart des maisons, ce qui n'est pas une mince entreprise. Le jour où cette nouvelle opération chirurgicale aura été menée à bonne fin, les Milyânais cesseront de baigner dans une poussière ocre par temps ensoleillé et de patauger dans la boue par temps pluvieux. Pourvu que ce soit à une date pas trop éloignée.

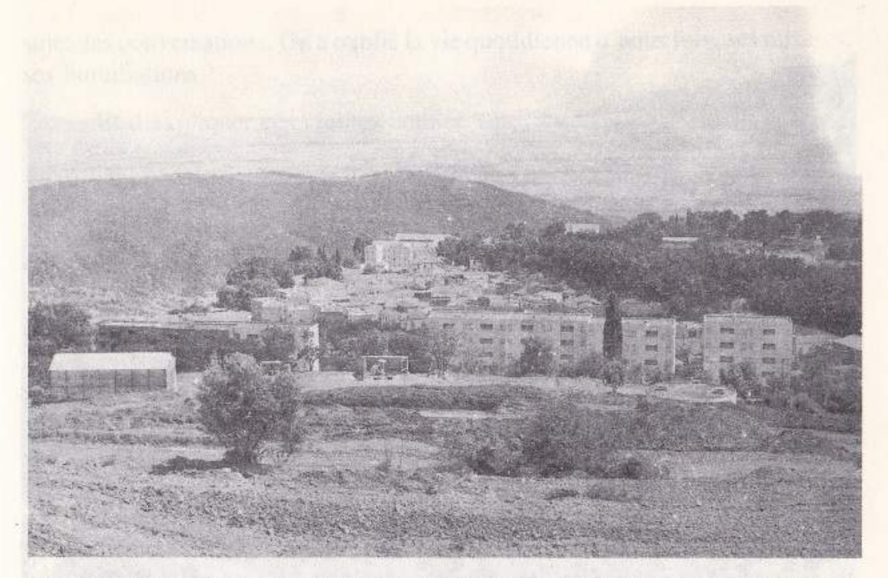


Les remparts sud-est aux abords de la Pointe des Blagueurs, celle-ci en réfections en 1985. Photo M. Arib

السور الجنوبي الشرقي من جهة «لابوانت دي بلاقور» عام 1985 وقت تجديدها.
تصوير م. عريب

72. En attendant, il leur faudrait fournir des efforts pour que la propreté ne laisse pas trop à désirer dans les lieux publics (mairie, poste, cafés maures, marché aux légumes etc...).

73. Il faudrait que la ville cesse d'être, à longueur de journée, grouillante d'hommes jeunes et moins jeunes qui semblent se complaire dans l'oisiveté pendant que vergers et potagers, en banlieue, presque totalement abandonnés, ne produisent plus les fruits et légumes qui faisaient la renommée de cette ville. Les cerises, le raisin muscat blanc et les prunes «reine-claude» y sont devenus de plus en plus rares.



Quartier est de la banlieue, vu en 1986, à partir de la Cité Nord. En bas, colline boisée de Sidi Sba' et, au-dela, la plaine du shalaf. Photo M. Arib

الحي الشرقي من الضاحية كما ظهر عام 1986 من العمارة الشمالية في أسفله هضبة سيدي سبع وأدغالها وبعدها سهل شلف



Quartier du Wâd ar-Rayhân à l'ouest de la ville. Photo M. Arib

حي وادي الريحان غرب المدينة . تصوير م. عريب



La rue 'Amîr 'Abd al-Qâdir (ex-rue Saint-Paul) vue en 1986, au printemps, décorée des couleurs algériennes, grouillantes de badauds dans la force de l'âge.
Photo A. Khélia

نهج الأمير عبد القادر (من قبل نهج القديس بولس) كما يظهر عام 1986 في الربيع مزين بالأعلام الجزائرية ـ عامر بالمارة في عنفوان السن . تصوير علي خلية

68. Ce qui frappe aujourd'hui, par rapport à un passé qui n'est pas si éloigné, c'est que le Milyânais est devenu un grand consommateur, amateur de pain blanc, de viande, de légumes, de laitages, d'œufs, de vêtements modernes, de chaussures. Chez lui, il a le gaz, l'eau, l'électricité, le téléviseur ; il a la voiture, le téléphone, du mobilier ; il a la salle de bains et le lave-vaisselle ; il voyage beaucoup, non seulement en France mais un peu partout dans le monde ; il fait le pélerinage des lieux saints de l'islâm au moins une fois, souvent plusieurs fois, dans sa vie. Le titre de *ḥâdjdj* et de *ḥâdjdja* est devenu commun à un grand nombre d'hommes et de femmes, au point que lorsqu'on interpelle un *ḥâdjdj* dans la rue, plusieurs personnes se retournent en même temps. On ne peut sans doute pas dire que tout Milyânais en est là, mais nombreux sont ceux qui en sont là.

69. Est-ce à dire que tout va pour le mieux dans le meilleur des mondes ? Ce serait trop beau et il serait excessif de l'affirmer. Pour qu'il en soit ainsi, il eût fallu que la mission civilisatrice dont se targuaient les colonisateurs ait été autre chose qu'un leurre. Il eût fallu que le Milyânais ait reçu une information en rapport avec la vie de cette fin de siècle, une initiation à la science moderne et à la technlologie. Or, en 1962, l'énorme majorité de la population était analphabète. Elle ignorait surout toute technicité. Ce n'est pas en deux décennies et, au départ, avec des moyens dérisoires, qu'elle pouvait rattraper le retard.

Quiconque a connu Milyâna avant 1962 et y revient en 1988 ne peut pas ne pas remarquer qu'elle a beaucoup perdu de son charme.

70. D'abord, étant à l'écart de la voie ferrée et de la route nationale, loin des terres irriguées par les eaux du barrage, elle n'a profité ni du trafic ferroviaire et automobile, ni des ressources agricoles de la plaine du Shalaf comme son satellite Khamis-Milyâna qui a fini par la supplanter grâce à l'essor de son activité économique chaque jour plus intense. Son climat favorable ne suffit plus à lui conserver la prééminence qu'elle avait autrefois et elle est désormais confinée dans son rôle de garnison et de résidence administrative.

71. Ensuite, comme toutes les agglomérations algériennes - quelle qu'en soit l'importance - elle a vu la composante de ses habitants et l'aspect de ses habitations subir de profonds changements. Ses citadins ont émigré, qui à Bulayda, qui à al-Djazâ'ir, et fait place à des ruraux venus en grand nombre de la plaine et de la montagne, et qui ont du mal à s'adapter à la vie urbaine. Aussi, faute d'entretien, ses maisons et ses rues se sont dégradées. En outre, le séisme d'al-'Asnâm (Shalaf) en 1980 a gravement délabré ses vieilles bâtisses et les a rendues inhabitables.

Cet état de choses n'a pas échappé aux responsables qui ont dû prendre récemment la décision d'une rénovation générale de la ville par la démolition et

Milyâna de nouveau algérienne

62. Dès lors, comme toutes les villes d'Algérie, Milyâna commança une vie nouvelle.

Elle est devenue le chef-lieu d'une *dâ'ira* dépendant de la *Wilâya* d'al-'Asnâm (depuis peu *Wilâya* de Shalaf). Depuis le printemps 1984 elle dépend de la *Wilâya* de 'Ayn ad-Dîfla. Simple réarabisation du langage administratif. L'étendue de cette *dâ'ira* est inférieure à celle de l'ancien arrondissement ; elle a été amputée de la superficie nécessaire à la création d'autres *dâ'ira*. A cause de l'accroissement démographique. Actuellement la population de la *baladiyya* de Milyâna dépasserait 30.000 habitants.

63. A l'exception d'un seul non-musulman, médecin de son état[52], il n'y a plus trace d'ancien colonisateur chrétien ou juif. Tous ont fui lors de l'exode de 1962, laissant les terres, les maisons, une partie du mobilier et, chez une minorité «d'indigènes», l'usage de la langue française, le seul investissement valable qu'ils aient fait chichement et qui persistera quelque temps en souvenir de leur présence de plus d'un siècle. Ils sont repartis comme ils étaient venus, dans la tourmente ou, selon le vers de Corneille : «Le flux les apporta, le reflux les remporte».

64. Il n'y a donc plus, à Milyâna, que des Musulmans. Les uns se réclament d'une origine authentiquement arabe, d'autres d'une origine berbère, d'autres d'une origine turque, mais personne ne s'avise de faire remonter son ascendance aux Carthaginois, aux Romains, aux Vandales ou aux Byzantins. L'Islâm - toujours lui - a fait le clivage définitif. Quelques familles se disent d'origine andalouse avec le sentiment d'un brin de prestige provenant du «paradis perdu» que l'ensemble du monde arabe n'a toujours pas oublié.

65. Le vide laissé par le départ des «Pieds Noirs» n'a pas été aussi catastrophique que d'aucuns l'avaient annoncé. Il a été comblé sans difficultés majeures : l'administration est assurée par une «assemblée populaire communale» (A.P.C.), élue au suffrage universel par les électeurs et les électrices ; la justice, totalement arabisée, est assurée par un tribunal d'instance avec président, procureur, greffe, barreau ; la sécurité, par un commissariat de police et par une gendarmerie. De nombreuses écoles primaires de garçons et de filles, en ville et en banlieue, accueillent la quasi totalité des enfants d'âge scolaire. Au niveau secondaire, plusieurs collèges d'enseignement moyen (C.E.M. comparables aux C.E.S.), un lycée de garçons et un lycée de filles prolongent les classes primaires par le système de «l'école fondamentale» de neuf ans de scolarité obligatoire. En cette matière, malgré une natalité exceptionnellement forte, un démenti est infligé à la prétendue nécessité du malthusianisme

colonial qui condamnait les neuf dixièmes des enfants à l'éducation de la rue et à l'analphabétisme. Quelle que soit la condition sociale de ses parents, le jeune Milyânais accède à l'instruction et la langue arabe, qui est fondamentalement l'essence de son identité culturelle, n'est plus pour lui une langue étrangère. Elle est enseignée à tous les niveaux.

Il y a lieu d'observer que les Milyânais sont tous arabophones ; quelques-uns sont en même temps berbérophones, mais personne ne parle le turc dont le dialecte arabe a conservé moins de deux cents mots[53].

La langue arabe enseignée est la langue classique, celle du Qur'ân, officiellement qualifiée *langue nationale* qu'il s'agit de diffuser par tous les moyens (presse, radio, télévision, livres, etc...). Ceci étant, il n'y a pas d'exclusive contre l'apprentissage des langues étrangères, au contraire. Le français jouit d'une situation privilégiée et le nombre des francophones a plus que décuplé depuis 1962 ; l'anglais, l'espagnol et le russe sont aussi en faveur dans l'enseignement secondaire.

66. L'environnement *(al-muhît)* est progressivement arabisé et islamisé. Les locaux commerciaux ont leurs enseignes exclusivement en caractères arabes et en langue arabe classique *(baqqâla, hallâq, qassâb, labbân, mudjawharât, maqhâ, makhbaza, funduq, mustashfâ, 'iyâda, mawâdd ghidhâ'iyya, shurta, ad-darak al-watanî*, etc...

La rue St Paul est devenue *shâri' al-'amîr* 'Abd al-Qâdir ; la place Carnot (de l'Horloge) *sâhat al-'amir* Khâlid ; la rue St Jean, *nahdj* Qast 'Alî Fawzî ; la Pointe des Blagueurs, *sâhat* 'Alî 'Ammâr (le héros de la bataille d'Alger, plus connu sous le sobriquet d'«'Alî la Pointe» et originaire de Milyâna) ; la rue Valée, *nahdj* 'Abd al-Hafîd b. Sha'bân ; la rue du Commandant Roumens, *nahdj* Muhammad bû Na'âma, la rue d'Alger Ah. Zwâwî Benyûsef, etc...

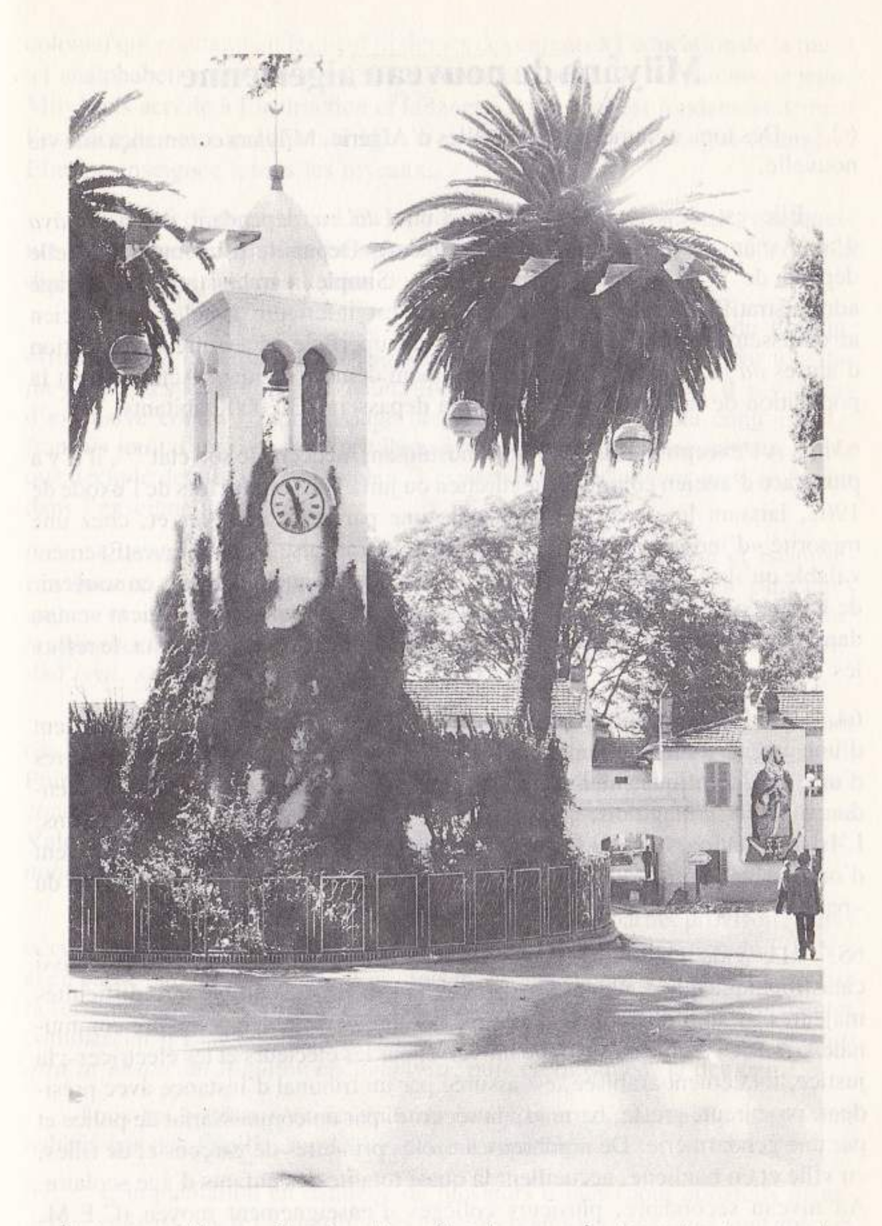
Les locaux de la commune mixte des Brâz sont en partie, provisoirement, occupés par *ittihâdiyyat djabhat at-tahrîr al-watanî* (= fédération du F.L.N.) et en partie par *dâr at-tawthîq*. Les mots *mahkama* et *qâdî* sont abandonnés par la terminologie officielle. L'église a été aménagée en *sûq al-fallâh*, centre commercial d'Etat ou magasin à grande surface ; la synagogue, en *maktab qirâ'at al-qur'ân li mahw al-'ummiyya*, puis en mosquée, la deuxième.

Tous les bistrots sont devenus des *maqâhî* et les anciens lupanars sont habités par des familles au-dessus de tout reproche.

67. L'implantation en banlieue de plusieurs usines (pour appareils ménagers, explosifs, sucre) a multiplié les emplois pour tous ceux qui y sont aptes et qui en veulent. Il n'y a plus de cireurs ni de jeunes portefaix (ces *yawled-s* du vocabulaire colonial) dans *sâhat* al-'amir Khâlid, ni de mendiants (ou très rarement) dans les rues.



Deux vues de la place de l'horloge, devenue *Sâḥat al-'amîr* K͟hâlid (petit-fils d'*al'amîr* 'Abd al-Qâdir). Vers 1920, l'émir Khaled est venu plus d'une fois à Milyâna où il comptait de nombreux partisans, entre autres Aḥmed Ghersi. Le minaret est tout ce qui subsiste d'une mosquée détruite par les Français quand ils ont refait la ville.
Photo A. Khélia



منظر ان من ساحة الساعة التي أصبحت ساحة الأمير خالد (حفيد الأمير عبد القادر) وقد زار الأمير خالد مليانة عدة مرّات حوالي سنة 1920 وكان له بها عدد من الأنصار من بينهم أحمد غرسي . والمنار كل ما بقي من مسجد هدمه الفرنسيون عندما جددوا المدينة . تصوير علي خلية

agriculteurs, Andrien, Casanova, Chalom, Danger, Hugon (les héritiers), Lafon, Malbert (F.), Marini (Mme), Restichelli, Sarlat, Spiard, Mercadal, Vulcain ; les agents d'assurance, André, Dahan, Frémentin, Graziani ; les banquiers, Benichou, Chetrit, Sénanedj ; les bijoutiers, Bentolila, Dumont ; le bois de chauffage, Escriva, Franco, Mengual ; le bois de construction, Bonnefoy, Delatorre, Lloret (Joseph) ; les boulangers, Chiche, Guyard, Lauze, Navarro ; les bourreliers, Girardin, Llnarès ; les briquetiers, Aveilla, Tambourini ; les bistrots, Gobbi, Coulon, Berthold, Larousse, Zekri, Scott, Migliario, Molla ; le cercle civil, Trouche, Bassa, Duquesnoy ; les charpentiers, Delatorre, Lloret, Matoux ; les charrons forgerons, Chicha, Bonnefoy, Lloret, Pérez ; les marchands de chaussures, Bedjaï, Benadira, Lascar, Draï, Ferrando ; les marchands de chaux, Diaz, Duquesnoy, Tamburini ; les coiffeurs, Bentolila, Ghanassia, Fraissinet, Pallier ; les confiseurs, Fabre, Ramone ; le coutelier, Bordas ; les marchands d'eaux minérales, Caron (Mme), Siché (Henri) ; les ferblantiers, Guigui (Joseph) Laïck, Makhlouf, Zenati, Obédia, Saïd ; les géomètres, Cort, Fabrègues ; les médecins-docteurs, Danger, Rédar, Richard-Cabanis ; le mécanicien, Louche, etc... Comme indigènes, il y avait un agriculteur, Cherchali Ahmed ; un marchand de bibelots, Koudjali ; un boulanger, Saoudi ; un marchand de grains, Çherchali Mohammed ; deux minotiers, les deux Cherchali ; quatre fabricants de tabac, Azizi, Hadj Mouloud b. Nabi, Ismaïl-Dahlouk Mohammed, Mustapha b. Nabi. Sans commentaire. Dans la région, il y avait 37 viticulteurs tous non musulmans.

Les rues et les boulevards portaient des noms bien français : St Paul, St Jean, Kléber, Valée, Fleurus, Mogador, etc... Il y avait le Café Lyonnais, le Café du Commerce, le Café du Progrès, l'Hôtel de la Paix, etc...

61. Les musulmans, appelés «Indigènes» et qui représentaient 60% du total, étaient marginalisés, relégués en banlieue où ils vivaient de jardinage ou comme petits salariés : ouvriers agricoles, mineurs, balayeurs de rues, cireurs, portefaix, hommes de peine... Il n'en demeurait en ville que quelques prolétaires ou quelques familles de petits bourgeois dont le chef avait pu être recruté comme auxiliaire de la justice *(turdjumân, qâḍî, shâwush)* ou de l'administration *(khûdja, qâ'id, makhâzini)* Ou qui avait réussi à s'incruster comme épicier, marchand de tissus.

Rien n'était négligé pour maintenir «l'indigène» en état d'infériorité et pour faire contre-poids à son importance numérique. Entre les deux communautés, dans la vie publique comme dans la vie privée, la ségrégation était la règle. Elle l'était dans l'enseignement primaire puisqu'il y avait officiellement une école primaire «française» dans laquelle la scolarisation était totale, et une école primaire «indigène» celle-ci de rendement notoirement médiocre et dans laquelle le taux de scolarisation était d'environ 10% des enfants d'âge scolaire.

La fameuse devise républicaine «Liberté, Egalité, Fraternité», lisible sur les frontons des édifices publics et sur les pièces de monnaie, n'avait de sens que pour les Français d'origine, pour les Espagnols, pour les Italiens, pour les Maltais, pour les Grecs et un peu pour les Juifs assimilés, et un mot pour les non-musulmans.

La tare (de l'arabe *ṭarḥa)*, c'était l'islâm à l'influence duquel il importait de soustraire l'âme de l'indigène en incitant celui-ci à enfreindre les interdits de sa religion tenus en totalité pour nuls et non avenus. Les portes des nombreuses tavernes exploitées par les non-musulmans lui étaient largement ouvertes, qu'il fût adulte ou mineur. Là, il avait toute licence d'user et d'abuser des boissons alcoolisées, de dilapider ses maigres ressources et de compromettre sa santé physique et morale.

Mieux, dans l'enceinte même de la cité, tout près des habitations et des écoles indigènes, s'alignaient une dizaine de maisons de «tolérance», lieux de dépravation particulièrement efficaces pour la dégradation de la race.

Et puisque les valeurs morales de l'islâm sont écrites dans la langue du Qur'ân, on s'attachera à lui faire oublier cette langue. On la décrètera langue étrangère pour n'en permettre l'enseignement qu'à titre exceptionnel et au compte-goutte. On ne lui accordera aucune place visible sur la voie publique où tout est écrit, en caractères latins, dans la langue du vainqueur.

On caresse ainsi l'espoir de «désislamiser» et de «désarabiser» l'indigène sans pour autant - sauf rarissimes exceptions - le «christianiser» et le «franciser» car, au fond, on n'y tient guère. On veut seulement faire de lui un individu sans passé ni avenir. La colonisation, pratiquée à partir du XIIIème/XIXème siècle par la Chrétienté, a-t-elle été autre chose que l'exploitation d'un peuple faible ou affaibli par un autre peuple fort ?

En 1988, tous les Algériens de plus de 45 ans se souviennent de ce qu'a été leur vie quotidienne sous le régime colonial, ce régime qui, contrairement aux rêves des plus zélés de ses promoteurs qui le disaient éternel, s'est effondré au milieu du XIVème/XXème siècle, le plus souvent dans des conditions dramatiques. Tout son échafaudage politico-religieux, en Algérie, s'est écroulé le 5 juillet 1962.



Ici le photographe est avant tout un commerçant soucieux de plaire à ses clients français amateurs d'exotisme. En appelant cette vue «Concert arabe», il s'est voulu ironique sans rien soupçonner de l'intérêt de l'auditoire qui, dans son évidente détresse, écoute des chants d'espérance.

إنما المصور لهذا المشهد تاجر مهتم بزبائنه الفرنسيين هواة الغريب لا غير فأعتمد السخرية بعبارة «كُنسار آراب» ولم ينتبه لاهتمام المستمعين التعساء المنصتين لأناشيد الأمل.

boulevards périphériques, plantations de platanes qui se sont fort bien développés et qui lui ont créé une ambiance d'ombre et de fraîcheur des plus enviables, construction d'édifices publics (mairie, sous-préfecture, Ecole Normale de jeunes filles, Ecole Primaire Supérieure de garçons, écoles primaires de garçons et de filles, caserne pour le 9ème tiralleurs, hôpital, piscine, immeubles d'habitations collectives, jardin public, remparts à la Vauban à la place de ceux qu'avaient laissés les Turcs, etc...

Cette chirurgie n'en a épargné qu'un tout petit secteur de la partie est qui conserve encore quelques venelles tortueuses, quelques impasses, quelques vieilles bâtisses de style dit «mauresque», la maison aménagée en Hôtel de la Subdivision (celle que la tradition assure qu'elle fut la résidence de l'émir 'Abd al-Qâdir, le minaret si remarqué de la place de l'Horloge (vestige d'une mosquée détruite) et enfin l'unique mosquée de *sayyid-î* 'Aḥ.b.Yûsuf.

60. Jusqu'au 5 juillet 1962, elle était le chef-lieu d'une sous-préfecture du département d'Orléansville. avec une population d'environ dix mille habitants. Les bureaux et la résidence de l'administrateur de la commune mixte des Braz, dont le territoire recouvrait la majeure partie de son arrondissement et qui comptait plus de 100.000 habitants, étaient dans ses murs.

La vie de la cité était organisée en fonction des intérêts des non-musulmans. La maîtrise des rouages de la vie publique était aux mains des Chrétiens, puis, après le décret Crémieux, partiellement aux mains des Juifs. Les fonctions d'autorité, même les plus modestes, les entreprises économiques, les institutions sociales étaient leur affaire exclusive.

L'arrondissement de Milyâna française allait du littoral (Sharshâl, Gûrâya, etc...) aux Hauts Plateaux (Thaniyyat al-'Aḥad, Tîsamsilt, etc...) et de Wâdjar à Wâdî r-Rawîna, etc... La commune mixte s'étendait sur la plus grande partie de l'arrondissement.

A la fin de la première guerre mondiale, la population de la commune comptait 8.824 habitants dont 1.022 Français d'origine, 744 Israélites *«naturalisés»* (en réalité admis à la citoyenneté française), 467 étrangers européens naturalisés, 981 étrangers, 5.414 indigènes, 196 Marocains. Le maire était, bien entendu, non musulman ; ses adjoints s'appelaient Carru et Jourdan ; le secrétaire de la mairie était un N. (non musulman) pour l'état-civil européen ; à côté de lui éait Bouchenak Slimane pour l'état-civil indigène : l'architecte voyer était Lesage ; le commissaire de police, Sarazin ; le responsable de l'éclairage électrique, Merkel ; le médecin vétérinaire, Ben Danou (un Juif) ; à la recette municipale, Bernhardt, Guitton, Dadoune ; les sapeurs-pompiers, Franques et Bartoli ; le juge du tribunal répressif, Sarazin ; l'afficheur public, Mercier ; les agents d'affaires, Benadira (Gabriel), Graziani, Sénanedj ; les

Paris, l'écrivain s'est laissé aller au goût de faire voir les choses et les gens tels qu'ils lui sont apparus. Ses descriptions minutieuses sont réalistes, que le cadre soit luxueux ou sordide : sites, quartiers, rues, monuments, maisons, locaux administratifs ; portrait physique détaillé des personnages dont le visage, les vêtements, les gestes, le comportement révèlent le caractère. Tout a sa place dans cette succession de tableaux très ingénieusement ordonnés. L'émotion n'en est pas pour autant absente ; elle parcourt le récit et lui donne son vrai sens. Daudet aime à montrer des gens simples, souvent pittoresques, parfois grotesques et extrêmement pauvres chaque fois qu'il met en scène des autochtones. Bref, il représente un monde bigarré, avec ses chatoiements et ses splendeurs, mais aussi avec ses misères, ses affrontements et ses souffrances.

Ce souci de la notation suggestive, colorée, pittoresque, se manifeste plus nettement encore dans *Tartarin de Tarascon*. Comme Daudet, l'intrépide chasseur, qui rêve d'expéditions lointaines, s'embarque sur le *Zouave* pour l'Algérie où il pense trouver des fauves dignes de son fusil. Comme lui aussi, il se rend d'al-Djazâ'ir à Bulayda et à Milyâna dont il traverse les «larges rues pleines de beaux arbres et de fontaines». Brusquement, il se trouve nez à nez avec un vieux lion apprivoisé que promènent des «frères quêteurs». Le lendemain, il quitte la ville en compagnie du faux prince Grégory de Monténégro et descend vers la plaine du Shalaf «par un raidillon délicieux tout ombragé de jasmins, de thuyas, de caroubiers, d'oliviers sauvages, entre deux haies de petits jardins indigènes et des milliers de joyeuses sources vives qui dégringolaient de roche en roche en chantant... «Parvenu dans la plaine, il se dirige vers un marché qui se tient» à quelques kilomètres, sur les bords du Chélif... «Il y avait là, note l'auteur, cinq ou six mille Arabes en guenilles, grouillant au soleil et trafiquant bruyamment au milieu des jarres d'olives noires, des pots de miel, des sacs d'épices et des cigares en gros tas ; de grands feux où rotissaient des moutons entiers, ruisselants de beurre, des boucheries en plein air où des nègres, tout nus, les pieds dans le sang, le bras rouges, dépeçaient, avec de petits couteaux, des chevreaux pendus à une perche».

L'expédition dura près d'un mois pendant lequel, «cherchant des lions introuvables, le terrible Tartarin erra de douar en douar dans l'immense plaine du Chélif, à travers cette formidable et cocasse Algérie française où les parfums du vieil Orient se compliquent d'une forte odeur d'absinthe et de caserne... Curieux spectacle pour des yeux qui auraient su voir... Un peuple sauvage et pourri que nous civilisons en lui donnant nos vices... L'autorité féroce et sans contrôle de bachaghas fantasques qui se mouchent gravement dans leurs grands cordons de la Légion d'Honneur et, pour un oui ou pour un non, font bâtonner les gens sur la plante des pieds. La justice sans conscience de cadis à grosses lunettes, tartufes du Coran et de la loi, qui rêvent de 15 Août et de promotion sous les palmes et vendent leurs arrêts... pour un plat de lentilles ou de couscous

au sucre. Des caïds libertins et ivrognes, anciens *brosseurs* d'un général Yûsuf quelconque, qui se soûlent de champagne avec des blanchisseuses mahonnaises et font des ripailles de mouton rôti pendant que, devant leurs tentes, toute la tribu crève de faim et dispute aux lévriers les rogatons de la ribote seigneuriale. «Puis, tout autour, des plaines en friche, de l'herbe brûlée, des buissons chauves, des maquis de cactus et de lentisques, le grenier de la France !... Grenier vide de grains, hélas ! et riche seulement en chacals et en punaises. Des douars abandonnés, des tribus effarées qui s'en vont sans savoir où, fuyant la faim et semant des cadavres le long de la route. De loin en loin, un village français avec des maisons en ruines, des champs sans culture, des sauterelles enragées qui mangent jusqu'aux rideaux des fenêtres et tous les colons dans les cafés, en train de boire de l'absinthe en discutant des projets de réforme et de Constitution».

Tel est le tableau que Daudet, observateur lucide et objectif, fait de la situation dans la région de Milyâna en particulier, et plus généralement, en Algérie trente ans à peine après les débuts de la conquête. Au-delà des aventures burlesques de son héros, il dénonce le mythe de la colonisation. Ce que la terminologie officielle appelle pompeusement l'épopée coloniale lui apparaît comme le produit de la force guerrière. Cette entreprise s'est développée sans cesse aux dépens de la population arabe qui, dépossédée, pillée, chassée, a été livrée à la rapacité de fonctionnaires locaux, prévaricateurs et corrompus, qui se chargent de la dépouiller complètement. Au surplus, les colons venus occuper les terres confisquées ne sont pas des pionniers comme on se plaît à les présenter d'ordinaire, mais des buveurs invétérés plus soucieux de discuter de politique au café que de cultiver les terrains que l'Etat leur a octroyé si généreusement.

Voici Milyâna française

58. Son site, sur une sorte de belvédère, au centre d'une banlieue verdoyante et riche en productions agricoles, son altitude qui lui vaut un climat favorable, sa position clef entre la plaine de la Mattîdja à l'est et celle du moyen Shalaf au sud et à l'ouest, ont toujours été apréciés par les divers conquérants et, de chacun d'eux, elle a gardé, dans son architecture et dans le sang de ses habitants, des traces plus ou moins perceptibles.

59. A la veille de l'indépendance, elle était devenue une petite ville de conception française parce que, de bonne heure, les Français l'ont façonnée à leur goût et en ont fait une cité bien à eux, sur le modèle de leurs villes du Midi. Ils n'ont pas hésité à lui appliquer, par anticipation, l'urbanistique du Baron Haussmann : tracé au cordeau de rues rectilignes se coupant à angle droit,

Deuxième tableau : visite à «Sid 'Omar, un prince de sang, le fils d'un ancien dey d'Alger qui mourut étranglé par les janissaires», autrefois immensément riche, mais ruiné par la guerre et ses démêlés avec Abd el Kader». Il ne lui reste de son ancienne opulence, indique l'auteur, qu'une ferme dans la plaine du Chélif et une maison à Milianah où il vit bourgeoisement... Les chefs indigènes l'ont en grande vénération. Quand une discussion d'élève, on le prend volontiers pour arbitre et son jugement fait loi presque toujours». C'est justement le cas aujourd'hui où un différend au sujet d'un lopin de terre oppose le *qâ'id* de B. Zugzug à un Juif de Milyâna. Ce dernier, «Vieux, barbe terreuse, veste marron, bas bleus, casquette en velours», après avoir donné son accord, se ravise et déclare qu'il préfère s'en remettre «au juge de paix des Français». Une altercation éclate entre le contestataire et l'un des assistants, un Espagnol ; le vieillard est molesté et s'enfuit sous les huées d'une foule de «Maltais, Mahonais, nègres, Arabes... tous unis dans la haine du juif».

Troisième tableau : un quartier juif où l'affaire du coreligionnaire maltraité fait déjà grand bruit. «Tout le monde est sur pied... Personne aux échoppes. Brodeurs, tailleurs, bourreliers, tout Israël est dans la rue... Les hommes, en casquette de velours, en bas de laine bleue, gesticulant bruyamment, par groupes... Les femmes, pâles, bouffies, raides comme des idoles de bois dans leurs robes plates à plastron d'or, le visage entouré de bandelettes noires, vont d'un groupe à l'autre en miaulant : «Finalement on décide d'emmener le vieillard non chez le médecin mais chez l'agent d'affaires qui fait office «d'avocat, d'avoué, de courtier, d'expert, d'interprète, d'écrivain public» ; c'est «le maître Jacques de la colonie» écrit Daudet qui ajoute : «Il y en a beaucoup en Algérie... presque autant que des sauterelles. Rien qu'à Milianah, on les compte par douzaines. En général, pour éviter les frais de bureau, ces messieurs reçoivent leurs clients au café de la grand' place et donnent leurs consultations - les donnent-ils ? - entre l'absinthe et le champoreau».

Quatrième tableau : au bureau arabe où l'interprete, un fringant hussard «blond, rose tout frisé» est «aux prises avec deux grands braillards entièrement nus sous de grandes couvertures crasseuses et racontant d'une mimique enragée je ne sais quelle histoire de chapelet volé». En quittant cet officier-juge assidu à son bureau, même un dimanche après-midi, le visiteur croise dans l'antichambre en émoi «un indigène de haute taille, pâle, fier, drapé dans un burnous noir» qui, huit jours auparavant, «s'est battu dans le Zaccar avec une panthère et qui, blessé, vient soir et matin se faire panser. «Chaque fois, on l'arrête dans la cour pour lui entendre raconter son histoire. Il parle lentement d'une belle voix gutturale. De temps en temps, il écarte son burnous et montre, attaché contre sa poitrine, son bras gauche entouré de linges sanglants».

Cinquième tableau : surpris par un violant orage, le promeneur se met à

l'abri «sous les arceaux d'une cour mauresque» contigüe à la mosquée : c'est, précise-t-il, le refuge habituel de la pouillerie musulmane, on l'appelle la «*Cour des Pauvres*». Il décrit le spectacle qui s'offre à ses yeux : «De grands lévriers maigres, tout couverts de vermine, viennent rôder autour de moi d'un air méchant... Les bohémiens sont à terre, couchés par tas. Près de moi, une jeune femme, presque belle, la gorge et les jambes découvertes, de gros bracelets de fer aux poignets et aux chevilles, chante un air bizarre à trois notes mélancoliques et nasillardes. En chantant, elle allaite un petit enfant tout nu en bronze rouge et, du bras resté libre, elle pile de l'orge dans un mortier de pierre».

Sixième tableau : profitant d'une embellie, notre voyageur s'éloigne de cette «cour des miracles» et se dirige vers la maison de son ami Sid 'Omar pour assister à un «dîner somptueux» servi dans une salle à manger qui «ouvre sur une élégante cour mauresque où chantent deux ou trois fontaines... Excellent repas turc... Entre autres plats, je remarque un poulet aux amandes, un couscous à la vanille, une *tortue à la viande* - un peu lourde mais du plus haut goût - et des biscuits au miel qu'on appelle *bouchées du kadi*... Comme vin, rien que du champagne. Malgré la loi musulmane, Sid'Omar en boit un peu - quand les serviteurs ont le dos tourné... Après dîner, nous passons dans la chambre de notre hôte où l'on nous apporte des confitures, des pipes et du café... L'ameublement de cette chambre est des plus simples : un divan, quelques nattes ; dans le fond, un grand lit très haut sur lequel flânent de petits coussins rouges brodés d'or... A la muraille est accrochée une vieille peinture turque représentant les exploits d'un certain amiral Hamadi», (sans doute Hammîdu).

Septième tableau : au théâtre, «un ancien magasin de fourrage» aménagé sans luxe. La salle est faiblement éclairée par «de gros quinquets qu'on remplit d'huile pendant l'entracte». Les hommes, des soldats du troisième, jouent avec entrain, alors que les actrices paraissent médiocres, en particulier deux jeunes débutantes juives qui «se tiennent timidement dans un coin de la scène, poudrées, fardées, décolletées et toutes raides» et qui, de temps en temps, «baragouinent une phrase sans la comprendre».

La représentation terminée, Daudet regagne son hôtel en longeant les remparts. Dernière vision de la ville endormie : «D'adorables senteurs d'orangers et de thuyas montent de la plaine. L'air est doux, le ciel presque pur... Là-bas, au bout du chemin, se dresse un vieux fantôme de muraille, débris de quelque temple ancien. Ce mur est sacré ; tous les jours, les femmes arabes viennent y suspendre des ex-voto, fragments de haïks et de foutas, longues tresses de cheveux roux liés par des fils d'argent, pans de burnous...».

Ainsi s'est écoulée la longue journée de Daudet à Milyâna. De retour à

incendiées en 1840.

«Leurs habitants devaient vivre dans l'aisance. Chacune a sa cour intérieure et ses galeries avec des colonnes en pierre et en brique. Le marbre est rare. Les murs sont en pisé, les toits en charpente avec roseau et terre. Pas de plafond. La couverture est en tuiles concaves à l'italienne. La cour intérieure a une fontaine et des arbres (figuiers, orangers, vigne). «J'ai vu, ajoute le docteur Lebrun, une vigne avec un tronc de 1,38 m de circonférence et cinq mètres de haut... Il y a un peu partout un puits mais souvent à sec... La ville compte de nombreuses mosquées dont les principales sont la Grande Mosquée qui a servi à l'armée française de magasin de vivres, la mosquée des Turcs qui est devenue salle de spectacle et une troisième devenue casernement, sans compter de nombreuses mosquées de marabouts comme celle de Muḥ. b. 'Abî al-Qâsim, celle d'al-Kâli (al-Qal'î), celle d'Ibn Yûsuf (sans doute 'Ah.b.Yûsuf) qui a des cellules et des tombeaux que nous avons détruits, notamment celui du père ou de l'aïeul de 'Alî l-mubârak *bây* de Milyâna (probablement 'Allâl, père de Muḥ. b. 'Allâl)... Les «drapeaux qui s'y trouvaient ont été transportés au sommet du Zakkâr et déposés au marabout (de *sayyid-î* 'Abd al-Qâdir). La casba est au bord de la roche escarpée, au sud de la ville ; elle est entourée d'un mur épais en pisé de 70 à 80 mètres de long. Elle à quelques salles voûtées et une mosquée».

56. Ce sont là des détails que nous a laissés le Docteur Aquilas. On aurait souhaité pouvoir les comparer avec d'autres puisés dans les sources arabes. Hélas, cela n'a pas été possible. Tout ce qu'on a pu trouver dans ces sources, ce sont quelques lignes dans *al-Mir'ât* de Ḥamdân b. 'U<u>th</u>mân <u>Kh</u>ûdja, 96. «Les habitants de Milyâna, dit-il, se caractérisent par une sorte d'entêtement. Leur terre est extrêmement fertile. Ce sont des jardiniers et leurs fruits sont excellents. Ils ne s'adonnent à aucune espèce d'artisanat et ils n'ont d'autre métier que celui de faire sécher les fruits et d'en faire une sorte de confiture au moyen du jus de raisin et des amandes qui se conserve toute l'année. Le climat, chez eux, est salubre».

Alphonse Daudet à Milyâna

57. Voici, dans la deuxième moitié du XIIIème/XIXème s., un troisième témoignage circonstancié et sans doute tout à fait objectif, d'un grand écrivain, Alphonse Daudet, l'auteur des *Lettres de mon Moulin* et de *Tartarin de Tarascon*. En 1860, il a vingt ans ; il est attaché au Cabinet du Duc de Morny, demi-frère de Napoléon III, Président du Corps Législatif. La vie agitée et passablement dissipée qu'il a menée à Paris durant les trois dernières années a altéré sa santé. Il souffre d'une trachéite tenace et crache le sang. Son médecin,

craignant une affection pulmonaire, lui conseille de prendre un peu de repos dans le midi de la France. Mais le jeune homme, au lieu d'aller à Nice, décide de se rendre en Algérie, pays de soleil et d'exotisme, où Théophile Gautier, Flauber, Feydeau, Fromentin, entre autres, l'ont précédé.

Le 19 Décembre 1861, Daudet s'embarque à Marseille, en compagnie de son cousin Reynaud, sur le Zouave qui, deux jours plus tard, mouille dans le port d'al-<u>D</u>jazâ'ir. Muni de lettres de recommandation, le voyageur est accueilli comme une personnalité officielle ; il est installé à *dâr* Yaḥyâ Ra'îs, magnifique villa du XVIIIème siècle, bâtie sur un côteau verdoyant de Hydra. Ancienne résidence du commandant de la cavalerie du *dây*, elle est alors réservée aux hôtes de marque. Daudet ne se contente pas de visiter la ville toute proche, la Qasba avec ses bazars baignant «dans un demi-jour qui sent le musc, l'ambre, la rose étouffée et la laine chaude». «Me voilà, note-t-il, courant dans le Sahel, les bois d'orangers de Blidah, la Chiffah, le ruisseau des Singes, Milianah et ses pentes vertes, ses vergers enchevêtrés de tournesols, de figuiers, de cougourdiers, comme nos bastides provençales. Voilà l'immense vallée du Chélif». Il se déplace tantôt en diligence, tantôt à dos de mule ; il loge en caravansérail. Il ouvre les yeux, fait sa moisson quotidienne d'observations aiguës, de sensations neuves. Il entre en relation avec un commerçant espagnol ; il se lie d'amitié, à al-<u>D</u>jazâ'ir, avec le bâ<u>sh</u>-A<u>gh</u>a Bu'lâm et à Milyâna avec l'a<u>gh</u>a Si Slimân b. Ṣyam et Si 'Omar *bâ<u>sh</u>â* qui l'introduisent au sein de la société citadine. Il a aussi de nombreux entretiens avec des fonctionnaires français civils et militaires. Bref, il veut voir, observer, écouter.

Ce que son expérience algérienne lui apprend au cours de ce séjour de près de deux mois, Daudet en fait la matière de *La mule du Cadi* (1862-1863), de *La Petite Ville* (1864) qui devient *A Milianah* dans les *Lettres de mon Moulin* (1869), de *Tartarin de Tarascon* (1872) et de quelques pages des *Contes du Lundi* (1873) et de *Robert Helmont* (1874).

Il suffit de lire *A Milianah* pour apprécier l'acuité du regard, la fraîcheur des sensations, l'intensité de l'émotion, la sûreté de jugement. Evoquant les événements dont il a été témoin par un dimanche orageux et triste, il compose une série de sept tableaux dont le premier représente la grande place de la ville où «la musique du troisième de ligne, qu'un peu de pluie n'épouvante pas, vient se ranger autour de son chef. A une des fenêtres de la division, le général paraît, entouré de ses demoiselles ; sur la place, le sous-préfet se promène de long en large au bras du juge de paix. Une demi-douzaine de jeunes Arabes à moitié nus jouent aux billes dans un coin, avec des cris sauvages. Là-bas, un vieux juif en guenilles vient chercher un rayon de soleil qu'il avait laissé hier à cet endroit et qu'il s'étonne de ne plus trouver». La cérémonie se déroule en présence d'une assistance peu nombreuse ; la population musulmane en est absente.

Le 31 Mars, une députation de Ḥasham Ghrîs y vint lui demander de ramener sa famille à Mu'askar ou dans sa région. Il lui opposa un refus[44].

Le 28 Mai, laissant toujours sa famille à Milyâna, il partit en inspection dans le *sharq* pour s'informer des conséquences de la prise de Qusanṭîna.

Le 30 Juin, départ de sa famille pour Tâza[45].

Le 7 Juillet, il la rejoignit pour l'envoyer à Tâqdamt[46].

Le 22 Septembre, mort de Yûda b. Darâhim à Milyâna, à la suite d'une fièvre pernicieuse de trois jours contractée à Tâza[47].

52. En somme, 'Abd al-Qâdir n'est resté à Milyâna que du 17 Février au 7 Juillet 1839, donc pendant seulement quatre mois et vingt jours. A-t-il eu le temps d'aménager et d'habiter une maison en dur ? Il ne semble pas, car les nécessités de la guerre inégale qui lui imposaient le mouvement, lui faisaient préférer la vie sous la tente plutôt que sous le toit d'un palais. N'avait-il pas déjà imaginé et créé une véritable capitale mobile de plus de 30.000 âmes, sa fameuse Zamâla ? Poète autant que guerrier, il estimait que le «beau» se manifeste harmonieusement dans deux *«bayt-s»* (ce vocable désigne à la fois une tente et un vers poétique) : *bayt min ash-shi'r wa bayt min ash-sha'r* (un vers de poésie et une tente de poils). C'est un hémistiche de son fameux poème sur les avantages de la vie bédouine.[48].

53. En réalité 'Abd al-Qâdir n'a fait construire en dur que quelques forts pour les besoins de la guerre : à Tâqdamt, à Bû-ghâr, à Ṭâza, dans la banlieue de Milyâna pour y loger des fonderies, des armureries, un atelier pour la frappe de la monnaie, etc... Mais il ne croyait guère à la pérennité de telles œuvres. En considérant la cité de Ṭâza nouvellement édifiée, il improvisa ces trois vers :

1 - Mieux que personne Dieu m'est témoin que ceci
ne fut jamais à mes yeux une œuvre durable,

2 - Non, ma propre vie est éphémère
et bientôt je serai étendu sous terre,

3 - Je souhaite seulement que Dieu soit satisfait
et qu'après moi ceci serve à ses créatures ! (V. Muḥ. b. 'Abd al-Qâdir, *Tuḥfa*, 313).

Ces trois vers furent transcrits sur la porte de Ṭâza, laquelle a fini au musée des Invalides ! La guerre n'a pas laissé debout un seul des rares édifices que 'Abd al-Qâdir a fait construire. On ne peut en avoir une idée que grâce aux témoignages écrits de ceux des Français qui les ont vus et décrits avant leur démolition.[49].

54. C'est précisément le cas de la fonderie de Milyâna. D'après ces témoignages, elle a été bâtie en 1839, donc à peine un an avant l'occupation de Milyâna. «Le bâtiment principal, d'environ vingt-cinq mètres de long sur huit mètres de large, était en moellons et recouvert de tuiles. Sa façade, d'un style tout à fait moderne, présentait trois arcades uniformes et à plein cintre. Elle renfermait cinq fourneaux dits «à la catalane», alimentés par une trompe dont les bases avaient six mètres de hauteur et recevaient les eaux de l'est. Ces eaux, s'échappant du réservoir, faisaient mouvoir un martinet auprès duquel on a trouvé quelques ébauches de baïonnettes. A l'angle nord-sud et en retour, on a retrouvé un petit bâtiment sans hauteur, de trente mètres carrés de surface et servant d'atelier aux ouvriers du bois. Cette fonderie utilisait les minerais de fer du Zakkâr... Un chemin, tracé avec soin, conduisait de la ville à cet établissement...»[50]. Le directeur de cette fonderie était un déserteur converti à l'islâm, ingénieur minéralogiste français. Il s'appelait Alquier Cazes. Il y avait alors à Milyâna plus de cent déserteurs et leur nombre ne cessait de croître chaque jour grâce au système d'embauche employé par 'Abd al-Qâdir qui faisait jeter dans les camps français des lettres dans lesquelles il promettait de l'argent à ceux qui voulaient venir à lui. Alquier Cazes a été un de ses agents les plus actifs[51].

Milyâna en 1257/1841

55. Comment était Milyâna lors de son occupation par l'armée française ? Le docteur Lebrun Aquilas, médecin militaire du corps de troupe de Valée, lui a consacré trois articles descriptifs dans le *«Moniteur algérien»*, numéro du 14/12/1841 et suivants. Il la situe à 900 mètres d'altitude et dit qu'elle «a au nord et à l'est un mur fait de cailloux et mortier assez dur, de 2,50 m d'épaisseur et de 7 mètres de hauteur. A l'angle nord-est, il y a des pierres de tailles provenant de la ville ancienne (sic) et des restes de tours carrées faisant saillie dont deux bien conservées. Le reste du mur est en terre de 60 cm d'épaisseur et fort peu élevé, exigeant des réparations. Au sud-est un rocher escarpé, à pic au dessus d'une vallée (sic) profonde... Les maisons sont dans des impasses et des rues étroites et tortueuses. La ville a deux places publiques : celle de la porte d'Oran qui servait de marché avec fondouk et celle sur laquelle a été installé le cercle militaire français et qui a un jardin. Sur la première est un peuplier de Hollande de 4,50 m de circonférence et de 3,50 de haut.

«La population se compose de Maures, de trente familles de «Coulouglis», de soixante familles de Juifs commerçants et de familles originaires de B. Zugzug et de B. Manâsir.

«Les maisons ont des rez-de-chaussée et un premier étage. Elles ont été

Milyâna. Là, il essaya de détacher de 'Abd al-Qâdir quelques-uns de ses *khalifa-s*, tout spécialement Muḥammad b. 'Allâl. Disposant d'importants fonds secrets - «une caisse noire» - il chargea La Moricière de faire les offres, persuadé que, comme lui lors de la négociation du traité de Tâfina, ils succomberaient tous à la tentation(40).

La Moricière prit contact en Septembre avec Muḥammad b. 'Allâl qui se trouvait avec 'Abd al-Qâdir dans la banlieue de Milyâna et qui fit semblant d'accepter le principe du marché en demandant pour lui-même, pour Muḥammad b. 'Isâ l-Barkânî et pour 'Aḥmad b. Sâlim, une somme de 500.000 francs chacun et leur investiture pour le commandement dans le triangle Sabâw, al-'Aghwâṭ 'Ayn Mâḍî, Milyâna, soit les 2/3 de la province d'al-Djazâ'ir. 'Abd al-Qâdir, tenu au courant, laissa négocier pour gagner du temps avant l'offensive que préparait Bugeaud. Celui-ci ne trouva rien d'excessif dans ces propositions, mais voulut les étudier de près. Peu après, il fit faire des contre-propositions : reconnaissance de la souveraineté française, administration au nom de Louis-Philippe, traitement de 25.000 francs par mois. (V. Julien, 187). Les négociations furent interrompues.

En quittant Milyâna pour regagner al-Djazâ'ir, Bugeaud fut sévèrement attaqué par 'Abd al-Qâdir et Muḥammad b. 'Allâl, jusqu'au corps à corps, à l'arme blanche. Il fut contraint de battre en retraite et d'abandonner sur le terrain ses morts, ses blessés et son matériel(41). Il comprit qu'il ne lui restait plus qu'à mettre en œuvre sa guerre totale avec l'action de ses colonnes mobiles. Le résultat, pour 'Abd al-Qâdir, fut un grave recul sur le plan territorial(42).

Séjour d'al-'amîr 'Abd al-Qâdir à Milyâna

47. La tradition locale affirme que 'Abd al-Qâdir a séjourné à Milyâna quand cette ville faisait partie de son domaine et l'on montre même, aujourd'hui encore, la maison qui lui aurait servi de résidence. Ce serait celle qui, située en bas de la place de l'horloge, a été jusqu'en 1962, la demeure du chef français de la subdivision militaire, commandant le 9ème tirailleurs. On montre aussi, sur le versant gauche du ravin qui borde la ville, une bâtisse en ruines qui aurait abrité la fonderie qu'il avait fait construire.

48. C'est en vertu des clauses du «traité Desmichels» que 'Abd al-Qâdir a estimé avoir le droit d'occuper Milyâna et Lamdiyya. Pendant plus d'un an, de Février 1834 à Mars 1835, ce droit lui a été contesté par Desmichels lui-même et surtout par Drouet d'Erlon.

Le 24 octobre 1834, le sachant en route pour Milyâna depuis qutre jours,

Drouet d'Erlon avertit les habitants de Bulayda, de Qulay'a, de Lamdiyya et de Milyâna «qu'il considérait comme un acte d'hostilité de leur part le fait d'accueillir 'Abd al-Qâdir» (V. Drouet, 58). Mais son ministre, qui tenait à la paix, lui écrivit le 12 Novembre : «Milyâna faisant partie de la province de Wahrân... au moment de la conquête... je pense qu'il ne me paraît pas que nous sommes en droit de l'empêcher de se rendre dans cette ville... (Op. cit., 93,94). Le 26 Novembre, Drouet répondit : «l'ancien beylik de Wahrân s'étendait jusqu'au Mazafran.... et Milyâna n'en est qu'à 25 ou 30 lieux...». (Op. cit 151). Le ministre répliqua le 13 Décembre :... Milyâna fait partie de la province de Wahrân...». (Op. cit. 189). Il n'étaient décidément pas sur la «même longueur d'ondes», l'un étant pour la menace et l'intimidation... théoriques, l'autre pour la paix.

49. Une fois maître de Milyâna, 'Abd al-Qâdir n'avait pas de raison particulière d'y séjourner alors que des obligations impérieuses l'appelaient ailleurs : bataille du Maqṭa', Mu'askar occupée et brûlée par Clauzel, nouveau gouverneur général, des tribus du Shalaf et de la Mîna tentées de se rallier au Général Perrégaux, bataille d'Arshaqûl livrée au Général d'Arlanges, bataille de Sikkâk, négociations du traité de Tâfina, siège de 'Ayn Mâḍî... etc. Pour toutes ces actions il a estimé sa présence personnelle indispensable sur le terrain, loin de Milyâna.

50. Mais pendant quatorze mois, d'Avril 1838 à Juillet 1839, sa famille a séjourné à Milyâna ou dans sés parages. On dit qu'au départ c'est lui-même qui a décidé ce séjour pour prendre ses distances avec Ḥasham Ghrîs qui s'étaient très mal comportés lors de la prise de Mu'askar par Clauzel(43).

Le 14 avril 1838, sa mère, sa femme et d'autres membres de sa famille sont signalés en pélérinage au sanctuaire de *sayyid-î* 'Aḥmad b. Yûsuf avant de retourner camper à Bû-khurshufa ; le 19 Août, sans doute à cause de la température caniculaire de la plaine, toute la famille alla camper sous les remparts de Milyâna : le 1er Septembre, elle y était toujours, en même temps que la famille du *khalîfa* de Mu'askar, *al-ḥâdjdj* Musṭafâ b. 'Aḥmad b. at-Tihâmî. Celui-ci aussi avait jugé bon d'y envoyer les siens à cause de l'attitude hostile des Gharâba et des Dawâ'ir dans la province de Wahrân. (V. Daumas, 424).

51. Le 9 Février 1839, venant du sud, 'Abd al-Qâdir s'arrêta à Bû-khurshufa le temps de présider un conseil de *khalîfa-s* et de *'ulamâ'* qui eut à décider de la paix ou du *djihâd*. (V. Daumas, 424, note 1).

Le 17 Février, il rejoignit sa famille à Milyâna, en compagnie d'al-Mawlûd b. 'Arrâsh et y reçut le Colonel de Salles, gendre du Maréchal Valée, venu négocier des modifications au traité de Tâfina.

Milyâna prise par les Français

Le 4 Juin, attaques de harcèlement contre les 10.000 soldats de Valée qui, partis de Shaffa, passent chez B. Manâd par *Sha'bat* al-Guttâ', Wâdî d-Dâliya, les bords du Shalaf et du Bûtân pour s'emparer, le 8, de Milyâna que ses habitants avaient évacuée et incendiée en partie[39].

Le 12, Valée y laisse une garnison de 1.200 hommes aux ordres du Lieutenant-Colonel l'Illens, conseillé par 'Umar *walad* al-Bâshâ en qualité de *khalîfa* français.

Le 4 Octobre, Valée dépêche le Général Changarnier avec du ravitaillement pour cette garnison ; celui-ci constate que 800 hommes sur les 1.200 étaient morts de maladie et de privations. (V. Valée, V., 33 à 38).

Avec sa cavalerie et son bataillon de réguliers, Muhammad b. 'Allâl campe à Tâlâ w Shaqqûf, (ex Levacher, actuel Ben 'Allâl) d'où il guide et stimule les montagnards de Bû-M'âd et de Zakkâr pour des opérations de harcèlement de la ville.

Au 27 septembre, les pertes françaises à Milyâna sont d'un capitaine, d'un lieutenant, de 24 sous-officiers et soldats tués et de 40 sous-officiers et soldats blessés ; la ville connut «un climat de feu» ; la chaleur au soleil atteint 56° centigrades et, dans le seul mois d'août, le siroco a soufflé 25 jours. (V. ibid. 44 à 45).

C'est alors que le Ministre de la Guerre, dans une lettre du 30 Octobre 1841 à Valée, s'est demandé «s'il y avait vraiment nécessité, ou du moins utilité bien réelle, de prolonger l'occupation de Milyâna en présence des immenses inconvénients qui résultent de l'éloignement, de l'insalubrité de cette place et des difficultés de son ravitaillement, ou s'il n'était pas à propos de *l'évacuer après l'avoir ruinée et démantelée»*. (V. ibid. 77).

De leur côté, des publicistes français ont écrit : «L'Afrique est un malheur !» et ont parlé des «horreurs de Milyâna». (V. Rousset, 457 et 481,[37bis]).

Mais, opposé à toute évacuation, Valée prend sur lui, le 20 Octobre, d'apporter 150.000 rations à cette garnison. Muhammad b. 'Allâl lui infligea des pertes sévères à Burkîka et à *sha'bat* al-Guttâ'. Pour se venger, Valée passe, le 9 Novembre, en revenant de Milyâna, chez Rîgha et «autorise ses troupes à enlever tout ce qu'elles trouveraient ; il leur prescrit de mettre le feu aux habitations ; la tribu est complètement ravagée ; les meules de fourrage sont brûlées : le feu est mis dans les silos de blé et d'orge ; une grande quantité de poules, des bœufs, des chevaux, des mulets, de l'argent, des vêtements... sont

pris par les soldats... Les Rîgha se sont sauvés sur les sommets les plus élecés du Zakkâr...». C'est en ces termes que Valée relate l'événement dans le rapport qu'il adresse à son ministre. (V. Valée, V., 113).

44. La perte de Lamdiyya et de Milyâna fit comprendre à 'Abd al-Qâdir et à ses *khalifa-s* qu'il leur était impossible d'empêcher l'ennemi d'occuper les villes. A cet égard, la partie était inégale. Ce n'étaient pas les combattants qui leur faisaient défaut. Le sens du devoir sacré de défendre *«dâr al-'islâm»* était toujours vivace, principalement chez les ruraux, plus peut-être que chez les citadins. Les possibilités de recrutement étaient illimitées, surtout pour la cavalerie. Ce qui manquait, c'était l'armement, un armement comparable en qualité et en quantité à celui de l'adversaire, en artillerie tout particulièrement. C'était la préoccupation majeure et constante de 'Abd al-Qâdir qui, dans la mesure où le lui permirent les traités Desmichels et de Tâfina, en acheta le plus possible aux Français. Il essaya aussi d'en importer de l'étranger (Maroc, Angleterre, Turquie...). Mais les armes reçues, essentiellement du Maroc, étaient en quantité et en qualité, tout à fait insuffisantes. Il essaya enfin, à Milyâna, à Tâza, à Tâqdamt, à Bûghâr, à Tilimsân, à Sa'îda, d'en faire fabriquer surtout par des déserteurs de l'armée française ; mais dans «un Etat âgé de huit ans, dépourvu de moyens techniques, une industrie de guerre ne s'improvise pas et ne peut égaler celle d'un Etat âgé de deux mille ans». Ce sont les termes employés par 'Abd al-Qâdir dans une lettre à Bugeaud.

45. Pour la résistance de 'Abd al-Qâdir, la fin de l'année 1840 est un tournant d'importance. En effet, pour des raisons de politique intérieure, le gouvernement de Louis-Philippe décide l'occupation totale et rapide du pays et y met le prix. A cet effet, il choisit l'homme et met à sa disposition les moyens humains et matériels. L'homme, c'est Bugeaud, qui retourne sur les lieux en qualité de Gouverneur Général ; les moyens, un renfort immédiat de 20.000 hommes qui portent l'effectif du corps expéditionnaire à 78.000 combattants pourvus du meilleur équipement et qui, peu après, deviennent 106.000.

Contre de telles forces, que peuvent les quatre ou cinq mille hommes, médiocrement armés, d'Abd al-Qâdir ? Capituler ? Non pas ! Utiliser intelligemment le terrain, tirer parti de l'espace et du climat, ménager les hommes, refuser le combat frontal, n'attaquer qu'à bon escient, par surprise et toujours très vite, fatiguer l'ennemi, le harceler, le détruire en détail, telle fut alors ce que l'on a appelé la stratégie de «l'insaisissabilité» imaginée et pratiquée par 'Abd al-Qâdir. (V. Emerit, *l'Algérie*, 293).

46. Mais, fort de l'expérience acquise en 1836-37, Bugeaud oppose à cette stratégie d'abord celle de la corruption, puis celle des colonnes mobiles, «voltigeurs de la mort» (de Montagnac).

Il commença par entreprendre, le 28 Avril 1841, une expédition à

d'al-Djazâ'ir. (Op. cit. 730 et 739).

En décembre, pour l'échange de huit prisonniers français, il exigea et obtint de Rapatel la libération de vingt-quatre prisonniers musulmans. (V. Clauzel, II, 367).

Début juin 1837, peu de temps avant sa mort, il parcourait avec ses troupes la plaine de Mattîdja, d'abord à 'Afrûn, puis au bas des collines de Shanwa, menaçant Qulay'a et tout le Sâḥil. (V. Damrémont, 194).

A ce moment là, en application du traité de Tâfina, conclu le 30 mai 1837 entre 'Abd al-Qâdir et Bugeaud, les hostilités étaient suspendues. Mais, deux semaines avant sa mort, Muḥyî d-dîn écrivit aux tribus de ne plus vendre de chevaux aux Français et les avertit que la paix ne durerait pas trois mois (Op. cit. 225).

40 . C'est que, pendant la négociation avec Bugeaud, Damrémont recevait de son ministre comme instruction de «traiter en même temps avec un autre chef arabe afin de contrebalancer le pouvoir de l'émir et sonder Muḥyî d-dîn pour l'engager à traiter avec nous... Vous savez qu'il y a d'autant plus d'espoir de le trouver disposé à un arrangement de cette nature qu'il serait fatigué de l'autorité d''Abd al-Qâdir...» (op. cit. 166 et suiv.). A cette fin, Damrémont lui fit écrire de Marseille, le 17 mai 1837, par son ami intime Aḥ. Bû-ḍarba, une lettre à laquelle il ne répondit pas. Le même ministre avait déjà écrit à Bugeaud le 26 Avril 1837 : «...il faudrait établir en même temps une autorité rivale qui fût capable de balancer et de contenir la sienne (celle de l'émir).... Sidi Embarek et-Hadj el Seghir... serait plus propre qu'aucun autre...».

Ces supputations et ces manœuvres montrent le poids que représentait la personnalité de Muḥyî d-dîn. Elles ne servirent à rien. Fidèle à son suzerain et à la cause de son pays, le *khalîfa* demeura à son poste jusqu'au jour où, à 48 ans, il mourut le 14 Juillet 1837(38).

41 . Il fut immédiatement remplacé par Muḥammad b. 'Allâl qui, jusqu'à Juin 1840, fut avant tout un éminent administrateur civil, veillant énergiquement sur la sécurité publique de la région et sur le paiement de l'impôt. Souvent en tournée, il faisait rendre et exécuter les décisions de justice selon les strictes prescriptions de l'islâm, dans la vie publique comme dans la vie privée. Il fut un redoutable champion de l'«intégrisme» musulman, sanctionnant sévèrement la moindre négligence en matière de culte au point qu'à l'heure de la prière rituelle ses adminustrés disaient *«yâ Ḷḷâh nṣallû rak'ât Ben 'Allâl !»* (allons nous acquitter des génuflexions de Ben 'Allâl !). A Milyâna même, les tièdes et les opposants furent tous réduits à l'obéissance et la bastonnade attendait les auteurs de la moindre péccadille. (V. Valée, I, 378).

42 . Sur le plan extérieur, il fut, tant que dura la paix de Tâfina, l'interlocuteur qualifié du gouverneur Valée, avec pleins pouvoirs de correspondre directement avec lui au nom de 'Abd al-Qâdir qui faisait alors le fameux siège de 'Ayn Mâḍî, un siège qui dura sept mois, du 21 Octobre 1838 au 30 Septembre 1839, le *khalifa* de Milyâna n'écrivit pas moins de onze lettres à Valée qui nous ont été conservées, traitant de questions de police, de vols de bovins, de cadeaux, du siège de 'Ayn Mâḍî... etc. Mais les rapports ne tardèrent pas à se gâter entre Valée et lui. De son propre chef, Ibn 'Allâl refusa, contre l'opinion de 'Abd al-Qâdir, de livrer Bulayda et Qulay'a à la France, malgré les clauses du traité de Tâfina. (V. Rousset, 333). Aussi, quand Qulay'a fut occupée de force par l'armée française et que Ibn 'Allâl eut demandé l'autorisation de transférer à Milyâna les restes de ses ancêtres, Valée lui refusa ce transfert pour empêcher la population de suivre les reliques.

43 . Par suite d'interprétations divergentes de ce traité, la guerre finit par éclater. Ibn 'Allâl devint alors un chef militaire de classe et dut la faire durant onze mois contre Valée et durant près de trois ans contre Bugeaud, d'abord dans les parages de sa circonscription, ensuite, plus loin dans le sud et dans l'ouest du pays.

Le 3 Juillet 1839, il prend part à Tâza, au sud de Milyâna, à une réunion solennelle présidée par 'Abd al-Qâdir, et à laquelle assistaient tous les *khalîfa-s* et les grands chefs de leur région. Ce jour là est décidée la reprise du *djihâd* à l'unanimité.

Le 21 Novembre, il attaque Wâdî l-'Ullayq : 108 Français tués ; lui-même est blessé à l'épaule ; 15 de ses *qâ'id-s* tués.

Le 15 Mars 1840, il résiste farouchement aux 58.000 soldats de Valée qui, voulant venger la défaite de Wâdî l-'Ullayq, attaque et occupe Sharshâl où il ne trouve qu'un mendiant aveugle et un idiot : 70 Français entre tués et blessés. (V. Rousset, 415).

Le 27 Avril, à la tête de 2.000 cavaliers, IBN 'ALLÂL attaque une colonne de 10.000 Français à 'Afrûn. Les Ducs d'Orléans et d'Aumale en font partie : pertes importantes de part et d'autre.(op. cit. 435).

Le 12 Mai, un combat à l'arme blanche particulièrement meurtrier, dirigé par 'Abd al-Qâdir en personne, a lieu à Thaniyyat Mûzâya ; présence du Duc d'Orléans ; plus de 300 Français tués et 145 blessés, dont les généreux Marbot et Rumigny. (op. cit. 438).

Le 20 Mai, combat acharné au Bois des Oliviers, entre Shaffa et Mûzâya : 50 Français tués et 212 blessés, dont le Général Dampierre.

un descendant de *sayyid-î* 'Aḥmad b. Yûsuf, était descendue l'acclamer. Un véritable plébiscite que ce ralliement des populations urbaines et rurales

36 . Cependant il n'entra pas à Milyâna. Il venait d'apprendre qu'un certain Ibn Mûsâ - son ancien condisciple - à la tête d'une bande de Darqâwa, venait à sa rencontre pour le sommer de rompre avec les *«Naṣâra»*. N'ayant pas la moindre notion de tactique et de stratégie, ce personnage, surnommé *'Abû-ḥimâr* (l'homme à l'âne), prêchait *al-djihâd* et se faisait fort de délivrer al-Dhazâ'ir. Jusque là il avait surtout tourmenté les habitants de Lamdiyya et de sa région.

'Abd al-Qâdir alla à sa rencontre, le trouva à *ḥawsh* 'A'mûra, non loin de Djandal et, au premier choc, le mit en déroute et lui enleva, entre autres, sa femme, sa fille et son âne légendaire, sans compter un énorme butin[34].

Par ce succès, 'Abd al-Qâdir s'ouvrait les portes de Lamdiyya dont les habitants lui firent un accueil triomphal. Drouet d'Erlon ne pouvait qu'approuver cette victoire sur un ennemi commun et, très habilement, 'Abd al-Qâdir abrègea son séjour à Lamdiyya où il prit juste le temps d'installer, le 25 Mai, comme *khalîfa* Muḥammad b.'Isâ l-Barkânî[35].

Le 4 Juin, il fit demi-tour, passa à Bû-Ḥalwân, puis chez Sumâta, puis, le 9 Juin, il alla camper avec 4.000 hommes, y compris son bataillon de «réguliers», au pied de Milyâna. De là, après avoir installé Muḥyî d-dîn comme *khalîfa* de la ville et de toute la région allant de *wâdî* Shaffa à *wâdî* l-Fiḍda, il reprit la route, le 15 Juin, pour Mu'askar où il arriva le 30. Il était accompagné de son conseiller et représentant, Yûda b. Darâhim (dit Duran), et aussi du Capitaine Saint-Hypolite, dûment désigné par Drouet d'Erlon. (V. Drouet, 255).

Le motif de ce retour précipité vers l'ouest était l'attitude de Trézel qui, dans la région de Wahrân, prenait le contre-pied de la politique de Desmichels et voulait mettre en question les dispositions du traité favorables à 'Abd al-Qâdir. Celui-ci commença par lui faire part de son désir de maintenir la paix. Réponse de Trézel : «Vous l'aurez si vous reconnaissez la souveraineté française en payant un tribut et en renonçant à toute suzeraineté sur un certain nombre de tribus». Ne pouvant que relever le défi, 'Abd al-Qâdir lui infligea, le 28 Juin, la sévère défaite du Maqta' [36].

37 . De ce qui précède, il ressort que de Mai 1835 à Juin 1841, Milyâna fit partie du domaine de 'Abd al-Qâdir qui en confia l'administration à deux fortes personnalités choisies et nommées par lui en raison de leurs qualités propres et aussi en tant qu'héritiers du prestige de leur aïeul, un thaumaturge vénéré des tribus de Mattidja et des montagnes environnantes, originaire de Ḥasham Gharîs, *sayyid-î* 'Alî l-mubârak, le patron spirituel de Qulay'a. Ces deux

personnalités furent Muḥyî d-dîn et son neveu Muḥammad b. 'Allâl[37].

38 . Muḥyî d-dîn, on l'a vu (§ 35 ci-dessus), avait contribué aux succès politico-militaires de 'Abd al-Qâdir, et lui avait donné des gages de loyalisme. Il occupa le poste de *khalîfa*, avec le titre de *bây* de Milyâna, de mai 1835 à juillet 1837, soit un peu plus de deux ans durant lesquels il déploya une remarquable activité dont le détail se trouve «inventorié» dans la correspondance de Clauzel, de Rapatel et de Damrémont.

Le 25 Août 1835, il a fait exécuter le *qâ'id* de B. Mûsâ, 'Alî l-Khaznâdjî qui était au service des Français. Selon ces derniers, Muḥyî d-dîn aurait offert, pour ce faire, une récompense de cinquante «douros». (V. Clauzel, I, 35).

En Septembre, il fit arrêter, à Milyâna, un citadin *(ḥaḍrî)* du nom d'Ibn al-Ghaḍbân qui, après avoir reçu *al-falâqa*, reconnut avoir fait le projet d'empoisonner 'Abd al-Qâdir et le *khalîfa* lui-même. (ibid. 82). Muḥyî d-dîn le fit incarcérer pour tentative de meurtre.

Dans la même période, il fit désigner pour le poste de *qâ'id* d'al-Mardja (près de Bûfârîk) Sî l-Bashîr qui en octobre 1835, avait tué pour collaboration, le *qâ'id* de cette tribu et qui avait pris part à l'exécution de celui de B. Mûsâ. (Ibid. 309).

En novembre, il a envoyé à Bulayda le même Sî l-Bâshîr en qualité de *ḥâkim* alors que cette ville ne faisait pas partie, en théorie, du domaine de 'Abd al-Qâdir, ce que les Français ont considéré comme une «insolence» (Ibid. 106).

39. Clauzel ayant nommé et installé Muḥammad b. al-Ḥusayn comme *bây* français de Lamdiyya, Muḥyî d-dîn réussit non seulement à reprendre la ville mais à capturer, cinq semaines après son installation, le *bây* fantoche qu'il fit conduire, pieds et poings liés, de Lamdiyya à Milyâna, de là au camp de 'Abd al-Qâdir sur *wâdî* Tâfina, enfin à Fâs, puis à Miknâs, puis à Marrâkush, «les cheveux longs, la barbe et la moustache rasées, promené sur un âne, la tête tournée du côté de la queue». Le malheureux *bây* était surnommé El Maṭmûra parce qu'il était resté quatre mois caché dans une *maṭmûra* (un silo). «Concevez-vous, a écrit en décembre 1836 le Lieutenant-Colonel de la Moricière, quelque chose de plus humiliant pour la France que la prise de notre *bây* de Lamdiyya ? (op. cit. 136 ; Rousset, 8).

En mai 1836, Muḥyî d-dîn se rendit en personne à Lamdiyya pour châtier Qurghulân qui s'étaient déclarés pour la France ; il prit, comme otages, cinq de leurs notables et obtint des autres la livraison des armes et munitions qu'ils avaient reçues des Français. (Op. cit. 672).

Le 27 mai, à la tête de contingents fournis par les tribus du Shalaf, il attaqua le camp de B. Murâd, provoquant une intense émotion au cœur

Pour assumer sa mission de libérateur, il dut d'abord assurer ses arrières et réduire des compétiteurs qui contestaient sa primauté, des chefs de tribus *makhzan* peu disposés à reconnaître un souverain d'origine religieuse. C'étaient al-Ghumârî shaykh 'Angâd, Mustafâ b. 'Ismâ'il shaykh des Dawâ'ir et des Zamâla, al-'Arîbî shaykh du Shalaf, Qaddûr b. al-Makhîî shaykh d'al-Burdjiyya etc...

La négociation du traité du 26 février 1834 avait été engagée à l'initiative de Desmichels lui-même qui y voyait des avantages pour son pays et qui en obtint, sans difficulté, la ratification par Louis-Philippe. Mais Desmichels fut immédiatement désapprouvé par Théophile Voirol, «Commandant en Chef par intérim du corps d'occupation d'Afrique» (1833-34) et par son successeur Jean-Baptiste Drouet d'Erlon «Gouverneur Général des possessions françaises dans le Nord de l'Afrique» (1834-35), l'un comme l'autre trouvant les clauses du traité trop favorables à 'Abd al-Qâdir. En réalité, ils se préoccupaient de ménager un proche avenir de conquête en empêchant 'Abd al-Qâdir de devenir une puissance capable de s'opposer à leurs projets. Entre eux, ils ont plus d'une fois déclaré qu'il fallait «ravaler le chef arabe à la condition d'un vassal» et l'amener à reconnaître la souveraineté française. Sur la demande instante de Drouet d'Erlon, Desmichels fut rappelé par Paris et remplacé par Trézel le 21 janvier 1835. Et l'on s'évertua à faire une interprétation restrictive du traité, fixant une limite à la souveraineté d'Abd al-Qâdir qui devait être confinée dans la province de Wahrân, Wâd al-Fidda devant servir (provisoirement) de frontière entre cette province et celle d'al-Djazâ'ir considérée déjà comme française. (V. Voirol, 614, 629 ; Drouet d'Erlon, 93, 277).

33. Faisant constamment preuve de modération et dépensant des trésors de patience, de courtoisie et d'habilité, 'Abd al-Qâdir s'efforça d'obtenir l'exécution scrupuleuse et intégrale des clauses du traité, tandis que, de toutes parts, de Bûna, d'al-Djazâ'ir, du Tîtarî, il était sollicité par des ambassades successives, comprenant des personnalités influentes, qui venaient le prier d'entreprendre dans l'est un voyage pour les faire bénéficier des bienfaits de l'ordre, de la sécurité et de la paix. Déjà, en février 1833, un an avant la signature du traité, des députations de Mazûna, de Milyâna, de Qulay'a, étaient allées les féliciter de ses succès sur ses adversaires autochtones et lui apporter leur soutien et l'hommage de leurs cités. Elles étaient conduites par son propre père, le vénéré *al-hadjdj* Muhyî d-dîn. Dans le même temps, de nombreuses pétitions étaient adressées à Voirol d'abord, à Drouet d'Erlon ensuite, par les *shaykh-s* de B. Manâd, de B. Manâsir, par 'Alî b. Sa'îd al-Khallâdî de Milyâna qui prenaient tous le parti de 'Abd al-Qâdir[31].

Celui-ci était donc fondé à voir loin et à faire des projets dont celui, en tout premier lieu, de s'établir au plus tôt dans des positions stratégiques de l'est et, en particulier, d'occuper Lamdiyya et Milyâna. Par courtoisie, il écrivit le 5 juin 1834 à Voirol et en octobre 1834 à Drouet d'Erlon, pour leur faire part de son intention de visiter les deux villes afin de faire régner l'ordre et la paix. Drouet lui répondit que le traité ne l'autorisait pas à pousser jusqu'à Lamdiyya en qualité de souverain, mais qu'il pouvait, à la rigueur, aller à Milyâna puisque celle-ci, en 1830, «faisait partie de la province de Wahrân».

34. Dans son for intérieur, ces deux villes étaient avant tout des points d'appui et des bases de départ pour la libération du pays. Il savait que les *«Nasârâ»*, se sentant chez eux dans les quatre villes du littoral, Wahrân, al-Djazâ'ir, Bidjaya et Bûna, songeaient à aller plus loin dans l'intérieur et qu'ils avaient déjà fait des raids, parfois à répétition, contre Tilimsân, Mu'askar, Lamdiyya.

Son devoir, en tant que chef dûment choisi par ses coreligionnaires, n'était-il pas de s'opposer à leurs visées et de tout faire pour épargner au musulman la domination de l'«infidèle», domination formellement exclue par le Qur'ân en ces termes : *«Vous qui croyez, obéissez à Allâh, obéissez à l'Envoyé et à ceux d'entre vous qui détiennent l'autorité»* (IV. 59) ? Que, par les armes, l'infidèle soit devenu partiellement maître du sol, c'est une péripétie provisoirement supportable, mais qu'il prétende imposer sa domination aux Croyants, aucun musulman digne de ce nom ne peut le tolérer. Tant qu'il a pu dialoguer avec les généraux français, 'Abd al-Qâdir a proclamé plus d'une fois ce principe fondamental et c'est à son instigation que de nombreux musulmans d'al-Djazâ'ir et de Mattidja étaient déjà allés s'établir à Lamdiyya et à Milyâna pour pouvoir vivre sous l'autorité d'un musulman.

35. Donc, en Mars 1835, passant outre à toute objection, il prit la tête d'une petite armée et se mit en mouvement vers l'est. Sur les bords de *wâdî* Mîna, il mit en déroute son propre frère aîné *al-hâdjdj* Mustafâ et son oncle 'Alî Abû Tâlib qui, lui reprochant d'avoir signé le traité Desmichels, s'opposaient à sa politique et soulevaient contre lui Darqâwa[32]. Sur sa lancée, il fit subir le même sort à deux chefs du *«makhzan»* de la région, Bû-'Abdallâh et al-'Arîbî, puis, le 15 avril 1835, à la tribu de Sabîh à laquelle il enleva une centaine de chevaux et un millier de fusils. Enfin, il fut, un peu plus loin, acclamé par 'Awlâd Qusayyir et par 'Awlâd as-Sâ'ih, dont les cavaliers se joignirent à lui avec enthousiasme. Même accueil de la part de la tribu d'al-'Attâf dont le chef, al-Baghdâdî, beau-père de son frère, l'attendait avec de riches cadeaux. Etaient également présents *al-hadjdj* Muhyî d-dîn as-Saghîr avec des groupes de cavaliers de Hadjdjût, de Mûzâya, de Sumâta, de B. Manâd, de B. Manâsir.

Le 15 mai, 'Abd al-Qâdir campait à Bû Khurshufa[33] ; le 20, il était sur les bords de *wâdî* Bûtân, au-dessous de Milyâna dont la population, entraînée par

(1202/1792-1238/1822), oncle et prédécesseur de Mawlây 'Abd ar-Raḥmân. Celui-ci plaça ce jeune cousin sous la tutelle morale d'un *qâ'id* expérimenté, *'âmil* de Wajda, du nom de 'Abû l-'Ulâ 'Idrîs al-Djarârî. 'Alî arriva à Tilimsân en Octobre 1830 et se trouva devant une première difficulté : Qurghulân, qui s'étaient retranchés dans la citadelle du Mashwar, refusèrent de lui en ouvrir la porte[29]. 'Ali réagit avec une excessive rigueur et, à l'occasion d'autres difficultés, il commit maladresse sur maladresse, n'hésitant pas à recourir à des actes de violence injustifiés, notamment contre des tribus *makhzan*.

Informé de tous ces faits, Clauzel réagit et fit dépêcher à Ṭandja le Colonel Auvray avec mission de protester auprès du sultan , mais rappelé peu après en France, l'émissaire français n'alla pas plus loin que Ṭandja et Clauzel se borna à faire occuper, le 12 Décembre 1830, la base de Marsâ l-kabîr par le Général Damrémont.

'Abd ar-Raḥmân fit bien, le 8 Mars 1831, une concession en rappelant le prince 'Ali, mais ne laissa pas mettre en question le principe de sa souveraineté qui était reconnue par la plupart des tribus de l'ouest et même sollicitée par des notables d'al-Djazâ'ir. Il fit remplacer le prince 'Ali à Tilimsân par un *khalifa*, cette fois algérien, qui n'était autre que Muḥyî d-Dîn (père du futur *'amir* 'Abd al-Qâdir), avec mission de réconcilier Qurghalân et Ḥaḍar sur le point d'en venir aux mains. Il fit aussi installer à Mu'askar, le 16 Août 1831, en qualité de gouverneur, le *sharîf* Muḥ.b.al.Ḥamrî, chef de la tribu de B. Ḥasan (de la région de Qunayṭira), jusque-là gouverneur de Tiṭwân. Ibn al-Ḥamrî bénéficiait de l'appui de Musṭafâ b.'Ismâ'îl, puissant chef de la tribu *makhzan* des Dawâ'ir. Le sultan le chargea de dépêcher deux fonctionnaires marocains, l'un, *al-ḥadjdj al-Ma'ṭî* à Lamdiyya, l'autre, Muḥ. ash-Sharqî à Milyâna. Ainsi, presque toute la moitié occidentale de la Régence, y compris Lamdiyya et Milyâna, relevaient alors de l'autorité du sultan du Maroc, en dépit de l'opposition platonique de Clauzel et de son successeur Damrémont. Mais cette situation ne dura que d'Octobre 1830 à décembre 1831.

30. En effet, le 6 décembre 1831, a été nommé «Commandant du corps d'occupation» René Savary, duc de Rovigo, ancien général de Napoléon, puis chef de sa police, fougueux partisan de l'occupation totale de la Régence. Avant même de rejoindre son poste, il obtint de Paris l'envoi du Comte Charles de Mornay en mission au Maroc pour exiger du sultan le rappel de tous ses agents.

Mornay partit en décembre 1831 pour Miknâs. Là, il fit entrevoir à 'Abd ar-Raḥmân d'une part des chances de relations de bon voisinage entre états, avec échanges commerciaux fructueux et, d'autre part, le risque de voir les ports marocains bombardés par trois vaisseaux français qui croisaient non loin de Ṭandja. Après plusieurs mois de tergiversations, 'Abd ar-Raḥmân céda et

invita ses représentants à rentrer au Maroc, celui qui était en poste à Lamdiyya ayant déjà été chassé par 'Ah.*bây* de Qustanṭîna.

Cependant, en dehors d'al-Djazâ'ir, de Wahrân, de Bûna et de Bidjâya, tout le reste du pays échappait à l'autorité de Rovigo et se trouvait livré à lui-même. Le «Commandant» se faisait fort de tout annexer, et, trop sûr de lui et trop confiant, il ne se doutait pas qu'après l'effondrement du «pays légal» allait se dresser contre lui le «pays réel» dont les ressorts étaient autrement résistants.

Les masses arabo-berbères, attachées à l'islâm et encadrées dans les confréries religieuses, ne tardèrent pas à fournir des «frères» (*'Ikhwân* - aujourd'hui on dit *khâwa*) résolus à défendre coûte que coûte leur terre dans une lutte *(djihâd)* de longue haleine.

'Abd al-Qâdir veut Milyâna et Lamdiyya

31. Pour décider de cette lutte et lui choisir des chefs, des réunions spontanées de notabilités religieuses se tinrent en divers endroits, notamment à Djandal entre Milyâna et Lamdiyya le 11 août 1831, ensuite à Qayṭana, à quelques kilomètres à l'ouest de Mu'askar où fut acclamé, en tant que membre influent de la *ṭarîqa* des Qâdiriyya, Muḥyî d-dîn b. Musṭafâ[30]. Celui-ci fut appelé à la tête des contingents *d'ikhwân mudjâhidîn* avec qui, entre le 3 et le 8 mai 1832, il remporta sur les troupes du Général Boyer, deux importants succès : à Khanq an-Niṭâḥ (Karguenta) et à Ra's al-'Ayn, aux portes de Wahrân dont il fit le blocus durant plusieurs jours[30].

Son fils 'Abd al-Qâdir, âgé de 24 ans, se distingua à cette occasion par sa bravoure et son sang-froid. Il donna par la suite d'autres preuves de ses capacités d'organisateur et de leader, et, le 24 novembre 1832, lors d'un rassenblement de tribus. Ḥasham, B.'Amir, Gharâba, dans la plaine de Gharîs, il fut acclamé *sulṭân*. En guise de programme, il se contenta de déclarer aux *'Ikhwân* «Je gouvernerai la *sharî'a* à la main». Cette *bay*'a fut suivie de plusieurs autres à travers le pays.

32. Pour affermir son autorité, il se fit d'abord diplomate et conclut avec le Général Desmichels le traité du 26 février 1834 qui lui laissait le temps et surtout les mains libres, pour organiser et équiper une armée et lui reconnaissait, en même temps, le titre de *'amir al-mu'minîn* (Commandeur des Croyants) consacrant son pouvoir spirituel et temporel comme souverain légitime de tous les habitants de la Régence, en attendant le moment de le devenir de tout son territoire[31].

Milyâna et sa région connurent par la suite des soulèvements répétés de Righa, l'insurrection de 'Abû ṭariq (vulg. Bû-ṭrîg) shaykh de Sumâta, lequel, en 951/1544 attaqua Ḥasan, le *qâ'id* turc de Milyâna et le fit mettre à mort près de Ḥammâm Rîgha, mais fut à son tour battu par al-Ḥadjdj al-Bashîr *bâshâ* d'al-Djazâ'ir (le quatrième) et réduit à fuir[23]. De ce Bû-ṭrîg, la mémoire populaire ne connaît plus que Ḥammâm Bû-ṭrîg, une source thermale située entre al-'Aṭṭâf et Wâd al-Fiḍḍa.

Dans les premières années du XIIIème/XIXème siècle, moins de vingt ans avant le débarquement des Français à *sayyid-î* Faradj, la région de Milyâna a connu le soulèvement de B. Manâd en 1228/1813 à l'époque de Qârâ Bâghlî ; elle a connu aussi les vols et les brigandages de diverses tribus, notamment al-'Aṭṭâf avec leur chef al-Baghdâdî qui fut un parent par alliance *d'al-'amîr* 'Abd al-Qâdir et dont les descendants existent toujours à Wâdî r-Rawîna ; elle a connu les déprédations de Birâz avec Djallûl b. 'Abd as-Salâm dont les descendants existent à al-'Amira ; de B. Zugzug avec Mallûk, etc...

Les autres parties de la Régence n'ont guère été épargnées par cette anarchie endémique qui a fini par rendre le pays colonisable.

Milyâna à partir de 1246/1830

27. Au lendemain de la reddition d'al-Djazâ'ir et du départ du *dây* Ḥusayn, l'appareil politico-administratif turc s'écroula comme un château de cartes. Des *bây*-s, seul est resté debout celui de Qusanṭîna, al-ḥâdjdj 'Aḥ. qui, après avoir assisté à la déroute de Sṭâ Wâli et à la capitulation du *dây*, prit la route, à petites étapes, vers sa capitale[24].

Celui du Tîtari, Bû-Muzrâg, fit sa soumission dès le 8 Juillet 1830 et, sur promesse de livrer à l'armée de Bourmont 800 bœufs, reçut son investiture de *bây* français le 15 Juillet. Mais, à la nouvelle de la Révolution de Juillet à Paris, il déclara la guerre à la France le 21 Août, prit le titre de *bâshâ* de toute la Régence et signifia sa décision à ses deux anciens collègues de Qusanṭîna et de Wahrân. Ḥadjdj 'Aḥ. lui répondit avec hauteur qu'il était au moins son égal tandis que Ḥasan de Wahrân, plus coopératif, accepta sa suzeraineté. Mais Clauzel réagit, le 17 Novembre 1830, par une expédition - éclair sur Lamdiyya à la suite de laquelle Bû-Muzrâg dût se soumettre de nouveau et demanda la permission de se retirer à 'Iskandariyya où il termina sa vie dans l'anonymat[25].

Ḥasan *bây* de Wahrân, un vieillard sans autorité, voulut à son tour faire immédiatement acte d'allégeance à la France. Il en fut empêché par les Arabes qui bloquaient sa capitale. Mais, quand Clauzel entra peu après en pourparlers avec lui, il se déclara prêt à payer à la France le même tribut qu'au *dây* si on le

laissait à la tête de sa province. Devant le refus de Clauzel, il demanda, lui aussi, la permission d'aller se retirer en terre d'islâm et c'est sur un bâteau français que, dès le mois de Janvier 1831, il quitta Wahrân, avec sa famille et ses biens, pour al-Djazâ'ir d'où il se rendit à Makka via 'Iskandariyya[26].

28. Clauzel put croire avoir le champ libre au centre et à l'ouest de la Régence. Mais celle-ci était lorgnée par deux amateurs de «biens vacants» qui étaient persuadés que l'armée française ne tarderait pas à retourner en France. C'étaient 'Aḥ. *bây* de Tunis et 'Abd ar-Raḥmân sultan du Maroc. Le premier, en tant que surbordonné du souverain d'Istanbul qui n'avait pas levé le petit doigt quand Ḥusayn a succombé, fit preuve de prudence et de circonscription, préférant traiter avec Clauzel qui paraissait favorable à une certaine coopération franco-tunisienne[27].

29. Mawlây 'Abd ar-Raḥmân, par contre, fut plus entreprenant. D'une part, il ne lui déplaisait pas de recueillir les dépouilles de l'adversaire héréditaire qu'avait presque toujours été le Turc d'al-Djazâ'ir vis-à-vis de la dynastie chérifienne. De plus, il ne pouvait pas ne pas tenir compte de l'émotion qui s'était emparée de ses sujets à la suite du débarquement de *sayyid-î* Faradj, débarquement perçu comme une menace de déstabilisation du Maghrib. 'Abd ar-Raḥmân n'entendait parler autour de lui que de *djihâd*.

Fin Juillet 1830, il se trouvait à Marrâkush d'où il gagna dare-dare Miknâs afin de prêter l'oreille sur ce qui se passait au-delà de la frontière orientale de son royaume.

Tous près de cette fontière, à Tilimsân, il y avait alors, parmi les nombreux marocains, en général des commerçants riches et influents, un personnage particulièrement dynamique et astucieux, originaire de Fâs. Il s'appelait Muḥ.b.Nûna. Dans les dix premiers jours de Juillet, il avait réussi à se faire désigner par les Ḥaḍar (arabes citadins) comme *qâ'id* de la ville à la place de Bursalî *qâ'id qurghuli*. En cette qualité, Muḥ.b.Nûna fit partir une délégation de Ḥaḍar auprès du sultan pour lui faire acte d'allégeance. 'Abd ar-Raḥmân fit bon accueil à cette délégation mais se réserva de consulter le collège des *'ulama'* de Fâs lequel lui délivra une *fatwâ* selon laquelle le territoire soumis jusque-là au sultan d'Istanbul ne pouvait être annexé qu'avec le consentement de tous ses habitants, Ḥaḍar, Turcs et Qurghulân.

Après concertation, une deuxième délégation, comprenant des représentants des trois groupes, prit la route de Miknâs. 'Abd ar-Raḥmân la reçut magnifiquement, lui soumit le texte d'une *Bay'a* qui fut immédiatement consacré par un serment[28].

Aussitôt un poste de *Khalîfa* marocain fut créé à Tilimsân avec, à sa tête, un jeune prince de quinze ans, 'Abû l-Ḥasan 'Ali, fils de Mawlây Sulaymân

Mandîl qui englobait le massif de Wânashrîs, celui de Lamdiyya et toute la Zahra avec Tanas, Barishk, Sharshâl, la plaine de Mattidja et Milyâna. B. Tûdjîn y instituèrent un pouvoir *(mulk)* bédouin caractérisé, selon Ibn Khaldûn, par la transhumance *(az-za'n)* et les tentes *(al-khiyâm)*. (V. 'Ibar, VII, 134). Ils étaient soutenus par B. Ḥafṣ de Tûnis, ce qui n'était pas du goût de leurs rivaux B. Marîn de Fâs.

23. Abû Yûsuf Ya'qûb al-Manṣûr (657/1259-685/1286) engagea un Milyânais réputé, dit-on, pour son savoir, sa piété et une certaine autorité morale, à briguer le poste d'aministrateur de Milyâna et de ses environs. Il s'appelait 'Abû l.-'Abbâs Aḥ. al-Milyânî. Son fils, 'Abû 'Alî lui succéda dans cette charge. Réaction de B. Ḥafṣ : siège de Milyâna en 659/1261, le jour de *'îd al-fiṭr* est-il précisé, fuite d'Abû 'Alî et investiture d'un Maghrâwî, Muḥ. b. Mandîl[18].

24. Remis ainsi en selle, Maghrâwâ B. Mandil se retrouvèrent maîtres de la région, soutenus tantôt par B. Ḥafṣ, tantôt par B. Marîn, tantôt par B. 'Abd al-Wâd de Tilimsân, pratiquant une politique tortueuse et de jeu de bascule jusqu'au jour où B. 'Abd al-Wâd parvinrent, à partir de 707/1308, à imposer, pendant toute la première moitié du siècle, un pouvoir à peu près exclusif sur tout le Maghrib central. A Milyâna, comme dans d'autres villes provinciales importantes, ils déléguaient leur autorité à un prince du sang, le plus souvent fils du souverain, comme ce fut notamment le cas du dauphin al-Muntaṣir, fils d'Abû Ḥammû II (760/1372-791/1388)[19].

Mais durant la seconde moitié du siècle, la région vécut, comme d'ailleurs le reste du Maghrib, une période des plus confuses, dans un tohu-bohu suscité par quatre protagonistes : d'une part les princes de Tilimsân 'Abû Ḥammû II, son fils 'Abû Tâshifîn, son cousin 'Abû Zayyân et d'autre part 'Abd al-'Azîz sultan du Maroc plus haut nommé[20].

Excédés par toutes sortes d'abus, sourtout par une excessive fiscalité, les Milyânais se soulevèrent plus d'une fois, prenant le parti de l'un ou de l'autre de ces compétiteurs. La place publique de leur cité fut alors souvent le théâtre d'exécutions sommaires.

Milyâna au pouvoir des Pachas et des Deys

25. En 923/1516, l'aîné des frères Barberousse, Bâbâ 'Arûdj se rendit maître des plaines de Mattidja et du Shalaf, ainsi que de la chaîne de la Zahra, y comprises les villes de Sharshâl, Tanas, Milyâna après al-Djazâ'ir qui allait être promue capitale du Maghrib central.

Administrativement Milyâna fit peu après partie de *Dâr as-Sulṭân* circons-

cription relevant directement du maître d'al-Djazâ'ir et englobant à l'est, au sud et à l'ouest de la capitale un vaste territoire avec Mattîdja et Shalaf, placé parfois sous l'autorité de khûdjat al-khayl, fonctionnaire qui cumulait les attributions de ministre des finances, de grand maître des haras et de directeur des domaines, et qui, de ce fait, avait plus d'autorité que le bây du Tîṭarî[21]. Mais, au début du XIIIème/XIXème s., Milyâna et sa région furent rattachées au *baylik* du Gharb sous l'autorité du bây de Wahrân. -rent-elles pour autant mieux adminsitrées ? Ont-elles vécu en paix ?

26. L'action de 'Arûdj ne fut gênée ni par les religieux détenteurs de l'autorité spirituelle, ni par leurs fidèles qui souhaitaient alors le changement par la disparition des dynastes pervers de l'époque, ni encore moins par les montagnards berbères dont l'attitude était indifférente sinon encourageante.

Par contre, les chefs traditionnels des tribus arabes nomades, jaloux de leur autorité temporelle, ne tardèrent pas à se dresser contre le Turc. A Mattidja, ce furent les chefs de Tha'âliba, entre autres Salim at-Tûmi alors maître d'al-Djazâ'ir. 'Arûdj dut le tuer de ses propres mains.

L'événement produisit une forte émotion dans Mattîdja et dans le Shalaf, où le *shaykh* des Arabes nomades Suwayd, Ḥamîd al-'Abd, qui résidait à Tanas, leva l'étendard de la résistance. Son nom est encore présent dans la mémoire populaire tandis que la chronique, à son sujet, est plutôt avare de précisions. Son prénom est souvent prononcé et transcrit 'Aḥmîda ; son surnom *al-'abd* (l'esclave ou plutôt le nègre) lui aurait été donné parce que sa mère était une négresse ; on prétend qu'il avait sous ses ordres 10.000 cavaliers que 1.000 mousquetaires turcs et 500 Morisques réussirent à mettre en fuite en 924/1517 sur les bords du Shalaf ; on dit aussi qu'il se retira au Sahara, mais que, sans doute à la suite de tractations, son titre de *shaykh* de Suwayd et sa résidence de Tanas lui furent restitués par Khayr ad-Dîn, cadet de 'Arûdj. Mais à sa mort, Khayr ad-Dîn commit la faute de lui donner un Turc comme successeur, ce qui déclencha un nouveau soulèvement de Suwayd, lequel dura plus de deux siècles[22], sous la direction de personnages portant tous le nom de Ḥamîd *al-'abd*.

Aujourd'hui le nom de Ḥamîd *al-'abd* n'est plus qu'un terme de comparaison laudative pour désigner un sujet - surtout un enfant - de valeur exceptionnelle. «Aurais-tu enfanté Ḥamîd *al-'abd* ?» dit-on parfois à une mère trop fière de son rejeton.

On sait que le geste guerrière de Suwayd eut son poète : Ibn as-Suwaykât (vulg. Besswîkât) qui composa, en arabe dialectal, des chants encore fredonnés par les ruraux du Shalaf, entre autres celui qui commence par *«yâ nâr-î wîn Swîd»*...

du Maghrib, dans cette province de l'empire arabe de B. 'Umayya dont la capitale était Dimashq, province très tôt contestée par des autochtones ralliés au schisme des Khawâridji. Quand B. 'Umayya furent détrônés par B. l-'Abbâs de Baghdâd, le Maghrib fut divisé, pour plus d'un siècle, en trois parties pratiquement autonomes :

A l'est, B. l-'Aghlab, en qualité d'émirs, agréés par B. l-'Abbâs, administraient, depuis Qayrawân, l'Ifriqiyya (Tunisie actuelle et partie orientale de l'Algérie).

Au centre, à partir de Tâhart, de 160/776 à 281/894, B. Rustam exerçaient une certaine autorité religieuse, sinon politique, sur les populations qui avaient été gagnées par la doctrine des 'Ibâḍiyya dans le Djabal 'Awrâs et dans le Djabal Nufûsa, dans le sud de l'Ifriqiyya ; et en toute indépendance, ils gouvernaient celles qui demeuraient en Algérie entre Mattidja et Tilimsân.

A l'ouest, depuis Fâs, de 172/789 à 375/985, B. 'Idrîs régnaient sur le Maroc et une partie de l'Algérie occidentale.

Entre ces trois entités politico-religieuses il n'y avait pas de frontières au sens moderne du mot, mais seulement des confins qui ignoraient postes de police et postes de douane. En *Dâr al-'islâm*, au Maghrib comme au Mashriq, le Musulman, Orthodoxe ou Schismatique, était partout chez lui. Les notions modernes de nationalité étaient absentes dans son esprit. La seule réalité c'était *Dâr al-islâm*.

De quelle autorité relevait Milyâna ?

16. Pendant plus d'un siècle, de 160/776 à 281/892, elle a fait partie de la «république islamique» de Tâhar[11], les 'Ibâḍiyya ayant toujours fait preuve d'esprit de tolérance à l'égard de ceux qui ne partageaient pas leur crédo, et ont toujours admis la cohabitation de gens de toutes croyances : Juifs, Chrétiens, Musulmans orthodoxes ou partisans de 'Ali. Mais à partir de l'imâmat d'Abû l-Yaqẓân (241/855-258/871), leurs ressortissant n'ont cessé de diminuer et de dépendre de leurs rivaux politico-religieux[12].

Al-Ya'qûbî, qui écrivit son traité de géographie en 278/891, peu après l'imâmat d'Abû l-Yaqẓân, est formel : Milyâna faisait partie du domaine de B. 'Idrîs. Il n'y a pas de raison sérieuse de récuser son témoignage[13]. Mais après la chute de cette dynastie, Milyâna se retrouva sous une autre obédience.

La région, comme d'ailleurs tout le Maghrib central, était peuplée de Berbères : en plaine et sur les Hauts Plateaux, Zanâta nomades ou semi-nomades ; en montagne et au bord de la mer, Sanhâdja sédentaires.

17. Or, à la fin du III/IXème s., le chef de Sanhâdja était Mannâd b.

Manqûsh b. Ṣanhâdj[14] qui était un vassal de B. l-'Aghlab. Après l'éviction de ces derniers, son fils et successeur, Ziri ayant fait acte d'allégeance à B. 'Ubayd de Mahdiyya, dût combattre et vaincre Maghrawa qui formaient le groupe le plus important de Zanâta dans la région et dont le chef était Muḥ.b.al-Khayr b. Muḥ. b. Khazar, féal de b. 'Umayya de Qurṭuba. Vainqueur sur plus d'un champ de bataille, Ziri fut autorisé par al-Qâ'im (322/934-334/946) à construire et à prendre pour capitale 'Ashir. Il fit ensuite entreprendre la rénovation d'al-Djazâ'ir, de Lamdiyya et de Milyâna. Son fils et successeur Buluggîn, qui résidait à Milyâna, devint, après le départ de B. 'Ubayd en Egypte, le maître incontesté de l'Ifriqiyya et du Maghrib central et engagea le processus de l'autonomie que réalisèrent ses descendants en 441/1049. Pour un temps Milyâna fut ainsi la capitale politique de la plus grande partie du Maghrib.

18. Mais les cousins de Buluggîn, B. Ḥammâd, installés à la Qal'a puis à Bidjâya, réussirent à se tailler dans cet espace une principauté autonome englobant Milyâna dont l'administration fut confiée, par eux, à un certain Kabbâb, frère du dynaste an-Nâṣir b. 'Alâ' an-Nâs (454/1062 - 481/1089) (v. *'Ibar*, VI, 353).

19. L'arrivée de B. Hilâl par l'est, celle de Ṣanhâdja chameliers (al-Murâbiṭîn) par l'ouest, eut pour conséquence la disparition lente des deux principautés : celle de B. Ḥammâd en 558/1163 et celle de B. Zîrî en 566/1171.

20. Yûsuf b. Tâshifîn (453/1061 - 500/1107), souverain des Murâbiṭîn, se trouvait dès 473/1081 maître de tout le territoire situé à l'ouest d'al-Djazâ'ir, y compris cette ville et, bien entendu Lamdiyya et Milyâna. Cependant la chronique est muette sur ce qu'a pu être le sort de cette dernière, durant trois quarts de siècle, sous la domination des Murâbiṭîn.

21. A partir de 547/1152, elle fit partie, pour environ un siècle, de l'empire de 'Abd al-Mu'min (522/1128-558/1163). Elle fut alors attaquée à deux reprises par B. Ghâniya[15] une première fois en 581/1185, par 'Ali qui s'en empara et en confia l'administration à un certain Badr ou Yaddir b.'A'isha. Expulsé par les Milyânais, celui-ci fut ensuite arrêté et mis à mort sur ordre de Ya'qûb al-Manṣûr (580/1184-595/1199), petit-fils de 'Abd al-Mu'min. Elle fut attaquée une deuxième fois, en 628/1220, par Yaḥyâ qui infligea à Wâdjar[16] une sévère défaite à Mandîl b. 'Abd ar-Raḥmân, chef de Maghrâwa, qui étaient alors les vrais maîtres de la région. Au cours d'un autre combat, Yaḥyâ fut tué en 633/1237 sur les bords du Shalaf, non loin de Milyâna[17].

22. A la suite de ces événements, un autre groupe de Zenâta - B. Tûdjîn - dont les terrains de parcours étaient jusqu'alors au sud de Djabal Wânashrîs, le long de *nahr* Wâṣil (le Haut Shalaf), envahit le domaine de Maghrâwa B.

tions de céréales de vaste étendue ; à l'entour vivent plusieurs tribus berbères ; le fleuve Shalaf traverse les plaines qu'elle domine[7].

10. Au mois de *Rabî'* premier (688/1289), venant de Tilimsân, le voyageur al-'Abdarî arrive à Milyâna, en route pour Makka. «c'est, dit-il, une *balda* (petite ville) prospère (mais) recroquevillé sur elle-même. Pourtant elle ne le cède en rien aux métropoles ; du haut d'un belvédère, elle domine la vallée du Shalaf... elle est entourée de jardins où fleurs et fruits abondent ; elle est bâtie sur un plateau qui en fait une cité inexpugnable ; elle s'est épanouie près d'un petit cours d'eau de bel aspect dont l'eau, fort agréable au goût, étanche bien la soif et guérit de toute passion ; sans avoir soif on aimerait y boire et, seulement à la regarder, on a l'impression que par simple aspersion elle est susceptible de vous réveiller de la torpeur ; ses gravillons sont comme des perles et elle est aussi limpide que des larmes ; une mosquée cathédrale de fort bel aspect y reçoit le fidèle mais le temps l'a gravement dégradée ; si elle pouvait parler, cette mosquée déclamerait sur le champ... (ici quinze vers exprimant regrets et doléances, mais rien moins que clairs). (V. 'Abdarî, 24).

11. Un autre voyageur arabe, Ibn Baṭṭûṭa passa à Milyâna en 725/1324, au début de son long périple à travers l'Afrique et l'Asie. Il avait vingt deux ans. Il y arriva en pleine canicule, précise-t-il, y passa dix jours et partit ensuite pour se reposer trois jours dans une station d'eau située à quatre milles à l'est et y faire une cure avec un de ses compagnons qui, lui, finit par succomber et qui fut inhumé à Milyâna. Mais, curieusement, Ibn Baṭṭûṭa ne décrit ni la ville, ni ses environs[8].

12. En 774/1372, revenant de Baskara où il avait été envoyé en mission par le sultan de B. Marîn 'Abû Fâris 'Abd al-'Azâz b.'Abî l-Ḥasan (767/1365-774/1372, Ibn Khaldûn fit une halte à Milyâna. Par petites étapes, il rentrait à Fâs avec sa famille. La ville était alors, dit-il, administrée par un certain 'Alî b. Ḥassûn b. 'Abî 'Alî an-Nayâṭî, un affranchi du sultan, élevé au rang de *«qâ'id»*. Ce fut là qu'Ibn Khaldûn apprit la nouvelle du décès d'Abû Fâris. Il s'empressa de reprendre la route de Fâs en compagnie de Nayâṭî, s'arrêta à al-'Aṭṭâf chez 'Awlâd Ya'qûb b. Mûsa, puis, poursuivant sa route, faillit être victime dans la région de Tilimsân, d'incidents rocambolesques d'inspiration politique. Pas plus qu'Ibn Baṭṭûtta, Ibn Khaldûn ne décrit Milyâna. Il nous apprend seulement que «c'est un *ḥâḍira* (une cité) faisant partie du domaine de Maghrâwa b. Warsîfan dans la plaine du Shalaf, que la première syllabe de son nom est *Mil (bi-l-kasr thumma s-sukûn)* (v. Ibn Khaldûn, *Ta'rîf*, 29, note 6 et 216-218, *'Ibar*, VII, 1027), et, dans un autre passage de son livre, que Buluggîn a tracé le plan d'al-Djazâ'ir, de Milyâna et de Lamdiyya (en désaccord ici avec Bakrî) (V. *'Ibar*, VI, 314). En ce qui concerne la voyelle de la première syllabe *Mil*, Ibn Khaldûn a dû suivre la leçon de Yâqût (V. Yâqût, sub. vc.).

13. Léon l'Africain (al-Ḥasan al-Wazzân) fournit quelques détails sur les artisans de Milyâna, sur ses tisserands, sur ses sources vives, sur ses vergers où domine le noyer, sur ses remparts et sur son site qu'il compare à celui de Narvi en Italie (province de Péronne) parce qu'elle est à flanc de montagne (V. trad. Epaulard, 345, note 118). Son texte, en caractères latins, l'apelle Magnana, tandis que celui de Marmol, Miliana et celui de Shaw Malyana (V. *Description de l'Afrique*, II, 396-97.[9].

Milyâna d'après les chroniqueurs arabes

14. Ces quelques notions de géographie physique et humaine, fournies par les géographes et voyageurs arabes et européens à travers les siècles, sont à rapprocher des faits relatés par les chroniqueurs et à confronter avec la réalité actuelle, mais sous le bénéfice de quelques observations préalables qui sont éclairantes :

a - Zakkâr fait partie de la chaîne de la Ẓahra qui va de Mattîdja à Mustaghânim et qui est encore, de nos jours, peuplée de Berbères sédentaires *(qabâ'il)*. Ce sont Rîgha, b. Manâṣir, B. Farḥ, Sumâta, Zatîma, B. Ḥawwâ', B. Râshid, etc.... probablement descendants de Ṣanhâdja, encore aujourd'hui plus berbérophones qu'arabophones.

b - La plaine du Shalaf, qui longe la Ẓahrâ au sud, est aussi habitée par des Berbères : Maṭmâṭa, B. Zugzug, al-Wazâghira, B. Bûduwwân, Maghrâwa, Sindjâs, etc[10], tous arabophones, naguère semi-nomades, descendant sans doute de Zanâta et arabisés par contact avec leurs voisins arabes qui sont B. 'Aḥmad, al-Ḥasham, 'Ahl al-Wâd, 'Arîb, Birâz et plus à l'ouest 'Ikrima, B. Fâtim, al-'Aṭṭâf qui, eux, selon toute vraisemblance sinon avec certitude, sont des descendants des Arabes nomades Zughba (branche importante de B. Hilâl) tous arabophones, bien évidemment, et naguère, eux aussi, semi-nomades.

c - Mais, ni à Milyâna, ni dans les campagnes environnantes, on ne rencontre aujourd'hui de groupes se disant *shurafâ'* et se réclamant du lignage du Muḥ. b. Sulaymân dont parle Ya'qûbî.

d - Milyâna est à peu près à égale distance de Marrâkush et de Tûnis, sur le méridien de Paris.

Ces remarques aident à mieux comprendre et le passé médiéval et l'état actuel de cette ville.

15 - De 27/647 à 124/741, Milyâna était incluse, comme toutes les cités

Milyâna.

Mais ce vocable désigne aussi, dans Wânashrîs, une fraction de la tribu berbère de B. Handal et un *qaṣr* (ksar) berbère du Tuwât (cf. Basset René, *Etude sur la zenatia de L'Ouarsenis et du Maghreb central*, Paris, 1895, p. 1 et 2). L'etymologie de Milyâna peut aussi être berbère.

4. Le second toponyme figure lui aussi sous plusieurs graphies. Lors des travaux de terrassement pour la construction du viaduc entre 'Arîb et 'Ayn ad-Diflâ, sur la rive droite du Shalaf, à trois km environ des ruines romaines d'Oppidum Novum, on a découvert une pierre milliaire portant l'inscription suivante : «TERM(ini) COL(oniae) Jul(ia) AUG(ustae) Zucchabar. On pense qu'il s'agit d'une borne délimitant le territoire d'une cité appelée *Zucchabar* et contenant le nom d'une colonie fondée en 27 ou 25 avant J.C. quand Juba II a été mis en possession de la Mauritanie.

De son côté, Pline *(Histoire Naturelle*, éd. Dubouchet, Paris, 1848, I, Livre V, I, 20, p. 211) cite *Succabar* tandis que Ptolémée (op. cit, p. 604-605) mentionne *Zucchabar*. Une porte de Cesarae (Sharshâl) s'appelait *Zucchabari* (Meunier J., *Les fortifications de Cesarae*, in Revue Africaine, 1942-43, p. 172-192), Ammien Marcellin note *Sugabarritum* (Livre XXIX, éd. Dubouchet, Paris, 1849, p. 320) et les *Actes de la Conférence de Carthage de 411 et de 484* notent la présence des évêques de *Zuccabaritanus* (cf. Morcelli, op. cité, I, DCCXIII, 371).

5. Il semble que *Manliana* soit le nom d'une colonie dépendant de *Zucchabar* qui serait une *cité*. Mais celle-ci, sous ce nom, est inconnue de tous les géographes et voyageurs, arabes et européens qui, à partir du IV/Xème s., mentionnent Milyâna dans leurs ouvrages. On pense qu'elle a disparu au cours du VIème s. à la suite de troubles et de révoltes.

Pour sa localisation, on a indiqué au moins quatre endroits :

a) le marabout de *sayyid-î* 'Abd al-Qâdir,
b) *sayyid-î* al-'Akhdhr (ex Lavarande)
c) Khamîs-Milyâna
d) les ruines d'A'mûra,
e) et enfin Milyâna.

Les textes anciens et les données archéologiques paraissent en faveur de la dernière supposition.

Grâce à son site escarpé, elle a pu assumer un rôle de protection et l'on sait que Théodose, en 375, a dû évacuer Cesarae pour s'installer à *Sugabar*, à mi-côte du *mons* Francillens (nom antique du Zakkâr) pour réprimer l'insurrection de Firmus.

Son nom étant sans rapport avec la langue latine, il a dû désigner une cité antérieure à l'occupation romaine. On a recherché son étymologie dans le libico-berbère et dans le phénicien. L'élément *Zuc/Sug* serait le sémitique *sûq* = marché, tandis que l'élément *abar* serait une réduction de *abbadir*, composé de *ab* = père, et *Addir*, nom d'une divinité[2].

Milyâna d'après les géographes et voyageurs arabes et européens

6. Les plus anciens géographes arabes, qui sont du III/IXème s. (Ibn Khurradâdhbih, Ibn al-Faqîh, Ibn Rustih), ne disent pas un mot de Milyâna.

Al-Ya'qûbî est le premier à mentionner, en 278/891, à cet endroit, une localité du nom de *Madkara*, lieu de naissance de Muḥammad b. Sulaymân b. 'Abd Allâh, neveu d'Idrîs 1er ; il est le seul à fournir cette indication en ajoutant que toute cette région, jusqu'à Sûq Ibrâhîm[3], était peuplée de descendants, fort nombreux, de ce *sharîf*. Madkara serait l'ancien nom berbère de Milyâna à l'arrivée des Arabes. A-t-il quelque rapport avec celui de la tribu berbère de Matghara ?[4].

7. C'est seulement en 367/977 que le nom de Milyâna apparaît pour la première fois et sous la plume d'Ibn Ḥawqal qui ne précise pas toutefois la voyelle de sa première syllabe. Il situe cette ville à une étape d'al-Khaḍrâ' (actuelle 'Ayn ad-Diflâ). Il la qualifie de *'azâliyya* (= éternelle), donc antique, fille de *Zucchabar*, pourvue de moulins que fait tourner son cours d'eau *(nahr)* et possédant un grand nombre de canaux d'irrigation (v. Ibn Ḥawqal, 89).

8. Selon Bakrî, mort en 487/1094, Milyâna est *rûmiyya* (romaine) et elle renferme plus d'un vestige antique. On y trouve des arbres fruitiers, des canaux qui font tourner ses moulins. La ville a été rénovée par Zîrî b. Mannâd *(djaddada-hâ)* qui en a fait la résidence de son fils Buluggîn. Elle surplombe toute la plaine de B. Wârifan et autres tribus ; elle a un cours d'eau, des puits d'eau douce, un bazar très achalandé[5].

Idrîsî confirme ces notations et n'y ajoute pratiquement rien de son cru[6].

9. Ibn Maḥshara note, vers 587/1191, que «c'est une cité *(madîna)* fortifiée, située au flanc d'une montagne couverte de myrthe *(rayḥân)* et qui s'appele Zakkâr. De cette montagne coule une source abondante qui fait tourner les moulins de la ville ; l'eau courante est partout ; des canaux irriguent les vergers qui produisent toutes espèces de fruits ; en Ifrîqiyya, Milyâna est la ville la plus riche en produits agricoles et où la vie est la moins chère ; elle surplombe de vastes campagnes, de nombreux villages populeux, des exploita-

ne fait que franciser du vocabulaire arabe : *ad-darak al-waṭani* pour gendarmerie, *chef de daira* pour sous-préfet, CW = *chemin wilâyal* pour chemin départemental et d'autres cocasseries du même genre. Notons que le français, à travers le turc, avait déjà tiré du *w.l.y.* le mot vilayet glosé par le *Grand Larousse du XXème siècle :* «Province, office de *vali*, unité administrative dans certains pays d'Orient».

Première Partie

Milyana dans l'antiquité

2. Située à 130 km à l'ouest d'al-Djazâ'ir (ville), à 9 km au nord de la Nationale 4 et de la voie ferrée al-Djazâ'ir -Wahrân, sur un énorme éperon de travertin aux contours abrupts et cernés à l'est par *wâd* Bazzîṭ et à l'ouest par *wâd* ar-Rayḥân, Milyâna domine la vallée du Shalaf avec, plein sud, une vue étendue sur l'Atalas tellien et, au sud-ouest, une vue encore plus étendue sur la chaîne de Wânashrîs[1].

3. A ses origines lointaines, la litérature antique et les fouilles archéologiques du XIIIème/XIXème siècle signalent deux toponymes : Manliana et Zucchabar.

L'itinéraire d'Antonin contient Malliana (cf. Antonin Auguste, *Itinerarium Provinciarum*, Lugduni, s.d., p. II) tandis que Ptolémée Claudius, *Géographie*, IV, chap. II, Mauretania Caesariesis, Paris, 1901, p. 606), cite *Manliana*.

De son côté, Saint Augustin cite Victorien sous-diacre de *Malliana*. (cf. Poujoulat, *Lettres de Saint Augustin*, Pavie, 1858, I, pp. 464-66).

D'autre part, dans les *Actes de la Conférence Episcopale de Carthage de 484*, il est question de Victor évêque de *Milianensis* (cf. Morcelli Stéphane Antoni, *Africa christina*, Brixine, 1816, I., cccxxxv, 211-212).

Berbrugger a étudié une inscription funéraire découverte près de Khamîs-Milyâna en 1849 concernant une patricienne romaine du nom de *Manliae* fille de Lucius, celui-ci propriétaire d'un grand domaine *(fund)* (cf. Berbrugger, *Les ruines du marabout Sidi Abd el Kader*, in Revue Africaine, n° 48)[2].

A considérer ces paronymes, on est tenté d'assigner une origine latine à

de l'Algérie après 1830).
Damrémont, *Correspondance du Général Damrémont*, Gouverneur Général des possessions françaises dans le nord de l'Afrique, éditée par G. Yver, Paris, Champion, 1927.
Demenghem (Emile), *Sidi Ahmed ben Youssef, patron de Miliana*, dans Documents Algériens, Alger, 1954, pp. 141-146.
Drouet d'Erlon, *Correspondance du Général Drouet d'Erlon* - 1834-1845) publiée par G. Esquer, Paris, champion, 1926.
Emerit (Marcel, *Mémoires d'Ahmed bey*, in Revue Africaine, XCII, 1er et 2ème trimestre 1949, pp. 65-125.
L'Algérie à l'époque d'Abd el-Kader, Paris, Larose, 1951.
Encyclopédie de l'Islâm, 1ère édition, art. Miliana, auteur non cité, *III, 565*, Leyde-Paris, 1936, en abrégé E.I.
Fagnan, *L'Afrique septentrionale au XIIème s. de J.C.*, Constantine, 1900.
Gonzalès (Joachim), *Essai chronologique sur les musulmans célèbres de la ville d'Alger*, Alger, 1887, p. 8 et suiv.
Haedo, *Epitomae de Los Reyes de Arjel*, trad. fr. de Grammont, in R.A., 1880, p. 230 et suiv.
Julien (Ch. A.) *Histoire de l'Algérie comtemporaine*, I, Paris, 1979.
Kateb Yacine, *Abdelkader et l'indépendance algérienne*, Alger S.N.E.D., 1983.
Lacheraf (Mostefa), *L'Algérie nation et société*, 2ème éd. S.N.E.D., Alger 1978.
Lebrun (Dr Aquilain), *Miliana*, in Moniteur Algérien, 1841 et 1842.
Léon l'Africain (=al-Ḥasan b. Muḥ. al-wazzân az-zayyâtî), *Description de l'Afrique*, trad. Epaulard, Paris, 1952.
Leschi (Louis), *Etude épigraphique d'archéologie et d'histoire africaine, Paris, 1957*.
Levi-Provençal, *Les historiens des Chorfas*, Paris, 1922.
Marçais (Georges), *La Berbérie au XIème s. d'après al-Ya*'qûbî, in Revue Africaine, 1941, pp. 40-61.
Modot (Jean) *Algérie, les guides bleus*, Paris, Hachette, 1977, pp. 246-247.
Moniteur Algérien (journal officiel de la colonie), 1836, 1841-42.
Rinn (Louis), *Le royaume d'Alger sous le dernier dey*, Alger 1900.
Rousset (Camille), *L'Algérie de 1830 à 1840*, Paris, Plon. 1887.
Rovigo, *Correspondance du Duc de Rovigo*, publiée par G. Esquer, Paris, Champion, Alger, Jourdan, 1914-1924, 4 vol. (Collection des documents inédits sur l'histoire de l'Algérie après 1830).
Salama (Pierre), *Les voies romaines de l'Afrique du Nord*, Alger, 1951, pp. 129 et 140.
Shaw (Thomas), *Voyage dans la Régence d'Alger*, 2ème éd., Tunis, 1980
Trumelet (Colonel), *Blida*, Alger, 1887.

AVANT-PROPOS

1. A cause du mot *waliyy*, ce titre peut intriguer aujourd'hui le lecteur algérien qui l'aura sous les yeux dans cette version française. Milyâna n'est pas, en effet, un chef-lieu de *wilâya* (département) et n'a sans doute pas vocation de le devenir dans l'immédiat, ni même à court ou à moyen terme. A. b. Y. n'est pas un *wâlî* au sens récent du mot, c'est-à-dire *préfet*, mais c'est un *waliyy* au sens ancien du mot, c'est-à-dire «patron spirituel d'une cité». Il est considéré comme tel à Milyâna et dans toute l'Algérie.

Jusqu'à l'indépendance, l'arabe dialectal algérien ne connaissant au mot *wâli* que cette dernière acception avec son pluriel *welya*, du classique *waliyy pl. 'awliyâ'*.

Le radical *w.l.y.* est un des plus riches en dérivés avec des connotations très diverses auxquelles *Lisân al-'Arab*, XV, consacre une quinzaine de pages pour passer seulement en revue les acceptions anciennes.

C'est à la politique de réarabisation qu'est due la renaissance de *wâlî* (préfet) et de *wilâya* (département), Au vulgaire, cette nouvelle acception des deux termes a paru d'abord déroutante, mais, à la longue, on s'y est fait. C'était un retour au classique *wâli*, pl. *wulât*, qui désignait, à l'origine, le gouverneur chargé par le souverain de Dimashq ou de Baghdâd d'administrer une province lointaine comme le Maghrib qui avait un seul *wâlî* ayant sous ses ordres, dans chaque circonscription plus réduite, un *'âmil* (préfet) pl. *'ummâl*, responsable de l'administration d'une *'amâla* (département). Ce vocabulaire a été entériné par l'administration française en Algérie et il est encore en usage au Maroc indépendant.

L'Algérie indépendante a préféré rompre avec le passé colonial. Mais tant que la réarabisation n'est pas totale, l'usage actuel du français, toujours vivant,

Ibn Maryam ('Abû 'Abd Allâh Muḥ. b. Muḥ. al-Mallîtî l-Madyûnî) *al-Bustân fî dhikr al-'awliyâ' wa l-'ulamâ' bi Tilimsân*, al-Djazâ'ir, 1326/1908.

Idrîsî ('Abû 'Abd Allâh Muḥ.Muḥ. *ash-sharîf* al-), *Opus geographicum*, Neapoli-Romae, 1971-1978.

Madanî ('Aḥ. Tawfîq al-) *Muḥ. 'Uthmân bâshâ dây al-Djazâ'ir, 1776-1791*. al-Djazâ'ir 1356/1937.

Muḥ. b.'Abd al-Qâdir al Djazâ'irî, *Tuḥfat az-zâ'ir fî ta'rîkh al-Djazâ'ir wa l-'amîr 'Abd al-Qâdir*, éd. Mamdûḥ Ḥaqqî, Bayrût, 1384/1964. en abrégé *Tuḥfa*.

Nûr ad-Dîn 'Abd al-Qâdir, *Ṣafaḥât fî ta'rîkh madînat al-Djazâ'ir min 'aqdam 'uṣûri-hâ 'ilâ ntihâ' al-'ahd at-turkî*, Qusanṭîna, al-Bâ'th 1965, en abrégé *Ṣafaḥât*.

Ar-Râshidî, Aḥ. b. Muḥ. b. 'Ali b. Saḥnûn, *ath thaghr al-djumânî fî btisâm ath-Thaghr al-wahrânî*, éd. al-Mahdi l-Bû'abdallî Qusanṭina, al-Ba'th, mars 1973, en abrégé *Thaghr*.

Sa'd Allâh ('Abû l-Qâsim), *Ta'rî kh al-Djazâ'ir ath-thaqâfî*, I, II, al-Djazâ'ir, 1981, en abrégé Ta'ri *kh*.

Thaqâfa (ath-), n° spécial consacré à l'émir 'Abd al-Qâdir, al-Djazâ'ir, 1403/1983.

War thîlânî (al-Ḥusayn b. Muḥ. al-), *Nuzhat al-'anẓâr fî faḍl 'ilm at-ta'rîkh wa l-'akhbâr*, éd. Muḥ. b. Abî Shanab, al-Djazâ'ir, 1908.

Ya'qûbî ('Aḥ. b. Ya'qûb b. Dja'far al-), *k. al-buldân*, Leyde, 1892.

Yâqût (Shihâb ad-Dîn 'Abû 'Abd Allâh al-Ḥamawî), *Mu'djam al-buldân, VII, Caire, 1906-7*.

Zakariyya Mufdî, *L'hymne des hymnes ou l'Iliade algérienne*, in Actes du 6e Séminaire pour la connaissance de la pensée islamique (24 Juillet - 10 Août 1972), Constantine, I, 58 et suiv.

Az-Zayyânî (Muḥ. b. Yûsuf), *Dalîl al-ḥayrân wa anîs aṣ-ṣahrân fî 'akhbâr madînat Wahrân*, éd. al-Mahdî l-Bû'abdalli, S.N.E.D., al-Djazâ'ir, 1399/1979, en abrégé *Dalîl*.

OUVRAGES CONSULTES EN LANGUE FRANÇAISE

Autran J. *Milianah*, épisode des guerres d'Afrique, Paris, 1868.

Azan (Colonel Paul), *l'émir Abd-el-Kader, 1808-1883, du fanatisme musulman au patriotisme français*, Paris 1925.

Békri (chikh), *Le Kharédjisme berbère*, in Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, Alger, 1957.

Bérard (Victor), *Poèmes algériens et récits légendaires traduits ou imités en vers...*, Paris, Alger, Constantine, 1858.

Berque (Jacques), *L'intérieur du Maghreb, XVème-XIXème siècle*, Paris, 1978.

Bodin (Marcel), *Notes et questions sur Sidi Ahmed-ben-Yousef*, in Revue Africaine, n° 66, 1925, pp. 123-189.

Carcopino (Jérôme), *L'insurrection africaine de 253 d'après une inscription récemment découverte*, in Revue Africaine, 1919, p. 369.

Castellane (Victor, Comte de), *Campagnes d'Afrique (1835-1848)*, Paris, 1898, 2 vol.

Certeux et Carnoy, *L'Algérie traditionnelle*, I, Paris, Alger, 1884.

Clauzel (Comte Bertrand), *Correspondance du Maréchal Clauzel (1835-1837)* publiée par G. Esquer, Paris, Larose, 1949-50, 2 vol.

Cockenpot (Ch.), *Le traité Desmichels*, Paris, 1924.

Cour, *L'occupation marocaine de Tlemcen* in Revue Africaine, 1er trim. 1908, p. 39 et suiv.

Courtois (Christian), *Les Vandales et l'Afrique*, Paris, 1955, pp. 114 et 120.

Daudet (Alphonse), *Lettres de mon moulin*, éd. Rencontre, Lausanne, s.d. *Tartarin de Tarascon*, Paris, Flammarion, 1966.

Daumas, *Correspondance du Capitaine Daumas*, Consul à Mascara, éd. par G. Yver, Alger, 1912 (Collection des documents inédits sur l'histoire

OUVRAGES CONSULTES EN LANGUE ARABE

'Abdarî ('Abû 'Abd Allâh Muḥ. b. Muḥ. al-Ḥîḥî al-), *ar Ṛihla L maghribiyya* éd. Muḥ. al-Fâsî, ar-Ribâṭ, 1968.

Bakrî ('Abû 'Ubayd al-), *k. al mughrib fî dhikr bilâd 'Ifrîqiyya wa l-Maghrib*, Paris, 1965.

Belḥamissi (Moulay), *Madînat Milyâna 'abr al-'uṣûr*, in 'Asâla, al-Djazâ'ir Mai-Juin 1972.

Dabbûz (Muḥ. 'Alî), *Ta'rîkh al-Maghrib al-kabîr*, III, Caire, 1383/1963.

Dhakhîra s-saniyya fî d-dawla L-marîniyya (adh-,) éd. Muḥ. Ben Cheneb, al-Djazâ'ir, 1921.

Ghubrînî ('Abû l-'Abbâs'Aḥ.b. 'Aḥ. al-), *'Unwân ad-dirâya fî man 'urifa min al-'ulama' fî l-mi'as-sâbi'a bi Bidjâya*, éd. Muḥ b. Abî Shanab, al-Djazâ'ir, 1328/1910 et Beyrût 1389/1969.

Ḥafnâwî ('Abû l-Qâsim Muḥ. al-), *Ta'rîf al-khalaf bi ridjâl as-salaf*, al-Djazâ'ir, 1324/1906.

Ibn 'abî Zar' ('Abû L-'Abbâs 'Aḥ. al-Fâsi), *k. Al-'anîs l-muṭrib bi rawḍ al-qirṭâs*, Upsala, 1843-46 ; lith. de Fâs, 1303/1885.

Ibn Baṭṭûta (Shams ad-Dîn 'Abû 'Abd Allâh Muḥ. aṭ-Ṭandjî) *Riḥla* ou *Tuḥfat an-nuẓẓâr fî gharâ'ib al-amṣâr*, Caire 1322/1904.

Ibn Ḥawqal ('Abû l-Qâsim Muḥ. b. 'Alî n-Naṣîbî), *k. ṣûrat al-'arḍ*, Leyde, 1873, 1938 ; Beyrût, s.d./1962.

Ibn Khaldûn ('Abd ar-Raḥmân) *k. al-'ibar*, VI et VII, Beyrût, 1967 et 1968. *at-ta'rîf bi-bn Khaldûn*, éd. Muḥ. aṭ-Ṭandjî, Caire, 1380/1960.

Ibn Maḥshara ('Abû l-Faḍl Dja'far b. Muḥ.), *k. l-istibṣâr fî 'adjâ'ib al-'amṣâr*, éd. von Kremer, Vienne, 1852 ; éd. 'Abd al-Ḥamîd Zaghlûl Caire, 1958.

SYSTEME DE TRANSCRIPTION

a - consonnes

ء	hamza	'
ب	bâ'	b
ت	tâ'	t
ث	thâ'	th
ج	djîm	dj
ح	hâ'	h
خ	khâ'	kh
د	dâl	d
ذ	dhâl	dh
ر	râ'	r
ز	zây	z
س	sîn	s
ش	shîn	sh
ص	sad	s
ض	dâd	d
ط	tâ'	t
ظ	zâ'	z
ع	'ayn	'
غ	ghayn	gh
ف	fâ'	f
ق	qâf	q
ڨ	gâf	g
ك	kâf	k
ل	lâm	l
م	mîm	m
ن	nûn	n
ه	hâ'	h
و	wâw	w
ي	yâ'	y

b - voyelles brèves

ـَ fatḥa a
ـُ ḍamma u
ـِ kasra i

En dialectal, elles tombent ou elles s'allongent quand elles sont en syllabe ouverte brève. La *kasra* i devient en dialectal e-*min* devient *men* - ma'din devient ma'den, etc... *La fatḥa* et la *ḍamma* changent souvent de timbre en dialectal.

c - voyelles longues

ـَا ـَى آ â
ـُو û
ـِيـ î

d - diphtongues

ـَو aw
ـَيـ ay

e - abréviations

A.b.Y.	Aḥmad b. Yûsuf
'Aḥ.	'Aḥmad
b.	bnu, bna, bni entre deux noms propres
B.	Banû, Banî
'Ibr.	'Ibrâhîm
Muḥ.	Muḥammad
k	*kitâb*
R.A.	*Revue Africaine*

du peuple algérien, la colonisation, l'indépendance.

On le voit, il s'agit en fait de l'histoire de l'Algérie vue à travers celle de Milyâna, mais ce n'est pas la seule histoire à se remémorer. Et c'est le mérite de M. Hadj-Sadok d'y avoir introduit toutes les formes de ce qu'on appelle l'histoire nouvelle : toutes nos curiosités, toutes nos interrogations rétrospectives concernant les rapports de l'économique et du social, du religieux et du politique, les mentalités, les fantasmes de la pensée encore médiévale, les conditions de la vie quotidienne, l'art de vivre. Soit tout l'espace, tout l'environnement. C'est déjà beaucoup, mais ce n'est jamais beaucoup trop. Car les mises au point opérées chemin faisant sont brèves, précises, conduites avec le souci de suggérer, aussi nettement que possible, le dernier mot de la recherche.

Les mêmes qualités se remarquent dans la deuxième partie de l'ouvrage consacrée essentiellement au patron de Milyâna et à sa descendance spirituelle. C'est la première biographie complète de *Sayyid-î* Aḥmad Ibn Yûsuf établie sur la base d'une riche documentation dont l'élément fondamental reste l'ouvrage de Ṣabbâgh écrit environ vingt ans après la mort du saint. Elle retrace, pas à pas, les principales étapes d'une vie bien remplie. Soixante-dix ans au service de l'Islâm séparent la naissance, dans le second tiers du IXème/XVème s. de *Sayyid-î* Aḥmad Ibn Yûsuf à Qal'at Bâni Râshid, près de Mu'askar, de sa mort en 931/1524 dans la région de Milyâna. Elle raconte les origines de ce petit paysan, ses études à Bidjâya, ses voyages à travers le Maghrib, ses démêlés avec les souverains Banî 'Abd al-Wâd de Tilimsân, ses bons rapports avec Khayr al-dîn Barberousse. Homme de foi précipité brusquement sur le devant de la scène, *Sayyid-î* Aḥmad Ibn Yûsuf n'en est pas moins considéré surtout comme un mystique, un saint, un faiseur de miracles, qui contribua à sa manière au renouveau religieux dans la deuxième moitié du IXème/XVème s. et au début du Xème/XVIème s. Il montra l'exemple par ses prises de position en matière religieuse, ses répliques péremptoires, ses sentences assonancées concernant les tribus et les villes visitées, et que la tradition populaire a transmises jusqu'à nos jours.

L'étude approfondie de M. Hadj Sadok, qui saisit bien l'âme de *Sayyid-î* Aḥmad Ibn Yûsuf comble une lacune, non seulement dans la chronique de l'Islâm algérien au début des temps modernes, mais aussi dans le passé d'une ville chargée d'histoire et de spiritualité. Ce que l'auteur a engrangé avec soin servira, bien sûr, en premier lieu les historiens, tellement l'appareil de sa recherche est visible et indispensable. Cette matière abondante et variée permettra de réexaminer sous un angle nouveau le passé ancien et récent d'une ville algérienne, de mieux comprendre les rapports des choses et des hommes, du temporel et du spirituel. Au surplus ce livre éclate en images multiples et

colorées, il est traversé de lumières. A bien des égards, il offre la matière d'une excellente séquence de télévision : il suffit de tourner les pages et le film se déroule instantanément. Bref, une réussite, assez rare pour qu'on la signale avec joie.

Rachid Bencheneb

PREFACE

Certain jour de l'an 931/1524, venant de Khirba, à l'ouest du Zakkâr, une mûle qui transporte la dépouille d'un vieillard s'arrête à Milyâna, dans un terrain vague utilisé comme décharge publique. C'est à cet endroit insolite que, conformément à ses dernières volontés, le mort est inhumé. Cet événement peu commun, va avoir des conséquences considérables sur l'évolution religieuse, culturelle et économique de la cité. Alors commence la légence de *sayyid-î* Aḥmad Ibn Yûsuf dont le nom sera désormais intimement lié au terroir où il a choisi d'être enterré.

Tout fait historique est important dès lors qu'il comporte des prolongements. Raison de plus pour faire revivre l'histoire de Milyâna et de sa région, avant et après 931/1524, en la présentant comme une *illustration nécessaire,* comme une vaste fresque à peindre autour d'une vie de foi combative à laquelle il y a lieu de donner sa signification en proposant l'interprétation qu'elle mérite.

C'est l'objectif que M. Hadj-Sadok s'est fixé en analysant les documents archéologiques, géographiques, historiques et littéraires qui permettent de mieux connaître les événements dont Milyâna a été le théâtre au cours des siècles, et qui sont en rapport avec la situation générale du pays.

Tout d'abord l'histoire traditionnelle à laquelle une place de choix a été réservée. Les grands noms de la scène historique sont présentés comme il convenait : Yûsuf Ibn Tâshifîn, 'Abd al-Mu'min, 'Arûdj et Khayr al-dîn Barberousse, 'Abd al-Qâdir, Bugeaud. Et derrière ces premiers rôles se profilent les empires et les royaumes, avec les rivalités des Murâbiṭîn et des Muwaḥḥidîn aux XIème-XIIIème s., les dynasties marocaines et tunisiennes aux XIVème-XVème s., les expéditions des Espagnols sur le littoral algérien, l'établissement des Turcs, la conquête et l'occupation françaises, la résistance

TABLE DES MATIERES

OFFICE DES PUBLICATIONS UNIVERSITAIRES.
1, place centrale de Ben-Aknoun, Alger.
Édition n° 4-07-1964 -

Du même auteur :

Description du Maghreb et de l'Europe au III°/IX° siècle (d'après les trois plus anciens géographes arabes), Alger 1949.

A travers la Berbérie orientale du XVIII° siècle avec le voyageur al-Warthîlânî, in Revue Africaine, 1951 ;

Dialectes arabes et francisation linguistique de l'Algérie, in Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, 1955.

Le *Mawlid* d'après le *muftî*-poète d'Alger Ibn 'Ammâr, Damas, 1957 ;

Kitâb al-Dja'fariyya de Fazârî-Zuhrî, Damas, 1968 ;

L'Arabe parlé algérien par le son et par l'image, Paris (Adrien Maisonneuve), 1970 ;

La guerre de 1939-1940 selon un soldat poète algérien, in Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée, Aix-en-Provence, 1973 ;

L'Agrégation d'arabe (1907-1975) in Mélanges Henri LAOUST - Damas, 1977.

De la théorie à la pratique des prescriptions de l'islâm en Algérie contemporaine, in Social Compas, 1978 ;

Le concept de justice sociale en islâm, Paris (Publisud) - Alger (O.P.U) 1982 ;

Le Maghrib arabe selon Idrîsî, Paris (Publisud) - Alger (O.P.U) 1983 ;

Mahammed HADJ-SADOK

MILYANA

et son patron (waliyy)

Sayyid-î AḤMAD b. YÛSUF

(Monographie d'une ville moyenne d'Algérie)



OFFICE DES PUBLICATIONS UNIVERSITAIRES

1, Place Centrale de Ben Aknoun (Alger)

Achevé d'imprimer sur les presses de

l'**OFFICE DES PUBLICATIONS UNIVERSITAIRES**

1, Place Centrale - Ben-Aknoun - ALGER

MILYANA

et son *patron (waliyy)*

Sayyid-î Aḥmad b. Yûsuf.

(Monographie d'une ville moyenne d'Algérie)

par Mahammed HADJ-SADOK

Mahammed HADJ-SADOK

MILYANA

et son patron (waliyy)

Sayyid-î AḤMAD b. YÛSUF



OFFICE DES PUBLICATIONS UNIVERSITAIRES

1, Place centrale de Ben-Aknoun (Alger)

Codification : 4 .07.1964